الوضعية بين المعقول واللامعقول

تأليف الدكتـــــور

محمد حسيني موسى محمد الغزالي

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م


بسم الله الرحمن الرحيم
إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ
فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِين صدق الله العظيم
(سورة النمل الآيتان ٧٨ /٧٩)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله جعل القرآن الكريم تبياناً لكل شئ [١] فمن قال به صدق، ومن حكم به عدل ، ومن أعتصم به فقد هدى إلى صراط الله المستقيم ، وهو شفاء ورحمة للمؤمنين ، أما أهل الظلم فإنه لايزيدهم إلا الخسران والنفور [٢] قال تعالى : " **وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلَّا خَسَارًا** " [٣]. ﷻ

وأشهد أن لا إله إلا الله بين أن أهل الهدى يوفقهم الله إليه ، وأن أهل الضلال يذرهم فى طغيانهم يعمهون ، لأنهم هجروا ما شرع الله فى كتابه وجاء فى هدى رسوله الأمين سيدنا محمد ﷺ قال تعالى : "**أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ** " [٤] ﷻ

وأشهد أن سيدنا محمداً عبد الله وخاتم رسله صاحب الشفاعة العظمى، والدرجة الكبرى ، والمقام المحمود ، والحوض المورود جعل الله سنته فى

---

[١] قال تعالى : " **وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ**" سورة النحل الآية رقم ٨٩ .

[٢] قال تعالى:" **وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُورًا** " سورة الإسراء الآية رقم ٤٠ .

[٣] سورة الإسراء الآية رقم : ٨٢ .

[٤] سورة فاطر الآية رقم ٨ .

للذكر الحكيم قريناً ، قال تعالى :" **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** "[1]

اللهم صلى وسلم وبارك على هذا النبى الخاتم ،وعلى أل بيته الأطهار، وأصحابه الأخيار ، والتابعين أهل العلم بالله الذين كانوا أنجماً تضىء جنبات الليل البهيم حتى صار كأنه النهار ، وتسبح غدواً وعشياً فى عالم القربى راجية عفو الغفار .

وأكرم اللهم أهل العلم بالله من شيوخنا أصحاب الأذكار ، ووسع اللهم فى قبورهم ويسر أمورنا بعدهم ، وأرزقنا حسن عبادتك أناء الليل وأطراف النهار ، وبيض اللهم وجوهنا "**يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**"[2].

أما بعـــــد ،،،

فإن دراسة التيارات الفكرية ـ قديمها والمعاصر ـ تعتبر واجباً شرعياً ، لأن هذه التيارات إن كانت فى حدود ما شرع الله فهى نوع من الحركة العقلية التى تخدم النقل وتسعى معه كل مسعى ، فتوضح من جوانبه ما يعتبر مبهماً عن الذين لم يعطهم الله من القدرات العقلية والملكات الإبداعية حتى يقوموا بهذا الدور فإنها تكون واجبة على الناحية الشرعية [3]، وإن كانت هذه التيارات خارجة على ماشرع الله تعالى ، فإن دراستها وبيان مواطن الضعف فيها بجانب تحذير الآخرين من أخطارها يكون أمراً شرعياً أيضاً،من باب القاعدةالأصولية

---

[1] سورة الحشر الآية رقم ٧

[2] سورة آل عمران الآيتان ١٠٦ ، ١٠٧ .

[3] على أساس أن ما يتوصل به إلى الواجب ، فإنه يكون أيضاً واجباً ، وعند الأقدمين أن ما لا يتأتى إلا به الواجب فهو أيضاً واجب .

دفع المفاسد مقدم على جلب المصالح ، وقديماً قال الأعرابى :

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيـــــه

ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه

بيد أن هذه التيارات قد كثرت إلى حد بات وصفها بالاختلاط أمـــراً وارداً كما أن بعض الرؤوس التى تسعى إلى إنشائها تغير — فى كثير من الأحيـان — فى اتجاهاتها ، بل ربما انقلب رأس تيار ما على أصوله فصار خصماً لـــه[١] ، ومن قبل كان هو الحانى عليه ، فصار بعد ذلك هو أكثر الأفراد جناية ونكرانـاً إليه ، وذلك مما يدل على أن أغلب هذه التيارات لاتقوم على أسس صحيحة [٢]، كما لا تعتمد على أدلة مقبولة ذلك فى الماضى.

أما فى الوقت الراهن الذى باتت ملامح العولمة تلاحق الناس فـــى كـل لحظة ،كما صارت شبكات المعلومات تنقل للناس على مرأى ومســمع حصــاد هذه الحركات الفكرية التى اعتنقت العبث ، والتحفت عباءة اللامعقول ، فـأنتجت الخيال الجامح والأوهام العريضة ، بل بات أمرها خطراً عظيماً يهدد أصحــاب الاعتقاد الصحيح ، والعبادة السليمة ، والأخلاق الكريمة .

بيد أن ما يزيد المشكلة تعقيداً ، هو محاولة أصحاب هذه التيـــارات غــير المنضبطة بالشرع — فرض ما يتوصلون إليه على أنه ثقافة العصر ، ونوع من تجديد الخطاب [٣]حتى ذهبوا إلى أن هذه الأفكار العبثية هى قمة النضج الفكرى

---

[١] كالحال مع بعض أفراد جماعة التكفير والهجرة حيث انقلبوا على الجماعة وهم الأعرف بأحوالها ، والأكثر دراية بعيوبها ، فكان انقلابهم بمثابة تدمير للجماعة ومن الأمثلة على ذلك كتاب التكفير والهجرة وجهاً لوجه .

[٢] الدكتور / رمزى حسن قطب — التيارات الهدامة ص ٧١ طبعة أولى ١٩٦١م .

[٣] الدكتور / مصباح محمد على الأشقر — النظرات فى حديث التيارات ص ٧١ ط الدار الجديدة ١٩٨٧م .

والتطور العقلى ، وان كانت تحارب الدين الإلهى فى نصوصها[١]أو تقف خلف أعدائه تشد أزرهم ، وتعلى شأنهم **يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون "**[٢]

والفكر المادى قد يعاند الفكر الروحى ، كما يعارض العقلى والحسى ، وربما حاول كل منها أن يصرع معانده ، فطبيعة الفكر الإنسانى أن يأتيه النقص من كل ناحية ، أما أن يعاند أى منها نصوص الدين الإسلامى أو يحاول الوقوف فى وجه قبول تلك النصوص أو القيام بما تفرضه على المعتنقين للدين الالهى ، فان الأمر يكون مستحيلا ،كما يمثل خطورة لايمكن قبولها أو السكوت عليها أما لماذا ؟

فلأن العقل الإنسانى قاصر عن بلوغ حقيقته التى هى أهم خصائصه الذاتية بدليل أن العقل قد ينكر ذاته ، كما أنه أشد عجزا عن إدراك مكان هذه الجوهرة والملكة الإلهية ، داخل الإنسان نفسه ، لأنه بطبيعة الحال غير قادر على إدراك حقيقة نفسه من حيث هى فى حقيقتها الذاتية أو الملامح الحقيقية لذاته كل ما يملكه هو التأمل فى ذاته ، والتعرف على أسرار وعلائق بعينها تربط بين الجسم والروح [٣]وبالتالى فان العالم المشاهد يقع بينه وبين ذات العقل جدل وتجادل ، وقد يعيش الإنسان عمره كله ثم ينقضى دون أن يقدم فى هذا المجال شيئا يمكن اعتباره ذا قيمة .

---

(١)كالحال مع الوضعية المنطقية ، وأصحاب الفكر المادى بجانب الطبيعيين وغيرهم من أصحاب الانحلال الفكرى الذين يمثلون خطرا كبيرا على العقيدة والشريعة والأخلاق.

(٢)سورة الصف الآية رقم ٨ .

(٣)قال تعالى :" **وفي أنفسكم أفلا تبصرون** " سورة الذاريات الآية رقم ٢١ قال صاحبا الجلالين : (وفي أنفسكم) آيات أيضا من مبدأ خلقكم إلى منتهاه، وما في تركيب خلقكم من العجائب (أفلا تبصرون) ذلك فتستدلوا به على صانعه وقدرته .

فإذا حاول ذلك العقل القاصر الإنفلات من قيود العالم المشاهد — الذى لم يتمكن من معرفته على الحقيقة — وطرق أبواب العالم الغائب فلابد له أن يكون متزوداً بزاد من النصوص الدينية التى أنزلها خالق العالم كله حاضره وغائبه ، موجوده ومعدومه ، لأنه وحده الذى يعلم السر وأخفى ، قال تعالى :" **عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ** "[1] .

كما أنه سبحانه وتعالى الذى خلق هذه العوالم وهو وحده الذى يعلم ما فيها ، كما يعلم غائبها وباديها ، ظاهرها وخافيها ، وكل ذلك مقيد فى علمه الأزلى ، قال تعالى : " **وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** "[2] .

من ثم فإن الانطلاقات التى يقوم بها العقل القاصر نحو العالم الغيبى لفك أسراره ، ثم يسارع فيدلى فيها بدلو لم يخرج له إلا الطين والكدر كما أن دلوه لن يبلغ مأمنه ، كما لن يصل به إلى حيث الماء الروى قال تعالى : "**لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلَالٍ**"[3]

كما أن قصور العقل الانسانىعن بلوغ معرفة حقيقة ذاته ، يدفعه إلى الاذعان بأن ما فوق العقل يجب الوصول إليه عن طريق النقل المنزل المعصوم — القرآن الكريم ، والسنة النبوية الصحيحة المطهرة — فإذا أهمل العقل

---

(١)سورة الرعد الآية رقم ٩ .

(٢)سورة النمل الآية رقم ٧٥ ,

(٣)سورة الرعد الآية رقم ١٤ وبتفسير الجلالين : له تعالى دعوة الحق أي كلمته وهي لا إله إلا الله والذين يدعون بالياء والتاء يعبدون من دونه أي غيره وهم الأصنام لا يستجيبون لهم بشيء مما يطلبونه إلا استجابة كباسط أي كاستجابة باسط كفيه إلى الماء على شفير البئر يدعوه ليبلغ فاه بارتفاعه من البئر إليه وما هو ببالغه أي فاه أبدا فكذلك ما هم بمستجيبين لهم وما دعاء الكافرين عبادتهم الأصنام أو حقيقة الدعاء إلا في ضلال ضياع.

الإحتماء بالنقل ضل فى المتاهات ، وتكرر سقوطه ، وكثرت معه الوهـــدات ، ومهما بالغ فى الحيطة والحذر ، أو جادل بغية الكشف عن المجهول الذى منعــه الله منه فإن نتائجه تكون عليه حسرة فى الدنيا وندامة فى الآخرة ، قال تعـالى :

" **والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب**"[١]

و الذين كفروا أعمالهم السيئة كظلمات في بحر لجي عميق يغشاه موج مـــن فوقه أي الموج موج من فوقه أي الموج الثاني سحاب غيم هذه ظلمات بعضـــها فوق بعض ، ظلمة البحر ، وظلمة الموج الأول ، وظلمة الثاني ، وظلمة السحاب إذا أخرج الناظر يده في هذه الظلمات لم يكد يراها ، لم يقرب من رؤيتها ، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ، ومن لم يهده الله لم يهتد .

ومن نتائج السباحة بالعقل فى محيط لايعرف قراره ، فقد أنكر العقل هذا القرار لأنه لم يتمكن من الوصول إليه ، وكلما أمعن فى المسألة ارتد خاسئا ، فبـدل أن يعلن عن عجزه بادر إلى انكار هذه الموجودات التى لم تبلغها إمكانياتـــه ولــم تتوصل إليها قدراته فصار يعتقد فى وجود ما بلغه وينكر وجود ما لم يبلغه [٢]ـــ رغم اعترافه بعجز قدراته ـــ والفكر المادى لما لم يتمكـــن وحـــده مـــن إدراك الغيبيات سارع إلى جحدها ، وأعلن كفره بها بل وجاهر بأنها لا وجود لها كمـــا دار بخياله إعلان أن التصديق بها خرافة والاعتراف بوجودها يمثل نوعا مـــن البدائية الفكرية والطفولة العقلية وهى نتائج ساقها إليه عقلـــه القـــاصر، وأنـــى

(١)سورة النور الآية رقم ٣٩ وفى تفسير ابن كثير (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة) جمع قاع أي فـــلاة وهي شعاع يرى فيها نصف النهار في شدة الحر يشبه الماء الجاري (يحسبه) يظنه (الظمآن) أي العطشان (مـــاء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا) مما حسبه كذلك الكافر يحسب أن عمله كصدقة ينفعه حتى إذا مات وقدم على ربه يجد عمله أي لم ينفعه (ووجد الله عنده) أي عند عمله (فوفاه حسابه) أي جازاه عليه في الدنيـــا (والله ســـريع الحساب) أي المجازاة .

(٢)الشيخ / محمد على الدياسطى ـــ الغرور العقلى ص ٣٧ ط الدار الميمنية سنة ١٣٤٥هـــ .

لأصحاب العقول القاصرة أن يدلوا فى تلك المسائل برأى أو يصدروا فيها أى حكم .

وتاريخ الفكر المادى قديم قدم الإنسان نفسه ، لأن الإنسان جسم وروح والجسم يمثل المادة ذات الأبعاد الثابتة (الطول — العرض — العمق) وهى لايبحث عنها إلا من خلال ما تدلي به أحكام المادة ذاتها ، كما أن فيه الروح والعقل بجانب البغض أو الحب ، وكلها لاتدرك بذاتها ، وإنما يمكن الوقوف عليها بآثارها المترتبة عليها ، والله سبحانه وتعالى قد ذكر ذلك على سبيل الإمتنان قال تعالى : " **ألم نجعل له عينين. ولسانا وشفتين. وهديناه النجدين** " ﷻ[1] فالعينان واللسان والشفتان أمور محسوسة تمثل الجانب المادى فى جزء من جزئياته ، أو صورة من صوره ، أما مسألة الوقوف على جانب الخير والإهتداء إليه ، أو جانب الشر والإبتعاد عنه فلا تكون مسألة متعلقة بالمادة ، ولا هى خاصة من خواصها وإنما تتعلق بالجانب غير المرأى فى الإنسان قال تعالى :" **إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا** " ﷻ[٢].
فالهداية والاضلال والشكر أو الكفران أمور ليست محسوسة بذاتها وإنما تدرك بآثارها المترتبة عليها.

وكانت دراسة الإنسان من جانبيه (المادة والروح) تنال عناية كبيرة بل جاء الأنبياء والمرسلون من قبل الله ليؤكدوا على أن مجملها من آثار الله وأن اقرارها من دلائل قدرة الله ، قال تعالى : " **قتل الإنسان ما أكفره . من أي شيء خلقه. من نطفة خلقه فقدره . ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره . ثم إذا شاء أنشره** " ﷻ[٣] وما من نبى بعثه الله إلا وقد تحدث عن المخلوق

---

(١)سورة البلد الآيات من ٨ — ١٠ .

(٢)سورة الإنسان الآية رقم ٣ .

(٣)سورة عبس من الآية ١٧ — ٢٢ .

كعلامة دالة على الخالق جل علاه [١] وما كان ذلك إلا للتأكيد على أن الكون كله يماثل الإنسان من حيث وجود الجزء المرئى والآخر غير المرئى ، وهو المعبر عنه بالثنائية السارية فى الكون [٢] الدالة على وجود الله تعالى وتوحيده .

بيد أن بعض العقول جنحت عن هذا الطريق وأشططت فى تلـــك الغايـــة واسرف اصحابها فى معاندة الله والكفر بما أنزل ، فكانت النتيجة إنهم صدقـــوا بالمحسوسات وحدها وكفروا بغير ما هو محسوس ، فترتب على ذلك كفرهـــم بالله ، وإنكارهم للنبوات ، وكذلك جحدهم اليوم الآخر وهو ما يمثـــل خروجـــا كاملاعلى الشرع الإلهى(٣) وفى ذات الوقت هو الكفر بعينه .

والوضعية قد مال أصحابها إلى إنكار مالا يقع تحت الملاحظة العقليـــة أو التجربة العملية، فانطبق عليهم ما ينطبق علـــى غيرهـــــم مـــن أصـــــحاب الاعتقادات الفاسدة والتيارات الملحدة ومن ثم فقد رايت إعادة دراسة هذا التيـار فى حيدة وموضوعية ، مع رغبة فى بيان الموقف الإسلامى من القضايا التـــى تعرض لها ولذلك سميته ((**الوضعية بين المعقول واللامعقول**)) والمعقول فـــى نظرى هو الذى يدلى به بعض الوضعيين من غير أن يناقض أصلا من أصـــول الشريعة الإسلامية الغراء ، أما اللامعقول فهو ما يجئ مخالفا لشئ من الشـــريعة الإسلامية الغراء ، إذ العبرة عندى هى موافقة هذا الفكر أو ذاك للنقل المنزل أو مخالفته ، فما كان قائما على أصول الشريعة الإسلامية فهو مقبول واقـــع فـــى نطاق المعقول ، وما كان مخالفا لأصول الشريعة فهو مرفوض لا معقول بغض

---

(١)هذا ما يعرف باسم دلالة الأثر على المؤثر وقد افاض أبو الوليد ابن رشد فيلسوف قرطبة الأغر فى بيان هذه المسألة راجع له الكشف عن مناهج الأدلة فى قواعد عقائد أهل الملة وكذلك فصل المثال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال .

(٢)الاستاذ / أنور الجندى ـــ موسوعة مقدمات العلوم والمناهج ـــ المجلد الخامس التبشير والاستشراق والدعوات الهدامة ص ٣١ ط دار الأنصار . (٣) الشيخ عبد الحميد محمد حسن الأشمونى ـــ دلائل التوحيد ص٢٧ ط الصفاء

النظر عن الرؤس التى تحمله والأفواه التى تتحدث به ، وأسال الله أن يهيئ لـــى من أمرى رشدا ، وأن يسدد خطاى ، ويوفقنى إلى ما يرضيه إنه نعم المولـــــى ونعم النصير .

الدكتور

محمد حسينى موسى محمد الغزالى

غزالة الخيس - مركز الزقازيق - شرقية

غرة رجـــب الفرد عام ١٤٢٤هـــ

الفصل الأول

تحديد المفاهيم والمصطلحات

((تمهيـــد))

ما من علم من العلوم أو فن من الفنون إلا ويقوم على مفردات لفظية تكون خاصة به فى بعض جوانب المتعامل بها وهو ما يعرف بالمفهوم من الألفاظ فى ذات الفن ، وإن كانت ــ الألفاظ من حيث هى ألفاظ ــ عامة على ناحية اللغـــة ويستخدمها الأكثرون ، وهذه المفردات اللفظية متى أمكن التعامل معها من خلال هذا الفن وحده صارت اصطلاحا خاصا به ، ولذا عرف الإصطـــلاح الخـــاص بأنه اتفاق جماعة مخصوصين فى علم من العلوم على استعمال ألفاظ بعينها لتدل على معنى أو معان إتفقوا عليها [١]فإذا انتقلت هذه الألفاظ إلى علم آخــــر فـــلا تكون مرادة عند غيرهم إلا بمعان جديدة تقع للآخرين موقع الاتفاق حولــــها أو التواضع عليها [٢]على ناحية جديدة من المفاهيم والمصطلحات ربما لـــم تكـــن مرادة ابدا عند من سبقهم إلى استعمال ذات الألفاظ .

بيد أن المفاهيم والمصطلحات باب واسع على أساس أن كل مفهوم يتساوى مع المصطلح ، وقد يتقابلان فى طريق واحد [٣]، وربما أستمرا فـــى الطريـــق الذى وقع فيه التلاقى حتى النهاية ، وقد يظل أمر انفصالهما قائما أبدا ، واللغـــة قد تعطى هذه النتيجة ، على أساس أن كلا من المفهوم والمصطلح يتكون مــــن مادة كلامية لفظية غير التى يتكون منها الثانى .

---

[١] الشيخ صالح عبد الحليم المراكشى ــ فى آداب البحـــث ص ١٣ دار الأشـــرم بـــالمغرب ١٩٦٧م .

[٢] هذا على أساس أن الألفاظ والمصطلحات تكون إما بالنقل أو الوضع أو البحث والاشتقاق أو ما شابه ذلك راجع حاشية العلامة العمريطى على أســـرار البيـــان ص ١٥١ ط مكتبـــة الحرية ١٣٤٧هـ تحقيق الشيخ محسن محمد أبو عطاالله .

[٣] الشيخ محمد السيد أبو شناف ــ الألفاظ والمعانى ص ٣٥ ط الدار اليمنية ١٣٣١هـ .

فمثلا المفهوم هو ما يفهم من اللفظ ويعبر عن مجموع الصفات والخصائص التى توضح المعنى الكلى [١]بحيث يكون ذلك المفهوم شاملا فى ذهن السامع جميع ما يفهم من اللفظ من غير إنتقاص لأية دلالة فيه [٢] ولا إلتفات لمن يطعن عليه .

أما المصطلح فهو لفظ أو رمز يتفق عليه فى العلوم والفنون للدلالة على آراء معنى معين [٣]وبالتالى فالمباينة بين المفهوم والمصطلح من ناحية اللغة فيها الكثير من الوضوح ، وكذلك الحال فى كل العلوم والفنون التى تستخدم ألفاظا يحدث بينها الاختلاط فى الإستعمال اللفظى لكنها تتباين من ناحية المفهوم والمصطلح كضرورة لغوية وعلمية أيضا.

كما أن المصطلحات والمفاهيم قد تأتى على بابها ، وقد تأتى على غير بابها ، فإن جاءت على بابها فهو الأصل الذى قامت عليه ، أما إن جاءت على غير بابها فتكون منقولة إلى الثانى ، ولابد من وجود علاقة تقرب ما بينهما ، وقرينة تضفى على تلك العلاقة نوعا من التأصيل وصحة الإستدلال .

بناء عليه فقد وردت ألفاظ أو مصطلحات جاءت معها مفاهيم ، ومن الواجب العلمى التعريف بها وتحديد المعنى المراد منها فى مدخل هذه الدراسة .

المصطلح الأول الوضعية : وهى من أبرز الألفاظ التى يتم تناولها فى هذا الجانب ، لأنها رأس المذهب الذى تقوم هذه الدراسة عليه ، أو هى العنوان الذى

---

[١] الشيخ محمد نصر الدين أبو طويلة المنطق الصورى ص ١٣ المطبعة الأميرية ١٩٣٨م .

[٢] وفى علم المنطق يقابل لفظ المفهوم لفظ الماصدق على أساس أن الماصدق هم الأفراد الذين ينطبق عليهم المفهوم راجع للشيخ الدمنهورى توضيح المبهم من معانى السلم ص ١٤ ط الحلبى الأخيرة وكتابنا : الغزاليات فى منطق التصديقات ص ٨٧ .

[٣] المعجم الوجيز باب الواو ص ٣٦٨ .

يختبئون خلفه ، والستار الذى يعملون من خلاله على هدم العقيـــدة والشـــريعة والأخلاق تحت اسم العلم فما هى الوضعية فى كل من اللغة والاصطلاح ؟

أ ــ فى اللغـــــة :

جاءت المعانى اللغوية حول مادة الكلمة ــ و ض ع ــ متكـــاثرة وربمـــا كانت متباينة من هذه المعانى :

١ ــ الحط من القدر والإنزال فى الدرجة .

يقال : وضع الرجل خصمه ، بمعنى حط من قدره ، لعجزه عن دفع مـــا عليه من ديون أو مستحقات ضرب لها موعدها منذ تاريخ سبق [١].

٢ ــ النقص من الشئ الثابت .

قالت العرب : حط فلان عن مدينه جزءا مما كان له فوضعه عنه وأنقص بعض ما كان عليه [٢] لا من باب تحقير المدين ، وإنما من باب التيسير عليـــه فهو غير المعنى الأول الذى انصب على الحط من القدر والدرجة .

٣ ــ الإلقاء والإهمال .

ومنه قول العرب : وضع الرجل عن نفسه أحماله فلم يعد يلتفت إليها لأنه تركها غير عابئ بها [٣]فوضعه لتلك الأحمال ليس على سبيل الإحتفـــاظ بـــها والعناية ، وإنما على سبيل الترك والإهمال .

٤ ــ الاختلاق والخسارة .

يقال وضع الرجل الكلام بمعنى اختلقه من أصله ، حيث لم يرد له ســـبق ومنه اختلاق الأساطير والخرافات ، وكان الكافرون يصفون التوحيد الذى أتاهم به النبى من عند الله بأنه إختلاق قال تعالى حاكيا عنهم : " **ما سمعنا بهذا فى**

---

(١)المعلم بطرس البستانى قطر المحيط باب الواو ص ٥١٢ .

(٢)العلامة الزمخشرى ــ أساس البلاغة باب الواو ص ٤١٥ ط الشعب .

(٣)العلامة ابن فارس معجم مقاييس اللغة ص ٧١٥ .

الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق "[١]، وكذلك يقال وضع الرجل فى تجارته لأنــــه خسر رأس المال ، ولم يأته شئ من ربح [٢]كان ينتظره .

إذن الوضعية : مذهب أو إتجاه فكرى يلعب على أوتار الاختلاق الذى يجيد أتباعه الدعوة إليه ،حيث يحط من الأقدار الثابتة ، وينتقص من الأصول القائمــة ويلقى بالقواعد الصحيحة ، غايته التمكن من إقامة بناء أصوله الاختلاق، وناتجه الخسارة والاحتكام إلى العلم الظنى ، وجعله فى المقام الأعلى .

ب ــ فى الاصطلاح :

وردت الكلمة فى إصطلاحات عديدة ، ولكنها فى اصطلاحات الوضعييـــن أنفسهم يمكن أن تعرف بأنها :

١ ــ مذهب فلسفى يسعى للتأكيد على أن الفكر الإنسانى قـــائم علـــى دراســـة الظواهر الواقعية المحسة دون اعتبار لشئ خلفها [٣]بحيث لايـــكون بمـــا وراء المحسوسات أى وجود ، ولا ينبغى أن يبذل فى التعرف عليه أى جهد مســـتقل ، أو محاولة للتعرف على الظواهر التى لايضبطها الحس ، فصـــارت الوضعيـــة أقرب الصور إلى المذهب الحسى القديم[٤] أو هى صدى صوت للمذاهب المادية التى عبر عنها فلاسفة اليونان الأقدمين .

٢ ــ اتجاه عام فى فهم الظواهر الطبيعية يقوم على الاعتداد بالقدرات العقليـــة وحدها ، والاستعانة بنتائج العقل ، دون التفات لشئ آخر وراء ذلك حتى لو كان

---

(١)سورة ص الآية رقم ٧ .

(٢)العلامة مجد الدين الفيروزابادى . القاموس المحيط ج٣ باب العين فصل الواو ص ٣١٢

(٣)أ . ب . بارتمى ــ الوضعية فى مراحلها الأولى ص ١٥ ترجمة رمزى صبحى ١٩٦٧

(٤)وقد ناقشهم علماء أهل الإسلام قديما كالحال مع ابن سينا فى كتابه الاشارات والتنبيهات القسم الثالث ، والشيخ جمال الدين الأفغانى ــ فى الرد على الطبيعيين وكثير غيرهما قاموا بمناقشة هذه الأفكار المادية الالحادية وبينوا أوجه فسادها .

ذلك الشئ قائما على اصول الدين نفسه [١]فهى تعنى بدراسة الظواهر الطبيعية وحدها ، فإذا كان التعريف الأول قد أقام بناءه على الفكر الإنسانى ودوره فى فهم الظواهر الطبيعية، فإن التعريف الثانى ركز على الظواهر الطبيعية ذاتها وهى الموضوع ، وبالتالى فكل من التعريفين يكمل الآخر طبقا للاتجاهات السائدة فى أعراف دعاة الوضعية .

٣ — حركة عقلية غايتها دراسة الظواهر الطبيعية الواقعية ، ومعرفة العلاقات المتبادلة بينها ، والقوانين التى تحكمها وتربط بعضها ببعض من خلال منهج علمى لايقبل الأساطير ، ولا يرتضى التفسيرات الخرافية للعلاقات القائمة بين الظواهر الطبيعية [٢]، ومن ثم فهى حركة من الحركات التى تهمل الثوابت التى أقر بها النقل المنزل ، وتدعى أنها معنية بدراسة الظواهر الطبيعية الواقعية وحدها ، وبالتالى فهى ليست ملزمة — من وجة نظر أصحابها — بدراسة أية موضوعات أخرى غير داخلة فى نطاق هذه الجوانب الواقعة فى العالم الطبيعى، وغايتهم — كما يزعمون — معرفة العلاقات المتبادلة بينها من نفس الناحية العقلية ، وحينئذ فهم ليسوا مستعدين لقبول التصديق بالعالم الغيبى الذى لايمكن وصفه بأنه عالم طبيعى خاضع للملاحظة والتجربة المتكررة ، كاليوم الآخر وما فيه من بعث ونشر وحشر وجنة ونار إلى غير ذلك من الغيبيات التى لا إمكانية للعقل وحده فى التعرف عليها ، والسمعيات التى جاء بها النقل المنزل حتى يرفع عن العقل الحرج [٣]، ويصونه من الضلال والهلاك .

---

(١)جورج هايد ثورك — الوضعية الأصول والغايات ص ٧٣ ترجمة رمزى صبحى ١٩٦٩م

(٢)أ . ج. روبرت بنسيون — الاتجاه الوضعى ص ٤١ ترجمة الدكتور صلاح فضل طبعة دار الحرية ١٩٧٧م

(٣)الغيبيات أعم من السمعيات على أساس أن السمعيات هى التى أخبر بها الصادق المعصوم صلى الله عليه وسلم ، أما الغيبيات فمنها ما جاء به النقل المنزل وهو السمعيات ، ومنها ما سكت الله ورسوله عن بيانه وما يزال فى الغيبيات كله ، ومنها ما ألمح إليه النقل وطلب من العقل البحث عن دلائل التعرف عليه .

٤ ــ مذهب عقلي يرمي إلى التصديق بوجود ما هو واقع تحت الحس والتجربة وحده ، في مقابلة ما يصدق بالخيال والوهم ، أو يخضع لحكايات الأساطير والخرافات [1] وبالتالي فالوضعيون ــ بناء على هذا ــ لايعتقدون في شئ معرفي سوى ما يجئ به الحس ، أو تقوم به التجربة العقلية ، فلا مكان عندهم للوحي الإلهي ، ولا للحدس القلبي أو الالهام ، وإنما لابد من تجربة محسوسة ، يجريها الحس على أرضية الواقع .

٥ ــ اتجاه قديم معاصر يسعى دائما لإبراز دور الحس والعقل والتجربة ، وإعلائه فوق أي دور آخر ، ابتداء من مالينوس إلى شيليك ، مرورا بما بينهما وما سيجئ بعدهما [2] وليست هناك أية استعدادات لقبول ناتج ما يجئ به الجانب القلبي الوجداني ، على أساس أن الوضعية لا عناية لها إلا بالظواهر الطبيعية الواقعة تحت اتجاهات الحس والتجربة لا من حيث الدراسة والحكم عليها فحسب وإنما على أساس الاعتقاد والتصديق .

ومن الملاحظ أن هذه التعريفات للوضعية قد ركزت على جانب الدراسة لا جانب الاعتقاد ، وبعبارة أخرى حرصت على إبراز الدور الفلسفي ولم تلتفت إلى موقف هذه الوضعية من العقيدة الإلهية ، والأحكام الشرعية التي مردها إلى النقل المنزل القائم على التصديق التام بخبر السماء وهو الوحي الالهي .

غير أن المعاجم الفلسفية نظرت إلى الوضعية في صورة خاصة لا في صورتها العامة ، ومن ثم عرفت بأنها عملية عقلية لايدرك فيها الفكر الإنساني سوى مجموعة الظواهر الواقعية المحسه ، وما بينها من علاقات أو قوانين ، بناء على أن المثل الأعلى لليقين يتحقق في العلوم التجريبية ، كما يجب العدول عن كل

---

(١) أ.ج. باتي أندرسون ــ الوضعية المذهب الفلسفي ص ٤٧ ترجمة نادر رضوان ١٩٥٧م

(٢) الدكتورة / ناهد محمد صبري ــ الوضعية قديما وحديثا ص ٥١ ط دار الكرنك بالمغرب ١٩٨٥م .

بحث فى العلل والغايات [١]إذ التركـــيز لايكـــون إلا فـــى الأســـباب الظـــاهرة والمقدمات المتوافرة .

والملاحظ أن هذا التعريف يمكن اعتباره ممثلا لجانب واحد مـــن جوانـــب الوضعية على أساس أن الوضعية جاءت فى محاور ثلاثة :

الأول : الوضعية الطبيعية : وهى التى تنغمس فى دراسة المظاهر الطبيعية مـن خلال التجارب ، ولايكون الحاكم فيها إلا ما تأتى به نتائج التجارب المعملية فقط فإن كانت النتائج صادقة طبقا لقوانين البحث العلمى ، فإنها تعتبر مقبولة ، أمـــا إذا تخالفت هذه النتائج ولو مرة واحـــدة مـــع الواقـــع المعـــاش فإنـــها تكـــون مرفوضة [٢]وكان من أشهر الداعين لها أنطونى توماس ، وجروج هلير ، اللذين صارت لهما إتجاهات عديدة فى هذا المجال الذى لم يعد يستوعب ســـوى تلـــك الأفكار [٣]ولم يكن لديه استعداد حتى يصغى لأى اتجاه آخر .

الثانى : الوضعية الاجتماعية : وهى التى تعنى بمشاكل المجتمع بأوسع معانيـــه دون أن تكون لها توجهات غير اجتماعية ، فى تناول هذه القضايـــا ولا تقـــدم الحلول لها ، فهى اتجاه خالص للمجتمع لا على ناحية التطبيق العملى والاحتكام للواقع فى نتائجه كالحال مع الوضعية الطبيعية ، ولا على ناحية التجربة العقليـــة وصدق الخبرات[٤] كما هوالحال مع الوضعية المنطقية إنما هى نسيخ خـــالص يتعلق بتطور القواعد والعادات الاجتماعية ، ويعتبر اميل دور كاييم من أبـــرز الداعين للوضعية فى مفهومها الاجتماعى .

---

(١)الدكتور / مراد وهبه ــ المعجم الفلسفى ص ٤٧٢ د دار الثقافة الحديثه الطبعة الثالثة ١٩٧٠م .

(٢)أ.ج . بايى أندرسون ــ الوضعية المذهب الفلسفى ص ٥٦ .

(٣)أ . ج . روبرت بنسون ــ الاتجاه الوضعى ص ٤٧ .

(٤)الدكتور محمد السيد صقر ــ الوضعية فى مراحلها الأولى ص ٣٤ ط أولى ١٩٥٧م .

الثالث : الوضعية المنطقية : وهى النظرية التى تقرر عجز الفكـــر الإنســـانى وحده عن إدراك ما وراء الظواهر الواقعية المحسة ، واستبانة ما بينـــــها مـــن علاقات متبادلة وقوانين ثابتة ، ورفض كل علم أو معرفة لا تقوم على نتـــائج العلوم التجريبية [١]حتى وان أمكن اعتمادها على علوم ومعارف لها قوة نتـــائج العلوم التجريبية ، إذ لا عبرة إلا بما تدلى به العلوم التجريبية وما يحتكم فيه إلى خالص نتائج العمليات العقلية الصحيحة .

ويذهب الدكتور ماهر عبد القادر إلى أن الوضعية المنطقية هى النظريـــة التى ارتبطت بدراسة الظواهر الواقعية من حيث العلاقات والقوانين التى تربـــط بينها ، متبعة فى ذلك خطوات المنهج العلمى نفسها ، ثم يؤكـــد علـــى أن هـــذا المفهوم هو الذى قرر وجود علاقة بين الوضعية ومفهوم العلم منـــذ اوجســـت كونت [٢]وهو إتجاه يذهب إليه البعض ممن يتعجلون إصدار النتائج أو يحـــاولون إستيلادها من مقدمات لاتؤدى إليها .

بيد أن الملفت للنظر هو وجود أنواع متعددة من الوضعيـــة كلـــها تحمـــل سماتها أو تنقل بعض ملامحها ، فإذا كانت الوضعية الطبيعية قد ألقت بنتائجـــها فى حدود ما تدلى به الطبيعة وقوانينها الثابتة وسنن الله المضطردة فيها ، فـــإن زعماء الوضعية الاجتماعية فى أوربا وبخاصة دور كاييم قد أتقنوا لعبة التحاور بالألفاظ ، والابتعاد عن تحرير محل النزاع فى المسألة المطروحة ، فان ظفروا ببعض النتائج التى تعين على مقاومة السلطان الكنسى ، والانفلات من تعـــاليم

---

(١)الدكتور / سامح محمد صابر ــ الوضعية فى الاطار الفلسفى ص ٧٣ ط أولى منشأة الحرية ١٩٨٥م

(٢)الدكتور/ ماهر عبد القادر محمد علـــى ــ خرافـــة الوضعيـــة المنطقيـــة ص ١١ ط دار المعرفة الجامعية ١٩٩٣م .

الكهنوت بادروا إلى ذلك ، وإن لم يظفروا بشئ منها ، ووجدوا أنفسهم أمام تيار دينى متشدد أحنوا له الجباه حتى تمر العاصفة بسلام .

أما زعماء الوضعية المنطقية فقد سلكوا مسلكا آخر ، أنهم تنازعوا أمرهـم بينهم ، وبات ليل افكارهم حالك السواد ، بجانب امتداد ظلام يستغرق الأعمـار فى سرعة مذهلة ، ولذا فقد أعلنوا مبكرا رفضهم لكل ميتافيزيقا تأملية[١] حتـى لايكونوا ملزمين بالنتائج المترتبة عليها .

يقول ثوليك : أنا مؤمن بنتائج العلم الذى يمكننى التأكد من صحة ما يأتى بـه، كافر بكل الذى يتردد على ألسنة الناس أو يحمل اسماء فيها الرهبة أو الرغبـة وليس من اليسير التعامل معها [٢]فهو بهذا يرفع راية العصيان ،غير عابئ بمـا وراء ذلك لا فى النتائج ولا فى المقدمات .

المصطلح الثانى : المنطقيـة :

المنطق هو الطريقة التى يعبر بها الكائن الحى الناطق عن كـل مـايجرى داخل فؤاده ، من خلال خطة مرسومة تحقق جملة من المنـافع [٣]، كمـا أنـه طريقة التعبير التى تتمثلها الغالبية من المتعاملين مع اللغة المنطوقـة لأن ذلـك يكون محققا للمنافع التى يتقاسمها أفراد النوع الواحد [٤] ، ولـذا فـإن وسـيلة

---

(١)الميتافيزيقا نوعان : الأول التأملية وهى التى تتعلق بما وراء المحسوسات والتصديق بوجودها من خلال أدلة نقلية أو عقلية أو معملية ، والثانى : النقدية وهى التى تتعلق بالأمور الواقعة فى نطاق التجربة العملية أو الفعلية

(٢)أ.ب. توماس انجرمان ــ ثوليك وأراؤه ص ٢٠ ترجمة الاستاذ صبحى اسكندر ١٩٥١م

(٣)الشيخ / محمد السيد نصر الدين السوهاجى ــ المنطق القديم ص ١٣ ط دار الهداية ١٩٥٧م تحقيق الشيخ على السيد أو إسلام .

(٤)هناك فرق بين المنطق بالمعنى الفنى الاصطلاحي ، وبين المنطق بمفهومه العام بعيـدا عن كونه منطقا فنيا أو خلافه ، كما أن هناك فرقا بين المنطق اليونانى والآخرالغير يونـانى وثالث وهو منطق اللسان أو منطق الإبانة أو البيان ، ولكل واحد منها أسس يقوم عليـها، وموضوع يبحث من خلاله .

التعبير هذه قد تختلف من فرد لآخر ، كما قد تختلف فى أفراد النـــوع الواحـــد باعتبار الألفاظ التى يتعاطونها ، ويتخاطبون بها ، فليس العربى كـــالأعجمى ، وليس الفصيح كالعيىي الألكن ، ومن هنا قالوا لابد من التفرقة بين لغة المقـــال ولغة الحال ، كما يفرقون بين لسان المقال ، ولسان الحال، مع أن كـــلا منـــهما لسان ، ولكنه يختلف فى الطريقة التى يعبر بها اختلافا يبلغ حد التضاد ، أو حد الظهور المعلن ، وحد الخفاء المفرق .

ثم ان الذى يستعمل لغة المنطق ويراعى قواعده [1] يبتعد تماما عن قبـــول الخرافات والتصديق بالأوهام أو الرضوخ للأساطير ، انه يتحول إلى صـــــورة فكرية منظمة ، وإتجاه عقلى صحيح ، حتى يصير بين أقرانه ميزانا ، يقدم لـــهم النصح ألوانا ، ومن ثم قالوا إن المنطق ميزان العلوم ومعيارها ، كما أنه آلـــة قانونية تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ فى التفكير [2]فكما أن مراعاة قواعـــد علم النحو تعصم اللسان عن الخطأ فى نطق الألفاظ أو نطـــق الإصطلاحـــات وكذلك تصونه عن الخطأ فى الإعراب متى أتقنها إلى حد الإجادة ،فإن مراعـــاة قواعد المنطق تحقق التفكير الصحيح ، يستوى فى ذلك أن يكون المنطق ظاهريا فينطبق على النطق والكلام ، أو أن يكون باطنيا فيتعلق بالإدراك العقلى والقلبى دون اعتبار لشئ آخر .

وربما يقال ما هى علاقة الوضعية بالمنطق أوما هـــى ملامـــح علاقتـــها بالمنطقية والجواب :

---

(١)لأن المنطق آلة قانونية تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ فى التفكير . الشيخ حسن محمـــد أبـــو شـــامة — مذكرات فى المنطق الصورى ص ١٥ .

(٢)**الشيخ محمد نصر الدين جمعه — المنطق وقوانين الفكر العقلية ص ٤٣ ط دار المعرفـة ١٩٥٧م.**

أنه لما كان المنطق هو معيار العلوم وميزانها الذى يتضح به صحيح الأفكار من فاسدها فقد نسب الوضعية أنفسهم إليه ، بحيث تكون تلك الأفكار الوضعية بين المباحث الفلسفية كالمنطق بالنسبة للعلوم العقلية ، وبالتالى فكل بحث معرفى يجب رده إلى أسباب منطقية فى صورة من صورها ، وتفسيره أيضا بأسلوب ونتائج منطقية [1] يمكن تكرار وسائلها ومقدماتها وتطبيقها على كل الحالات المماثلة من غير ممانعة فتأتى النتائج الجديدة تأكيدا للتى سبق القول بها

وأيما كان الأمر فان نسبة الوضعية إلى المنطق الصحيح أو وصفها به إنما هو مما تبرأ عنه ساحات كل من النسبة والإنتساب ، على أساس أن المنطق وسيلة خدمية معرفية للعلوم الأخرى ، مهمته التعرف على صحيح الفكر والاحتفاظ به ، وكشف عورات فاسد الفكر ووسائل الإبتعاد عنه ، وهى مهمة جميلة ، وغاية متى صدقت كانت محمودة على ناحية من النواحى .

أما إذا تعلقت الوضعية بالمنطق على أساس اتخاذه وسيلة يطعن بها على النصوص الشرعية ، أو العقيدة الإلهية ، أو يجادل بها فى إبطال حق أو إحقاق باطل فإن الأمر يختلف تماما والظروف تنعكس على كل ناحية [2] وحينئذ يلفظ العقل الصحيح قبول الوضعية ، كما يرفض نعتها بأنها منطقية وإنما يمكن له القول بأنها أفكار هزلية ، تمت فى أرض اللامعقول ، وأرتوت من نتاج ما تعتصره الأرض السبخ من الأفكار العبثية .

وتذهب إحدى الباحثات إلى أن معنى الوضعية المنطقية كان مرتبطا بنوع البحث عندها ، فاهتمت بالواقع الحسى ، وحصرت معالم المعرفة فى الخبرة والتجربة ، ثم صبت عبارات هذا الواقع على التحليل المنطقى للوصول إلىالدقة

---

(١)الدكتور/ عبد المنعم الحفنى ـ المعجم الفلسفى ص ٣٣٩ .

(٢)الشيخ محمد نصر الدين جمعه ـ المنطق وقوانين الفكر ص ٤٥ .

ومنذ ذلك الحين ارتبطت الوضعية بالمنطق [١] وما أظـــن أن هـــذا الإرتبـــاط الظاهرى القائم على مجرد الآمال أو الدعاوى يمكن قبوله ، وإنما يمكن القـــول بأن الوضعية استغلت الوصف بالمنطق حتى يتمكن زعماؤها من بث ســـمومهم فى أفئدة الأغرار ، وأصحاب الفكر المتدنى ثم ينتهى الأمر بالقضاء على الديـــن والقيم والأخلاق [٢] تحت اسم الوضعية المنطقية .

والذى أطمئن إليه هو أن الوضعية أتخذت المنطق ستارا تخفى من ورائـــه رغباتها المتلاحقة ، وطموحات أصحابها العنيفة فى مهاجمة الكنيسة التى تتحدث عن الدين ، بحيث توحى للقارئ أن الدين الذى تمثله الكنيسة والعلم الذى تمثلـــه الوضعية ضدان ، وأن الحرب بينهما لابد أن تستعر أوارها ، وتشتد نيرانـــها ، حتى يكون العداء المستحكم هو الطريقة الصحيحة ، فيسقط فوق ساحة الأفكـــار المتطاحنة الشهداء ، ويتوارى دور رجال الكنيسة وأبائها ، أو يستيقظ فى الناس مارد عملاق يذكرهم بجنايات آباء اللاهوت فى القرون الوســـطى ـ عصـــور الظلام ـ [٣] وحينئذ ينفض الناس عن أنفسهم سلطة الإحتكام إلى الدين الكهنوتى ولا يقع لهم الإلتجاء إلا إلى العالم وقضاياه ، ولا مانع بعد ذلك من اعتبار العلم

---

(١)**الدكتورة / نادرة حسن عبد الجواد ـ مشكلة المعرفة بيـــن الصوفيـــة والوضعيـــة فـــى الدراسات المصرية المعاصرة ص ١٧٠ دكتوراه بكليـــة البنـــات الإســـلامية بالقـــاهرة ٢٠٠٣م**

(٢)يمكن الوقوف على هذه النتيجة متى لوحظت العبارات التى ينطقها أو يكتبها ويتخاطب بها الوضعيـــون ، راجع خرافة الميتافيزيقا أو نحو فلسفة علمية .

(٣)محاكم التفتيش ظهرت فى أوربا أبان عصور سيطرة الفكر الكنسى ، ومارس رعاة المسيحية هذه المحـــاكم على أوسع نطاقا مما ترتب عليه وقوع أوربا فى دائرة التخلف الفكري فى الوقت الـــذى كـــانت الحضـــارة الإسلامية زاهية فى الشرق الإسلامي دمشق ـ بغداد وغيرهما ، وفى المغرب الإسلامي ـ أشـــبيلية وقرطبـــة وغيرهما .

هو الإله الذى يجب أن يتوجه الجميع إليه بالعبادة وأوجه الطاعة ، وما سـواه يهمل ولا يلتفت أحد إليه .

المصطلح الثالث : المعقـول :

جاءت مادة الكلمة (ع ق ل) فى لغة العرب على العديد من المعانى أبرزها:

أ — الإدراك للأشياء على حقيقتها :

يقال أدرك فلان الشئ بمعنى عرفه معرفة تامة من حيث الحقيقة الذاتيـة[١]لا من حيثية أخرى[٢]ومن ثم يقال على الغلام متى ميز إنه قد صار قادرعلىإدراك الأشياء من حيث حقيقتها ، والتعرف عليها دون احتياج من مساعدة شئ آخر .

ب — جمع الأطراف فتحصل المنفعة :

ومنه قول العرب : عقل الرجل بعيره ، حين ضم رسخ يده إلى عضـده وربطهما معاً بالعقال ، ليبقى باركاً فتحصل المنفعة ، ويتحقق الغرض [٣] ولـذا يقال على هذا البعير إنه معقول لتحقق المصلحة من حبسه ، وكذلك المعقول من الكلام هو الذى متى جمعت أطرافه تحققت منه فائدة للسامع أو المتكلم أولـهما معاً ، ويعرف بأنه الكلام المستعمل حتى يتمايز عن الكلام المهمل الذى لا يفيـد السامع أو المتكلم فائدة يحسن السكوت عليها .

ج — ما به التفكير والإستدلال :

يقال : لفلان عقل راجح لأنه قام بالتفكير على ناحية صحيحة من نواحـى الإستدلال ، وتركيب التصورات والتصديقات ، كما يميز به الحسن مـن القبيـح

---

[١] الحقيقة أنواع منها الحقيقة الذاتية ، ومنها الحقيقة الشرعية ، ومنها الحقيقة اللغويـة ، ومنها الحقيقة العرفية راجع للشيخ نصر الدين عبد العليم أبو عودة الأمهال والإهمال فـى لغة العرب ص ١٧ ط المطبعة الميمنية ١٣١٩هـ .

[٢] الشيخ على بن محمد الحنبلى — نظرات فى فقه اللغة ص ١٥٣ .

[٣] العلامة ابن منظور لسان العرب باب العين ص ٣٤٥ .

والخير من الشر ، والنافع من الضار ، والحق من الباطل [1]فهو من أنعـــم الله تعالى ، ومن ثم عرفه الأمام الغزالى بأنه نور روحانى يدرك به المرء العلـــوم الضرورية ، والعلوم النظرية [2]كما يمكنه استظهار تلك العلوم ، والرجوع بـــها إلى مبادئها الأولى ، ومصادرها الصحيحة .

من ثم فإن الفكر المعقول هو الذى يكون منضبطا مع القواعد العامـــة ولا يخالف الأصول الثابتة ، ويمكن تطبيقه فى كل الحالات على صورة من الصور أو ناحية من النواحى ، ومتى كان الفكر خارجا عن كونه مضبوطـــا بـــالقواعد العامة ، ومخالفا للأصول الثابتة ، فإن رفضه يكـــون هـــو العمـــل الصحيـــح، والإتجاه السليم . كما يوصف بأنه غير معقول ، ويسمى الفكر العبثى أيضا .

والوضعية قد لجأ زعماؤها إلى تقديم مباحث نظرية أو عملية تأتى فيـــها بعض المقدمات صحيحة زاعمين صحة النتائج كلها لكـــون بعـــض المقدمـــات جاءت صحيحة ، ولكن نتائجها العامة تكون غير صحيحة ، لأنها اســـتخلصت على سبيل الإنتزاع والإبتسار لا على سبيل الإســـتيلاد الطبيعـــى والمخـــاض الحقيقى ، وحينئذ قد تكون تلك المقدمات معقولة ، أما النتائج التى جاءت بعدهـــا فإنها تكون من اللامعقول أو العبث ، ويكون الإلتفات إليها بمثابة قنابل موقوتـــة تنفجر فى الممسك بها والمتابع لها متى حان موعد الإنفجار .

وما من فكر بشرى إلا وهو خاضع لواحدة من هاتين الحالتين ــ المعقـــول أو اللامعقول ــ فإذا غلبت عليه حالة المعقول أمكن الاستفادة به ، أما إذا غلبـــت عليه حالة اللامعقول فإن الإستفادة منه تكون منعدمة على كـــل ناحيـــة ، لأنـــه يخالف الأصول والقواعد الصحيحة ، بجانب النصوص الشرعية .

---

(١)المعلم بطرس البستانى ــ قطر المحيط باب العين ص ٣٨٥ .

(٢)الشيخ محمد عبد العظيم عنان ــ الأمام الغزالى وتوجهاته الفكرية ص ١٧٣ .

ثم إن المعقول مقيد بما تهدف إليه النصوص الشرعية ، كمـــا أن نتائجـــه مرهونة بما تدلى به البدهيات العقلية ، ومن ثم فإن العقول الصحيحة تقر بـــه ، وتشهد له ،ولا تتأرجح فى قبوله ،لما هو معروف من أن منكر البدهيات لايلتفت إليه [١]، والمجادل فى الضروريات لايسمع قوله ، ولما كان دعـــاة الوضعيـــة ينكرون الغيبيات التى جاء بها الشرع الشريف فقد انكروا البدهيات وجادلوا فـــى الضروريات .

المصطلح الرابع اللامعقول:

ويعرف بأنه المنفلت بعيداً عن قيود العقل الصحيح ، والفطرة السليمة ، كما أنه قافذ فوق حدود الشرع ، جاحد لأوامره ونواهيه ، مستنكف السير فى جنـــب الشرع ، قال تعالى : **"ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً "** [٢]ثم إن المستنكف عن حدود الله رافض لشرعه فما يأتى به إنمـــا يمثل عبثاً ، ومثله فى آداب الناس يكون مرفوضاً ، وبين أعرافهم يكون مرذولاً

كما أن اللامعقول يمثل إطاراً لأفكار يظهر فيها القلـــق ، وتعلوهـــا رايـــة الإضطراب ، والذين يعتقدون فى اللامعقول على ناحية مـــن النواحـــى إنمـــا يخضعون لأهواء أنفسهم وتزيينات شياطينهم ، والله عز وجل بيـــن أن هـــؤلاء وأولئك غير بعيدين عن علم الله ، وأنه سوف يحاسبهم بما كسبت أيديـــهم قـــال تعالى: **" أفمن زين له سوء عمله فرءاه حسناً فإن الله يضل ويهدى من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون "** [٣]. وقـــال تعالى : **"إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّار**

---

(١)وبالتالى فكل فكر لا يخالف الأصول الشرعية ، ولا يناقض القواعد العقلية الصحيحة فإنه يعتبر معقولاً

(٢)سورة النساء الآية رقم ١٧٢

(٣)سورة فاطر الآية رقم ٨ .

خير أم من يأتي آمنا يوم القيامة اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير "[1]
وقد يساق المرء إلى الإعتقاد فى اللامعقول والتصديق به ، إنقيادا لجملـــة مـــن الكبراء ، وإذعانا لقلة من السادة ، ومع أنه فى قرارة نفسه موقـــن بعبثـــهم ولا معقولية ما تدلى به أفواههم ، ولكنه يخشى المخالفة ، ويستعذب التقليد والمتابعة والله عز وجل ذم الصنفين (التابعين والمتبوعين) وبين أنهم يوم القيامة يتنادون نداء الظالمين ، ويتعاوون عواء المهزومين .

قال تعـــالى : **" وقالوا ربنـــا إنـــا أطعنـــا سادتنا وكبراءنـــا فأضلونـــا السبيلا. ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا "**[2].

من ثم فإن الوضعية وغيرها من التيارات الفكرية إن إستنارت بشــــرع الله واهتدت إليه وخضعت للعقيدة الإلهية خضوع العبد لمولاه ، فإنها تكون معقولـــة لأن الأفكار التى تدعو إليها ستكون فى أحضان النقل سائدة وفى حلل من النعيـم ترفل وتبدوا بين إترابها الكواعب فتتمايل عزة وفخارا .

أما إذا ألقت نفسها بين حنايا الفكر البشرى القائم على الظن ، الموقع فـــى سخط الله تعالى فإنها تكون لامعقولة ويكون أصحابها ممن سخط الله عليـــــهم ، لأنهم إتبعوا الظن وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الــــهدى فـــأصموا آذانهم عنه ، وأغمضوا عيونهم عن رؤيتـــه وأحكمـــوا إغـــلاق أفئدتـــهم فلـــم يستجيبوا اللحق قال تعالى : **" ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لايفقهون "**. [3]

ومن يتابع إنفلاتات دعاة الوضعية وبخاصة المنطقية نحو الأمور الغيبيـــــة يراها قد أعلت راية الحس ، وراحت ترفع سوارى راية التجربة ، حتى صارت

---

(١)سورة فصلت الآية رقم ٤٠ .

(٢)سورة الأحزاب الأية ٦٨ .

(٣)سورة المنافقون الآية ٣ .

هاتان الرايتان هما الإله المعبود ، وفى نفس الوقت أنزلت من نفوس أصحابها راية الحق وسلطان الشرع ، بدليل أن شليك أعلن فى غير حياء إيمانه بما تدلى به التجربة العقلية ، والخبرة الحسية وفى ذات الوقت جاهربكفرانه لما وراء ذلك على ناحية الاعتقاد ، لا على ناحية الثقافة ومقابلة الأضداد .

ومن الغريب أن ثوليك أيضاً لم يختلف عن شليك فى هذه المفاهيم ونفس الأفكار كما أن كارناب لم يختلف فى المسألة عن كير كجورد لأن أهل الشرك على مائدة واحدة يجتمعون ، وحول الأفكار المتدنية يتلاقون ، ومن مراتع البهم يأكلون قال تعالى : **"أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا"** (١)

إذا تحديد المفاهيم والمصطلحات أمر ضرورى ، كما أن السعى خلف المفاهيم المحددة المعانى يعتبر واجباً على ناحية علمية تقود إليه النصوص الشرعية ، وفوق ذلك فإن تحديد المصطلحات وتوضيح المفاهيم فى أى علم من العلوم يكون بمثابة القرارات الكاشفة والقواعد الآمرة ، ولذا فكثيراً ما كان الأقدمون يقولون : لا مشاحة فى الإصطلاح (٢) .

أضف إلى ما سبق أن تحديد المفاهيم والصطلحات يمثل قاعدة بحثية يرتادها من يتوسم فى نفسه القدرة على القيام بهذا العمل وإتقانه ، ولذ فكلماكثرت خلافات القوم ، وحاول باحث الرجوع إلى أسبابها المباشرة يراها منحصرة فى عدم تحديد محل النزاع . وهو ما يعرف باسم ضرورة تحديد

---

(١)سورة الفرقان الآية ٤٤ .

(٢)وهذا يؤكد سبق مفكرى الإسلام لغيرهم فى استعمال الحيدة ، بجانب الموضوعية، وهو ما تنادى به المدارس العلمية اليوم ، بينما هو فى طبيعة مفكرى الإسلام منذ بعث الرسول صلى الله عليه وسلم وأنزل الله عليه القرآن الكريم وجعل السنة المطهرة بجوار القرآن حتى يكونا معا مصدر التشريع الإلهي الأول .

المفاهيم والمصطلحات [1] .

بيد أن هذه العادة قد تخلفت بعض الشئ حين تدهورت أوضاعنا الإسلامية وصار المسلمون يتدابرون فى أعمال الشر كما يتخالفون فى أعمال الخير فسمح ذلك لعدو الإسلام المتربص بهم حتى نفث سمومه فى جسم الأمة الإسلامية، وبالتالى أوجد لنفسه الكثير من جحور الحيات والعقارب،وقد تأثر بعض الأغرار بنداءاته الخبيثة فراحوا يكررونها بينما لسان حالهم يصرخ من داخلهم قائلا :

صعدت إلى شفتى خواطر مهجتى ** ليبين عنها منطقى ولسانى

فلما عجزت الألسنة عن الإبانة ، قفزت الأسئلة الحائرة تلملم أشتات الشفاة الذابلة ، ثم تهتف من سويداء قلبها مترحمة على مجدها التليد ، وعزها الغابر فى خشوع وترنم تقول :

أمسيت فى الماضى أعيش كأنما ** قطع الزمان طريق أمسى عن غد

وفى تقديرى أن الإنغماس فى التيارات التى تسمح بالخروج على النصوص الشرعية ، أو تجادل فى نفى أو إنكار جزء من أجزاء العقيدة الإسلامية [1] إنما

---

(١)وقد كان كثير من أهل الإسلام يضعون مصطلحاتهم والمفاهيم فى رسائل مستقلة تلحق بأواخر مؤلفاتهم غالبا أو تسبق المقدمات قليلا ، كالحال مع الإمام السيد الشريف الجرجانى وكتابه التعريفات حيث ألحق بآخره رسالة تتعلق بإصطلاحات الصوفية وتكشف المفاهيم التى يتعاملون بها وقد طبع هذا الكتاب عدة طبعات .

(٢)أجزاء العقيدة الإسلامية ستة جاء بها القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف فمن القرآن الكريم قوله تعالى :" آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملآئكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير "سورة البقرة آية ٢٨٥ ومن الحديث الشريف قوله صلى الله عليه وسلم : الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر والقدر خيره وشره .الامام مسلم صحيح مسلم بشرح النووى ج١ ص ١٥٧ والامام ابن حجر فتح البارى لشرح صحيح البخارى ج١ ص ٩٦ ، ٩٧ .

تعبر عن إلحاد خالص ، والله عز وجل تهدد أولئك الملحدين فـــى الدنيـــــــا والآخرة فقال تعـــالى :" **إن الذيـن يلحدون فى آياتنـا لا يخفـون علينـا أفمن يلقى فى النـار خير أم من يأتى آمنـا يـوم القيامة اعملـوا ما شئتم إنـه بمـا تعملون بصير** "[1]

كما أن أهل الإلحاد فقدوا إيمانهم وأضاعوا رصيدهم ، ومن ثم فإنه لا أمـــان لما تنتجه أفكارهم ، بل إنهم فقدوا دنياهم ، كما خسروا دينهم وأخراهم ومثلـــهم النار موعدهم ، ولله در القائل :

إذا الإيمان ضاع فلا أمـــــان ** ولا دنيا لمن لم يحيى دينــــا

ومن رضى الحياة بغير ديـــن ** فقد جعل الفنـــاء لها قرينــــا

وأهل الإلحاد هم أهل العدم فى الدنيا فلا يستفاد منهم وهم فى نفس الوقـــت الذين تزين لهم أهواؤهم الخروج على شرع الله ، وتسوقهم إلى الـــهلاك ســوق الجازر للبهيمة فلا هم أفلتوا من قيد أفكارهم الساذجة ، كما أنهم لـــم يحـــاولوا الصراخ بعالى الصوت والهرب من سيطرة هذه الهواجس عليهم .

إعطنى حريتى أطلق يديا ** إننى أعطيت ما أستبقيت شيئا

ولا هم تخلوا عن رغباتهم العدوانية وإنفلاتاتهم الشهوانية ، وإنما طرحـــوا بين ثالثة الإثافى ولا شك أن نارها سوف يكتوون بها ، كما أن سوادها ســـوف لايفترقون عنه ، وهل بعد الكفر ذنب ؟ وبعد معصية الله معصيـــة ؟ والله عـــز وجل قال فى وصفهم والتعريف بهم : " **استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون . إن الذين**

---

(١)سورة فصلت الآية رقم ٤٠ قال صاحبا الجلالين : (إن الذين يلحدون) من ألحـــد ولحـــد (في آياتنا) القرآن بالتكذيب (لا يخفون علينا) فنجازيهم (أفمن يلقى في النار خـــير أم مـــن يأتي آمنا يوم القيامة اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير) تهديدا لهم .

يحادون الله ورسوله أولئك فى الأذلين . [1] وذكر ابن كثير مفسرا : قال تعـالى "استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله" أي استحوذ على قلوبهم الشيطان حتى أنساهم أن يذكروا الله عز وجل وكذلك يصنع بمن استحوذ عليه. ولهذا قال أبـو داود حدثنا أحمد بن يونس حدثنا زائدة حدثنا السائب بن حبيش عن معدان بـن أبي طلحه اليعمري عن أبي الدرداء قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول "ما من ثلاثة في قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان فعليك بالجماعة فإنما يأكل الذئب القاصية" قال زائدة قال السائب يعني الصلاة في الجماعة. ثم قال تعالى "أولئك حزب الشيطان" يعنى الذين استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله. ثم قال تعالى "ألا إن حـزب الشـيطان هـم الخاسرون".ويقول تعالى مخبرا عن الكفار المعاندين المحادين لله ورسـوله يعني الذين هم في حد والشرع في حد أي مجانبون للحق مشاقون له هـم في ناحية والهدى في ناحية "أولئك في الأذلين" أي في الأشقياء المبعدين المطرودين عن الصواب الأذلين في الدنيا والآخرة.

وحزب الرحمن هم الفائزون على الدوام ، أما حزب الشـيطان فـهم الأخسرون ، وهم فى كل حين الذين يحادون الله رب العالمين ، وتزين لهم شياطينهم السوء خيرا ، والخير سوء ، وهم بين النـاس كالشـرر الـذى يتصاعد من المواقد المحرقة الملتهبة التى تصيب من يقترب منها على أية ناحية ، ومثلهم يجب الابتعاد عنهم وعدم الالتفات إلى أقوالـهم ، وتحديد المفاهيم والمصطلحات يعين على اكتشاف هؤلاء ، وتعريتهم أمام الـرأى العام حتى يحذرهم ولا يغتر بهم .

---

(١) سورة المجادلة الآيتان ١٩ ، ٢٠ .

الفصل الثانى

تاريخ ظهور الوضعية

((تمهيـــــــــــــد))

تاريخ الفكر البشرى قص الكثير من التجاوزات التى قام بها أتباع الفكـــر المنحرف ، أولئك الذين يظنون فى أنفسهم ملكات إبداعية ، وإمكانيـــات عقليـــة أعلى مما هو قائم لدى رسل الله وأنبيائه أو المبلغين عن هؤلاء المرسلين مـــن الأتباع الصادقين ، والحواريين الملهمين [١]، ومن تبع هـــدى المرســـلين ، أو أقتدى بهم متوسما خطاهم ومتبعا الهدى الذى جاءهم من عند ربهم فى كتبه التى أنزلها ، على ألسنة رسله الذين بعثهم بالحق حتى يعرفوا المكلفين بما فرضــــه عليهم الحق ومن ثم تنقطع أعذارهم قال تعالى : **"رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما "**[٢]

وأصحاب الفكر المنحرف لا تجمعهم طريقة واحدة أو منهج بعينه وإنمـــا هم فى كل طريق يسيرون ، أنهم أشبه بالجرذان التى تتفرق فى كل ناحية متـــى خرجت من جحورها ، ولكنها فى النهاية تعرف مخابئها فتأوى إليها بعد الإنتهاء من مهامها[٣] ، ولذلك فهم تجمعهم غاية واحدة وهدف محدد هو الطعن على أهل الإيمان بالله رب العالمين ، أو على الأقل الإيقاع بهم فى أتون الشك ، وإبعادهم

---

(١)الشيخ محمد عبد المعز السنطاوى ـ النبوة والأنبياء ص ١٤٥ ط الدار الميمنية ١٣١٥هـ

(٢)سورة النساء الآية ١٦٥

(٣)هناك فرق بين الوسائل والمناهج ، وبين النتائج والغايات والأهداف ، فهم لا يجتمعون على طريقة أو وسيلة بعينها ، وإنما يجتمعون على غاية بعينها ، وأهل الإلحاد فى الغاية سواء ، دليل ذلك قوله تعالى : **وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون**"سورة فصلت الآية ٢٦ .

عن التعرف على طرائق اليقيـــن [١]قـــال تعـــالى :" **يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين** " [٢].

من ثم فمنهم من أعلن تصديقه بالمادة المحسوسة وحدها وفى نفس الوقـــت رفض اعتقاد وجود ما وراء المادة المحسوسة أو تصديق النصوص التى تحدثت عنه ، وسمح لعقله بالتفكير فيها ، لقد أعلن كفره بها ، وانكاره لها ، واحتمـــاءه بأنها لو كانت موجودة لأمكن التعرف عليها بالتجربـــة الحســـية ، أو الاحكـــام العقلية الخالصة المأخوذة من الآرصدة الحياتية الواقعة فى نطاق التجربة أيضـــا حتى لو كانت هذه الموجودات من مادة لم تبلغها مداركه ، كالملائكـــة والجـــن واللوح والصراط والعرش والقلم ، بل والجنة والنار والحوض المورود ، إذ أنها جميعا موجودات فى مادة خلقها الله سبحانه وتعالى لا يعلم حقيقتها إلا هو ، وقد اشار إليها حسبما جاء ذكره فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة الصحيحة وتحمله نصوص قطعية فى ورودها ودلالتها [٣] ،من ذلك قوله صلى الله عليـــه وسلم خلقت الملائكة من نور ، وخلقت الجن من مارج من نار ، وخلق آدم ممـــا

---

[١] وهذه الطريقة متى نجحت فقد تحققت الردة ، لأن المرتد هو الذى يكفر بعد إيمـــان قـــال تعالى : " **ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** " سورة البقرة من الآية رقم ٢١٧ .

[٢] سورة آل عمران الآية رقم ١٤٩ .

[٣] القرآن الكريم قطعى كله فى وروده ـــ ثبوته من أول سورة الفاتحة لآخر سورة النـــاس ، أما قطعية الدلالة فإن ما يتعلق بالعقيدة قطعى فى دلالته ، أيضا أما مـــا يتعلـــق بالأحكـــام فبعضه قطعى فى دلالته ، وبعضه احتمالى الدلالة ـــ ظنى الدلالـــة ـــ ومـــن ثـــم انتشـــرت المذاهب الفقهية المعروفة راجع للشيخ محمد عبد القادر أبـــو حويلـــة الأحكـــام الشـــرعية وطرائق التعرف عليها ص٣١ ـــ مطبعة حشمت بالديار العثمانية ١٣١٥هـ .

وصف لكم [١]فالملائكة والجن موجودات مادية لكنها غير مدركة بحواسنا قـــال تعالى عن الجن:" **يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون** "[٢]ومنهم مـــن أعلن تمسكه بالحياة الدنيا ، وأنها المرحلة الختامية للإنسان والكائنـــات ، وأنـــه لاحياة بعدها بأى شكل من الأشكال[٣] وبالتالى أنكروا البعث والنشر والحشـــر ، بل أنكروا اليوم الآخر بكل مافيه من تفاصيل تحدث عنها النقل المنزل ــ القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة الصحيحة ــ غير عابئين بما يترتب على ذلـــك الإنكار ، قال تعالى مصورا موقفا من هذه المواقف الإنكارية الســـاذجة التـــى رددها الكافرون قديما :" **أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون . هيهات هيهات لما توعدون . إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين . إن هو إلا رجل أفترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين** "[٤].وقال صاحبا الجلالين : (أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون) هو خبر أنكم الأولى وأنكم الثانية تأكيد لها لما طـــال الفصـــل (هيهات هيهات) اسم فعل ماض بمعنى مصدر أي بعد بعد (لما توعدون) مـــن الإخراج من القبور والام زائدة للبيان (إن هي) ما الحياة (إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا) بحياة آبائنا (وما نحن بمبعوثين) (إن هو) ما الرسول (إلا رجل افـــترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين) مصدقين بالبعث بعد الموت .

---

(١)الإمام مسلم صحيح مسلم كتاب الزهد ص ٦٠ ومسند الإمام احمد ج ٦ ص ١٥٣والبيهقى ج ٩ ص ٣

(٢)سورة الأعراف الآية ٢٧ .

(٣)الشيخ ــ محمد عبد المعز السنطاوى ــ النبوة والأنبياء ص ١٥٣ .

(٤)سورة المؤمنون الآيات ٣٥ ــ ٣٨ .

مع أنهم — فيما صوره القرآن الكريم عنهم — قد اعترفوا بوقوع كل من الموت والحياة على الانسان وكل من بنى البشر فى ذات الحياة الدنيا — نموت ونحيا — ، ومن غير المعقول وصف المرء الميت بأنه حى أو وصف الحى بأنه ميت طبقا لنواميس الحياة الدنيا المألوفة لنا فى مظاهر الحياة ومظاهر الموت ، نموت ونحيا ، إذ البعث ما هو إلا إحياء بعد موت [١]، وبالتالى فقد شهدت ألسنتهم بما تخفيه نفوسهم وانكشفت الدعاوى الزائفة التى يتمسكون بها ، فسقطت من على وجوههم الأقنعة التى يختبئون خلفها .

ومنهم من أخذ الشك المطلق قاعدة يحتكم إليها ، ويحاول ضبط أنماط الحياة بها ، يستوى عنده أمر شكه فيما يأتى به الأنبياء والمرسلون ، أو ما يتحدث عنه النابهون من المفكرين الذين استضاؤا بنور الإيمان ، وأعلنوا تمسكهم بالوحى ، وبذلوا مجهوداتهم العقلية فى تفهم هذه الأمور الإعتقادية والاستدلال عليها من النواحى العقلية [٢].

ولذا فقد عمد هذا الفريق الشاك إلى تجريح الأنبياء والمرسلين ، بجانب رمى أتباعهم بالصغائر واتهامهم بالرزائل كما هى عادة المبهوت ، متى بان فساد قوله وظهر عجزه ، فانه يلجأ إلى التجريح والتكذيب واستعمال العنف الأدبى فى كل صورة من صوره وقص القرآن الكريم طرفا عن هذه وتلك من ذلك قولهم فى نبى الله شعيب ما حكاه القرآن الكريم :" **قالوا ياشعيب ما نفقه كثيرا مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت**

---

[١] يعرف البعث عند مفكرى الإسلام بتعريفات عديدة طبقا لتوجيهات المفكر نفسه من هذه التعريفات أنه عبارة عن إحياء الله الموتى وإخراجهم من قبورهم بعد جمع الأجزاء الأصلية وهى التى من شأنها البقاء من أول العمر إلى آخره ، ولو قطعت قبل موته ، بخلاف التى ليس من شأنها ذلك كالظفر . الامام الشيخ إبراهيم الباجورى حاشية الباجورى على الجوهرة ص ٩٨ وبهامشها تقريرات العلامة الأجهورى الطبعة الأولى — المطبعة الأزهرية عام ١٣١٠هـ .

[٢] الشيخ محمد على رسلان — النبوة والأنبياء ص ٧٧ الطبعة الثانية عام ١٩٥٧م .

علينا بعزيز . قال ياقوم أرهطى أعز عليكم من الله وأتخذتموه وراءكم ظهريا إن ربى بما تعملون محيط . وياقوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا إنى معكم رقيب . ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين . كأن لم يغنوا فيها ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود "[1] وقال صاحبا الجلالين فى تفسيرهما : (قالوا) إيذانا بقلة المبالاة (يا شعيب ما نفقه) نفهم (كثيرا مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفا) ذليلا (ولولا رهطك) عشيرتك (لرجمناك) بالحجارة (وما أنت علينا بعزيز) كريم عن الرجم وإنما رهطك هم الأعزة(قال يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله) فتتركوا قتلي لأجلهم ولا تحفظوني لله (واتخذتموه) أي الله (وراءكم ظهريا) منبوذا خلف ظهوركم لا تراقبونه (إن ربي بما تعملون محيط) علما فيجازيكم(ويا قوم اعملوا على مكانتكم) حالتكم (إني عامل) على حالتي (سوف تعلمون من) موصولة مفعول العلم (يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا) انتظروا عاقبة أمركم (إني معكم رقيب) منتظر (ولما جاء أمرنا) بإهلاكهم (نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة) صاح بهم جبريل (فأصبحوا في ديارهم جاثمين) باركين على الركب ميتين(كأن) مخففة أي كأنهم (لم يغنوا) يقيموا (فيها ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود).

فهم لم يهابوا شعيبا لشخصه لأنه من وجهة نظرهم غير مسؤل عن أقواله باعتباره ناقص الأهلية ، قاتلهم الله بدليل قولهم له " وإنا لنراك فينا ضعيفا " وإنما يهابون رهطه ولولا خوفهم من رهط شعيب لنالته حجارتهم ، وأنطلق إليه سفهاؤهم طعنا عليه ، وضربا له كما هى عادتهم من دفع السفهاء إلى

---

(١)سورة هود الآيات من: ٩١ حتى الآية ٩٥ .

الأنبياء والمرسلين حتى يلحقوا بهم الأذى [1].لكن لماذا كان هذا العنـــف الـــذى الذى يقوم به أولئك الأفراد ؟ والجواب أن أصحاب الفكر المادى يعجزون عـــن فهم الأمور التى لا علاقة لها بالمادة ، كما ينكرونها مع كل ناحيـــة ، إنـــهم لا يعتقدون إلا فى الطبيعة وحدها ، يقول زكى نجيب محمود أن الطبيعـــة تفســر نفسها بنفسها ، فهى الحقيقة كلها ، ليس وراءها شئ وليس فوقها شئ ، فكل شئ فى جوف الطبيعة ذاتها ، فإذا كان الانسان جسما من ناحية وعقلا مـــن ناحيـــة أخرى فكلتا الناحيتين من مقومات الطبيعة على حد ســـواء ، وبـــهذه النظـــرة نتخلص من التفكير الثنائى الذى كان يشطر الكون شطرين ، مادة وروحا ، كما يشطر الانسان شطرين جسما وعقلا [2] وكل ذلك يؤدى إلى الانفلات العقـــدى والخروج على شرع الله تعالى وهو فعل مجرم شرعا .

وما تزال هذه الأعمال الإجرامية يقوم بها بعض أصحاب النفوس الخربـــة والضمائر السوداء فى مواجهة أهل الحق ، ولكن فى صور تناســـب ظـــروف العصر الذى تقع فيه ذات التجاوزات ، فهم يحاولون أن تكون هـــذه الأعمـــال العدوانية مناسبة لكل عصر تظهر شبهاتهم أو تجاوزاتهم فيه .

وكذلك طعن الكافرون على نبى الله نوح عليه السلام ، والمؤمنيـــن بـــالله تعالى معه ، ونسبة الجرائم الخلقية إليهم ، وأنهم أتباع كل ناعق لا هم لـــهم إلا ملئ بطونهم ، لأنهم فقراء ضعاف الرأى ، قال تعالى مصورا ذلـــك عنـــهم : " **فقال الملأ الذين كفروا من قومه . ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك أتبعك**

---

(١)وقد فعل ذلك أهل الطائف برسول الله محمد صلى الله عليه وسلم قبيل الاسراء والمعراج حين دفعوا إليه السفهاء والعبيد حتى يهاجموه بالحجارة والألفاظ القاسية .

(٢)الدكتور زكى نجيب محمود ــ مقدمته لكتاب " الإحساس بالجمال لجورج سانتيانا ص ١٧ ، ١٨ ترجمة د / محمد مصطفى بدوى ط الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ٢٠٠١م .

إلا الذين هم أرذالنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين "[١].

ومن المؤسف له أن الكافرين لم يتمكنوا من إخفاء هذه النظرة المتعالية التى يتمسكون بها ، والنزعة العدوانية التى تحكمهم ، بخصوص أتباع نبى الله نــوح عليه السلام "وإنما خرجت مفرداتهم اللغوية معبرة عما هو قائم فى نفوسهم التى تتحكم فيها العقد النفسية[٢] والرغبة فى إبراز مفاسدهم ، وانكار ما هم فيه مــن نعيم الله تعالى الذى كان يجب مقابلته بالإيمان بالله تعالى رب العالمين ، بدل أن يتهموا أتباع نوح عليه السلام بما لايليق فقال تعالى مصورا ذلك عنهم :" **قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون** "[٣].نعم ليس المطلوب من الكافرين أن يفرغــوا شهواتهم القلبية فى وجوه أهل الإيمان ، وإنما المطلوب منهم أن يكونتوا علــى قدر من الموضوعغية فى التعامل مع الأمور التى يتعرضون لها ، وأن يكــون هذا التعرض على ناحية منهجية قائمة على البرهان . قال تعالى : " **أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين** "[٤]

لم يكن ذلك وحده ديدن أصحاب الفكر المنحرف ، وإنما سلكوا كل الطرق المعوجة ، التى لا توصل إلى غاية منشودة ، بقدر ما تدفع إلى الهلاك وتلقــى باصحابها فى الردى ، إنها طرق على كل واحد منها شيطان يدعو إليه ، وعن

---

(١) سورة هود الآية ٢٧ .

(٢) الدكتور / بول ايربيش ـــ العقد النفسية ص ١٧٥ ترجمة الدكتورة وفاء صالح ١٩٨٧م .

(٣) سورة الشعراء الآية رقم ١١١

(٤) سورة النمل الآية ٦٤ . وتفسيرها فى الجلالين : (أم من يبدأ الخلق) في الأرحام من نطفة (ثم يعيده) بعــد الموت وإن لم تعترفوا بالإعادة لقيام البراهين عليها (ومن يرزقكم من السماء) بالمطر (والأرض) بالنبات (أإله مع الله) أي لا يفعل شيئا مما ذكر إلا الله ولا إله معه (قل) يا محمد (هاتوا برهانكم) حجتكم (إن كنتم صادقين) أن معي إلها فعل شيئا مما ذكر وسألوه عن وقت قيام الساعة فنزل .

ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : خط رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا مستقيما ثم قال هذا صراط الله فاتبعوه ، ثم خط خطوطا متعارجة فقال : هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعوا إليها فاجتنبوها .[١]

كما أن أصحاب الفكر المنحرف قد أنكروا وجود ما ليس بحسوس وطعنوا على أهل الإيمان من كل الوجوه ، بل إنهم طعنوا فى نبوات الأنبياء جميعا واتهموا رسالات الله والمرسلين على كل ناحية " حتى النبوة الخاتمة التى جاء بها نبينا الهادى سيدنا محمد بن عبد الله رحمة الله للعالمين لم تسلم هى الأخرى من إتهاماتهم الباطلة ، ودعاواهم الكاذبة التى تدل على إنحراف فى الصدور، متمكن من القلوب ، عبرت عن بعضه مفرداتهم اللغوية [٢] وندواتهم الفكرية ، فانفضحت نواياهم العدوانية .

كما أنهم أنكروا الغيب ، وأنكروا أن يرزق الله بعض الخواص معرفة بعضه مع أن الله تعالى قال :**" عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا "**[٣] يقول الامام ابن حجر الهيثمى ان الخواص يجوز أن يعلموا الغيب فى قضية أو قضايا كما وقع لكثير منهم واشتهر عنهم ، والذى اختص تعالى به إنما هو علم الجميع ، وعلم مفاتيح الغيب ، فمن ادعى علم الغيب فى قضية أو قضايا لايكفر ، ومن ادعى علمه فى سائر القضايا كفر [٤] والوضعيون منكرون الغيب كله فتوالت انحرافاتهم وتعددت .

---

(١)الشيخ / محمد حسن الفشنى ـ شرح الفشنى على الأربعين ص ١٩٧ .

(٢)الدكتور / على عبد العظيم أبو جديلة ـ النبي الخاتم ص ٤١ ط مكتبة النور ١٩٨٧م .

(٣)سورة الجن الآيات ٢٦/٢٨ .

(٤)الامام ابن حجر المكى الهيثمى ـ الاعلام بقواطع الاسلام ص ٣٥٩ المطبعة المصرية ١٣٥٦هـ .

بيد أن هذه الإنحرافات التى انكشفت أمام الرأى العام أتخذت أسماء عديـــدة فى الماضى والحاضر وقد حملت إلينا أنباءها الكتب تارة ، وحوادث الدهر تارة أخرى ، فمرة نراهم فى كتب الفرق باسم الطبيعيين ، أو الدهرييـــن [١] وربمـــا تحت اســـم أصحاب الخلاعة [٢] وربما تلاقيهم تحت اسم أصحاب البـــددة ، أو الحسيين فضلا عن الشكاك [٣] إلى غير ذلك من الأسماء التى حفلت بها المؤلفات العلمية فى الأزمان الماضية وما تزال موجودة داخل مناهجها ، ومسائلها بجانب الموضوعات التى تتعرض لها وقد امتدت هذه الفترة منذ ظهر التفكير الانســانى الغير قائم على الوحى الالهى فى بلاد اليونان والمصريين القدمـــاء بـــل شـــمل الشرق والغرب ، وتسلل نحو كل من الشمال والجنوب ، فى نفس الوقـــت فقـــد كانت آلهتهم التى يلجأون إليها مادية صرفة ، ففى اليونان كان مـــن عاداتـــهم الذهاب إلى دلفى عند تجاوز سن الطفولة حيث يقدمون للآله أبولـــون بـــاكورة الشعر [٤] .

---

[١] **لمزيد من التفاصيل يراجع كتاب الفرق بين الفرق للأمام البغدادى ، والملل والنحل للإمام الشهرستانى ، والتبصير فى الدين وبيان الفرقة الناجية للإمام الاسفراينى ، والفصـــل فـــى الملل والأهواء والنحل للإمام ابن حزم ، ومقالات الإسلاميين للإمام أبى الحسن الأشـــعرى واعتقادات فرق المسلمين والمشركين للإمام الرازى وكثير غيرهم مما جـــاء علـــى هـــذه الناحية.**

[٢] **هذه التسمية من إبتكارات الإمام السعد التفتازانى فى كتابه مقاصد الطـــالبين فـــى علـــم أصول الدين ج ٢ ص ١٢٩ .**

[٣] **وقد جادل الشيخ الرئيس ابن سينا الحسيين والشكاك فى مســـائل العقيـــدة وأبطـــل كـــل شبهاتهم وذلك فى النمط الرابع من كتاب الإشارات والتنبيهات الذى قام بتحقيقـــه أســـتاذنا المرحوم أ.د/ سليمان دنيا وطبعته دار المعارف المصرية سلسلة ذخائر العرب .**

[٤] بلو طرخوس — العظماء — عظماء اليونان والرومان والموازنة بينهم المجلد الأول ص ٢٨ ترجمة ميخائيل بشارة الألف كتاب الثانى الهيئة المصرية العامة ٢٠٠٢م .

وقد غلبت هذه الملامح المادية على كل أنماط الحيـــاة المختلفـــة مـــرورا بالعصور الوسطى وإنتهاء بالنهضة الأوربية الحديثة ، مع ما يتخلل هذه الفترات من ميول نحو الآلهة المادية المتعددة ، أو انكار الآلهة بالجملة .

أما فى العصر الحديث ابتداء من تاريخ ظهورالآلـــة وســـيطرتهاعلىحياة الناس فى أوربا ، إعتبارا من القرن السادس عشر حتى يومنا هذا ، فقد ظـــهرت لهذه الأفكار المنحرفة تسميات عديدة ، بعضها كان رد فعل للبعض الآخــــر [١]، كالحال مع المثاليين والعقليين ، أو العقليين والنصيين والمعقول واللامعقـــول ، كما ظهرت المثالية والواقعية وفى نفس الوقت برزت الوجودية والماركســـــية ، كما طفت على سطح الأحداث كل مـــن البراجماتيـــة والوضعيـــة [٢]، بجـــانب العلمانية والمذاهب التنويرية التى كانت أوربا هى المسرح الذى ظهرت فيــــه ، ولعبت أدوارها المتعددة من خلاله ، تقول الدكتورة يمنى طريف الخولـــــى : أن أصول الوضعية المنطقية ترجع إلى نشأة الفلسفة التى انقسمت منذ بدايتها إلـــــى قسمين : أحدهما : ما كان نتائج لدوافع دينية أو أخلاقية ، ويتمثـــل ذلـــك فـــى المذاهب الميتافيزيقية مثل أفلاطون واسبينوذا وهيجل وغيرهم .

الثانى : ما كان نتائج لدوافع علمية خالصة مثل فلسفةليبنتز وجون لوك ، وهيوم ولاشك فى أن الفلسفة الوضعية المنطقية تنتمى إلى الفريق الثــــانى[٣] ، ولكـــن انتماءها إلى القسم الثانى ليس معناه اهمال الدين والتصدى لنصوصه بوجه عـلـم بل كان يجب احترام الدين والافصاح عن طبيعة الدين الذى تهاجمه .

---

[١] الدكتور فوزى محمد رزق — الإلحاد المعاصر — أسبابه وغاياته ص ٥٣ ط الثانية ١٩٨٧م .

[٢] **هذه التسميات صارت معروفة لدى الجميع ، كما أن خرافاتهم تحملها مؤلفاتهم وتنشـوها دون نشر بعضها عالمى تحت ستار نشر الثقافة .**

[٣] الدكتورة / يمنى طريف الخولى — ماهى الوضعية — مقال بالكتاب التذكارى — زكى نجيب محمود فيلسوفا وأديبا معلما ص ٧٧ ، ٧٩ .

من غير شك أن هذه الإتجاهات فى العصر الحديث بعضها قد قـــام علـــى أكتاف البعض الآخر ، كما أن بعضها الآخر قد انتصب على قائمتيه المرتعشتين لا على أنه فكر مستقل ، أو يمثل قيمة بعينها ، أو على أنه صضـــورة يمكـــن الوقوف بها عند حد القبول ، وإنما يرز على أنه رد فعـــل منعكـــس ، وتيـــار معاكس للتيارات والمذاهب الأخرى .

ولكنها جميعا كانت تجئ فى أحد اتجاهين ، أحدهما فى الغرب ، والثـــانى فى الشرق ، وكل منهما كانت له أسبابه ، واشياعه والأتباع الذين ساروا خلـــق كل ناعق ، ورددوا ما أدلت به أفواه الآخرين ، دون أن يقيموا على أى منـــهما دليلا .

الأول : فى الغرب وهو : إتجاه مضاد لما جاءت بـــه نصـــوص الكتـــب اللاهوتية التى بأيدى الحاخامات والرهبان ، وتفسيرات هؤلاء اللاهوتيين لـــذات الكتب ، فكانت الأفكار التى يرددها اصحاب التيارات المادية قائمة على أســـاس المعاداة لتسلطات فكرية بعينها امتلكها اللاهوتيون وصاروا يقودون الناس إليها ، ويدفعونهم لممارسة ما تدلى به حتى لو كانت مخالفة لكل معقول ، مادام آبـــاء اللاهوت قد امتلكوها أو تحدثوا بها . أما المعارض لها فإنه يلقـــى فـــى النـــار كالحال مع برونو ، وكوبر نيقوس ، وجاليليووغيرهم [1] ، فظـــهرت تمزقـــات فكرية وصراعات نفسيى دفعت البعض لتحويل الطاقة النفســـية عـــن أهدافـــها الطبيعية التى تتعارض مع تعاليم الدين وآداب المجتمع [2]وتعمل علـــى ابجـــاد أوجه عديدة بلاختلافات المتنافية .

---

[1] راجع للدكتور توفيق الطويل ــ قصة النزاع بين الدين والفلسفة ، ففيه تفـــاصيل كثـــيرة حول هذه المسألة .

(١) الدكتور / توفيق الطويل ــ قضايا من رحاب الفلسفة والعلم ص ٣٨ ط دار النهضة العربية ١٩٨٦م .

الثانى : اتجاه فى الشرق : وهو يقوم على التقليد للغرب من باب الرغبة فـــــى القفز إلى ركب التقدم العلمى والسبق الحضارى ، دون أن تكون هنالك تطلعـات أولية للطعن فى الدين أو نصوصه ، فإذا ما أنزلق الشرقى فى هذا التيار، ترسم خطا أصحابه ، ولم يحد عنها ، بغض النظر عن النتائج التى ستترتب على مـــا يدعو إليه ، فإنه يصير أعمى العقل ، وان لم تكن ببصره غشاوة ، ومثل هؤلاء العميان لا يجدي معهم النصح أو الموعظة الحسنة ، وإنما لابد من مقارعتـــهم والضرب بيد من حديد على مزاعمهم ، وفى الحديث الشـــريف : إن الله لـــيزع بالسلطان مالم يزع بالقرآن (١).

على أن كلا من هذين الاتجاهين قد قامت أصوله الأولى على الاعتقاد فـى المادة وحدها ، مع التركيز على كونها هى التى يقع عليها عبء التصديق بـــها قديما وحديثا ، وأن أية ملامح أخرى يجب النظر إليها فى حدود ما تجئ به ذات الأفكار ، ولابد من تفسير أية ظاهرة بالمادة ايضا علـــى أصـــاص أن الجـــهاز الذهنى البشرى بأكمله قد صمم ليسمح لبعض الحوادث بالمرور بســـرعة إلـــى وعينا ، وأن يعزلنا عن غيرها ، ولقد صممت كل حاسة من حواسنا لتســتخلص نوعا محددا للغاية من المعلومات ، إنك ترى الضوء ولا تتذوقه فى كـــل شـــئ يرتد إلى المادة فى صورة من صورها (٢) تعالت أم تدنت .

أما تاريخ ظهور الوضعية كمصطلح فنى منفصل عن التســميات الماديـــة الأخرى فى الغرب فيمكن الرجوع به إلى العصر الوسيط حيث بدت ملامحـــه على أيدى رجال التجريب حينئذ ، ثم على يد بيكون وأصحاب العلم التجريبـــى فى العصر الحديث ، ومن ثم يمكن اعتبار فرنسيس بيكـــون أول مـــن وضـــع صياغة منظمة لأسس المنهج التجريبى الحديث ، وهو بذلك يعبر عن المذهـــب

---

(١)الإمام الفشنى ـــ شرح الفشنى على الأربعين ص ٤٧ .

(٢)روبرت ادرنشتاين وبول ايرليش ـــ عقل جديد لعالم جديد ص ٧٨ ترجمة الدكتور احمد مستجير

الوضعى فى رفضه لفكرة الفلاسفة ، لاينبغى لهم يحالوا الضـــرب فيمـــا وراء حدود الطبيعة [١] كذلك فقد برز أبان القرن السابع عشر ليليـــان الـــذى طـــالب العقلاء من الناس بوضع نصوص الدين اللاهوتي فى موضعـــه مـــن الكنيســـة وعقول الآباء ، ووضع نتائج العقل موقعها من الحياة العملية بحيـــث يقتصـــر نشاط الدين ، ونصوصه على الكنيسة ورجالها فى الداخل ، ونتائج العلـــم فـــى الحياة وأنماطها بعيدا عن اتجاهات الكنيسة ورجالها [٢].

على اساس أن ميدان الدين اللاهوتى غير ميدان البحث العلمى ، كمـــا ان الدين الكنيسى ليس من السهل قبول ما تدلى به نصوصه ، ولا يمكن التأكد مـــن صدقها فضلا عن صحة نائجها ، أما العلم فعلى العكس من ذلك تماما سواء فـــى الموضوعات التى يعالجها أم فى النتائج التى يتوصل إليها .

فكان مفهوم الوضعية ــ من وجهة نظره ــ هو الفصل بين الدين والدولـــة من جهة ، وبين الدين والسياسة من جهة ثانية ، وتحويل الدين الكنسي إلى داخل الغرف المغلقة والجدر الحصينة وحصره فى تلك الدائرة ، فى مقابلة الانطـــلاق بالعلم المعملي ونتائجه حتى يغطى سماء الفكر فى أوربا ، وتكون له الســـيطرة على العقول ، ومقدرات الأمور، كالتى كانت فى الماضى لنصوص اللاهـــوت حين كان رجال الدين الكنسى هم أصحاب الأمر والنهى بجانب مالهم من السمع والطاعة [٣].وقدرتهم على تنفيذ العقوبات التى يفرضونها [٤]، وكذلك إتاحـــــة

---

(١)الموسوعة الفلسفية المختصرة ص ٤٣٠ ترجمة فؤاد كامل وزملائه ط دار القلم بيروت .

(٢)**جوليس ــ هيج ليليان ــ الوضعية ثمرة الكفاح العلمى ص ١٣ ترجمة رضـــا اســـكندر طرفاس بالمغرب ١٩٥٧م .**

(٣)الدكتور / فوزى محمد رزق ــ الالحاد المعاصر ــ أسبابه وغاياته ص ٦١ .

(٤)إذن يمكن القول بأن ظهور الوضعية فى الغرب كان رد فعل يعبر عن رفض الأفكار التى تدعو إليها الكنيسة كما كان صيحة فى آذان الغافلين حتى يهبوا فى وجه الأفكار الرجعية التى تمثلها الكنيسة برجالها ، وعلى هذا الأساس كانت الوضعية كغيرها من المذاهب والتيارات المناوءة للدين المسيحى .

الفرصة للعلم حتى تبرز نتائجه فى الواقع العملى ، نظرا لفشل الدين اللاهوتى فى تحقيق أحلام الناس .

فكانت الوضعية تهدف ــ فى ذلك الوقت ــ إلى غايتين :

الأولى : تحجيم الدين الكنسى والقضاء على سلطة الآباء فى النفوس ، وفى نفس الوقت تفعيل دور العلم ونتائجه العملية ، وإتاحة الفرصة لرجاله من العلماء حتى يعبروا عن نتائج ذلك العلم بالطرق التى تؤكد تميزهم عن غيرهم " وبخاصة رجال الدين أيا كانت أوضاعهم ومواقعهم [(١)].

بذلك يتم الإعلان عن انتهاء دور نصوص الدين اللاهوتى الذى تدعو إليه **الاتجاهات الكنسية ، لتحل نتائج العلم كبديل عنها ، على أساس أن العلم والدين الكهنوتى عدوان ، ولابد من القضاء على أحدهما ، طبقا لنظرية الأنا الذاتى والهو، أو الأنا والآخر [(٢)]، حسب التصورات التى دعا إليها سارتر والوجوديون من بعده ، يستوى فى ذلك أن يكونوا من الوجودية الملحدة لأن القاسم المشترك بين الجميع واحد .**

الثانية : استرداد الكرامة السليبة لرجال العلم التى افتقدوها فى الغرب على مقاصل رجال الدين اللاهوتى حينئذ ، حيث كان رجال اللاهوت هم الخصم والحكم ، كانوا المدعى والقاضى والجلاد [(٣)] ، فجاءت الوضعية على يد ليليان

---

(١)الدكتور / صالح عبد العظيم قطب ــ الدين والعلم دراسة مقارنة ص ٤٥ ط أولى ١٩٦١م

(٢)الدكتورة / ناهد محمد الطويل ــ الأنا والآخر دراسة سيكولوجية ص ١٣ ط أولى بالقاهرة ١٩٩١م .

(٣)كانت هذه السيادة فى أوربا لرجال الدين لا لعلماء الدين ، لأن الإسلام وحده هو الدين الوحيد المقبول عند الله تعالى لقوله تعالى :" **إن الدين عند الله الإسلام** " سورة آل عمران الآية ١٩ كما أن الإسلام لم يفرق بين الرجل والمرأة فى طلب العلم ، بل حث كلا منهما ــ الرجل والمرأة ــ على طلبه بكل ما أوتوا من قوة ، والعلم المقبول عند الله تعالى هو العلم به، وآياته والنظر فى سنن الله الكونية ، بغية الاهتداء إلى الخالق العظيم جل علاه ، بجانب الإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الأخر والقدر خيره وشره ، ثم توظيف هذه الجزئيات النظرية إلى ما يخدم الدين الإلهى ليحقق الخير للبشرية جمعاء .

لتسترد كرامة العلماء ، وتدفع رجال الدين الكنسى إلى الإنزواء والإختباء بالكهوف والمغارات .

أجل لم يقدر للوضعية أن تنتشر وحدها كأفكار من غير مفكرين ، وإنما ظهر معها منكرون ينادون بها ، ويعملون على ترسيخ قواعدها ، وان كانوا أول الأمر فرادى إلا أنهم بعد ذلك صاروا جماعات صغيرة ، أو خلايا عنقودية ، ثم تطورت إلى جماعات كبيرة اشهرها :

١ ـ جماعة فينا : التى ضمت مجموعة من الفلاسفة وعلماء الرياضة والطبيعة فى فينا عاصمة النمسا شعروا بوجود نوع من الاهتمام المشترك لبحث مشكلات بعينها ، فنظموا اجتماعاتهم لمناقشة هذه الاهتمامات المشتركة ومعالجة المشكلات التى يشعرون بها [١] وقد حاولوا أن تكون أبحاثهم الفلسفية متصدقة إلى البحث التجريبى ومناصرته .

٢ ـ جماعة نقد العلم : وهم جماعة من المفكرين فى الغرب اعتنقوا العلم وحاولوا ايجاد شئ من التوازن النسبى بين الميتافيزيقا الروحية التى تبدأ بدراسة الروح والوجدان حتى تصل إلى الحياة فى شكلها المادى ، وبين الميتافيزيقا النقدية أو الوضعية النقدية التى تهتم بالعقل على أساس علاقته بالحواس ، ومن ثم رفض كل ميتافيزيقا تأملية [٢]فكانت هذه الجماعة بمثابة صورة مطورة لفكر

---

(١)الدكتور عزمى اسلام ـ اتجاهات فى الفلسفة المعاصرة ص ١١٠ ط الكويت ١٩٨٠ الطبعة الأولى ـ وكالة المطبوعات ومن أبرز رجالها أرنست ماخ ـ مورتس شليك ـ كارناب ـ رابشنباخ ـ فردريك وايزمان ـ فيليب فرانك وغيرهم من علماء الطبيعة والرياضة بجانب المنطق والفلسفة وجمعهم البغض للميتافيزيقا التأملية والحب لفلسفى العلم وكما تعددت المنتمون إليها فقد تعددت المراكز التى انبثقت عن جماعة فينا النمساوية حيث بدت معالم مراكز جديدة فى بريطانيا وأوربا الشمالى بجانب الولايات المتحدة الأمريكية وألمانيا وباريس وكوبنهاجن وغيرها من البلدان المختلفة ـ زكى نجيب محمود ـ حياة الفكر فى العالم الجديد ص ١٣٧ ط الثالثة دار الشروق ١٤٠٨ / ١٩٨٧م .

(٢)الدكتور / زكريا إبراهيم ـ دراسات فى الفلسفة المعاصرة ص ٨٩ .

الوضعية ، أو هى إحدى العلامات الهامة فى إبراز دور الوضعية فى ثوبها الجديد حتى لا تصادم مشاعر الناس أو تقسوا على توجهاتهم الفكريى والدينية .

من ثم فقد تآزرت الوضعية فى الغرب مع دعاة الفكر التنويرى من أمثال " كانت " فى ألمانيا ومالارميه فى فرنسا ، وجورج الن فى انجلترا ، ومارتن اسكورت فى هولندا ، واسكس فى بلجيكا الذين اعتبروا أنفسهم فى حرب مع الدين الكنسي ، بحيث تأتى النهاية مقررة السيادة للعلم ، حتى يدين العالم بالعلم التجريبى ثم يتحول الناس جميعا إلى الإيمان بالعلمانية اللادينية ، بدل الإيمان بالدين الذى يحارب العلم،أو يدعو لمناهضة العلماء (١) فكانت كل من الغايتين بمثابة رد الفعل المنعكس لممارسات محاكم التفتيش التى قام بها رجال اللاهوت فى العصور الوسطى ، كما كانت هذه الممارسات وظهور آثار العلم التجريبى بمثابة الشرارة التى اشتعلت فى أوربا فتوقدت منها نيران اكتوت بها الكنيسة ورجالها فيما بعد ، كما أضاعت ما كان لصكوك الغفران من هيبة فى النفوس ، بل ان هذه المذاهب الإلحادية يمكن اعتبارها أحد مظاهر التبرم والنفور فى أوربا من الدين الكنسى نصوصه ورجاله (٢) .

ومن المناسب القول بأن الوضعية لم تتوقف بعد ليليان وإنما ظهرت جماعات كثيرة تدعوا إليها ، وتتحدث باسمها ، وكان التنويريون فى أوربا من أكثر الناس حماسا لها (٣)، ورغم محاولات رجال الكنيسة فى ممارسة أنواع الضغط على هؤلاء حتى يتراجعوا عن أفكارهم ، أو يتنازلوا عن ذات الآراء ،

---

(١)الدكتورة / وفاء محمود هلال ــ أوربا بين الدين والعلم ص ٥١ ط أولى ١٩٨٧ م.

(٢)وذات الصنيع الذى مارسته الكنيسة كان من أسباب الثورة عليها ، كما كان من أسباب وجود مدارس النقد العصرى التى بدأت فى دراسة اسفار الكتاب المقدس فى حدود الأحكام العقلية بعيدا عن كون ذات النصوص مقدسة أم غير مقدسة .راجع للدكتور / محمد حسن الضبع . أثر التقدم العلمى على الكتاب المقدس ص ١٥٧

(٣)الدكتور / ناصر عبد الله السيد درويش ــ نظرات فى الفلسفة الحديثة ص ١٩٣ط الدار الجديدة ١٩٧١م

إلا أنها جميعا لم يقدر لها النجاح ، على أساس أن تهديدات الكنيسة ورجالها كانت بمثابة الزيت الذى يوضع على النار المشتعلة ، وكلما وضع ازدادت ألسنة اللهب ارتفاعا ، كما ازدادت جذوة النار اتقادا وضراوة [١].

من ثم ظهرت جماعة فينا كحركة منظمة لها وسائل ابلاغ وممارسة وقد سبقتها جماعات اتخذت من أماكن تواجدها مراكز لها ، وإذا كانت جماعة فينا قد تميزت بالتنظيم الدقيق للآراء والأفكار ، والموارد التى يتحقق من خلالها الإنفاق على الجماعة ، وكيفية الإعلان عنها والدعاية لها من خلال نشر المبادئ التى تدعو إليها ، فإنها اجتذبت إلي صفوفها بعض المشاهير فى العلوم العملية التجريبية والرياضية والفلسفية والفلكية ممن كان لهم ذيوع شهرة بجانب الثراء [٢]وفوق ذلك فقد انضم إليها بعض النبلاء الذين أمكنهم توسيع أنشطتها وتنوع اتجاهاتها حتى برزت مع الأيام فى أوربا أكثر قوة وأوسع انتشارا.

ويمكن إعتبار أوجست كونت ذا أثر كبير فى الوضعية حيث دعا إلى حصر المعرفة فى الحس فقط واعتبر الوضعية أساس التفكير الصحيح ومنهجه المنطقى الوحيد ، ومتى اراد الناس بلوغ الغاية فلابد لهم من غلتزام المنهج العلمى المعتمد على الملاحظة الحسية وحدها ورفض تجاوزها بأى حال من الأحوال مع انكار الفلسفة فى صورتها التقليدية ، والاكتفاء بالتفكير الوضعى الواقعى المباشر النسبى المفيد المعطى التجريبى [٣] دون سواه .

أجل لقد كان الوضعيون يتيهون فخرا بالمبادئ التى يدعون إليها ، آخذين فى حسبانهم النتائج الإيجابية التى تصاحب العلم التجريبى ، وكانوا يقابلون هذه

---

(١)الدكتورة / وفاء محمود هلال — أوربا بين الدين والعلم ص ٦٢ .

(٢)الدكتور / محمد على الدين شوكت — الفلسفة الحديثة وأعلامها ص ١٩٧ .

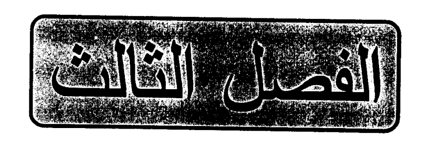
(٣)الدكتورة / يمنى طريف الخولى — فلسفة العلم فى القرن العشرين ص ١٣٢ .

النتائج الإيجابية بالقضايا التى يعرضها آباء اللاهوت التى لا يمكن التأكد منـــها على ناحية الصدق فكان ذلك من أسباب انتشار الوضعية فى أوربا .

ومن ثم فلا نعجب إذا وجدناها تتنوع إلى وضعيـــــة طبيعيـــة ، وأخـــرى اجتماعية ، وثالثة منطقية ، وكل منها راحت تضع قواعدها وتعمل على تدعيـم مراكزها ، وتقوية آثارها فى النفوس حتى بات كل نوع منها بركان مشـــتعل أو شجرة شائكة تحتاج إجتثاثها من جذورها ، لأنها تحولت من مناهضـــــة الديـــن الكنسى ورجاله فقط إلى الدين الإلهى فى نصوصه وعلمائه[1] وصارت أخطارها على الإنسانية والأخلاق لاتقل عن أخطارها على العقيدة الإلهية والقيم النبيلـــة ، كما أنها تحولت من مجرد أفكار – زعم أصحابها أنها – تنويرية معتدلة إلـــى أفكار تدميرية فصارت لا معقولة على كل ناحية .

---

(١) الشيخ / محمد عبد العظيم دويدار – الدين والفلسفة ص ١٧١ ط ثانية ١٩٥٩م .



عوامل ظهور الوضعية فى الغرب

((تمهيـــــــد))

من المعروف أن كل مايحدثه الإنسان تكون له أسباب تعليلية ، وغايـــات يهدف إليها ، أو نتائج يترقبها لأن ذلك طبيعة الأفعال الانسانية ، ولمـــا كـــانت الوضعية من إحداثات بنى الإنسان ، وكان ظهورها فى الغـــرب مبكـــرا عـــن ظهورها فى الشرق فمن المناسب إبتداء الحديث عن العوامل التـــى أدت إلـــى ظهورها فى الغرب أولا ثم الشرق ثانيا ، على أساس أن الشرق مهبط الديانـــات وأصل الحضارات[1] ، فوقوع أفراده ضحية الأفكار العدوانية أو الشيطانية يكون بنسبة ضئيلة وتحتاج وقتا طويلا حتى تؤثر فى الأفراد الذين يمكن أن يكونـــوا من ضحاياها، كما أن الشرق الإسلامى كانت أنوار الحضارة الإسلامية عليـــه زاهية ، وقيمها قائمة ، فى الوقت الذى كانت أوربا تخطو فى ظلام دامس وليـل حالك ، بجانب واختلاط أنظمة سياسية تعاقدت مع الكنيسة فى حلـــف منفعـــى بحيث يدافع كل منهما عن الآخر، ويحرص على مساندته بقدر حرصـــه علـــى نفسه على أساس أن المصالح بينهما مشتركة ، وبالتالى أعلنت الكنيسة من خلال ألسنة رجالها أن الملك ظل الله فى الأرض، وأنه يحكم بيـــن النـــاس بتفويـــض إلهى[2] ومن ثم فلايمكن الخروج عليه حتى وإن كان حاكما ظالمـــا وغشـــوما متجبرا ، ومن خرج على الملك فقد خرج على الدين مما يستوجب إنزال أشـــد العقوبات عليه وأبسطها التخلص منه ، نفيا أو قتلا وتحريقا ، وقد يمتد أمر هـذه العقوبات فيشمل مطاردة الأفكار وأصحابها ، والأقارب من الدرجات المختلفة ، والأخذ بالشبهات ، مع التركيز على محاكم التفتيش .

وفى ذات الوقت وقف الملك يدافع عن رجال اللاهوت ، ويعلن فى غـــير موضع أن الخروج على مايقرره آباء الكنيسة يعتبر مخالفا لقوانين الدولة ودينها

---

(١)الشيخ / درويش عبد العاطى السيد درويش ــ مصر والشرق ص ٢٥٣ المطبعة الأميرية ١٣٢٥هـ.

(٢)الدكتور / ناصر عبد الله السيد درويش ــ نظرات فى الفلسفة الحديثة ص ١٩٧.

ومن خرج على قوانين الدولة ودينها وجبت محاربته إبتداء من حرمانه أبسط حقوقه السياسية وإنتهاء بإعدامه [١]، بجانب ما تقرره الكنيسة فى شأنه ، حتى بات هذا الإتفاق شبه مكتوب يمارس على طريقة عملية — ينفذه كل من الملك ورجال السياسة من ناحية ، والبابا ورجال اللاهوت الكنسى من ناحية ثانية [٢]، وبالتالى فلابد من بيان عوامل ظهورها فى الغرب والشرق على السواء .

لكن لما كان ظهور الأفكار المادية قديما لا يعرف له عنوان ثابت ، أو أمة بعينها فإن التركيز على المواطن التى برزت فيها تلك الأفكار على ناحية تنظيمية يكون أمرا غاية الصعوبة ، بيد أن الوضعية على ناحية المفهوم قد ظهرت فى الغرب أولا ، كما أن التعريف بها واستخدام ذات المصطلح برز فى الغرب ، ثم انتقلت عداوة إلى الشرق ، وبالتالى فإن المنطق العقلى يستلزم الحديث عن عوامل ظهور الوضعية فى الغرب ثم عوامل ظهورها فى الشرق بعد ذلك .

---

(١) الدكتورة / ناهد محمد اسماعيل — معالم الفلسفة الحديثة ص ١٣٧ .

(٢) الشيخ / محمد عبد العظيم دويدار — الدين والفلسفة ص ١٩٣ .

((عوامل ظهور الوضعية فى الغرب))

ينقسم العالم بإعتبار الجهات التى لها وضع طبيعى إلى شرق وغرب كما ينقسم باعتبار مطالع الشمس وغروبها والطقس والمناخ إلـى شـمال وجنـوب بجانب الشرق والغرب[١] ، وكل من هذه الجهات الأربعة له اعتبـارات لـدى علماء الجغرافيا ، والمعنيين بهذه الدراسات ، أما فى دراساتنا للجوانب الفكريـة فإنى سألجأ إلى النظر بالاعتبار الأول وهو تقسيم العالم الفكـرى إلـى شـرق وغرب ، وسوف أبدأ الحديث عن الغرب على أسـاس أن الوضعيـة وجـدت بذورها الأولى والمصطلح الذى حملها هناك ، كما أنها علت معوجة فى الغـوب أيضا ، ثم أخرجت ثمارها المرة على المحيطين بها ، وبعد ذلك إرتضى بعـض أبناء الشرق أن يأكلوا من ذات الثمار المرة كما إستظلوا بالأشجار المعوجة .

من ثم فهناك فرق بين عوامل ظهور الوضعية كمصطلـح حديـث ، وبيـن عوامل ظهورها كفكرة قديمة تسللت إلى الفكر الإنسانى من خلال ما عرف باسم الفكر المادى فى القديم[٢] على أيدى كل من قدماء اليونان والمصريين والهنود وغيرهم حتى وصل الحال إلى السوفسطائيين ، ومن سار على نفس المنهج وقد استمر ذلك إلى القرن الخامس عشر الميلادى حين ظهرت بواكـير الوضعيـة ممهدة فيما بعد لظهورها على ناحية المصطلح أو المفهوم الحديث ، ومـن ثـم سأحاول تقديم إلماحة عن عوامل ظهورها على المفهوم الحديث من الوضعية أو فلسفة العلم أو الفلسفة العلمية التجريبية.

---

(١)هذا التقسيم باعتبار المطالع لا علاقة له بالتقسيم الآخر باعتبار الناحية الفكرية .

(٢)الشيخ / محمد عبد العظيم دويدار ـ الدين والفلسفة ص ١٨٧ .

العامل الأول : استمرار انحرافات رجال اللاهوت :

عالم الدين ينظر إليه الناس باعتبار أنه القدوة ، لأنه ارتضى أن يكون على عهد الوفاء مع الله قائما لاينقطع عنه أبدا ، بل إن هذه النظرة لتتسع مع امتداد الأيام ، ولذا فإن عالماء الدين ينزلون من الناس منزلة التبجيل والاحترام التى قد تبلغ حد القداسة لدى بعض الناس فى قليل من الأحيان [1]، ومن ثم فان كل ما يصدر عنه يحاسب عليه سواء بالعبارات المنطوقة على سبيل الإستفهام التعجبى ، أم على سبيل الإلماحة المفيدة والإشارة الصامتة والذى يقوم بهذا الدور هم الأناسى الذين توسموا فيه التدين ، وتوقعوا منه السير فى طريقه إلى أبعد مدى . .

فإذا انحرف رجل الدين ولم يتمسك بالنصوص التى يدعوإليها ، أو اعتسف فى تأويلها ، أو وظفها لأغراضه الخاصة فإن احترام الناس له يتضاءل وقد يبلغ حد التلاشى ، وربما انعكس الأمر فتحول الإحترام إلى إزدراء ، والحب والمودة إلى كراهية وعداوة [2]، لا لأنه ارتكب مخالفات صغرت أم كبرت ، وإنما لأنه فى نظر هؤلاء الناس لايعرف الخطأ ، كما أنه مادام قد نصب نفسه عالما بالله وآياته وارتضى القيام بهذا الدور بين الناس فلابد له من الاستمرار فى ممارسة ما يدعو إليه الدين [3]، مع التمسك الكامل بما تجئ معه النصوص وإلا كان حاله كحال من عناه الحكيم بقوله :

غير تقى يأمر الناس بالتقى طبيب يداوى القلوب والطبيب مريض**

---

(١)الشيخ / محمد عبد العظيم دويدار — الدين والفلسفة ص ١٥٧ .

(٢)الدكتورة / ناهد محمد اسماعيل — معالم الفلسفة الحديثة ص ١٤٩ ط ٣ ١٩٨٧م.

(٣)الشيخ / محمد عبد المعز السنطاوى — النبوة والأنبياء ص ١٥٧ .

ومتى ساد فى الناس اعتقاد أن رجل الدين يخالف النصوص التى يدعو إليـــها ، أو يهاجم القيم التى يطالب الناس الإلتزام بها ، أو يتخلى عن الأخلاق الحميـــدة التى كم سعى لتعميقها فى نفوس الناس ، فإن هذه الأمور لن تنزله من منطقـــة احترام الناس إلى منزلة أخرى [١] ، وإنما ستجعله عرضة لأن يلجـــأ البعــض لتقويمه ، فإن لم يكن بالحسنى فبغيرها .

من ثم كان علماء الإسلام الأجلاء يحافظون علـــى كرامتـــهم ويصونـــون سيرهم ، ويعملون على أن يتوافق ظاهرهم من باطنهم ، لأنـــهم فـــى البـــاطن يحرصون على مراقبة الله تعالى ، وفى الظاهر يحرصـــون علـــى مراقبـــة الله والناس[٢]ولذا فقد كانوا أعلاما ترفرف فوق رؤس الناس سواريها ، وتضمـــــهم تحت جناحيها حبا واحتراما ، ورحم الله أمير الشعراء حيث قـــال فـــى علمـــاء الأزهر الشريف :

كانوا أجــل من الملوك جلالة ** وأعظم سلطانا وأفخم مظــهرا

زمن المخاوف كان فيه جنابهم ** حرم الأمان وكان ظلهم الذرا

أما رجال اللاهوت فى كل من اليهودية والمسيحية ، فقد كـــانوا — فـــى الأغلب والأعم — يتشاركون فى الأثم ويتفقون على العـــدوان ويدعـــون إلـــى ممارسة ذلك فى العلن [٣] ، بدلوا تعاليم الله وتحولوا بها من توحيـــد الله تعـــالى المنزه عن الشبيه والشريك والصاحبة والولد الذى جاءتهم به رسل الله تعـــالى ، إلى التوحيد المشترك بين الإله الآب والإله الابن والإله الروح القـــدس الـــذى صنعته أياديهم اللئيمة ، وصاغته عقولهم الضعيفة ، فصار الثلاثة واحدا والواحد

---

(١)الدكتورة / وفاء محمود — أوربا بين الدين والعلم ص ٩٦ .

(٢)الشيخ / محمد عبد العظيم دويدار — الدين والفلسفة ص ١٧٨ .

(٣)الدكتورة / وفاء محمود — أوربا بين الدين والعلم ص ٩٩ .

ثلاثة [١] مما جعل كانت يقول " إن تعاليم الدين كأقراص الدواء متى ابتلعت كانت مرة المذاق [٢]، كما جعلوا له أشباها وأندادا كونت منهم العائلة المقدسة ، وفى نفس الوقت جعلوا ابنه شريكا له فى الرحمة والعدل ، وتفوق الابن على أبيه بقبوله وقوع حكم الإعدام عليه تبرئة لخطايا من عجز أبوه — يهوه — عن مغفرة خطاياهم من غير إراقة دم ابنه الوحيد [٣]، وهم الذين جعلوا له صاحبة يأوى إليها عذراء من نسل داود ، أقامت بالناصرة ، ووضعت إبنها فى بيت لحم [٤] تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا ، قال تعالى :" **بديع السماوات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل** ".[٥]

وما داموا قد غيروا فى أصول العقيدة التى أنزلها الله على أنبيائه الأكرمين ورسله صفوة خلق الله رب العالمين ، فقد غيروا كذلك فى كل ما شرع الله تعالى ، ودونوا ذلك فى كتبهم التى بأيديهم ، فلما تعاملوا بها مع أنفسهم كرجال دين ظهرت بينهم مخالفات عديدة وتناقضات كثيرة ، دفعت بهم إلى عقد مؤتمرات عديدة كان الغرض منها تقنين بعض هذه المكتوبات التى عرفت باسم أسفار العهد القديم فى اليهودية كما عرفت باسم الأناجيل القانونية الأربعة فى المسيحية وهى — متى ، مرقص — لوقا — يوحنا ، ثم أعمال الرسل وبعض الرسائل التى صارت جملتها تمثل العهد الجديد[٦].

---

(١) الدكتور / أبو المجد عز الدين خير الله — العقائد المسيحية ص ١٩٣ ط الثالثة ١٩٧٦م .

(٢) الدكتورة / ناهد محمد اسماعيل — معالم الفلسفة الحديثة ص ١٥٤ .

(٣) ليوتاكسيل — التورات كتاب مقدس أم جمع من الأساطير ص ٢٧٣ ترجمة الدكتور حسان ميخائيل.

(٤) الدكتور / أبو المجد عز الدين خير الله — العقائد المسيحية ص ١٩٧

(٥) سورة الأنعام الآيتان ١٠١ ، ١٠٢ .

(٦) دكتور/ عبد الوهاب محمد عطا الله — المؤتمرات والمجامع فى المسيحية ص ١٨٣ ط دار الهدى ١٩٨٣م

إذن العقائد اليهودية ، والمسيحية الحالية لم يأتهم بها من عند الله رسول — لأن العقيدة الإلهية مع كل رسل الله واحدة [١]، إنما أقرتها مجامع أقاموها ومؤتمرات عقدوها فهى اجتماعات بشرية ، والعقائد التى حملتها أو دعت إليها لم تخرج هى الأخرى عن كونها بشرية أيضا ، فإذا قام رجل الدين الذى ينتسب إلى مثل هذه الديانات بإجبار الأفراد على إعتناقها ، والتصديق بأنها من عند الله منزلة ، فقد خدع هؤلاء الأفراد ، كما هدم المجامع والمؤتمرات الكنسية ، وفوق ذلك فقد أفقد الجميع ثقتهم فيه ، لأنه الذى طوح بالثوابت فى الهواء ، وألقى بها فى عرض الطريق ، وهو إنحراف عقدى[٢]يمارسه بنفسه ، ويدعو إليه ، فهل مثل هذا يستجيب أحد إليه ، أو يمكنه الزام أحد بأنه يدعو إلى دين صحيح ، أو عقائد مقبولة ، أم أنه سيكون بعقائده ناحية وسلوكياته فى ناحية أخرى وهنا تكون أعماله وأقواله صورة معلنة للإنحراف على ناحية من النواحى التى تدعوا لمهاجمته وما يدعوا إليه ؟

كما أنه قد ينحرف إلى ممارسة أنواع من العبادات من صلاة وصوم وزكاة [٣] وحج وغيرها وكلها عبادات ابتدعها من نفسه ، وعلى قانون هواه أقامها ، فهو لا يلوى إلى شرع صحيح ولا يعتمد على نصوص الدين ، بقدر ما يعتمد على إمكانياته العقلية ، وإبداعاته النفسية وملكاته البدنية ، قال تعالى : "**ثم قفينا على أثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا فى**

---

(١)سبق التأكيد المتواصل على أن العقيدة الإلهية واحدة ولكنها تتكون من أجزاء ستة هى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، وقد جاء بها العديد من النصوص القرآنية ، كما جاء بها العديد من نصوص السنة النبوية المطهرة ، ومنها حديث جبريل من رواية عمر بن الخطاب ﷺ

(٢)راجع كتابنا : أوراق متناثرة فى التيارات الفكرية المعاصرة ص ٣٧ .

(٣)ليس فى المسيحية زكاة وإنما فيها العشور من كل بكر يستوى فى ذلك الزراعة والحيوان ، أما هذه الزكاة فعند البابية يسمونها الأخماس ، والشيعة يعتبرون الخمس أحد الأنصبة الثابتة فى الزكاة . راجع تفاصيل ذلك فى كتابنا البابية قراءة جديدة .

قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون ".[١]

لم يتوقف الانحراف فى الزيادة على النصوص التى اعتبروها دينية ـ مع أنها من وضع رجال اللاهوت ـ وإنما ظهرت صورة أخرى تمثلت فى الإنقاص من ذات النصوص ، كما حدث تبديل فى البعض الآخر وجملتها هو ما عرف باسم أنواع التحريف على أساس أن التحريف قسمان:

الأول : التحريف اللفظي .

الثانى : التحريف المعنوي .

وكل من التحريف اللفظى والمعنوى يتنوع إلى ثلاثة أنواع : أحدها التحريف بالزيادة على الأصل ، الثانى التحريف بالإنقاص من الأصل ، الثالث التحريف بالتبديل[٢]وكل منها قد جاءت ملامحه فى العديد من الأسفار التى انطوت بين دفتى الكتاب المقدس ، يستوى فى ذلك ما جاء بين أسفارالعهد القديم وما جاء داخل أسفارالعهد الجديد[٣] إذ هما فى المسألة سواء .

بيد أن رجل الدين الذى يدرك هذه الأبعاد ولايتمكن من الدفاع عنها ، أو يعلمها يقينا ولكنه ليس بقادر على اقناع من يدعوهم إلى صحتها ، فإنه قد ينفلت منه الزمام وحينئذ تحول إلى معول هدم ، بدل ان كان اليد البانية ، والمأمول منه القيام بدور المحافظة على ذات البناء ، كما قد ينقلب عدوا لدودا لذات الأفكار التى كان من المفترض أن يقوم هو بالدفاع عنها.[٤] وهذا ما يفسر

---

(١)سورة الحديد الآية رقم ٢٧

(٢)لمزيد من التفاصيل يراجع للشيخ رحمت الله الهندى ـ إظهار الحق والشيخ عبد الرحمن الجز يرى ـ أدلة اليقين فى الرد على كاهن كنيسة وغيره من المبشرين المسيحيين .

(٣)الدكتور أبو المجد عز الدين خير الله ـ العقائد المسيحية ص ١٩٥ .

(٤)الدكتور / عبد العظيم محمد عبد الباقى ـ المسيحية والإسلام ص ١٥٣ ط الدار الجديدة ١٩٥٧م .

خروج بعض آباء اللاهوت على تعاليم الكنيسة ، وتبنى بعضهم قضايا العلم التجريبى كالحال مع القديس جورج الأكبر ، والقمص شاؤل منشى ، والشماس يعقوب الارمنى وغيرهم من الذين رسمتهم الكنيسة للعمل بالسلك الكهنوتى ثم خرجوا عليه إلى العلم التجريبى ، ودافعوا عنه حتى صار بعضهم من الوضعية وبعضهم من مدرسة النقد العصرى[١] حسب التسمية التى أطلقت عليهم .

وقد ينحرف رجل الدين على جهة الإسراف فى تأويل النصوص ، أو التمسك بما يجئ فى ظاهرها من غير إتاحة الفرصة لإبراز وجهة النظر الأخرى ، والإصغاء إليها فضلا عن الإنصات لقائليها ، فيتعالى على الناس ، ويدفعهم إلى هجر سلوكياته الشاذة .

كما قد ينحرف على ناحية الإنكار للنصوص أو الهجران للسلوك والكفوان بما جاءت به الشريعة التى يدعوا إليها ، فيمارس الزنا ، ويلجأ للمخدرات ، وقد يختمى بوظيفته الدينية ، فيأوى إلى أحضان عاهرة لاتكف عن اعلان زياراته المتكررة لها ، وممارساته الشاذه معها ، ولا يلجأ هو إلى تكذيب ما تعلنه [٢]، وإنما يعتصم بالصمت كأنه لم يسمع بما يلوث سمعته ، أو تلتاث معه سيرته ، أو يؤدى إلى نفرة الناس منه ، وتكذيبه فى كل ما يدعو إليه .

فإذا كان حاله فى السر مغايرا لحاله فى العلن من ممارسة ظاهرية للتقوى وإدعاء الورع والتبتل ، فإن الناس الذين يتابعونه سوف ينقلبون عليه لا باسم الدين الكنسى الذى يدعو إليه لأنها بضاعته ، وإنما سيعلنون الحرب عليه باسم العلم الذى ميز العبارات الصادقة من الكاذبة ، وأبان عن الألفاظ الجوفاء من

---

(١)الدكتور / عبد الوهاب محمد عطا الله ـــ المؤتمرات والمجامع فى المسيحية ص ١٩٧.

(٢)الدكتور / فوزى حسن طلب ـ مسيحية العصور الوسطى ص ١٢٧ . وراجع للدكتور أحمد شلبى المسيحية ص ٨٧ وما بعدها .

الأخرى ذات الدلالة التركيبية ، التى تمثل دورا كبيرا فى الوضعية على وجـــه العموم ، والمنطقية على جهة الخصوص [١].

بل ظهرت طائفة من رجال اللاهوت الكنسى الذين أطالوا لحاهم وتركـــوا شعورهم مرسلة وبالغوا فى إسبالها حتى غطت وجوههم وصدورهم ، وسـلكوا الطرق زاحفين على وجوههم ، أو مرتدين على استاههم حتى ســـكنوا الآبـــار والأنهار الجافة ، كما أكلوا من أوراق الشجر ، عائدين بالإنسانية إلـــى مـــهدها الأول من البداوة الخالصة والبدائية البغيضة ، وطالبوا الناس القيام بهذه الأفعـال زاعمين أنها تقربهم من بركات يسوع ، كما تسمح لهم بالإلتحام معه [٢] وهم فى كل مازعموا داخل الغى لايبصرون .

يقول الأستاذ على البدرى " كان بعض الرهبان لايكتسون دائمـــا ، وإنمـــا يتسترون بشعرهم الطويل ، ويمشون على ايديهم وارجلهم كالأنعـــــام ، وكـــان معظمهم يسكن مغارات السباع ، والآبـــار الجافـــة والمقـــابر ، ويـــأكل الكـــلأ والحشيش ، وكانوا يعتقدون أن نظافة الجسم منافية لطهارة الروح [٣].

بل وصل بهم الحال إلى اعتبار أن غسل الأعضاء وتنظيفها إنما يمثل إثما يستوجب التوبة منه والإعتذار عنه ، كما كانوا يتصورون أن الزهد هو الإيغـال فى النجاسة ، وأكثرهم زهدا هو أبعدهم عن الطهارة وأوغلهم فـــى النجاســـات

---

(١)ج . ب كراوثر ــ الوضعية وظروف نشأتها ص ٤٣ ترجمة هناء فوزى المجلس الأعلى للثقافة .

(٢)الدكتور / فوزى حسن طلب ــ مسيحية العصور الوسطى ص ١٣١ .

(٣)فكان رجال العلم ينظرون إلى رجال الكنيسة نظرة تدل على السخط منهم ، والتبرؤ من الدين الـــذى إليـــه يدعون ، اعتقادا منهم أن الإله لايمكن أبدا إلا أن يكون نظيفا ، فحدثت فجوة واسعة بين رجال الدين المســيحى ورجال العلم فى أوربا المسيحية راجع للدكتورة فوزية محمد المعلم معالم الحضــــارة الإســـلامية فـــى البـــلاد المفتوحة ص ٢٥٧ ط مراكش .

والدنس [١] فانقلب حالهم وتغيرت نظرة الناس إلى الدين الذى يعلنون انتسابهم إليه ، بل كانوا من العوامل التى ساعدت على الخروج من تعاليم اللاهوت ، والوقوف أمام ما يدعون إليه وقفة مغايرة لما يتطلبه الايمان القلبى من تسليم ، فصارت مواقفهم معرفية لا قلبية كما صارت سابقة على تفهم الدين وليست لاحقة له .

وكان الرهبان يتجولون فى البلاد فيخطفون الأطفال من أحضان أمهاتهم ثم يلجأون إلى الهروب بهم بعيدا عنهن ، بغرض تنشئة هؤلاء الأطفال على الرهبنة الجافة ، والتقشف الشاذ ، ومع هذا فكانوا يمارسون معهم كل أنواع الكبت وعلى كل المستويات ، من حرمان إلى قسوة ، إلى خروج عن المألوف[٢]ومن ثم فقد كان ذلك من أسباب إنفضاض الناس عنهم، كما تنوعت انحرافات رجال الكنيسة التى تحمل التناقضات من كل ناحية .

ودفعت رجال العلم إلى احتساب هذه المخالفات عليهم ، ثم محاسبتهم عليها من معالم ذلك أن رجال الدين المسيحى كانوا يقولون إن العلم والورع يضيع بين أفخذا النساء ، حتى اعتبروا ظل المرأة رجسا يجب الإبتعاد عنه ، أو الفرار منه ، كما أن الحديث معها يبطل صالح الأعمال ، وكان ذلك مما يعلنونه فى الظاهر ، أما فى الباطن فكانوا يمارسون البغاء والقوادة حتى مع نجوم السينما ، وبنات الليل اللاتى أفصحن فيما بعد عن هذه العلاقات المشبوهة [٣]، فلما أذيعت على الناس إنخفضت أسهم الرهبان ، ونزلت درجاتهم من النفوس ، وباتت الثورة عليهم أمرا وشيكا تنتظر من يعلنها أو ينادى بها .

---

(١)مع أنه ما من نبى إلا وجعل الله من مكملات دعوته النظافة وفى الأثر انه طيب لا يقبل إلا طيبا نظيف يحب النظافة . وقال تعالى : "**يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين**"سورة الأعراف آية ٣١ .

(٢)الأستاذ / أبو الحسن الندوى ــ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ١٦٨ وما بعدها

(٣)الدكتور / فوزى حسن طلب ــ مسيحية العصور الوسطى ص ١٤٢ .

وزاد من أثر هذه الإنحرافات فى النفوس خطرا ما أعلنه الرهبان أنفسهم وظنه الناس مبدأ دينيا بينما هو لا يمثل سوى صيحة لإفشاء الرذيلة فكان الراهب راسبوتين [1] يقول : ان اقتراف الخطيئة مقدمة ضرورية لالتماس المغفرة ، ومن هنا صاحبته النساء من جميع الطبقات ، ولازمته أينما توجه ، بل أنه جاهر بتقبيلهن فى الشوارع العامة ، وأثناء الإشتراك الماجنة ، وأسرف فى الدعارة دعوة لها وممارسة ، ومع ذلك لم ينتقص من منزلته الكهنوتية [2] ولم ينزل به أى لون من ألوان العقاب الكنسى الذى كان ينتظر أمثاله ممن يخالفون تعاليم الكتاب المقدس ، رغم أنهم لم يكونوا من رجال اللاهوت .

وفى الوقت الذى كان رجال الدين الكنسى يمارسون هذه الإنحرافات بأنواعها المختلفة ، وعلى أوسع نطاق كان رجال العلم عاكفين فى المعامل يحاولون إجراء التجارب والمزيد منها ، كما يعملون على فك معضلات القضايا العلمية [3]، ويحرصون على الإحتفاظ لأنفسهم بقدر من الإحترام داخل أفكار الناس ووجداناتهم ، وقد مكن ذلك لهم حتى يدخلوا قلوب الناس من باب العطف عليهم أو الحب لهم ، دون نظر إلى نوع العلم الذى يمارسون المهم أنه ليس صورة من الصور التى ألفوها لرجال الدين .

فلما اتسعت المساحة لهم فى نفوس الناس ، لم ينضبط هؤلاء العلماء على ناحية بحثية بعينها ، كما دخل إليهم من ليس منهم [4]، ومن ثم ظهرت فيما بعد

---

(١)يطلقون على راسبوتين اسم الراهب الشيطان ، كما يطلقون عليه اسم الشيطان المقدس لأنه تمكن من التسلل إلى قيصر روسيا لمعالجة ولى العهد ثم سيطرعلى القصر وسياسة الدولة وأنزل بها مشكلات سياسية واقتصادية أعتى خطرا وأشد ضررا . راجع لجروج الليطانى ــ رهبان العصور الوسطى ص٢٥٣ ترجمة عبد العاطى رضوان .

(٢)كامنكا ــ الأسس الأخلاقية للماركسية ص ٤٨ ترجمة مجاهد عبد المنعم .

(٣)الدكتور / عبد العظيم محمد أبو تفاحة ــ المسيحية قضايا ومشكلات ص ١٣١ .

(٤)الدكتور / عبد الله السيد حسين زكريا ــ أوربا والعصور الوسطى ص ٤٧ .

الإنفلاتات التى تحدثت باسم العلم ، أو سمحت لنفسها أن تتحدث باسمه ، وتقبل الناس هذه الأفكار أول الأمر على أنها رد فعل طبيعى لسلوكيات رجال الدين الكهنوتى ، ويمكن اصلاح ما بها من تجاوزات فى مستقبل الأيام ، ولكنها صارت كالفرس الجامح أو كالدخان والشرر المتطاير ، لم يتمكن العقلاء من إرجاعها إلى الصواب ، أو إعادتها إلى الأصول الصحيحة فظهرت الوضعية كما ظهرت البراجماتية ، والماركسية والعلمانية ، وغيرها من الأفكار والمذاهب الهدامة التى ظهرت فيما بعد ، أو التى كان لها سبق فى الوجود عن غيرها مما سلف ذكره .

العامل الثانى : محاربة العلم عن طريق محاكم التفتيش :

ترددت فى أوربا أبان العصور الوسطى عبارات واسعة ، وأحكام لم تقم على أسس صحيحة ، وكلها أتقن وضعها آباء اللاهوت ، بعضها صار يمارس ضغوطا على العلم والعلماء الذين لاهم لهم سوى قضايا العلم المعملى التجريبى ومشكلاته ، وتناول هذه المشكلات بعيدا عن الدين الذى تدعوا إليه الكنيسة ويتمسك به الآباء الكنسيون ، وبعضها كان يمارس نوعا من العنف على نوعية من الفلاسفة الذين كانت لهم اتجاهات نقدية فى بعض أحكام الكتاب المقدس كالتى تتعلق بعمر الكون ، وتاريخ وجوده إلى غير ذلك .

وإذا كان اليونانيون قد حاربوا سقراط [١] وإنتهى الأمر بإعدامه ، فإن

---

(١)وجد ما بين ٤٦٩ ـ ٣٩٩ قبل الميلاد فى أثينا من بلاد اليونان ، عاش ودرس فى أثينا وكان له تلاميذ كثيرون منهم أفلاطون وغيره ، وكانت طريقته تقوم على المحاورة للناس فى كل ما يتعلق بالأخلاق والفضائل مستخدما لنفسه منهج التهكم والتوليد مما كان له أثر عميق فى الفلسفة والتربية معا ، وقد ترك فى نفوس تلاميذه آثارا عظيمة وحقق الكثير من النجاح فى هذا الجانب ، لكن السلطة السياسية اسرعت فى محاكمته ناسبة له الزيغ عن الدين ، وإفساد عقول الشباب ، وتحريض الناس على الثورة ، وقد انتهت تلك المحاكمة بالإعدام الذى تم تنفيذه فيه عن طريق تناول السم ، وكان بإمكانه الهرب لكنه آثر أن يعدم على أن يهرب ـ راجع الموسوعة الفلسفية للعلماء السوفيات ص ٢٤٥ وللدكتور عبد المنعغم الحفنى ـ الموسوعة الفلسفية ص ٢٤٤.

الكنيسة قد لجأت إلى ذات الأسلوب مع كل المفكرين متى تعرضوا لقضايـــا أو مشكلات المحت إليها بعض أسفار العهد القديم الذى هو كتاب دعـــاة اليهوديـــة وأحد مصادرها الهامة [١] أو ظهر من أحدهم الرغبة فى نقد النظريات العلميـــة التى قال بها أرسطو اليونانى ، لأن الكنيسة اعتبرت أن تعاليم أرسطو هى ذاتها تعاليم الكتاب المقدس .

مع أن أرسطو لم يكن مسيحيا وإنما كان يونانيا طهر فـــى بـــلاد اليونـــان ٣٢٢/٣٨٤ قبل الميلاد وكان ابوه طبيبا لأمينتاس الثانى ملـــك مقدونيـــا ولـــد باسطاغيرا فى شمال اليونان ، ورحل إلى أثينا ليتتلمذ على يد أفلاطون فـــى الأكاديمية مدة عشرين عاما ، ثم اختاره فيليب ملك مقدونيا مربيـــا لولـــده الأسكندر المقدونى الذى حفظ له الجميل ، وبعد وفاة الأسكندر أتـــهم الأثينيـــون ارسطو بالإلحاد ، بجانب إفساد عقول الشباب ففر منها ، وهو يقول لاحاجة لـــى لأن أهئ لأثينا فرصة أخرى لظلم الفلسفة والإجرام فى حق الفلاسفة [٢]، إذن لم يكن أرسطو أبدا مسيحيا ومع هذا تمسكت الكنيسة بتعاليمه ، ومن خالفها حاربته حتى لو كانت نهايته الموت بغض النظر عن الأفكار التى يدعو إليها وموقعـــها من الصحة والفساد .

والمتابع للحركة الفكرية فى أوربا إبتداء من القرن الخامس عشر الميـــلادى يرى الكنيسة فد فرضت نظام المحاربة للعلم وإضطهاد العلماء ، وتوسعت فـــى ذلك إلى أبعد مدى ، بل إن بعض قادتها كان يمارس ذلك على شـــكل يجـــرى الاستمرار فى مظاهره المختلفة ، ومن الأدلة عليه أن القديس أوغسطين ٤٣٠م

---

(١)تقوم اليهودية السياسية على ثلاثة مصادر هى : ١ــ الكتاب المقدس ــ العهد القديم ٢ــ التلمود ٣ــ بروتوكولات حكماء صهيون .

(٢)ف ماك كالستر ــ نشأة الحرية فى التربية ج ٢ ص٣٣٦ ترجمة أمين مرسى قنديل

هو الذى دعا إلى الإضطهاد وباشر خطوات تنفيذه بنفسه ، لأنه كان أوسع آباء الكنيسة نفوذا ، وأنه استطاع استغلال ذلك النفوذ لبعد مدى ، حيث كان يطارد المفكرين الأحرار وأصحاب العلم التجريبى ، وفرض على الناس نظاما كهنوتيا تجرى فيه الصرامة من كل ناحية ومارس التشدد فى كافة صوره .

وقد مضت الكنيسة تعمل جاهدة لقمع الحركات العلمية التى أطلقت عليها اسم الهرطقة ، فجندلت اهلها ، مما كان له أثره البالغ فى عرقلة النظر العقلى والتقدم العلمى [1]باسم الدين ، فصار الدين والعلم بالنسبة لوجهة نظر آباء الكنيسة عدوين ، كما أضحى رجل العلم ، ورجل الدين عدوين كل منهما يتربص بالآخر ، ويعمل جاهدا للقضاء عليه ، بغض النظر عن كونه تمكن منه أم لم يتمكن ، المهم هو السعى الدؤب الجاد فى القضاء عليه .

ولما كانت شوكة رجال الكنيسة هى القوية ، وصوتهم هو العالى ، وسياطهم هى التى تؤلم ، فقد كانت الغلبة لهم ، ولكنها لم تتحقق إلا من خلال مجموعة من العقوبات أو سلسلة من الاجراءات التى لجأت إليها الكنيسة فى حربها للعلم والعلماء منها :

١ ــ التأكيد على الثوابت القائمة :

أكدت الكنيسة ورجال اللاهوت أن تعاليم الدين الكنسى لا تؤخذ إلا من الآباء أولا ، ونصوص الكتاب المقدس ثانيا ، على أساس أن آباء اللاهوت هم وحدهم القادرون على تفهم كلمات الرب ، كما أنهم معباؤن من الروح القدس ، وهم فى ذات الوقت حلقة الإتصال بين جماهير الشعب ويسوع الإله الابن الفادى المخلص [2]فهم وحدهم الذين لهم الحق فى الحديث عن جملة الآلهة أو العائلة

---

(١)الدكتور / توفيق الطويل ــ قصة الصراع بين الدين والفلسفة ص ١٠ الطبعة الثالثة دار النهضة العربية ١٩٧٩م .

(٢)الدكتور / عبد العظيم محمد أبو تفاحة ــ المسيحية قضايا ومشكلات ص١٣١ طبعة أولى ١٩٥١ م .

الإلهية المقدسة ، كما أنهم أقدر الناس على عرض القضايا المسيحية بجانب الدفاع المتواصل عن هذه القضايا ، كأن الدين المسيحى صار حكرا على آباء اللاهوت وحدهم وليس لأحد الحق فى التعرف عليه بعيدا عن رقابة آباء الكنيسة.

وبنفس الحماس والحسم أكدت الكنيسة على أن ماتركه — أرسطو عن الإله يجب اعتباره أحد هذه الثوابت، بل أن المخالفة له أو محاولة الخروج عليه تمثل حروجا سافرا على عقائد المسيحية بالجملة ، رغم أن إله أرسطو يكاد لايكون بينه وبين إله الموعظة على الجبل — الذى تدعيه المسيحية — أدنى قربى [١]ومع ذلك دافعت الكنيسة عن أفكار أرسطو واعتبرت هذه الأفكار من القضايا الثابتة فى الدين المسيحى .

لكن هذه الثوابت القائمة كانت مخالفات رجال الكنيسة أنفسهم لها متزايدة ، بل ظهر مجموعة من الرهبان القسس الذى نبهوا إلى ما فى هذه الثوابت من أوجه فساد،على أساس أن الآباء الكهنوت ليسوا معصومين وإنما هم خطاة مذنبون وأن نصوص الكتاب المقدس لم تنل العصمة إلا من المجامع والمؤتمرات وليس من الله بارئ الأرض والسماوات [٢]وأن الأفكار التى دعا إليها أرسطو فى جانب الإلهيات إنما تعبر عن فهم اليونان للآلهة اليونانية المتزايدة [٣] ولا علاقة لها بآلهة المسيحية القائمة فى ثالوث مقدس ، تجئ فيه

---

(١)آرثر لفجوى — سلسلة الوجود الكبرى ص ٤٣ ط دار الكتاب العربى ترجمة الدكتور ماجد فخرى .

(٢)الدكتور عبد العظيم محمد أبو تفاحة — المسيحية قضايا ومشكلات ص ١٤٧ .

(٣)تعددت الآلهة فى بلاد اليونان إلى حد كبير ، بل كانت كل مدينة يونانية تحتفظ بسلسلة من الآلهة ، لكن هناك آلهة أقوياء يمثلون جملة الآلهة الكبيرة وهم الأحد عشر : ١— إله الحب ٢— إله البغض ٣ — إله الحرب ٤— إله السلم ٥ — إله الجمال ٦— إله المطر ٧ — إله النبات ٨ — إله الشمس ٩ — إله القمر ١٠— إله الليل ١١ — إله النهار ، ولست أدرى لماذا لم يجعلوا أيضا إلها للأرض وآخر للسماء راجع لتوكاريف الأديان فى تاريخ شعوب العالم ص ٣٨٣ ترجمة الدكتور فاضل ، ولأنطونى يانيف — آلهة اليونان ص ١٥٧ ترجمة أحمد عبد النبى — وكتابنا تأليه الديانات الوثنية للآيات الكونية .

عملية التعدد فى الآلهة كضرورة دينية تحملها العقيدة الكتابية .

إذن كلما تهاوت هذه الثوابت إنفتح الباب لنقد الفكر المسيحى ككل ، وكذلك انفتح باب إعادة النظر فى الإتجاهات العامة التى تحكـــم ســلوكيات الرهبــان والقسس بجانب درجات السلم الكهنوتى ، ولاشك أن ذلك النقد قد تبعه ظــــهور العديد من الحركات العلمية المنظمة التى راحت تعيد النظر فى هـــذه الثوابــت وتعمل على تعديلها أو إثبات بطلانها ، فكان من نتيجة ذلك ظهور العديد مــــن الإتجاهات الفاسدة ، والإعتقادات الخاطئة ، والمذاهب الهدامة ، ومنها الوضعيــة المنطقية،والوضعية الطبيعية ، والإجتماعية وغيرها من التيارات الفكرية التـــى كانت لها آثار سلبية على الإعتقادات والقيم والأخلاق التى جاءت بها رســـالات الله لهداية خلقه إلى الصواب ، وتعريفهم بالله الخالق العظيـــم ، وبيـــان أوجــه الطاعة له ، وكيف تكون ، كما بينت أوجه المعصية وعلى أية ناحية تجئ .

٢ ـ فرض الرقابة الروحية على القلوب :

تمادى آباء الكنيسة فى سلوكياتهم ضد العلم ورجاله ، ففرضوا من أنفســهم رقابة على عقول الناس وأفئدتهم ، ولذلك صارت تعقد محاكمات للأفراد حتـــى تحاسبهم على الأفكار التى تدور برؤسهم ، إذ لم تسمح بإقامة ندوات حوارية أو لقاءات فكرية ، أو إجتماعات ثقافية إلا بإذن مسبق من الهيئة الدينية ، ورعايـــة خاصة من الكنيسة التى تكون لها الولاية على عقول النـــاس وأفكـــارهم ، بـــل وصل الأمر برجال اللاهوت أنهم كانوا يجبرون الناس على تقديـــم إقـــرارات كتابية ، بأن إجتماعاتهم الثنائية ــ حتى لو كانت فى الطريق ــ العام لا تقـــترب من المسائل أو الطقوس الدينية [١].

---

(١) راجع كتابنا قضايا حبيسة فى الفلسفة الحديثة ص ٤٥ طبعة آل بسيونى الثانية ١٩٩٧م .

كما أنها فرضت على غير المنتسبين لرجال اللاهوت أن يقدموا بيانات تفصيلية عن أنشطتهم الحياتية ، وما يجول بخواطرهم الذاتية ، وكان العلماء التجريبيون من أكثر الذين تتم مراقبتهم على تلك الناحية ، فظهر لذلك آثار مدمرة قامت كرد فعل لما هو متبع داخل الكنيسة ، حيث أن السياط التى كانت بأيدى رجال اللاهوت الذين يرفعونها على من يريدون ، ويجلدون بها من يشاءون ، فأدى ذلك إلى تخوف كل مفكر على نفسه .

وصار من الضرورى إخفاء الأفكار من رقابة آباء الكنيسة فإدى ذلك إلى وجود نوع من التعاطف بين المفكرين فى أوربا رغم اختلاف إنتماءاتهم وتوجهاتهم الفكرية [1] وكان من معالم فرض الرقابة على عقول وقلوب الناس وقوع العديد من ضحايا هذه العمليات فى كثير من المواقف.

ويذكر المؤرخون أن أحد رجال الكنيسة فى مقاطعة أشتوت جارد شك فى ضمير مفكر من المفكرين فاستدعاه لجلسة إعتراف خاصة ، ولما مثل المفكر بين يدى القس راح يساله عن مجمل أفكاره ، ويبدو أن إجابته لم تكن لتقنع ذلك القس ببراءته ــ فلما داخلت القس الحيرة مارس ضغوطا وتهديدات على المفكر ولكنها لم تتحقق له نتائجه ، فانطلق ومساعداه بضرب رأس ذلك المفكر فى جسم صلب آملين أن تبرز الأفكار من رأس الرجل رغما عنه [2] .

وظلوا يفعلون ذلك بالرجل حتى فارق الحياة وهم فرحون يتصايحون بالنهاية المأساوية التى رأوها للرجل متناسين أنهم أرتكبوا محرما ، وخالفوا للأنجيل

---

(١) وكما يقولون فإن المأساة توحد الجهود المختلفة وتدفع إلى تجميع القوى حتى تكون متألفة فى وجه الكارثة فإذا ما اندفعت رجعت الأمور إلى طبيعتها .

(٢) الدكتور فوزى السيد عطا الله من ضحايا العصور الوسطى ص ١٣٧ طبعة دار منار ١٩٧١م .

قواعدا ، الم يقل ذات الأنجيل لدعاة المسيحية أحبوا أعداءكم باركوا لاعنيكــم ، أحسنوا إلى مبغضيكم [١] .

ألم يقل لهم أيضا إن أخطأ إليك أخوك فأذهب وعاتبـــه بينــك وبينــه وحدكما إن سمع فقد ربحت أخاك ، وإن لم يسمع فخذ معك واحدا أو اثنين لكــى تقوم كل كلمة على فم شاهدين أو ثلاثة [٢]وإن لم يسمع منهم فقل للكنيسة وإن لم يسمع من الكنيسة فليكن عندك كالوثن والعشار [٣] الذين لا تتعامل معهم إذ ليـس من اليسير ابعادهم عن شهوات أنفسهم ، والسيطرة على إنفلاتاتهم الأخلاقية ، أم أن دعاة المسيحية قد أهملوا تلك النصوص التنظيميـــة ووضعــوا بــدلا منـــها نصوصا أخرى ثم تمسكوا بها مترنمين مع رسالة بولس " لئـــلا تكونــوا عنــد أنفسكم حكماء " [٤].

إن هذه الرقابة التى فرضت من قبل الكنيسة على عقول مفكرى أوروبا قـد أصابتهم بخيبة أمل من رجال اللاهوت ، ومن نصوص الإنجيل أيضا ، إذ كيف يسلب آباء اللاهوت حريات الناس باسم الدين رغم أن تعليمات بولس فى رسالته الأولى إلى أهل كورنثوث يقول فيها حسن للرجل أن لا يمس إمرأة ولكن لسـبب الزنا ، ليكن لكل واحد إمرأته ، ولكل واحدة رجلها ، ليوفى الرجل المرأة حقــها الواجب ، وكذلك توفى المرأة حقه ، ليس للمرأة تسلط على جسدها بل للرجـــل وليس للرجل تسلط على جسده بل للمرأة ، لايسلب أحدكم الآخر إلا أن يكـــون على موافقته [٥] .

---

(١)الكتاب المقدس العهد الجديد انجيل متى ١٢/١٨

(٢)هذه الإجراءات التى رسمها انجيل متى وضعها على سبيل الممارسة العملية لها وبالتالى فإذا خالفـــها أحــد رجال اللاهوت فقد أعلن اعتزامه التخلى عن مصدر دينه وكذلك الإنفضاض عن زيه بجانب وظيفته .

(٣)إنجيل متى ١٨ /١٥ .

(٤)العهد الجديد رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل رومية ١١ / ١٥ .

(٥)العهد الجديد رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوث ٧ / ١ — ٦ .

فهل لاحظ آباء الكنيسة أن أجسام هؤلاء المفكرين إنما هى ملـــك لنســـائهم أيضا وليست ملكا لآباء الكنيسة ، أم أنهم ألقوا بنصوص كتبـــهم فـــى عـــرض الطريق ثم طفقوا يدوسونها بنعالاتهم ، أم أنهم يتمسكون ببعضها ويلقون بالبعض الآخر ، وبخاصة أن هناك نصوصا قد صنعوها بعناية وصاغوها فـــى أشـــكال خاصة خولت لآباء الكنيسة أن يفعلو بالآخرين ما يشاءون [١]بغض النظر عـــن أية اعتبارات أخرى .

يقول متى: أقول لكم إن كل ماتربطونه على الأرض يكون مربوطـــا فـــى السماء ، وكل ما تحلونه على الأرض يكون محلولا فى السماء ، وأقـــول لكـــم أيضا إن اتفق إثنان منكم على الأرض فى أى شئ يطلبانه فإنه يكون لهما مـــن قبل أبى الذى فى السماوات ، لأنه حينما اجتمع اثنان أو ثلاثة باســـمى فـــهناك أكون فى وسطهم [٢]أبارك خطوهم ، واحظى بصحبتهم ، وأكـــون فيـــهم كمـــا يكونون ملتصقين بى لا نفترق أبدا ، وبهذا اعتبر آباء الكنيسة أن من حقوقـــهم ممارسة كل ما يريدونه على الآخرين ، دون اعتبار لأى شئ انهم قـــد منحـــوا تفويضا من الرب يمارسون به كل سطو وبكافة الأنواع على أفراد الشعب .

ورغم سطحية الأفكار التى حملتها ذات النصـــوص الكنســـية إلا أن آبـــاء اللاهوت استخدموها كوسيلة من وسائل تثبيت السلطة الكهنوتية والقضاء علـــى الإتجاهات التى تنبئ عن بواكير الحركات العقلية ، فأدى ذلك إلى نفرة النـــاس من تعاليم الدين المسيحى وإنعزالهم إلى غيره ، ثم الإنخراط فى جماعات معينـة على دفع هذا القهر، وإبعاد أطياف الظلم ، وخيالات الاستعباد ، بغض النظـــر عن النتائج المترتبة .

---

(١)الأستاذ/ رجب السيد على صبيح — المسيحية أصولها والغايات ص ٥٣ ط أولى ١٩٤٧م .

(٢)العهد الجديد أنجيل متى ١٨ / ٢٠ .

من ثم يمكن اعتبار فرض الرقابة الوحية التى قامت بها الكنيسة فى أوربا من أهم عوامل ظهور حركات فكرية تحت اسماء مختلفة غايتها اعلان الرفض الكامل للتعاليم الكنسية والرد على ما تجئ به تلك التعاليم من خلال نتائج العلم المعملى التى ينتهى الأمر معها إلى تكذيب ذات النصوص وابطال نفس التعاليم.

٣ ـ فرض العقوبات المتنوعة مع تغليظها :

دأبت الكنيسة فى العصور الوسطى على فرض العديد من العقوبات كوسيلة من وسائل قهر المفكرين وكان ذلك يتم باسم الدين ، وأضافت إلى هذه العقوبات الظرف المثقل [(١)] كما أن هذه العقوبات قد وضعت من غير أن تكون هناك جرائم مقننة ، بدليل أنهم فرضوا الرقابة على المطبوعات الثقافية وأدواتها ، إبتداء من ورق الطباعة ، وإنتهاء بالالآت التى تقوم بها بحيث لا يقع شئ منها فى أيدى العامة والخاصة إلا بإذن مسبق من الكنيسة ، فإذا تم شئ منها على سبيل النسخ أو الطبع صار ذلك العمل جريمة تستوجب عقوبة ، مما حدا بالمفكرين لتكوين اتجاهات معاندة ، تمثلت تلك الإتجاهات فيما عرف داخل أوربا آنئذ بالحركات التنويرية.[(٢)]

ولا أغالى إذا قلت أن الكنيسة قد نوعت فى كل هذه العقوبات التى برزت من غير جرائم ترتكب ، وما ذلك إلا لإبراز سلطة رجال اللاهوت وقد امتدت فشغلت الناس أناء الليل وأطراف النهار ، ودفعت بهم إلى لجج الشك فتقاذفتهم

---

(١)يذهب علماء القانون إلى أن كل جريمة يمكن أن يراعى فى تقييمها العقابى الظرف المخفف الذى دفع لارتكاب الجريمة، والظرف المثقل الذى أدى إلى نفس النتيجة، واختلاف الظرفين ينتج عند اختلاف العقوبتين فمثلا إذا دخل رجل إلى فراشه فوجد آخر يزنى بامرأته فقتله دفاعا عن شرفه ،فان العقوبة هنا تكون مخففة لذات الاعتبارات وهى عملية الزنا وكونها فى الفراش الخاص والمكان الآمن بهم ،أما إذا صادفه رجل وحاول سلب امرأته منه دون أن تكون معه الوسائل التى تحقق أمنيته فقتله، مع أنه كان بإمكانه الابتعاد وزوجه عنه، فإن العقوبة هنا تكون مثقلة لتجاوز القاتل الحدود ـ راجع المستشار محمد حليم البهنساوى " الجريمة بين النص القانونى والشرع الإلهى ص ١٨٧ طبعة دار منشاة الأسكندرية ١٩٧١م .

(٢)الدكتورة / نازلى إسماعيل ـ مقدمة كتاب كانت مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة ص ١٩ .

أمواجه العاتية ، وبعضهم سقط إلى الأعماق ، بينما البعض الثانى التقمته الموجات الغائرة وراحت تخبطه فى شواطئ القلق ، أو تلقى به بين مناقع الحرمان ، بحيث إذا افاق من غفوته فانه ينطلق خصما عنيدا للدين كله .

أجل لقد فرضت الكنيسة عقوبات على من يخالف تعاليم أرسطو تلميذ أفلاطون ودافعت عن كل منهما ـ أرسطو والتعاليم ـ دفاعا مستميتا ، حتى وإن أدى ذلك إلى تحديد الإقامات لبعض الأفراد ، والتصفية الجسدية للبعض الآخر مهما كانت آراء أرسطو مخالفة للواقع العلمى ، ومهما كانت آراء المناهضين لأرسطو موافقة للبحث العلمى والواقع العملى .

فمثلا نسبية الأرض وكرويتها وموقع الأرض من الكواكب الأخرى بجانب نظرية النسبية والتناسب الرياضية ، مع أن الفكر المسيحى الدينى قد اختلط بالفكر الأفلاطونى اليونانى حتى صار هو المجموعة التى كونت لاهوت العالم المسيحى فى القرون الوسطى وفلسفته الكونية [1] إلا أن آباء الكنيسة قد ساقوا الناس إليها سوق الأسير إلى مثواه الأخير، ولم يكن لأحد الحق فى الخروج عليهم أو حتى مجرد مناقشة ما إليه يتجهون .

وقد بالغوا فى العقوبات التى فرضوها كما بالغو فى تغليظها حتى ألقوا مخالفيهم أحياء فى أتون النار ، أو ألقوهم إلى الأسود الجائعة ، والحيوانات المفترسة تلتهمهم ، فينكسر كل قلم جرئ ، ويختفى كل رأى حر، مع أن تعاليم المسيح تنادى أحبوا أعداءكم باركوا لأعينكم ، أحسنوا إلى مبغضيكم .

وقد تفنن آباء الكنيسة فى طرائق التعذيب ، وكذلك فى أساليب المتابعة للخصوم فأنشأوا شبكات مهمتها مطاردة العلماء ، وتصفيتهم جسديا عن طريق تكوين فرق إغتيالات تكون مهمتها تعقب المخالفين الفارين وتوقيع العقوبات التى

---

(١)آرثر لفنجواى سلسلة الوجود الكبرى ـ محاضرات فى تاريخ الفكر الفلسفى ص ١٢١ ترجمة الدكتور ماجد فخرى طبعة دار الكاتب العربى بالإشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ببيروت .

صدرت عليهم ، مهما كانت المحاكمات صورية ، أو قام بها الشواذ من القسس والقساة من الكرادلة وغلاظ الأكباد من الشمامسة دون مراعاة لوضع من يطاردون على الناحية السياسية ، وما إذا كان نزيلا فى تلك البلاد أم مواطنا أصليا (١).

كانت سياط رجال اللاهوت ، وأعواد المشانق وأدوات التعذيب توحى كلها بأن أوروبا على موعد مع حركة فكرية لن تبقى أو تذر، إنها حركة ينطلق فيها المعقول مع اللامعقول ، حركة تحل فيها المصطلحات العلمية محل المصطلحات الدينية فى النفوس كما تحل فيها لغة التحاور بجنباته المختلفة بدل لغة الأمر والنهى ، وكذلك تأتى فيه قواعد العبث واللامعقول تطارحان القاعدة المنظمة فتحل بدلا منها أمورا شبه بالأدوات الرياضية التى اختلطت بمعاول الهدم ، وما يستخدمه العاملون فى المذبح.

فالأولى منفثه عن النفس ، والثانية مثقلة للبدن ، بينما الثالثة أداة تدمير أو تعمير ، بدليل أن بيتر راموس peter Ramose قد نجح فى إقناع الرأى العام بفلسفة يصوغها على نمط معين جعل هدفها الأول هو تزويد العلمانيين بالأدوات العقلية التى يقوضون بها امتيازات القساوسة ، وضرورة القرابين بجانب قوة الكنائس الرسمية (٢) .

وربما بالغوا فى هذا الهدف حتى تربعوا على قمة سمحت لهم باعادة حساباتهم فى مواجهة سيطرة الكهنوت وإعلان إنتصارهم على الكنيسة ورجالها،

---

(١) والمؤسف أن هذه الأفعال قد تمت معكم من جاليليو وديكارت حينما كان بالسويد فى ضيافة الملكة كريستينا وتمت مع عمانويل كانت حينما سافر إلى بروسيا كمهجر الفكر، ولم يطل به المقام هناك لكثرة المطاردات ، وكذلك الحال مع فردريك فيتشر فآوى إلى عائلة من النبلاء التى كان قد عرفه بها صديقه توماس هيلر ومع نيتشه والعائلة التى أوى إليها بعد أن عرفه بها صديقه الموسيقى فاجنر زوج كوريما .

(٢) هربرت شيندر تاريخ الفلسفة الأمريكية ص ١٣ ترجمة الدكتور محمد فتحى الشنيطى طبعة مكتبة النهضة المصرية .

بل ونصوص الدين التى تزعزعت فى النفوس ، وصارت بحاجة إلى رجل دين مثقف يدرك المشكلات التى تواجهه ويعمل على تقديم الحلول المناسبة لها .

العامل الثالث : إنتشار نتائج العلم المعملى :

من المعروف أن كل علم تظهر له نتائج تتناسب مع ذات العلم بحيث تكون تلك النتائج بمثابة الخواتيم ، أو القرارات النهائية ، لأن النفس إذا لم تجد نتائج ملموسة فيما تفعل فأنها لاتتوجه إليه ، طبقا لما هى مفطورة عليه، والعقلاء جميعا فمتى مارس الواحد منهم عملا من الأعمال ولم تأته النتائج فإنه ينصرف عنه إلى غيره ، اللهم إلا أن يكون صاحب عقل قاصر عن إدراك الأمور على حقيقتها [١]أو يكون من ذوى النفوس التى يرتد بصرها إليها وهو حسير ، ومثل هؤلاء لا يعتد بهم ، كما لا عبرة بالذى غليه ينتهون من رأى ، أو يقفون عليه من نتائج .

والدراسات التى سبقت انتهت إلى أن العقائد المسيحية لا تقدم نفعا أو نتائج عملية ملموسة ، مما دفع الكثيرين إلى اعتبارها مشكلات لا حلول لها وقاموا بمهاجمة ما تدعوا إليه[٢] من خلال أعمال أدبية كالرواية الشهيرة أنا والمسيح لأنتونى هوبير ، الذى تندر فيها من العقائد المسيحية والعادات والطقوس الكنسية [٣] .

---

(١) الدكتور / محمد حسن ظريف ــ الفروق الفردية والنتائج العلمية ص ٥٣ ط أولى منشأة المعارف .

(٢)الدكتور / أبو المجد عز الدين خير الدين ــ العقائد المسيحية ص ١٧٣ .

(٣)وقد ترجم هذا العمل إلى العديد من اللغات وبعض الكنائس قدمت إعتراضات عليه لكنها لم تفلح فى منعه من العرض على الجمهور كعمل مسرحى مرتجل ــ راجع للدكتور محمد السيد زاهر الأدب والعقائد والمسرح فى أوربا ص ٢١٧ طبعة مطبعة الأسد بدمشق وراجع كذلك فن المسرح لتوماس أجرى ، وفن كتابة المسرحية الساخرة لأنتونى جراسك ، وأغلب هذه الأعمال تم نشره حديثا من خلال مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر.

لأنها تعتمد على حوارات مكتوبة بعيدة تماما عن الواقع فصار هناك إنعزال تام بين الفكرة والمفكر والواقع العملى ، وذلك ما دعا إلى اعتبار ما تـأتى بـه الأسفار المقدسة فى كل من اليهودية والمسيحية ممثلا لنزعة تغلب عليها ملامـح التعصب للجنس .

كما أن هذه الأفكار التى فصلت بين حياة الناس والواقع المعاش لم تكن فى جوهرها سوى مجموعة من المنقولات عن المصادر المختلفة ، بعضها يرتد إلى فكر آباء الكنيسة ، بينما البعض الآخر تفضحه ملامحه المقتبسة مـن الديانـات الوثنية ، وخاصة المصرية القديمة[١] ، كما أن هذا التراث قد سلق الناس بألسـنة حداء ، فجمع بين أمرين كلاهما قاس ، وصارت تلك النصـوص تدفـع إلـى مهاجمة الكنيسة ورجالها بحيث يستخدم كل طريقته التى عالج بها هذا الهجوم.

وكيف لا ورجال الكنيسة دفنوا رؤسهم فـى رمـال أفكـارهم المتبلـه فأسقطت على وجدانات الناس مقاطع متوهمة لا علاقة لها بأصل شـرعى ، أو قاعدة صحيحة ، فى ذات الوقت أضاف رجال الكهنوت وقـودا جديـدا بغيـة مواصلة المعارك التى ابتدؤها[٢] فلجأوا إلى تقديم تفسيرات جديدة للأناجيل قائمة على فهم ضيقى الأفق من اللاهوتيين حيث جاءت تلك التفسيرات غامضة بـل محاطة بأكثر الأمور غموضا .

ونظرا لذلك فقد حرص اللاهوتيون على توسيع الشقة بين تعـاليم الديـن ونتائج العلم مستخدمين وسائلهم العديدة ، ومن أبرزها أن الدين والعلم عدوان لا يلتقيان ، وأن الدين يجب أن تؤخذ نصوصه كما هى من غير تفكير فيها ، بـل

---

(١)الدكتور / احمد عبد العظيم ذكى — أثر الديانة المصرية فى المسيحية ص ١٣٧ .

(٢)كان حرص آباء اللاهوت على استمرار المعارك أمرا ضروريا من وجهة نظرهم ولذلك لم يتوقفوا عن هذه المعارك ، وكانوا يدفعون الناس إليها .

كانوا يقولون خذ وأنت أعمى ، كما يردون مقولة ما يذكره الـرب لايفهمه إلا الآباء .[١]

وعلى حين كان رجال الدين يدفنون رؤسهم فى رمال أفكارهم ، وتبحث مفرداتهم اللفظية عن نتائج فلا تجدها ، كانت نتائج العلم المعملى تقفز بأصحابها للأمام ، وتقدم فوائد عملية يصعب التنبؤ بها ، فمثلا اكتشاف عالم الميكروبات وعالم الجراثيم ، واكتشاف الدورة الدموية ، وكذلك اكتشاف العديد من القضايا العلمية فى مجال علم الحياة حقق طفرات متوالية ، كما صاحبته قفزات صحيحة ونتائج إيجابية [٢]فاندفع الناس إليه إندفاع العطشى إلى الماء البارد بمجرد رؤيته الكوب الذى يحمل فيه ، سواء تحققت له نجاحات فى هذا الجانب على وجه تفصيلى ، أم أخفق فى بعضها ونجح فى البعض الآخر [٣]فى نفس الوقت ظهرت نتائج العلم التجريبى فى مجال علم الطبيعة وعلمى الميكانيكا ـ الديناميكا والأستاتيكا .

بل تم إكتشاف علوم واستحداث أسباب كانت فى الماضى صورة من صور أحلام تتراءى للنائمين كعلم الفلك مثلا ، وعلم الهندسة الوراثية وعلم الهندسة الفيزوكيمائية ، كما ظهرت ارهاصات توحى بعلوم كل من الميكروفيزيا ، وشبكة المعلومات وغيرها [٤]مما صار فى الوقت الحالى أمرا مالوفا ، وكانت فى الماضى أحلاما تتراقص أمام عقول الغافين .

---

(١)الدكتور / محسن محمد عبد الصمد ـ دراسات فى المسيحية ص ١١٢ طبعة ثانية ١٩٦١م تونس .

(٢)الدكتور / سامى محمد اسعد ـ مناهج البحث العلمى ص ١٠٧ الطبعة الثانية ١٩٧٣م .

(٣)الدكتور / فوزى محمد الصغير ـ أوربا والنهضة العلمية ص ٧١ ط أولى عام ١٩٧١م .

(٤)هذه المعلومات والمعارف التى تم تنفيذها وبحث مسائلها فيما بعد كانت أطيافها تهاجم أصحاب البحث العلمى فى المنام وتزاحم أفكارهم الأخرى ، بل كان تحقيقها يمثل صورة من الأحلام أو ضربا من الخيال .

ولما عجزت تعاليم الكنيسة عن الوفاء بمتطلبات الناس الدينية والدنيوية ، تزعزعت سلطة رجال الدين ويومها تزعزعت كل سلطة ، فشك الناس وأنكروا وثاروا على التقاليد كما ثاروا على العرف المحفوظ ، ثم أذنوا لعقولهم أن تفكر وتقدر ، واعتمدوا على العقل وحده فى فهم جميع الأمور ، وبخاصة ما كان مقصورا على دعوى ذوى السلطان من أصحاب الدنيا والدين ، انتقل ذوو الرأى من الإيمان بالدين إلى الإيمان بالعقل حتى إنتهى بهم العقل عند حدوده ، فتحولوا من الإيمان بالعقل إلى الإيمان بالعلم الحديث .[1] وبالتالى خسر رجال اللاهوت فى أوربا رصيدا كانوا يعتمدون عليه كما فقدوا قاعدة هامة وهى الأرضية التى يعتمد عليها رجل الدين المتمثلة فى احترام الناس لآرائه ، وتقديرهم لأفكاره .

وهكذا تحولت بعض العقول فى أوربا من الإيمان بالدين الكهنوتى إلى الإعتقاد فى العلم الحديث ونتائجه ، التى صارت ملامحها بارزة ، كما أن آثارها لايمكن طمس معالمها ، ساعد على ذلك الاحتكار المتواصل الذى أدعته السلطة العليا فى الديانة الكاثوليكية لنفسها من الحكم باسم الإله ، وحقها وحدها ــ متمثلة فى البابا ــ فى تفسير الكتاب المقدس ، يستوى فى ذلك البابا وأعضاء مجلسه من الطبقة الروحية الكبرى .

كما أن الدين المسيحى قد ساوى بين نص الكتاب المقدس وافهام رجال الكنيسة الكاثوليكية ، وجعل التثليث عقيدة أصيلة فى المسيحية ، كما جعل الاعتراف بالخطأ مجلبة لصكوك الغفران التى تعتبر رسما وتقليدا من رسوم العبادة [2] ، أو طقسا من الطقوس التى يتمسك بها المسيحيون وبخاصة أصحاب المذاهب التقليدية .

---

(١) الأستاذ / عباس محمود العقاد ــ عقائد المفكرين فى القرن العشرين ص ٢٧ ط مكتبة غريب بمصر .

(٢) الدكتور / محمد البهى ــ الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ص ٢٩٤ مطبعة وهبة بالقاهرة .

من ثم فلا نعجب إذا ما اشتعلت الثورة على الديانة المسيحية ، وانقلب الناس إليها يفتقدون الثقة فى المؤلفات التى تصدر عن رجالها ، كما يشعرون بالاغتراب عنها ، وقد مهد ذلك للعديد من الأفكار حتى تقفز على السطح ، ولا مانع من أن تسبح كلها فوق الواح ساخنة ، بعضها يرجع إلى دلالة الألفاظ الكلية وعلاقتها بأفرادها الجزئية ، وبعضها يحمل على إنكار المعنى الكلى باعتبار وجوده الخارجى ، حيث ظهرت مبادئ الفلسفة الأسمية التى نظرت للمعانى الكلية على أنها أسماء فارغة ، أو عبارات جوفاء ، بينما أعتبرت المعنى الكلى ذاته كائنا منطويا فى دلالة اللفظ الكلى على مسمياته الجزئية دون أن يكون لذلك المعنى وجود خارجى ، أو وجود فى التصور الذهنى .(١)

إذن كان من نتائج هذا الواقع ظهور نزعة علمية شديدة الإهتمام بالعلم التجريبى وتطبيقاته العملية التى هى فى جوهرها وسيلة من وسائل سيطرة الإنسان على الطبيعة وإخضاعها لاتجاهاته العامة ، بل ودفعت به حتى يبحث عن وسائل علمية جديدة تحقق له المزيد من الإستقرار النفسى ، والرخاء الذى يتطلع إليه ، والقفزة العلمية الهائلة التى تعلقت آماله بها .(٢)

وخلاصة القول : أن نتائج النصوص الدينية والتفسيرات اللاهوتية للكتاب المقدس لم تحقق لأصحابها نتائج ملموسة ، لكن الإحتكام إليها أو التواصل معها والإعتناء بها مع عدم جدواها فى الوقت الذى نجحت فيه نتائج العلم وأمكنها

---

(١)جون ديوى — المنطق نظرية البحث ص ٣١ ترجمة الدكتور زكى نجيب محمود ط دار المعارف بمصر ومن الواضح أن ظهور المدرسة الاسمية قد بدت ملامحه مع مطالع القرن الحادى عشر وكان بمثابة الممهد القوى لانتشار المذاهب الآخرى التى كان لها جميعا دور هائل فى إبراز دور الثورة على الفكر الدينى الكنيسى بصفة عامة والكاثوليكى بصفة خاصة .

(٢)الدكتور / عبد العظيم السيد خليل — الفلسفة الحديثة ص ١٥٣ ط أولى ١٩٧١م .

تحقيق تلك الغاية المتمثلة فى النتائج الإيجابية مما جعل الغربيين يفتنون بالعلم التجريبى ونتائجه ،حتى أفسحوا له فى صدورهم أمكنة عديدة له [١] .

كما لم ينشغلوا بالإنفلاتات الدينية التى صاحبت هذا الإتجاه العلمى ، بل اعتبروها رد فعل موقفى لحركة عاقلة تبحث عن الخلاص من طغيان آباء الكنيسة ، وتفسخات رجال اللاهوت المسيحى ، وتسعى للإنقضاض على النصوص التى يتمسكون بها حتى تفقدها قدسيتها .

من ثم انفصمت عرى المودة بين الدين الكنسى وبين العلم ، كما تقطعت حبال الود بينهما وصار أغلب الناس فى إنحياز شبه تام للعلم ونتائجه دون أن يقيموا لنصوص اللاهوت أو تفسيرات رجاله وزنا ، كما لم تدفعهم للخلف الإتجاهات الفكرية التى أخذت فى القفز المتواصل السريع، أنهم قد تعلقوا بالحياة فى صورها البهيجة حتى صار من الصعب إرجاعهم إلى العصور الوثنية التى قنعت بجلسات الإعتراف وصكوك الغفران [٢] كما هيمنت عليها عقليات أكل عليها الزمان وبال .

أجل أنفردت مسائل العلم التجريبى بالمنهج الذى اختارته ، وهو ترتيب المسائل على مناهج متميزة تقوم على التجربة الهادفة أو الملاحظة العلمية بجانب اختيار الموضوع القائم على الطبيعة وموادها الخالصة ، واستعمال القياس العلمى فى مقابل القياس الأرسطى الذى اعتقدت الكنيسة فيه ولم تفارقه [٣]رغم أنه لايهتم

---

(١)الدكتورة / فوزية السيد أبو العطا — مناهج البحث قديما وحديثا ص ١٤٧ ط الدار الجديدة بتونس .

(٢)جلسات الاعتراف طقس من الطقوس التى تجئ فى المسيحية أما صكوك الغفران فهى البدائل لهذه الطقوس كما أنها المعبرات عنها وكلما اتسعت مفاهيم جلسات الاغتراف كلما كثرت أشكال صكوك الغفران ، حتى أنها فى بعض الأحيان تقلب حياة الفرد المسيحى المعتقد لها وتستولى عليه من كل ناحية ، ولذلك فبعض أصحاب هذا الاتجاه أخذوا فى تخفيف هذه الجلسات والتقليل منها كما ذهب بعض آخر إلى الإنحراف الكلى عنها . راجع لندكتور فوزى حسن طلب مسيحية العصور الوسطى ص ١٤٥ .

(٣)الدكتور عبد العظيم السيد خليل — الفلسفة الحديثة ص ١٥٧ .

إلا بمطابقة المقدمات للشروط ، حتى وان خالفت الواقع العملى [١] ، المـــهم أن يقع توافق بين المقدسات من خلال الشروط المستوفاة ، واعتبار الكم والكيـــف بجانب باقى الشروط الأخرى والقواعد المتفق عليها .

وقد مهدت هذه الظروف لظهور كثير من المذاهـــب والتيـــارات الفكريـــة بعضها لم تعرف أصوله من رؤسه ، وبعضها لم يتمكن القائمون به من احكـــام أمرهم بشأنه وهو ما يعرف باللامعقول لأنها اضطربت فيه مقدمـــات وأســـباب ونتائج [٢]، أما المذاهب التى افترقت عـــن هـــذه والـــتزمت البحـــث العلمـــى الموضوعى كجانب معرفى فقط دون أن تنزله منزلة الإله ، وكشفت عن صوابه من الخطأ ، وباينت بين الأهداف والغايات ، وبين الوسائل التى توصـــل إلـــى نتائج صحيحة مقبولة من حيث الأحكام الشرعية فطالبت بها كمنهج علمى فقـــد صارت مذاهب معقولة [٣].

أما التى لا توصل إلى نتائج مقبولة ولا تعتمد على منهج علمـــى دون أن يكون لشئ من ذلك اثر على العقيدة والأخلاق ، فإنها تكون لا معقولة أيضا مـــن ثم فان الفرق بين المعقول واللامعقول عندى هو ذات الفرق بين الفكر الملـــتزم بالهدى الإلهى فى العقيدة والأخلاق مع الجانب المعرفى، وبين الفكر الذى يفترق عن الهدى الإلهى فى ذات الجانب وهى مسالة مهمة ، وأمر يحتاج التركيز عليه

---

(١)كانت هذه المسألة من العيوب التى ذكرها خصوم المنطق الأرسطى ، واعتبروها مثالب على أساس أنه لايقدم نفعا ، كما أن نتائجه قائمة فى مقدماته ، ثم هو يهتم بالشكل ولا يهتم بالجوهر ، وقد فند أنصار المنطق الأرسطى كل هذه الشبهات . راجع حاشية الباجورى على متن السلم وحاشية الأنصارى على متن السلم ، وحاشية الملوى على شرح السلم .

(٢)وهذه المذاهب كثيرة يصعب حصرها جميعا ، ولكن قد أشارت إليها المؤلفات العديدة ـــ راجع للأستاذ محمد قطب مذاهب فكرية .

(٣)فالحكم عليها بالمعقول ليس لذات الداعين إليها أو القائمين بها وإنما لأن الأفكار التى تدعو إليها والنتائج المترتبة عليها لا تخالف الأصول الشرعية.

لأن هذه الفروق متى نظر إليها على الجانب الشرعى أمكن الوقوف على تفاصيلها من حيث القبول أو الرفض من حيث المعقول واللامعقول بل من كل النواحى .

العامل الرابع : تضارب النصوص الدينية مع التفسيرات اللاهوتية :

شأن النصوص الدينية متى كانت صحيحة أن يقع حولها الإلتفاف حتى تكون هى المصدر الأساسى والعمدة فى الإستدلال ، بحيث إذا وقع شئ من التجاوز أمكن الوقوف به عند حد بعينه ، يقوم بهذا الدور قلة من الذين اعتقدوا صحة النصوص وقدسيتها ، لأنهم أكثر الناس فهما لها وإرتباطا بها ، على أساس أن دورهم – بالنسبة لها – يتلخص فى المحافظة عليها والقيام بتفسيرها بما يتوافق مع الأهداف التى تسعى إليها [١].

فإذا اختلفت دلالات النصوص مع تفسيرات أؤلئك الذين انتدبوا أنفسهم للمحافظة عليها ، فإن الأمر فى ذاته يكون مدعاة للشك فى كل من المصادر "النصوص" وجملة التفسيرات ، وحينئذ لا تكون لأى منهما حجية يستدل بها كما لايكون لأى منهما الحق فى الاعلان عن كونه الممثل الحقيقى لذات الدين [٢]. لأنهما حينئذ يسير كل منهما فى اتجاه مضاد تماما لما يسير فيه الثانى .

وفى العصور الوسطى ظهرت فوارق كثيرة ، وتضاربات لم تنقطع بين النصوص الأنجيلية والتفسيرات اللاهوتية كما ظهرت تخالفات بين رجال المذاهب المسيحية فى العقيدة اصولها وتصوراتهم لها ، بدليل خروج الكثيرين من الرهبان على تعاليم الكنيسة،وبخاصة أولئك الذين كانت لهم تطلعات فى

---

(١)الأستاذ / محمد عبد العظيم الثروى – مسيحية الأناجيل ص ١٥٣ ط أولى ١٩٥٧م .

(٢)وهذا وحده يكفى للتأكيد على أن الديانات السالفة انقضى أمرها ، وإنتهى دورها ، لأن النصوص التى حملتها قد اختفت ، كما أن العقول التى قدر لها أن تستوعبها تلاشت ، وهذان النصوص والحاملين لها يؤدى فى النهاية إلى إعلان إنتهاء هذه الديانات التى لم تكن فى يوم من الأيام إلا ديانات خاصة محلية مؤقته ، لا علاقة لها بشئ من الدوام أو العموم فضلا عن التأبين وكلها فى ذات الشأن سواء .

مناصب قيادية كمارتن لوثر، وزونجلى ، وكالفن الذين صاروا فيما بعد الرموز التى قامت عليها طائفة البروتستانت داخل البناء الكنيسى ، والنظام الكهنوتى المسيحى [١]، ثم ظهرت أخيرا طائفة الأخوة ، التى لم يبرز دورها فى شكل كبير وما تزال الطوائف الرئيسية الثلاث تعمل على احتوائها .

كما أن الصراع الذى بدت ملامحه بين النصوص الدينية والتفسيرات اللاهوتية فى العصور الوسطى لم ينقطع هو الآخر إلى يومنا هذا ومظاهر ذلك الاختلاف قد حملت فى مؤلفات عديدة ، كما برزت داخل اجتماعات ومؤتمرات عقدها النظام الكهنوتى مرات عديدة [٢]،ولم تنجح هذه ولا تلك فى إزالة أوجه الخلاف وإنما كشفت عن المزيد من التناقضات والكثير من أوجه الاختلاف.

بدليل أن القس عبد السيد الذى رسم راعيا لشريعة الأقباط الأرثوزكس فى بعض مناطق القاهرة أخيرا ، حين وافته المنية رفض النظام الكهنوتى السماح بالصلاة عليه داخل الكنيسة الكاتدرائية التى تعتبر مركز التكريم الأخير لكل من عمل بهذا النظام ، ولولا الضغوط السياسية التى مورست على القيادة الدينية ربما لم يسمح لجثمان القس عبد السيد أن يدفن فى مقابر طائفته .

وما ذلك إلا لأنه أعلن عن وجود فوارق شديدة بين النصوص الدينية وتفسيرات أباء اللاهوت لها[٣] ، فكان اعلانه عن رأيه بمثابة الكفر بالمسيحية كلها ، مما استوجب عقابه ، رغم أنه لم يخرج عن عمله الوظيفى داخل النظام

---

(١)على أساس أن الطوائف المسيحية الرئيسية ثلاثة : الأولى طائفة الكاثوليك ويطلقون على انفسهم أصحاب المذهب العالمى ، ومركزهم إيطاليا وقيادتهم تحت البابا فى روما ، وتسمى الكنيسة الغربية ، والثانية : طائفة الأرثوزكس ويطلقون على أنفسهم أصحاب المذهب الحق ومركزهم فى مصر بالأسكندرية وقيادتهم البابا شنودة وتسمى الكنيسة الشرقية ، والثالثة : طائفة البروتستانت ، ويطلقون على أنفسهم أصحاب المذهب الإنجيلى وقيادتهم فى ألمانيا ولهم فى كل البلاد رموز وكنائس وهم يتفرقون عن غيرهم فى العديد من المظاهر كما يختلفون عنهم فى العقائد وجملة من الطقوس .

(٢) الدكتور / صبحى محمد طه أثر المؤتمرات والمجامع فى المسيحية ص ٥٣ ط ثانية ١٩٥٧م .

(٣)وقد نشرت الصحف القومية هذا الحدث وتناولته من جوانب شتى .

الكهنوتى ، لكن لم يسمح له بالتعبير عن رأيه رغم أننا فـــى القــرن الحــادى والعشرين .

ولما كانت النصوص الدينية بمثابة المصادر الثابتة فإن التفسيرات التى تتم بجوارها تصيرهى الأخرى بمثابة المذكرات التفسيرية أو اللائحة التنفيذية التـــى تكون مهمتها توضيح النصوص دون أن تخرج على خطها العام ، أو تقلل هــذه التفسيرات من حجية النصوص ، فإذا أنقصت هذه التفسيرات من طبيعة النــص فقدا معا أبرز المعالم[١] كما أفتقدا الثقة فيهما ، وحينئذ يتطلع الناس إلـــى بديــل يغنى عنهما ، ويحل المشاكل التى علقت على كل منهما .

بيد أن هذا شأن النصوص التى يؤلفها البشر لأنهم مهما أوتوا من قـوة ، أو أعطوا من حصافة ، فإن قوانينهم ونصوصهم سوف يتعاورها النقص من أيـــة ناحية ان لم يكن من كل ناحية ، ونظرا لأن مؤلفى الأنـــاجيل بشـــر يصيبـــون ويخطئون فان النصوص التى صاغوها تحمل ملامح النقص التى يحملـــها كـــل واحد ممن قاموا بهذه التأليفات ، وشارك بمؤلف من ذات التآليف ، وذلك أمـــر يقر به دعاة المسيحية أنفسهم حيث يعترفون بأن الأناجيل المسيحية لـــم يكتبـــها المسيح ولا تلاميذه ، وإنما كتبها بعده بفترة طويلة أولئك الذيـــن توســـموا فـــى أنفسهم القدرة على تسجيل حياة يسوع الناصرى ، أو الإدلاء بمعلومات تعبر عن حياته طبقا لما فهموه أو غلب على ثقافة كل منهم [٢]وهو الذى دفـــــع لظـــهور العديد من الأناجيل ، أقرت المجامع المسكونية بعضها ، وأهملت البعض الآخــو دون أن يكون هناك مقياس ثابت أو محدد فى كل من القبول او الرفض .

---

[١] لأن المفروض فى النصوص والتفسيرات أن يقع بينها التكامل لا الانتقاص ، ومتى خرجا عن التكامل صار كل منهما منقصة ، وتركهما معا يكون هو الهدف بحيث يسمح ذلك للعديد من التيارات حتى تعبر عن نفسها

[٢] راجع سيرة المسيح ص ١٥ ، ١٧ طبعة كنيسة قصر الدوبارة ١٩٨١م .

إذن فشلت نصوص المسيحية — بعد نبى الله عيسى بن مريم — فى أقنـــاع الكثيرين بأنها دين سماوى ، لأن نصوصها وقع عليها التحريف من كل نـــوع بالزيادة كما وقع التحريف بالنقصان ، ثم ما كان بالتبديل ، كمـــا أن الأنــاجيل كانت قد صارت جملة تجاوزت الثلاثة والسبعين انجيلا ، ثم ما هو المعيار الذى على أساسه تم قبول الأناجيل الأربعة المشهورة ، حتى اعتبرت قانونيـــة ومـــا سواها من الأناجيل نظر إليها على أنها غير قانونية ، فما هو المعيار فى القبول والرفض ، والكل فى المسألة سواء[١]فأى مرجع ذلك الذى أقاموه عليه ؟!

وفى الوقت الذى تتضارب فيه النصوص الدينية فى المسيحية مع تفسيرات علماء اللاهوت ، تظهر مسائل العلم ونتائجه وتفسيرات العلماء لها على شئ من الوفاق والإنسجام[٢]بل إنها كلما لجأت إلى التكرار فى المقدمات والنتـــائج فـــإن المسألة المتكررة لا تخرج عن سالفتها بحال من الأحوال ، وذلك من شـــأنه أن يجعل الثقة فى هذه العلوم قوية ، والعلاقة بينها والعلماء متبادلة ، وبينهم وافراد الشعب متينة داعية إلى الإستمرار .

وذلك من شأنه أن يدفع الناس إلى الإنفلات من الديانة الرسمية ، ومحاولة تحطيم أغلالها ، واللجوء إلى البديل المستجد،وهو المتمثل فى جملة من المذاهب والتيارات التى تدعو باسم العلم ونتائجه ، وتبتعد عن الدين الكنسى ومشكلاته[٣] سواء أصابت الهدف كاملا أم اخفقت فى الوصول إليه .

ربما يقال : أن العلم له مشكلات لم تحل ، ويقع فيه التضارب على نـــواح كثيرة ، بل أن الكلمة الماثورة بالنسبة له هى أن العلم لا يعرف الكلمة الأخيرة ،

---

(١)تعرضت لهذه المسألة بعض المصادر الهامة كإظهار الحق للشيخ رحمت الله الهندى وأدلة اليقين للشيخ عبد الرحمن الجزيرى .

(٢)الدكتورة / تهانى محمد توفيق — فلسفة عصر النهضة ص ٩٥ ط ثانية ١٩٨٧م .

(٣)الدكتور / حسن محمد فليفل — العلم ومشكلات التنمية ص ١٥٧ ط دار الهدى ١٩٨٥م .

فلماذا يتم الحديث عن تضارب النصوص الدينية مع تفسيرات علماء اللاهـــوت فى المسيحية واعتبار ذلك من عوامل ظـــهور التيـــارات الفكريـــة والمذاهـــب الوضعية ، ولايتم ذلك مع العلم وقضاياه ؟ !

والجواب أن العلم التجريبى من سماته أنه يقوم على الملاحظـــــة العلميـــة والتجربة الفنية ، وإخضاع النتائج ذاتها لاعادة التجربة عليها عدة مرات ، طبقـا لما هو متبع فى قضايا البحث العلمى ، أما المسائل التى تتعلق بنصوص الديـــن المسيحى وتفسيرات رجال اللاهوت لها ، فلا تخرج عن كونها جوانب نظريـــة قامت فى عقول مؤلفى هذه الأناجيل وشراحها معبرة عـــن وجـــهات نظرهـــم الشخصية،ولا علاقة لها بشئ من خبر السماء ،حتى تنـــال العصمـــة أو تفـــوز بالقداسة [1] أو تظفر بشئ من التمييز ، إنها ليست سوى افكار بشرية ، تعلقـــت بمسائل ملامحها تاريخية .

إذن فساد رجال الدين فى المسيحية كان من أسباب إنصراف أتباعهم عـــن دينهمودخول بعضهم فى تيارات ومذاهب إلحادية كرد فعل طبيعى لرفض هـــذه النصوص وتفسيراتها وظهور بعض آخر تمـــيز افـــراده بالنباهـــة والحصافـــة والوعى الكامل حتى درسوا الديانات المختلفة بعقل خال عن العقد ، بعيد عـــــن التعصب ، ومن ثم فى الإسلام فرادى وجماعات ومثل هذا لا يحصل فى أمـــة إسلامية فسد فيها رجال دينها ، فما من مسلم يذهب إلى الهيكل ليقول لكاهنه خذ دينك إليك ، فإننى لا أومن به لأننى لا أؤمن بك ، ولا أرى فى سيرتك مصدقـــا لأوامرك ونواهيك ، أو أوامره ونواهيه ، كلا ما من مسلم إلا وينظـــر لرجـــل الدين إلا أنه رجل فقط ولاينظر إليه على أنه صاحب ، دين وأنه حين يؤمـــــن بالله لا يؤمن به لأنه إله ذلك الرجل الذى توسط بينه وبين الله أو يعطيـــه مـــن

---

(١) براجع كتابنا حفيف الأفنان بين الملل والنحل والأديان ص ٥٧ الطبعة الثالثة .

نعمه قواما لروحه [1] ولا يغربن عن ناظر أن تضارب النصوص والتفسـيرات اللاهوتية فى أوربا المسيحية كان عاملا مهما من عوامل نشـأة الفكربأنواعـه المختلفة ومنها الفكر المنتظم بجانب الفكر الفلسفى بل كان ذلك من أبرز عوامل ظهور الوضعية بأنواعها المختلفة والمذاهب والتيارات المنحرفة الأخرى .

العامل الخامس : ظهور الآلة وإنتشار البطالة :

من المألوف فى تاريخ العلم أن الله ما خلق إنسانا إلا وكلفه من العمل ما يطيق والدين الإلهى قد جاء بالعمل وحث عليه من كل ناحية حتى إن آدم عليه السـلام علم ولديه حرفتى الرعى والزراعة ، فكان هابيل راعيا وكان قابيل مزارعا [2]. وكل منهما علم بنية ما تعلمه من أبيه .

وكل نبى كان يدفع المرسل إليهم حتى يمارسوا العمل المشروع دون نظـر إلى نوعيته ، يستوى فى ذلك أن يكون العمل تقنيا كالحال مع سيدنا نوح عليـه السلام وصناعته للفلك بكل ما تحتاجه تلك الصنعة من مجهود ذهنى وعضلـى ، وتدبير مالى بجانب التقنية الفنية ، ولاشك أن نوحا عليه السلام قد استفاد النـسل منه صناعة السفن التى علمه الله إياها قال تعـالى :" **وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون. واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون** ".[3]وبالتـالى فكانت هذه الصنعة مما أنعم الله به على نبى الله نوح عليه السلام ومن آمن بـالله معه ، وقد تعلمها منهم أولئك الذين أتوا بعدهم فكان هدى الله لنبيه نوح وسـيلة

---

(١) الأستاذ / عباس محمود العقاد ــ حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص ١٨ طبعة الهيئة المصرية العامـة للكتاب ١٩٩٩م .

(٢)الشيخ محمد عبد الرحيم رضوان ــ قصص الأنبياء المجلد الأول آدم عليه السـلام ص ٤٥ طبعة الدار الميمنية ١٣١٥هــ .

(٣)سورة هود الآيتان رقم ٣٦ ، ٣٧

لمن جاء بعده حتى يقوم بتطويرها على النحو الأمثل بما يوافق ظروف العصـو فظهرت السفن عابرة المحيطات ، كما ظهرت الغواصات والبوارج وراجمـات الصواريخ والقاذفات ، بجانب السفن التجارية والحربية وكلـهم اسـتفادوا مـن البذرة الأولى التى علمها الله عز وجل لنبى الله نوح عليه السلام .

ونبى الله داود عليه السلام علمه الله صناعات مختلفة منها صناعة الـدروع الحربية التى تقى القائد من ضربات الخصوم قـال تعـالى :**"وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون "**[1]كمـا علمـه الله طرائق استعمال الحديد بأنواعه المختلفة قال تعـالى : **"ولقد أتينا داود منا فضلا ياجبال أوبى معه والطير وألنا له الحديد . أن أعمل سابغات وقدر فى السرد واعملوا صالحا إنى بما تعملون بصير".**[2]

من ثم فإن إيلان ة الله الحديد لداود عليه السلام قـد فتحـت البـاب علـى مصراعية لاستخدامات تلك المادة فى خواصها المختلفة . وبالتالى يمكن القـول بأنه ما بنى إلا بعثه المولى الكريم هاديا إلى الله ، دالا النـاس علـى طرائـق الخير، معرفا إياهم أمور الآخرة [3]آخذا بأيديهم إلى ما يذلل لهم صعوبات الحياة فى دنياهم ، فإذا تعطلت حركة الإنسان عن العمل ، تعطلت أيضا ملكتـه فـى التفكير حتى يصير غير قادر على معرفة الطريق الذى يسير فيه .

بل انه متى تعطلت قدرة الانسان على التفكير الصحيح ، ربمـا اسـتعمل طرائف التفكير الأخرى ، فيأتى أمرا مذموما يظنه ممدوحا ، وربما ترك أمـرا ممدوحا لزعمه أنه مقدوح ، ومن ثم فان القضايا البدهية تصير أمـام ناظريـه

---

[1] سورة الأنبياء الآية رقم ٨٠ .

[2] سورة سبأ الآيتان رقم ١٠ ، ١١ .

[3] بل يمكن اعتبار هذه كلها من فوائد بعثة الرسل على ما نبه إليه علماء الإسلام فى مؤلفاقم المختلفة ولطالب المزيد الرجوع إلى شرح المواقف للسيد الشريف الجرجانى ، وشرح المقاصد للسعد التفتازانى وغيرهما من المؤلفات الكلامية التى أنشأها علماء الإسلام.

جدلية ، وذلك يؤدى إلى تعطيل الجباه ، ويباعد بين الانسان الذى استخلفه الله فى الأرض ، وبين الأعمال التى تحقق له ذات الخلافة .

ولما كانت الحضارة الإسلامية زاهية فى المشرق والمغرب ابان الخلافة الاسلامية ،حيث كانت الأعمال بين أفراد الأمة المسلمة تتم عن طريق المعارضة[١] والمعاوضة فى الصنائع والمنافع [٢]ولذا قامت الحضارة الإسلامية محروسة بنصوص شرعية جاء بها النقل المنزل الذى (**لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد**) [٣]ﷺ ولذلك تفيأ الجميع ظلالها الوارفة ودخلوا فى نعيم لم ينقطع ، كما مايزوا بين الطغام والرغام فصارت ملامح حضارتهم ترفرف أعلامها فوق الصحارى والقفار كما تلألأت أنوارها وانفض عن الناس ما كانوا يشعرون به من مشارب اليأس والقنوط وتبدلت إلى ملامح الرضا ، وانبرى الناس إلى الشكر والثناء على الاسلام وحضارته .

فى ذات الوقت كانت أوروبا تخطوا فى ظلام دامس يأتيها من كل ناحية وبينما هم هكذا يتخبطون إذا ببصيص من النور يتسرب إلى تلك الظلمات حاملا

---

(١) المعارضة لغة : هى المقابلة على سبيل الممانعة ، واصطلاحا هى اقامة الدليل على خلاف ما اقام الدليل عليه الخصم ، ودليل المعاغرض ان كان عين دليل المعلل يسمى قلبا ، والا فإن كانت صورته كصورته يسمى معارضة بالمثل ، والا فمعارضة بالغير ـ العلامة السيد الشريف الجرجانى ـ التعريفات باب الميم ص ١٩٥ ط الحلبى ١٣٥٧هـ ١٩٣٨م .

(٢) **المعارضة تكون فى الأعمال كأن يطبخ الطاهى للنجار، وينجر النجار للطاهى ، وكذلك الحال مع كل الحرف فهذا حداد وذاك خابز ، هذا عالم وذاك عامل ، أما المعاوضة فهى أن يقدم كل منهم عصارة ما بذل للآخرين وبالتالى يتحقق فى المجتمع التعاون التام والتكافل فى ارق صورة وأجل مظاهره . راجع كتابنا الغزاليات فى السمعيات ص ٤١٨ طبعة آل بسيونى ١٩٩٨م .**

(٣)سورة فصلت الآية رقم ٤٢ .

حضارة المسلمين فى الأندلس فيوقظ الغفلى من مفكرى أوربا ، وبفتح عيونـــهم الغافية على ذلك الجمال الخلاب الذى بدت آثاره لكل عين وبصيرة .

بعث النبلاء فى الغرب بعثاتهم إلى الشرق الإسلامى فى حواضره بغـــداد ودمشق والقاهرة وقرطبة وغيرها من حواضر العالم الإسلامى حتـــى يتعلمـــوا علمائها ويتتلمذوا عليهم ثم يرجعوا بأنوارها فيضيئوا بلادهم المظلمـــة ، وقـــد حققوا فى ذلك بعض النجاحات المتميزة [١] فلما رجعت تلك البعثات إلى بلادهـــا طبقوا العلم الذى قبسوه من حضارة أهل الإسلام فى الجـــانب المـــادى فقـــط ، ونفذوا هذا الجانب على ناحية النتائج بكل ما أمكنهم .

مضت السنون عجلى فظهرت فى أوربا الآلة التى سارع إلـــي إقتنائـــها أصحاب المصانع ليحلوا بها مشكلة العمالة متزايدة الأجـــور ، المتناميـــة فـــى التكاليف من هنا حلت الآلة محل الإنسان فى المصنع ، فقاسمت العامل أجـــره مما جعل العمال يدبرون مؤامراتهم للقضاء على تلك الآلة التى حرمتهم أرزاقهم وقاسمتهم عائد أعمالهم حتى وان أدى ذلك إلى تدمير المصنع بأكمله .

ولأن صاحب المال دائما يسعى للربح ويطالب بتحقيـــق أكـــبر قدرمنـــه فاستغنى كثير من أصحاب المصانع عن العديد من العمال المدربين ، وأغلقـــت أبواب المصانع فلم تسمح بقبول عمال مستجدين ، وهنا ظهرت البطالة فى أبشع صورها [٢] أوالمعروف أنه متى كان الإنسان عاملا ثم حول رغـــم أنفـــه إلـــى عاطل ، فإنه يسخط على المجتمع وأنظمته لإحساسه بالقهر وشعوره المتنـــامى بأنه فريسة الظلم ، ورغبته الملحة فى الإنتقام ، ومن ثم فإنه يلجأ إلى الجماعات المناهضة للراى العام لعله يجد عندها السلوى ، أو تعينه على الوصـــول إلـــى جزء من حقه السليب ، أو تمكنه من استرداد كرامته المفقوده .

---

(١)الدكتور / المرسى المتولى — معالم الحضارة الإسلامية ص ٢١٥ .

(٢) راجع كتابنا خواطر حثيثة فى الفلسفة الحديثة ص ١١٧ طبعة شروق الثانية ١٩٩٨م .

وبالتالى فإنه يبحث بطريقته عن جماعات يأوى إليها وتحتضنه بغض النظر عن إنتمائه الفكرى وأيديولوجية تلك الجماعة التى يسعى إليها حتى يكون عضوا فيها [(١)]، ولعل ظهور الآلة فى الغرب مع نهايات القرن السادس عشر وسيطرتها على مجريات الأمور فى القرنين السابع والثامن عشر قد كشف عن نتائج سلبية برزت فى ظهور العديد من التيارات التى نفثت همومها فى حدود ما أمكنها الوقوف عليه ، كالوضعية والواقعية والوجودية والمثالية ، أو كانت رد فعل لأنظمة أرستقراطية تسمع فيها أنغام البرجوازية على دماء البوروليتاريا طبقة الكادحين ، فظهرت الماركسية التى عصفت بحكم القياصرة وأحلت بدلا منه أصحاب النزعات الدموية تحت اسم الشيوعية فى الغرب [(٢)]واسم الإشتراكيّة فى الشرق [(٣)].

إذن يمكن القول بأن الوضعية المنطقية هى إحدى نتائج سيطرة الآلة فى الغرب ومقاسمة الإنسان الغربى فى قوته ، والدفع به إلى السؤال والمذلة ، بدليل أن الداروينية حينما تحدثت عن التاريخ الطبيعى جعلته مراحل ثلاثة : النشوء ثم الإرتقاء وأخيرا التطور [(٤)].

وظهرت أنواع عديدة للتطور منها تطور الآلة ، وتطور الوسيلة ، وتطور الغاية والهدف ، بجانب التطور فى التاريخ الطبيعى ، والتطور فى الأنظمة الإجتماعية [(٥)] بل خاضت أفكار التطور فى مسائل الغيب فكان المزلق الذى

---

(١) الدكتور محسن السيد بدوى الإنسان والآلة ورحلة التطور ص ١٠٧ طبعة مطبعة مراد ١٩٦١م .

(٢) الدكتور / عبد العظيم محمد الخالدى — الماركسية إتجاهات وتشابكات ص ١٧ ط أولى مراكش ١٩٥٧م

(٣) هذا ما تغنت به بعض الأبواق فى بلاد المشرق الإسلامى ، وكم حاولوا خداع البسطاء بأن الشيوعية دعا إليها الإسلام ، وهم فى كل ذلك كاذبون لأن الإسلام غير الشيوعية فالماركسية كفر ولا يتفق الكفر مع الإسلام . راجع للدكتور عبد الحليم محمود الإسلام والشيوعية .

(٤)أ. روبارسون — التطور ونظرياته المختلفة ص ١٧ ترجمة حنان أبو اليسر طبعة دار مراد ١٩٨٧م .

(٥) راجع هذه التفاصيل فى كتابنا ، التطور الإحيائي بين الدين والفلسفة عند الحديث عن أنواع التطور .

سقطت فيه ، مما جعل العقلاء يحكمون عليها بالعجز ، كما يؤكدون أن نتائجها مشحونة بالتهور والخروج على النصوص الشرعية الإسلامية .

فإذا ما يمم دارس وجهه نحو التاريخ الفكرى فى أوروبا إبان الفترة من القرن السادس عشر إلى القرن العشرين فإنه يرى الوضعية قد جاءت فى ركب جملة من التيارات الفكرية والإتجاهات التى تعبر عن سخط شديد من الأنظمة الإجتماعية ، والقيم الدينية التى تبثها التعاليم الكنسية ، بجانب الرغبة فى البحث عن وسيلة لتصفية الحسابات بغية تحقيق عالم أفضل ، ولست أدرى أين هو العالم الأفضل الذى تبدأ خطواته الأولى ملطخة بدماء الأبرياء ، ويحمل على كتفيه أشلاء صرعى قدر لهم أن يندفعوا أمام السيل أو ساقتهم الأقدار ليكونوا ضحايا أفكار هوجاء .

فالبراجماتية التى جاءت تحت اسم مذهب الذرائع [١] بفرسانها الثلاثة جون ديوى ، تشارلز ساندز بيرس ، ووليم جيمس [٢] قد سبقتها الواقعية فى ثوب كشف عن وضعية مختبئة ، كما فضح كلا منهما إذ بدت ملامح العلمانية الرافضة للدين ، الداعية لتحول الناس من الإيمان إلى اللاإيمان ، أو من اليقين إلى الشك المطلق ، ومن الإستقرار إلى القلق والإضطراب[٣].

---

(١)بعض هذه الأسماء مما أطلقه أصحاب هذه الاتجاهات ، وبعض آخر مما أطلقه خصومهم عليهم ، ولكل وجهته .

(٢)الدكتور / رفقى زاهر — أعلام الفلسفة الحديثة ص ٨٧ وقام الزميل أ.د/ أحمد السيد رمضان بإعداد رسالته للدكتوراه — العالمية — البراجماتية وموقف الإسلام منها وتم الحصول على الدرجة عام ١٩٩١م من جامعة الأزهر .

(٣)وكلما ابتعد الناس عن المصدر الأساسى لصلاح الدنيا والسعادة فى الآخرة وهو القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة المطهرة فإنهم سوف يقعون فى الضلال على كل ناحية قال تعالى : "**ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى . وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة اشد وأبقى**". سورة طه الآيات ١٢٤—١٢٧ .

وفى تقديرى أن ظهور الآلة فى الغرب طبقا لتعاقداتهم الإجتماعية كانت أحد الأسباب التى دفعت بالوضعية إلى الظهور على السطح الفكرى بل إنها نقلتها إلى سطح الأحداث العالمية حتى صارت بارزة صاحبة صوت عال ليس من اليسير التغلب عليه،أو إلتماس الرجاء حتى يخفض جناحيه ، أو يقلل من حجم الأصوات المزعجة التى تندفع من حوله ، لقد صارت الوضعية كالحيوان المفترس الذى انطلق بين حملان لم تتدرب على مواجهة المواقف الصعبة ، وليس لديها استعداد للعدو بعيدا عن الذئب المفترس المتعطش للدماء بغض النظر عن أصحابها .

العامل السادس : ظهور النزعات — التحررية — التنويرية :

عاشت أوروبا فى ظلمات العصور الوسطى فترة ليست قصيرة ، إذ يرى البعض أن هذه الفترة — العصور الوسطى — شغلت مساحة تبلغ ثمانية قرون من نهايات القرن الرابع حتى نهاية القرن الثانى عشر [١] ، وان هذه الفترة هى التى ظهر فيها كل من العنف والقهر بجانب القسوة واستبداد رجال اللاهوت بينما يرى البعض الآخر أن العصور الوسطى إبتدأت من سقوط الدولة الرومانية الغربية فى عام ٤٧٦م حتى عصر الإكتشافات الكبرى والإصلاح الدينى فى أوربا [٢].

وهذه الفترة لم يتح لأحد غير لاهوتى أن يعبر فيها عن رأيه مالم تكن هناك تصريحات من رجال اللاهوت ، فإذا خانته سكينته وإنطلق على سجيته أو إنفلت منه قيد التحفظ والكتمان ، وعبر عن ما يجيش بوجدانه فإن النتيجة هى قتله فى

(١) الدكتورة / وفاء صبرى جبر — معالم العصور الوسطى ص ٣٧ ط دار الأمير مراكش ١٩٥٧

(٢) الدكتور / محمود حمدى زقزوق — دراسات فى الفلسفة الحديثة ص٨ طبعة دار الطباعة المحمدية بالقاهرة الطبعة الأولى عام ١٩٨٥م .

صورة من الصور البشعة [١] ولا مانع من التمثيل بجثته إذا اقتضى الأمر ذلك ، أو رأى أباء اللاهوت أن العقوبة المناسبة له هى قتله والتمثيل بجثته .

ومن هنا ساد بين الناس الكبت وتفشت فيهم أفانين الذل والاستعباد ، حتى بات كل من المفكرين الأحرار تصطلى أفكاره بنيران خوفه من سطوة الكنيسة وقسوة رجال اللاهوت [٢] ، وكلما تفشت فى الناس ظاهرة الخوف فإنهم يعتصرون أفكارهم داخل نفوسهم فيتولد عنها الكبت الذى إذا زاد عن حده تحول إلى إنفجارات مدوية ، بناءا على أن الكبت النفسى يمثل حالة ضغط لا إرادى فوق قوة من قوى النفس تعمل تلك القوة على الخروج من الدائرة الضيقة إلى العالم المتسع بغض النظر عن النتائج المترتبة .

كما أن عمليات الضغط النفسى تؤدى إلى القلق والتوتر ، مما ينشأ عن ذلك من اختلال فى وظائف حيوية ، وظهور صور مرضية ، واتساع الاحساس بالعزلة والرغبة فى الانطواء ، وذلك مما يمهد لظهور العديد من الأمراض العضوية والنفسية معا .

والكثير من الظواهر الإنفعالية تكون صورة من صور التعبير عن جملة الكبوت المختبئة فى النفس [٣]، وربما تزداد الممارسات العنيفة على أفراد بأعيانهم فإذا ما أتيحت لواحد منهم فرصة التعبير عن ضيقه من تلك الممارسات سارع إليها بغض النظر عن صورة التعبير التى أتسم بها رده.

---

(١)ومن هذه الصور طلاء جسم المفكر بالقار ، ثم صلبه فوق عمود وهو حى ، ثم يشعل فيه النار حتى يذوب لحمه وشحمه فى عظمه ثم يترك فى العراء حتى تذروه الرياح ليكون عبرة لمن يعتبر ، ومن هذه الصور أيضا أن يشنق المفكر ثم يترك جسمه نهشا للكلاب الضالة ، راجع لتوماس مالتوس ـ من جرائم العصور الوسطى ص ٧٥ وما بعدها ترجمة السيد حسن الأشقر .

(٢)الدكتور فخرى محمد توفيق ـ العصور الوسطى ص ٨٧ الطبعة الثانية ١٩٧٧م .

(٣)جان بول سارتر ـ نظرية فى الإنفعالات ص ٥٣ ، ٥٤ ترجمة د / سامى محمود على ، د / عبد السلام القماش الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠١م .

ولما كانت الكنيسة ورجالها قد اشتغلوا فترة من الزمان بغرض المزيد مــن الرقابة الكنسية على القلوب والنفوس ، وممارسات غير منضبطة امتدت فشملت التفتيش من السرائر ، ومكامن القلوب ، والصدور فقد انتشر بين الناس شـــعور عام بضرورة مقاومة هذه السلوكيات حتى لايكون الإنسان عبدا لألاف الرجـــال من اللاهوتيين فتضيع منه هويته ويفقد أبسط حقوقه ويضرب به المثل فى السوء والجهالة ، قال تعالى : **"ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون"**[1]

كما أنه متى ساد فى الناس ذلك الأمر الغريب ، فإن الإنغــــلاق الفكــرى يسيطر على الجميع قادة وشعبا ، ومن المؤكد أن الفكرالحر سوف تتم محاربتــه ونتائجه سيقع عليها الإبتسار ، هذا إذا أمكن لها الخروج من الدوائر المغلقة التى أحاطت بها من كل ناحية [٢] أما إذا أعتصمت بروس أصحابها فلن يسمع بــــها أحد ، وستموت فى مهدها ، وتلحق بالناس الخســـارة الكبـــيرة ، لأن الله خلـــق الانسان عاقلا مفكرا ، قادرا على الانتاج والاستخلاف فى الأرض على الوجـــه الأمثل .

وفى مثل هذه الأجواء الغير صحية تظهر افكار متضاربة بعضــــها تـــأتى ملامحه فيها شئ من القبول فتكون معقولة ، وبعضها تأتى ملامحه خارج نطاق العقول فتكون مرفوضة لأنها لا معقولة [٣] وربما اختلطت المفـــاهيم وتداخلـــت المصطلحات بحيث يكون من الصعب تدارك المواقـــف واســـتبيان الأصـــول ،

---

(١)سورة الزمر الآية ٢٩ .

(٢)الدكتور/ صابر حسن محمد يونس ــ السلوكيات الانسانى وأثره فى الحضارة ص ٤٣ طبعة دار الهدى ١٩٥٧م .

(٣)الدكتورة/ فوزية محمد عبد العظيم ــ مظاهر التفكير الانسانى ص ٥١ والملاحظ أن هذا القبول أو الرفض قد قام على حكم العقل الصحيح.

وحينئذ يغشى الناس قلق مزلزل ، وخوف لا ينقطع ، حتى يكون الجميع بحاجة إلى من يأخذ بأيديهم فيبصرهم معالم الطريق الصحيح [١] وإن كلفه ذلك حياته ، أو كانت عقباه استنفاذ باقى عمره خلف القضبان الحديدية ، والأسوار العالية والغرف المظلمة ، على أساس أن سجن البدن أخف وطأة من سجن العقل والفكر والروح .

بيد أن العصور الوسطى التى اتسمت بالتخلف فى أوربا، كانت تقابلها عصور تقدم وحضارة إسلامية فى الشرق على وجه العموم ، والإسلامى على وجه الخصوص ، امتد نورها من آسيا إلى أوربا ، ومن افريقيا فشمل أسبانيا ــ الأندلس الإسلامى ــ وعبر البحار والمحيطات فتلألأ فى كل مكان ، وذلك من شأنه أن يكون الزاد لأولئك المفكرين الأوربيين التى عرفوه .

ومن ثم فقد نهضوا إلى بعض التراث الإسلامى وبخاصة ما يتعلق بالجانب المادى من الحضارة الاسلامية ، حيث ترجمت مؤلفات الشيخ الرئيس ابن سينا فى الطب والحكمة ومنها القانون [٢] ، كما ترجمت من قبله كتب الفارابى فى الطب والموسيقى ، وكذلك الحال مع ابن ماجه الذى عرف فى بلاد الغرب باسم ابن باجوس ، ومؤلفات ابن طفيل وابن رشد وبخاصة الكليات فى الطب ، ومؤلفات الخوارزمى والرازى الطبيب [٣] كذلك ترجمت مؤلفات

---

(١)الدكتور / صابر حسن محمد يونس ــ التفكير الانسانى وأثره فى الحضارة ص ٥١ .

(٢)الملاحظ أن هذه الترجمات فى أول أمرها كانت تتم فى الخفاء ومحاطة بالسرية ، فلما ذاع خبر بعضها على الناحية الثقافية أمكن التوسع فى الترجمة من ناحية وإذاعة بعض الأخبار المتوالية عنها من ناحية ثانية

(٣)كثرت حوله الأقاويل ، ولكنى أفوض الأمر فيه إلى الله ، لأنه رحل عن دنيانا وصار فى ذمة مولاه فأمره إليه وحده ، وهو غير الفخر الرازى المفسر المتكلم.

ابن جماعة وابن بطوطه وابن متوية وغيرها [١]من المؤلفات التى نشأت فى ظل الحضارة الإسلامية وكانت قائمة على أصولها .

إذن كانت هذه الترجمات صارت بمثابة الأضواء التى كشفت للعقول طريق النجاة ، ودفعت بهم إلى حيث النور الذى يسعى كـــل منـــهم للتعـــرف عليـــه والإستزادة منه ، بل كانت هذه الأضواء الإسلامية بمثابة طوق النجاة للســـفينة الغارقة حتى أمكن تعويمها وسحبها إلى الشاطئ لتبلغ مأمنها . وبالتـــالى فـــلا نعجب من أعلان بعض المستشرقين بأن الحضارة الأوربية مدينـــة فـــى كـــل خطواتها للحضارة العربية الإسلامية [٢].

على كل نجحت الحضارة الإسلامية فى إيقاظ مفكرى أوربا مـــن ســـباتهم الطويل ، وفتحت عينوهم الغافية على ما حواليهم من أسرار الجمال والإبداع فى صنع الله رب العالمين ، كما حركت فيهم دواعى الثورة على الأفكار البـــائدة ، والنظريات الساذجة ، وطالبتهم بنبذ الخرافات والتخلى عـــن الأوهـــام بجـــانب الأستزاده من العلم والتوسع فى معالجة مشكلاته وقضاياه من خـــلال المنـــهج العلمى القائم على البرهان .

ومن ثم ظهرت فى الغرب ثلة من الأفراد طالبت بتحرير العقول من الخرافات كالحال مع فرنسيس بيكون الذى ألح على العقل حتى يتخلـــص مـــن أوهامـــه والتمسك بالمنهج التجريبى وحدد هذه الأوهام فى أربعة أنواع هى :

---

(١) كانت هذه الترجمات أول الأمرخالية من اسم المترجم خوفا عليه من سلطان الكنيسة ثم بعد ذلـــك وضـــع اسم المؤلف مع اسم المترجم ثم حذف اسم المؤلف وبقى اسم المترجم وحده ، وهكذا تمكنوا من سرقة الـــتراث الإسلامى فى الجانب العلمى، ونسبوه لأنفسهم وشادوا به الحضارة التى عرفت باسم الحضارة الغربيـــة، ومـــا هى إلا حضارة قائمة على اصول الحضارة الإسلامية ومؤلفات علماء أهل الإسلام ـ راجع الشهرى دوهـــان ـ اصول الحضارة ص ١٤٥ ترجمة خيرى ولشاخت بوروث ـ تراث الاســـلام ج١ ، ٢ طبعـــة عـــالم المعرفـــة بالكويت .

(٢)الدكتور / خيرى محمد داود الحضارة الإسلامية وأثرها فى الحضارة الغربية ص ١١٧ ط أولى ١٩٧١م

١ – أوهام الجنس البشرى : وهى الأخطاء التى وقعت فيها البشرية بحكم طبيعتهم البشرية وهذه الأوهام قاسم مشترك بين أفراد الجنس ، وقد ترسخت فى أذهان الناس – العالم والجاهل ، النابه والخامل ، ورغم هذه الفوارق فى المؤهلات والملكات إلا أنهم جميعا اشتركوا فى تقبل هذه الأوهام سواء[1] كفكرة مطاردة الأرواح الشريرة وإسترضائها ، وربطها بعوالم غيبية لا دليل للعقل عليها ، وهى أفكار ساذجة والله تعالى قد نبه على فسادها قال تعالى : **"وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون "[2].**

٢ – أوهام الكهف : وهى التى تكون لكل فرد على حده علىأساس أن كل فرد له عالمه الخاص وفكره المستقل وبالتالى فظروفه البيئية ومعايشاته اليومية ومقوماته الشخصية تجبر الإنسان على التقهقر للداخل ، وتفرض عليه نوعا من العزلة حتى كأنه فى واد سحيق أو جب عميق ، أو سجن بعيد ، ومن هنا يفضى لذاته بآماله وأحلامه التى يحاول تحقيقها فى عالم الخيال الخاص به مادام قد عجز عن تحقيقها فى عالم الواقع ، ولو خلى لنفسه لوجد أنه لم يحقق إلا سوابا عالقا فى يديه . والله قد بين فساد هذه وتلك فقال تعالى : " **أرءيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا . أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم اضل سبيلا " [3].**

٣ – أوهام السوق : وهى الألفاظ التى يطلقها الناس فى مجالسهم من غير قصد لمعانى الألفاظ التى يستعملونها ، ثم يتناولونها فيما بعد على أنها ذات دلالات واضحة ومعان محددة ، ومن ثم فهى تتحكم فى عقول الناس بالمعانى التى لم تدر لهم على خلد ، ومن هنا يقع الجمود وتسود السفسطة ، وهى أوهام يتعاطاها

---

(١) راجع كتابنا خواطر حثيثة فى الفلسفة الحديثة ص ٨٢ .(٢) سورة الأنعام آية ١١٦ .

(٣) سورة الفرقان الآيتان ٤٣ ، ٤٤

الناس فى الأسواق والمحلات العامة ، والمقاهى بل والأندية وسائر الملتقيات المفتوحة التى يتم التعامل فيها بلغة بعيدة عن المنطق الصحيح وخالية من الإنضباط الفكرى ، ولكنها تبلغ فى الناس مبلغها عن طريق الحماس الفكرى والعقل الجمعى ، والله تعالى بين فساد تلك فقال تعالى : **" ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين "**[1]

٤ ــ أوهام المسرح : وهى الأفكار التى يطلقها المشاهير الذين يعتقد الناس فيهم أن كل واحد منهم هو السوبرمان أو الانسان المثالى وبالتالى يتلقى الناس آراء هؤلاء بالقبول والإستحسان دون أن يقيموا عليها برهانا ، أو يدخلوا بها إلى ميدان التجربة للتأكد من صدقها ، أنهم يقبلون عليها لمجرد أن أحد هؤلاء المشاهير وقف على مسرح الأحداث وتحدث بها ، وذلك مما يصيب الناس بالخيبة ، ويجعل العقول تأوى إلى الإستسلام المهين تحت أقدام هؤلاء المشاهير رغم أنهم لم يقدموا نفعا ، ولم يحققوا علما ، والله سبحانه وتعالى بين أن اتباع هؤلاء من غير اقامة دليل عل ما يقولون مصيبة كبرى قال تعالى :" **وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا "**[2]

لم يكن فرنسيس بيكون مقدما الجانب السلبى وحده ، وإنما قدم ما اعتبره جانبا إيجابيا جعل عماده التجربة التى تقوم على جملة من الخطوات تبدأ الأولى بجميع الحقائق والمعلومات عن الظاهرة المراد بحثها ، ثم الثانية وهى تحرير ملف كامل عن الظاهرة المراد بحثها ، ثم تتبعها الخطوة الثالثة وهى تصنيف

---

(١)سورة الجاثية الآيتان ١٨ ، ١٩ .

(٢)سورة الأحزاب الآيتان ٦٧ ، ٦٨ .

المعلومات عن الظاهرة فى قائمة الإثبات وقائمة النفى . ثـــم قائمـــة الفحــص والمقارنة .

أما الخطوة الرابعة فهى التنحية للأسباب التى لاتؤدى لحدوث الظـــاهرة ، والعزل للأسباب المشتركة التى يمكن إرجاع حدوث الظاهرة إليها ، ثـــم تجـــئ الخطوة الأخيرة وهى الإبقاء على السبب الراجح فى حدوث الظاهرة [١] وبالتالى أعتبر بيكون نفسه قد حقق الكثير من النجاح فى خطته التـــى رســـمها لنفســـه والمنهج الذى سار عليه [٢].

بينما أعتبره البعض أحد العلامات البارزة التى طالبت بالثورة على ســـيادة الأساطير والخرافات ، وبداية جادة فى الإنطلاق نحو دفع عملية التنوير الفكرى والتحرر من سيطرة السلطان الكنسى على العقول ، وهيمنة الفكـــر الأرســـطى على الإتجاهات الفكرية [٣] ، وعدم اتاحة الفرصة للعقل حتى ينهض للأمـــام أو ينفض عن ذاته ما لحقه من تعبئة متواصلة بالخرافات والأوهام .

لم يكن فرنسيس بيكون وحده فى أوربا هو الذى نادى بالتحرر الفكرى من سلطان الكنيسة ، وإنما جاء ديكارت وعمانويل كانت كما ظهرت بعض إلماحات لدى توماس هوبز، وكل وضع المنهج الذى اعتبره موصلا إلـــى غرضـــه [٤]، ومن ثم تعددت الإتجاهات وتباينت الوسائل ، فظهرت تيارات بعضـــــها تبنـــى قضايا معقولة على ناحية من النواحى ، بينما البعض الآخر تعلق بأوهام جديـــدة

---

(١) لمزيد من التفاصيل يمكن مراجعة كتابنا . خواطر حثيثة فى الفلسفة الحديثة ص ٩٨ ــ ١٠٤

(٢) الدكتور / حسن محمد توفيق أعلام الفلسفة الحديثة ص ١٥٣ وراجع للأستاذ يوسف كرم تاريخ الفلسفة الحديثة ، وللدكتور / محمد عبد العظيم جاد الله ــ الفلسفة الحديثة ص ١٤٩ / ١٦٠ .

(٣)الدكتور/ السيد عبد الكريم ظريف ــ فرنسيس بيكون وفلسفته ص ٥٧ .

(٤)وهذا لا نزاع فيه على أساس أن كل واحد منهم كان يعلن عن الجماعة التى هو عضو فيها سواء أكانت هذه الجماعة من أصحاب الاتجاه المثالى ، أم الاتجاه العقلى أم غير ذلك .

نسب بعضها للعلم ، أو حاول الوقوف بأسبابها عند شاطئه ، ولكنه فى كل ذلــك لم تتوافق غاياته التى أعلنها مع النتائج التى أذاعها .

كما أنها جميعا جاءت على غير أبوابها الحقيقية ومعالمها الصحيحة ومــن ثم صارت فى دائرة اللامعقول ، بل ان وسمها بالتيارات العبثية واللامعقولة بات أيسر من وسمها بأنها تيارات فكرية ، لأنى أميل إلـــى أن العمليــات العقليــة الصحيحة هى التى يمكن وصفها بالفكر أو اطلاق هذا الاسم عليها ، أما الفاسدة ومنها الوضعية فيمكن اطلاق اسم التيارات عليها ودليل ذلك أن أحـــد دعاتـــهم يقول : العبارة الميتافيزيقية التى تخبرنا عن شئ غير محس هى عبارة فارغـــة من المعنى لسبب بسيط وهو أنها ليست مما يجيز المنطق أن يكون كلاما علـــى الاطلاق.[1]

فأى منطق ذلك الذى يعول عليه فى الحكم على الميتافيزيقا ، أهو منطـــق الوضعية ، وهى مسلاخ لتيارات مشوهة ، أم منطق الإلحاد ولا عبرة به لـــدى أحد .

بل الأكثر من ذلك هو أن الوضعية فى أثوابها المتعددة يؤكد المنتسبون لـها أن الميتافيزيقا نوعان :

الأول : الميتافيزيقا التأملية .

الثانى : الميتافيزيقا النقدية .

ثم يقررون — فى غير حياء — أن الميتافيزيقا التأملية مرفوضـــة ، لأنــها تبحث فى أشياء لا تدخل فى حدود التاجربة الحسية كالمطلق والعدم وما إليــها ، وهو ما يطلق عليه عادة اسم الميتافيزيقا[2] .

---

(١) الدكتور / زكى نجيب محمود — المنطق الوضعى ص ٨ .

(٢) الدكتور / زكى نجيب محمود — موقف من الميتافيزيقا ص ٦٩ .

أما الميتافيزيقا النقدية فهى المقبولة لأنها تخضع للتجربة [١]، حيث يتم فيها تحليل قضايا العلم الرياضى والطبيعى ثم يقولون ونحن نقر النقدية ونرفض التأملية [٢].

وفى تقديرى أن عوامل ظهور الوضعية فى الغرب يمكن أن تتعدد فى مظاهرها ، أو تتعدد فى وسائلها واتجاهاتها ، ولكنها يمكن أن ترتد إلى العوامل الرئيسية التى ألمحت إليها فى عجالة سريعة .

---

(١) لاشك أن هذا التعليل الذى أقاموا عليه مسألة القبول تعليل مرفوض من جانب أهل الإيمان بالله رب العالمين ، كما أنه مرفوض من أهل العلم ، لأنه حصر القبول للأفكار فى خضوعها للتجربة وحدها أنكر وجود ما وراء ذلك وهو الغيب فصار المنكر له كافراً به .

(٢)الدكتور / زكى نجيب محمود — موقف من الميتافيزيقا ص (هـ ، ص ، ك) من المقدمة الثانية الطبعة الثانية.

الفصل الرابع

عوامل ظهور الوضعية فى الشرق

سلف الحديث عن عوامل ظهور العديد من التيارات الفكرية الإلحادية في الغرب ومنها الوضعية ، يستوي في ذلك أن تكون هـذه التيـارات معقولـة أم لامعقولة ،إذ العبرة في الحكم عليها لا تكون بمجرد الإعلان عنها ، إنما تكـون بالحصيلة التي تؤدي نتائجها إليها من حيث تأثر الناس بها وعلاقتـها بـالدين والقيم والأخلاق ، وقدرتها على تقديم صور مثلى لحياة متناسقة في عالم أفضـل على أساس أن مهمة الإنسان العاقل في هذه الحياة الدنيا أعمارها بما يرضى الله تعالى وما تتهيأ للإنسان معه حياة أفضل في الدار الآخرة [١]

وقد بان أن هذه العوامل متنوعة [٢]، بعضها راجـع لظـروف فرضتـها الكنيسة المسيحية ، وبعضها راجع إلى نصوص الدين اللاهوتي ، وبعض ثـالث راجع إلى الظروف الاقتصادية والعوامل السياسية ، ثم ظهر عامل هـام وهـو بروز آثار الحضارة الإسلامية في شكل عملي داخل أوربا، مما دفـع هـؤلاء المفكرين إلى البحث لهم عن مخرج ، وطرائق يواجهون بها تعنت الكنيسـة ، وصلف رجال اللاهوت ، وما ترتب على ذلك من تخلف فكرى وعقلي وخطى في الحياة بأوجهها المختلفة ، ومن ثم فقد ظهرت هذه التيارات المتعددة ابتداء

---

(١) قال تعالى : "**تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**" سورة القصص الآية ٨٣ .

(٢)هذا التنوع في العوامل إنما هو على جانب الدراسة فقط وليس على جانب الأهمية ، لأنها جميعاً تمثل نتيجة أدت في النهاية لظهور هذه التيارات وغيرها مما يستجد ، مع إمكانية إضافة عوامل جديدة ، وحذف عوامل مما سبق ذكره طبقاً لمعطيات العصر الذى يتم تناولها فيه ، وكذلك باعتبار المستجدات العلمية التى تطرأ وتـأتى هذه التيارات مواكبة لها .

من عصر النهضة إلى يومنا هذا [١] وكان ذلك فى الغرب .

بيد أن هذه التيارات الفكرية المعقولة فى المبادئ التي قامت عليها ، والنتائج التى انتهت إليها أو اللامعقولة قد ظهرت أيضاً فى المشرق ، واعتقدها البعض من أبناء ذلك الشرق بل بلغ الأمر ببعضهم التمسك بها والدعوة إلى ممارستها والتحذير من إهمالها والتهاون فيها [٢] على الناحية المعرفية ، ثم ما لبثوا أن أنزلوها من أنفسهم منزلة الاعتقادات الدينية ، ولم تقع لديهم التفرقة بين ما يمكن اعتباره من الثقافة التى يؤخذ منها ويرد عليها ، وما هو من معطيات نصوص الدين الإسلامي الذى يجب التمسك به كله ، لأن الإيمان ببعضه والكفر ببعضه هو العدوان على الجميع وكفر به على أساس اعتقادنا الصحيح الثابت فى أن دين الله واحد ، وهو إن تجزأ فى النطق به ، فلا يتجزأ فى اعتقاده أو التصديق به .

وقد نعى الله على أولئك الذين فعلوا تلك التفرقة فى الإيمان ببعض الكتاب والكفر بالبعض الآخر ، وبين أن جزاء من يفعل ذلك يتمثل فى عقاب أليم قال تعالى : **" أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآَخِرَةِ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ "** [٣] كما أن بعضاً أبناء من أهل الإسلام ، أو الذين نشأوا فى بلاد الإسلام ، استظلوا بظله ، ونعموا بعطائه ، ولكنهم لما سافروا للغرب واطلعوا على ما فى أيدى أهله انبهروا بما حملته به الحضارة الأوربية

---

(١) إذن هذه التيارات لم تنقطع ولن تنقطع مادام أمرهم بعيداً عن شرع الله تعالى .

(٢) يقول الدكتور زكى نجيب محمود أن الحديث عن وجود شئ وراء الخبرة الحسية حديث فارغ عن المعنى — نحو فلسفة علمية ص ٣٩ مطبعة الأنجلو المصرية الطبعة الأولى ١٩٥٨م.

(٣) سورة البقرة الآيتان ٨٥ ، ٨٦ .

الحالية فوقعوا أسرى ما حملت تلك الحضارة ، ولأنهم قصار النظر فلم يحـاولوا الوقوف على الأصول التى قامت عليها الحضارة الغربية إنهم يتعلقون بالنتـــائج وحدها رغم إنها قامت على أصول الحضارة الإسلامية ثم تخلت عنها واستنكفت الإعلان عن استفادتها منها كبراً وحسد ، وعناداً ولجاجاً ، والشواهد على ذلـــك كثيرة .

ربما يقال إنكم تتحدثون عن إقامة الحضارة الغربية المتقدمة فى أشـــكالها ومظاهرها المختلفة على الحضارة الإسلامية، المتخلفة فى أشكالها وتفرق أبنائها وهذه دعوى تحتاج أدلة تؤكدها ، وإلا كانت مجرد مزاعم كاذبة وأمنيات حالمـة ومثلها لا يلتفت إليه ، لما تقرر فى الأفهام الصحيحة من أن :

الدعوى إذا لم تكن آياتها بينات * كـــان كل أبنائـــها أدعيـــاء**

والجواب : أن الجميع معترف بوجود العصور الوسطى فى أوربا وامتدادها إلى قرون ثمانية ، وأنها كانت مظلمة [١]، وأن الجهل فيها كان ضارباً على كل مكان في أوربا المسيحية ، كما أن رجال اللاهوت هم الآخرون أشعلوها نــــاراً حامية يلتظى بها كل من تسول له نفسه فى إعلانه التفكير الحر ، وأن الكنيســـة حاربت كل ما يظهر على ألسنة الناس ، أو يرد على أسماعهم متى ظن رجالـــها مخالفة ذلك للكتب المقدسة،أو التقاليد التى تبنتها الكنيسة .

فحبس المفكر دى رونييه حتى مات ، ثم حوكمت جثته وكتبه فحكم علــــى جثته بالحرق ،وكتبه كذلك،وكلاهما ألقى به فى النار ، لمجرد أن هذا الرجل قال ان قوس قزح ليس قوساً حربية بيد الله ينتقم بها من عباده إذا أراد ، وإنما هـــى

---

(١) على أساس أن العلم نور ، والسعى لإطفاء هذا النور متى حقق بعض النجاح فى الغاية تحولت المنطقة إلى ظلام وقد بين الله صورة ذلك فى قوله تعالى ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الاسلام والله لايهدى القوم الظالمين يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون " سورة الصف الآيتان ٧،٨ .

انعكاس لضوء الشمس فى نقط الماء أو على سطحه [1] وكذلك حديثه عن ألـوان الطيف السبعة .

كذلك أحرق برونو حياً ، لمجرد أنه قال ان النجوم الثوابـــت إنمـــا هـــى شموس، لكل منها أقماره التى تدور حولها ، متابعاً فى ذلك كوبـــر نيكـــوس[2] مضيفاً إليه ما هو معروف فى لغة العلم من ضرورة استفادة اللاحق بما تركـــه السابق طبقاً لمفهوم تراكمية العلم ، يستوى فى ذلك أن يكون العلـــم نظريـــاً أم تجريبياً .

كما أن استيفانوس أصدر قراراً مسكونياً بتجريم كل عمل علمى مهما كـــان شأن صاحبه ، ومهما كانت غايته إذا لم يعرض على الرقيب الذى عينته الكنيسة للقيام بهذا الدور فى المراقبة على ما يجرى فى أفهام الناس ورغم أن قراره هذا لم يعرض على مجمع أو يدرس كمقترح فى مؤتمر إلا أنه تم تنفيذه [3]فضـــاعت جهود كثير من الباحثين ، وتوارت ملامح أنشطتهم الفكرية خيفة قلـــم الرقيـــب وسلطان الكنيسة ،وقرارات استيفانوس العشوائية .

فى نفس الوقت فإن المحاولة التى قام بها كريستوفر كولمبـــس لاكتشـــاف أرض جديدة بعيدة عن نصوص الكتاب المقدس ، واتجاهات آباء الكنيسة قوبلت برفض شديد بل لم تقف الكنيسة عند حد الرفض للمحاولة التى قام بها كولمبس، وإنما عقدوا مجمع سلامانك لبحث هذه المحاولة ، ثم انتهى أمرهم إلى أن مجرد

---

[1] الدكتور / توفيق الطويل ـــ قصة النزاع بين الدين والفلسفة ص ١٥٧ الطبعـــة الثانيـــة مكتبة مصر بالقاهرة .

[2] الدكتور / عبد الله السيد حسين زكريا : أوربا والعصـــور الوســطى ص ٤٣ ط أولـــى ١٩٥٧م .

[3] الدكتور / عبد العاطى محمد طه ـــ معالم الحضارة الإســـلامية ص ١٤٥ ط دار توفيـــق بالفيوم ١٩٥٧م .

المحاولة ، يمثل مخالفة صريحة لأصول العقائد المسيحية ،ونصوص الكتاب المقدس ،وأجهضت المحاولة وجلد كولمبس وألقى فى السجن ، كما وصله تحذير شديد اللهجة بأن إعادة المحاولة أو التفكير فيها سيلقى جزاءه شوياً على النار[١] فهل فى مثل ذلك الجو المبلد بالغيوم يتمكن مفكر فيعلن رأيه ، وهل مثل ذلك القهر والاستبداد ينتج من حضارة أيا كان نوعها ؟!

إن الإنسان ليس قطعة من الحديد ، إنما هو ملكات وإمكانيات ، روح وبدن وكل من هذه يحتاج ظروفاً تتعلق به ، فإذا لم يكن محاطاً بعوامل الراحة النفسية ووسائل البحث العلمي ، ومتمكنا من أن نتائج ما يقوم به ستلقى قبولاً ، أو يكون لها أثر فى الحياة فإنه يعجزعن التفكير الصحيح ، كما لن يتمكن من إبراز ما يصله من معارف .

أضف إلى ما سبق أن عقوبة الموت كانت قانوناً سنته الكنيسة الكاثوليكية والأرثوذكسية فى أوربا وجرى تطبيقه على كل من يفكر فى البحث العلمي بعيداً عن قواعد الكتاب المقدس ، وتفسيرات رجال اللاهوت المسيحي ، وكان يقوم بإجراءاتها وتنفيذ العقوبات القسس من خلال محاكم التفتيش[٢] التى أصدرت أحكاماً — فى الفترة من ١٤٨١م حتى ١٨٠٨م — على ثلاثمائة وأربعين ألف نسمة ، منهم مائتا ألف نفذت فيهم أحكام الإحراق بالنار وهم أحياء ، أما العدد الباقى فبعضهم نفذ الإحراق فى جثته بعد موته أو قتله، وبعضهم لقى حتفه فى

---

(١) الدكتور / عبد الله السيد حسين زكريا — أوربا والعصور الوسطى ص ٥١ .

(٢) تعددت محاكم التفتيش فى أوربا ، بل كل مدينة كانت فيها هيئات تم ترسيمها مهمتها مباشرة أعمال التفتيش عن القلوب والعقول ومحاسبة أصحابها عليها . راجع للدكتور نصر محمد كريم — محاكم التفتيش وأثرها على النهضة الأوربية ص ٥٧ .

غياهب السجون دون أن يعلم به أحد ، وبعض قليل هم الذين ماتوا شنقاً أو دفنت جثثهم [١] .

فهل مثل ذلك العمل الدموي يسمح لأحد فى ممارسة عملية التفكير بشــكل عملى صحيح ، فضلاً عن إنشاء حضارة كان من نتائجها ظهور التقدم الــهائل فى كل مظاهر الحياة وأنماطها المختلفة .

ثم إذا كانت سلطة أباء الكنيسة قد امتدت إلـى ضمـائر النـاس وخفايـا صدورهم حيث كانت جلسات الاعتراف أمام القسس فى الكنائس أو الأديرة هـى الخطوة الأولى التى تؤدى للمطاردة أو الموت ، وكانت هذه الجلسات تتـم مـع الكافة فهل يعقل أن تنشأ حضارة من صدور مملوءة بالخوف ، وعقول ارتبطت حياة أصحابها بأوتار التفكير التى قد يقطع نسيجها حكم قس أرعن ، أو توقـع صاحبها تحت سوط جلاد امتلأ قلبه بالنزعات الدموية ، وما صارت جوانحـه المتقدة تستريح إلا بسماع استغاثات الثكلى وأنات المعذبين [٢] .

وهل يتصور أن تقوم حضارة فى جانبها المدنى وهى فاقدة لجانبها الثقافى ، مع أن الحضارة تقوم على أساسين ، وتطير بجناحين هما : الثقافة التى تمثـل الجانب النظرى الذى يسبق كل ناحية عملية ، ثم المدنية وهى التى تمثل تطبيقـاً عملياً للثقافة الصحيحة ، ولا يمكن أن تقوم حضارة على عقول مضطربـة ، أو قلوب خائفة ، وكان قضاة محاكم التفتيش يتعطشـون إلـى العنـف ويتلـذذون بالمزيد من العدوان والنزعات الدموية ، بجانب الرغبة الملحة فى قصف كـل الأقلام التى تطالب بتصحيح الأوضاع أو معالجة الأخطاء وقطع جميع الألسـنة التى نطق أصحابها بأنواع الفساد التى يمارسها رجال اللاهوت .

---

(١) الدكتور / فوزى عبد الحليم الشهاوى ـــ أثر محاكم التفتيش فى التاريخ الأوربى ص ١٥٧ طبعة ١٩٤٦م.
(٢) الدكتور / عبد العاطى محمد طه ـــ معالم الحضارة الإسلامية ص ١٤٧ .

لقد نظرت الكنيسة إلى العلم على أنه رجس من عمل الشيطان ، واعتبرت القائمين به مزيفين فى العقيدة ، كما حكمت على الجميع بالهرطقة ، وقابلت هذا الجمع بالعديد من الأحكام التى لا رحمة فى تنفيذها ولا هوادة فى القيام بها ، بل إن رجالها كانوا يعجلون بإحراق الكتب التى تأتيهم أخبار أن فيها شيئاً من العلوم التى تحرمها الكنيسة ، وبالغ الكاردينالات فى القيام بهذا الدور[١].

فهل بعد ذلك يمكن القول بأن الحضارة الغربية البادية اليوم فى مظاهرها المختلفة قامت على أساس فكر الغربيين وحدهم ، أو على عملهم الفكرى الخالص وهم ليس لهم عمل فكرى ، كما أنه لم يكن لهم فى هذه الآونة فكر يمكن الإعلان عنه ، فضلاً عن أن تقوم عليه حضارة .

أجل تمكن العلم فى أوربا أن يحوز قصب السبق على النصوص الدينية وتفسيرات علماء اللاهوت المسيحى ، لكن ذلك لم يقنع آباء الكنيسة بالعدول عن معاداتهم للعلم ، كما لم يقلل من هذه العداوة ، ومن ثم فقد ضاعت جهود هؤلاء العلماء سدى ، كما راحت أرواح بعضهم ضحية هذا الصلف الأرعن ، والسلوكيات الشاذة المجنونة [٢] وقد ظل الحال على ذلك حتى إنتهى أمر هذه الممارسات الشاذة بانتهاء العصور الوسطى .

وما من شك فى أن هذه الإجراءات الدافعة للتخلف القائمة على قهر الفكر واستعباد المفكر لا تنتج حضارة ، بل ولا تعين على القيام بها ، ومن ثم فالأمر الأكيد هو أن الحضارة الأوربية قد قامت فى أصولها على جهود المفكرين المسلمين الأوائل [٣]، وبخاصة أن أغلب هذه الأصول الإسلامية تمت ترجمتها إلى اللغات الحية التى كان لها وجود فى ذلك الوقت ، وبخاصة ان الفتوحات

---

(١)الدكتور / فوزى عبدالحليم الشهاوى — أثر محاكم التفتيش فى التاريخ الأوربى ص ١٦١ .

(٢)راجع كتابنا : قضايا حبيسة فى الفلسفة الحديثة — مطبعة شروق ص ١٢٥ .

(٣)الدكتور / عبد العاطى محمد طه — معالم الحضارة الإسلامية ص ١٥١ .

الإسلامية كانت تهتم بتطبيق القواعد الشرعية الداعية إلى نشر العلم فى كل مظاهره أو ممارسة ذلك مع كل مظاهره أو ممارسة ذلك مع كافة البشر على أساس أن الدين الإسلامية هو الدين الخاتم والمهيمن وهو أيضاً لك العالم إنس وجن ، كما أن الدين الإسلامي فى نصوصه الإلهية قطعية الورود ، وعلمائه الذين حاولوا استلهام روح النص وكيفية الاستفادة منها فى مظاهر الحياة المختلفة ، قد أدى ذلك إلى دفع عجلة الحياة الفكرية بسرعة وفى قوة وثبات فأدى ذلك بدوره إلى فتح النوافذ الفكرية على كل ناحية ، بل حرض العقل المستنير على الخوض فى المسائل العلمية — النظرية والعملية — فكان لذلك عظيم الأثر فى صنع الحضارة الزاهية ورسم معالم المستقبل العلمي .

ومن ثم فقد سارع الفاتحون المسلمون بترجمة أبحاثهم العلمية إلى لغات البلاد التى يفتحونها حتى تعم الفائدة ويتحقق النفع بجانب المدارس العلمية التى تم إنشاؤها فى تلك البلاد ، فلما زالت دولتهم وتغيرت الأيام معهم ، وانحسر المد الإسلامي فطن الأوربيون إلى التراث الإسلامي فسارعوا إلى ترجمته — من جانبهم هذه المرة — وكان يتم ذلك إلى اللغة اللاتينية فى وقت مبكر ثم اللغات الأخرى فى المراحل اللاحقة ، وأن هذه الترجمات كانت من أهم العوامل التى أدت إلى ظهور الحركة العقلية النشطة فى بلاد المغرب الأوربي .

ومن المؤكد أن الحضارات الأخرى لم تكن بهذا القدر من الشموخ والتقدم حتى يزعم زاعم أو أو يدعى مدع بأن الحضارة الغربية قامت عليها [1] بدليل أن الحضارة الصينية والهندية كانت كل منهما تسعى للسيطرة على جانب

---

[1] هذا التساؤل يمكن أن يرد على أولئك المتشككين الذين يحاولون تلفيق حضارتهم على أكتاف الحضارة الإسلامية حتى لو تم فإنه يكون إدعاء باطلاً وزعماً كاذبا ، لأنه لابد له من بينة أو دليل بل إن معالم الحضارة الإسلامية بادية فى الحضارة الغربية وأوجه المطابقة منهما ليس من السهل إنكارها .

من جوانب العلم ، وليس على كل مجالات العلم ، وكذلك الحال مع الحضارات الأخرى التى كان لها وجود شكلى فى ذلك الوقت .

أما الحضارة الإسلامية فهى وحدها التى جاءت نصوصها شاملة وافية ، وعلى هدى من النصوص الإلهية وتلبية الوازع الدينى فقد بذل المفكرون المسلمون جهودهم خدمة للنقل المنزل من ناحية ، ورغبة فى استجلاء بعض المواقف من جهة ثانية ثم بيان تميز المفكر المسلم وأصالته عن غيره من جهة ثالثة [١] وهكذا تعدد جهات نشر التراث الإسلامي فى صدر المفكر المسلم خدمة لدين الإسلام الذى دعا إلى إصلاح شأن الدنيا ، ومهد للناس فى الإيمان بالله رب العالمين حتى يسعدوا بنعيم الآخرة [٢]، حيث وعد الله فى قوله تعالى :" **إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا**"[٣] وقوله تعالى :" **لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** "[٤].

أما عوامل ظهور الوضعية بأنواعها فى الشرق فهى متعددة ، ومن ثم سأحاول تجميع بعضها إلى بعض ، مع توضيح كل عامل منها بالقدر الذى يعينني الله علي بيانه باعتبار أن طبيعة الظروف المحيطة بالشرق غير الظروف التى أحاطت العقلية الغربية ، وكان لها تأثير كبير على نشر الأفكار .

---

(١) راجع للدكتورة فوقية حسين محمود — مقالات فى أصالة المفكر المسلم ص ١٢٨ مطبعة زريق ١٩٨٣ .

(٢) راجع كتابنا : السعادة فى الفكر الإنسانى ص ١١٠ وما بعدها .

(٣) سورة النساء الآية ٤٨ .

(٤) سورة يونس الآيتان ٢٦ ، ٢٧ .

العامل الأول : ضعف الوازع[١] الديني :

كلما كان المسلم على صلة قوية بربه ، فـإن هـذه الصلـة تدفعـه إلـى الاستمساك بشرع الله تعالى الذى حملته إليه النصوص المنزلة ــ القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة الصحيحة ــ لقوله تعـالى : " **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** "[٢] وقولـه تعـالى : " **قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**"[٣]وقوله تعـالى : "**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا** "[٤]

ثم ان الوازع الدينى هو بمثابة الحاجز القوى الذى يصـرف صاحبـه عـن تجاوز الحدود الشرعية فضلاً عن الاقتراب منها ، وكلما حاول المرء الاقـتراب من هذه الحدود ، فإن داخله المعبأ بالأصول الإيمانية ، والقواعد الشرعية يمنعه عن ذلك وينهاه ، وقد يستمر به زاجراً له حتى يكفه عن مجرد التفكير فـى ذات المسائل التى تخالف شرع الله تعالى .

---

(١) الوازع الدينى هو أحد الدعاة الذين يمارسون أدوارهم داخل النفس الإنسانية ، وهو يمنع المرء عن الوقوع فى محارم الله تعالى ، لأنه يجعل خوف المرء من الله تعالى أمر اثباتاً يقع فى دائرة المراقبة الدائمة لله رب العـالمين ، حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم .

(٢) سورة النحل الآية ٤٤ . (٣) سورة المائدة الآيتان ١٥ ، ١٦ .

(٤) سورة النساء الآيتان ١٦٤ / ١٧٥ فالبرهان هو القرآن الكريم ، وهو الكتاب المبين ، أما النور فهو السنة النبوية المطهرة الصحيحة التى جاء بها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وهى توأم القرآن الكريم فكلاهما مـن عند الله تعالى لكن القرآن الكريم بلفظه ومعناه أما السنة النبوية فالمعنى من عند الله واللفظ من عند رسـول الله الذى قال الله فيه " وما ينطق عن الهوى "

كما أن هذا الدافع الداخلي هو الذى يمنع الإنسان من سلوك معين متى كانت النفس المطمئنة هى العنصر الفعال ، وكانت الأمارة بالسوء واقعة تحت السيطرة التامة للمطمئنة [١]، من ثم فإن هذا الوازع الدينى هو المعبر عنه فى الدراسات الحديثة باسم الضمير ، وقد جاءت الإشارة إليه فى الحديث الشريف من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم :" البر ما اطمأنت إليه النفس ، والإثم ما حاك فى النفس وتردد فى الصدر ، وكرهت أن يطلع عليه الناس[١] فلو كان ما عزمت عليه النفس خيراً لاطمأنت إليه ، وقامت به الجوارح، أما إذا كانت النفس المطمئنة مترددة فى قبوله فإن رفضه يكون هو القاعدة الصحيحة التى انطلقت النفس منها .

- من ثم فإن الوازع الدينى متى كان قوياً فى إنسان ما فإنه يدفع ذلك الإنسان إلى اقتناص الفرص حتى يكون فى حدود الشرع منتظماً ، وبين جنبات الوحى الإلهى قائماً ، إن فكر فإنما يكون تفكيره فيما يرضى الله ، وإن تصرف أمراً أو نهياً فإن مرد هذه الأمور من داخله تكون نحو ما شرع الله ، بحيث يكون نطقه ذكراً ، وصمته فكراً ، وما يجرى بين ناظريه عبراً .[٢]

وحينئذ تسبق عبراته عباراته ، ويسبق اطمئنان وجدانه هدوء جنباته ، بحيث يكون فى كل أحواله عبداً لله مطيعاً، وفى رحاب التقوى منتظماً ،أولئك

---

[١] قال تعالى : " يا أيتها النفس المطمئنة إرجعى إلى ربك راضية مرضية . فأدخلى فى عبادى وأدخلى جنتى "سورة الفجر الآيات من ٢٧ – ٣٠ .

(٢)الشيخ محمد على كفافى – نظرات فى السنة ص ٧١ عام ١٩٤٧م.

(٣)وفى الحديث الشريف ما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " أمرنى ربى بتسع آمركم بها ، أمرنى بالإخلاص فى السر والعلانية ، والقصد فى الغنى والفقر ، والرضا فى الصحة والمرض ، وأن أعفو عمن ظلمنى ، وأعطى من حرمنى ، وأصل من قطعنى ، وأن يكون صمتى فكراً، ونطقى ذكراً ، ونظرى عبراً . الشيخ محمد عبد العظيم بركات – من آداب الهدى النبوى ص ٤٣ ط ثانية ١٩٥١م .

هم أولياء الله الذين والوا الله بالطاعات فوالهم الله بالكرامات قال تعالى : **"ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون . لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم "**[1] .

وكلما كان الوازع الدينى فى امرئ ما قوياً كان تأثيره على صاحبه متوافقاً مع الشرع بحيث يجعله ناظراً إلى الله لا ناظراً إلى أهواء نفسه ، تراه منقلباً إلى الجهاد رغم ما به من موانع رفع الله عن أمثاله الحرج لقوله تعـــالى : **"ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لايجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم . ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون "**[٢]. يقول الشيخ البروسوى : ليس على الضعفاء من الهرمى والزمنى ولا على المرضى والفقراء إثم فى التخلـــف والتأخر عن الغزو إذا نصحو الله ورسوله فى العمل والقول فدفعوا عن المسلمين الغش والمضار ، وجلبوا إليهم المنافع وبهذا ينقطع الحكم عليهم بالتقصير والإثم معاً لأن الله تعالى رفع عنهم الإثم والحرج لعدم قدرتهم على شئ آخـــر غـــير النصح ، وكذلك الحال مع البكائين السبعة من الأنصار الذين أتـــوا رســـول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يارسول الله نذرنا الخروج معك للجهاد فاحملنا علـــى الخفاف المرقوعة ، والبغال المخصوفة فنغزو معك قلت لهم ليس عنـــدى شـــئ أحملكم عليه ولا أجده فانصرفوا وعيونهم تسيل دمعاً فياضاً حزناً منهم على أنهم

---

[1] سورة يونس الآيات من ٦٢ — ٦٤ .

[٢] سورة التوبة الآيتان رقم ٩١ ، ٩٢ .

لا يجدون ما ينفقون فى شراء ما يحتاجونه للغزو .[١]

كما أن صاحب الوازع الدينى المطمئن لاينظر إلى المحرمات من حيث هى ، ولا إلى المحللات من حيث هى ، إنما ينظر إليها من ناحية شرع الله ، ولذلك لما آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار آثر كل منهم أخاه على نفسه ولم يؤثر نفسه عليه ، ومن ثم جاء مدحهم فى القرآن الكريم قال تعالى : "**والذين تبوءو الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون**"[٢].

كما أن هذا الوازع الدينى جعل سيدنا مصعب بن عمير صاحب الشخصية الناعمة فى الجاهلية يترك النعيم كله ، ويقبل على الإسلام الدين الحنيف رغم أنه سيعيش بين المسلمين الأوائل فى شظف من العيش وخشونة الحياة ، لكنه فعل ذلك أملا فى نعيم مولاه ، والحال مع أبى بكر الصديق رضى الله عنه لم يفترق عن حال مصعب ، إلى غير ذلك من الأمثلة الرائعة التى إمتلأ بها تاريخ الفكر

---

(١) الشيخ اسماعيل حقى البروسوى ــ تنوير الأذهان من تفسير روح البيان ج٢ ص ٩٦تحقيق واختصار الشيخ محمد على الصابونى ط دار الصابونى .

(٢) **سورة الحشر الآية رقم ٩ .قال الإمام الزمخشرى : نزلت الآية فى الأنصار فهم الذين استقروا أولاً فى دار الهجرة وأخلصوا الإيمان فلما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم أموال بنى النضير على المهاجرين ولم يعط الأنصار إلا ثلاثة نفر محتاجين : أبا دكانة سماك بن خرشة ، وسهل بن حنيف ، والحارث بن الصمة ، وقال للأنصار ان شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وشاركتموهم فى هذه الغنيمة ، وان شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم يقسم لكم شئ من الغنيمة ، فقالت الأنصار بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها ، فنزلت الآية ــ الكشاف ج ٤ ص ٥٠٤/٥٠٥ ط دار الريان للتراث .**

الإسلامي ، وحملتها سير أهل الإسلام ، وهى تؤكد كلها على سيطرة الـــوازع الدينى ، وانتصاره فوق رغائب الجسم، وغرائز النفس ،وشهوات القلب والبدن.

بل إن صاحب الوازع الدينى الواثق بالله يشعر بسعادة غامرة متـــى كـــان على شرع الله قائماً ، وتسيطر عليه الحسرة ، ويستولى عليه الندم متى شعر أنه بعد ولو قليلاً عن جناب مولاه ، فلسان حاله دائماً يقول : أعبد الله كأنك تـــراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، وهو مقام الإحسان على ما جاءت به ســـنة النبـــى العدنان .

أما إذا اختفت سيطرة الوازع الدينى على حواس الإنسان وملكاته العقليـــة ، فقد يزين له الشر خيراً ، ويقع فى السوء على أنه حسن ، ويقبل على المحرمات كأنها الطاعات ، وربما بذل جهداً كبيراً فيها على أنها قربات ، وما هو إلا فـــى الغي يعمه ، وفى الضلال يقبع ،وبين جدرانات الهوى يلهث قال تعالى : **"أفمن زين له سوء عمله فرءاه حسناً فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون "** [1].

قال الإمام الطبرى : أفمن زين له الشيطان عمله السئ حتـــى رآه حســـناً ، فاستحسن ما هو عليه من الكفر والضلال ، كمن استقبحه واجتنبه واختار طريق الإيمان [2]، لاشك أنهما لا يتساويان وإنما صاحب الإيمان يفوز برضـــوان الله تعالى ، وصاحب الشيطان يقع فى الخسران . مـــع أن الكـــل ــ مـــن الهدايـــة والضلال ــ بمشيئة الله ، فهو تعالى الذى يصرف من يشاء عن طريق الهدى ، ويهدى من يشاء بتوفيقه للعمل الصالح والإيمان به جل شأنه [3]فأهل بالمراقبة لله هم أهل الفوز الذين يقولون آمنا بما أنزل الله ، وأهل الشيطان ينصرفون للحديث

---

(١)سورة فاطر الآية رقم ٨ .

(٢) الإمام الطبرى ــ تفسير الطبرى ج ٢٢ ص ٧٨ .

(٣)الإمام الزمخشرى ــ الكشاف ج ٣ ص ٤٧٤ .

عن القضايا التى يحسنها لهم الشيطان أولئك حـــزب الشـــيطان ألا إن حـــزب الشيطان هم الخاسرون .

وقد قص القرآن الكريم بعض الصور التى إنحط فيها الوازع الدينى إلـــى درجة تلاشت معها طبيعته وتداخلت فى بعضها إمكانياته فانعصمت عرى مودته كالحال مع ذلك الذى أتاه الله علماً اكتسب به مالاً ، لكنه لم ينسبه إلى الله ، وإنما نسب ذلك إلى طبيعة نفسه وقواه ، فاتبعه الشيطان حتى صار أنيسه ومولاه .

قال تعالى : **"وأتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين. ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون . ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون . من يهد الله فهو المهتدى ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون "** [1].

قال الإمام البروسوى : عرفهم يا محمد خبر الذى علمناه دلائـــل ألوهيتنـــا ووحدانيتنا وفهمناه تلك الدلائل ، وهو أحد علماء بنى إسرائيل وأحـــد عبادهـــ وكان يقيم فى المدينة التى قصدها موسى عليه السلام وكان هذا الرجل عنده علم باسم الله الأعظم فسأله ملك هذه المدينة الكافرة أن يعدو علـــى موســـى بالســـم الأعظم ليدفعه عن مالك المدينة فقال لهم دينه ودينى واحد ، وكيف أدعو عليـــه وهو نبى الله ومعه الملائكة والمؤمنون وأنا أعلم من الله ما أعلم فلم يزالوا بـــه حتى فتنوه بالمال والهدايا فانسلخ من تلك الآيات وكان وراءه الشـــيطان طالبـــاً إضلاله فصار العالم العابد من زمرة الضالين الراسخين فى الغواية بعد أن كـــان من المهتدين .[2]

---

(١)سورة الأعراف الآيتان ١٧٥ ــ ١٧٨

(٣) الإمام اسماعيل حقى البروسوى ــ تنوير الأذهان من تفسير روح البيان ج ١ ص ٥٨٤ .

كذلك ذكر القرآن الكريم نبأ الذى تعاهد مع الله لئن رزقه المولى الكرم من فضله ليكونن من أهل الصلاح إنفاقاً فيما شرع الله ، وقياماً على تنفيذ أوامـوه ، وما كان يقول ذلك فى حقيقة أمره إلا رغبة فى اليسر ، وهرباً مما يظـن فيـه العسر وقد انهزم وازعه الدينى أمام جحافل رغائبه الذاتية ، وإندفاعاته الشهوانية فكانت النتيجة أن جعل الله أمره مفضوحاً ، وعوراته غـير مسـتورة ، وفـى الآخرة توعده المولى الكريم بالعذاب الأليم .

قال تعـالى : **"ومنـهم من عاهد الله لئـن آتانـا مـن فضلـه لنصدقـن ولنكونـن من الصالحين .[1] فلما آتـاهم مـن فضلـه بخلـوا بـه وتولـوا وهـم معرضون . فأعقبـهم نفاقاً فى قلوبـهم إلى يـوم يلقونـه بـما أخلفـوا الله ما وعدوه وبـما كانـوا يكذبـون . ألم يعلموا أن الله يعلـم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب "[٢]**.

يقول الإمام الطبرى : من المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه لئن أعطانا الله من فضله ووسع علينا فى الرزق لنتصدقن على الفقراء والمساكين ، ولنعملن فيها بعمل أهل الخير والصلاح ، فلما رزقهم الله وأغناهم مـن فضلـه بخلـوا بالإنفاق ، ونقضوا العهد ، وأعرضوا عن طاعـة الله ورسـوله ، فجعـل الله عاقبتهم رسوخ النفاق فى قلوبهم إلى يوم لقاء الله بسبب أخلافهم الله مـا عـدوه عليه من التصدق والصلاح [٣] رغم أنهم كانوا فى هذه الدعاوى كاذبين ، سـواء فى دعواهم حسن الإيمان ، أم دعواهم الإنفاق والإحسان ، وقد دل ذلك على أن الوازع الدينى عندهم لم يكن عالياً ، وإنما كان منخفضاً إلى حد التلاشى .

---

(١) يذهب البعض إلى أنه ثعلبة بن حاطب بن أبي بلتعه الصحابي المشهور وهو نوع من الوهم ، وإنما الـذى نزلت فيه هو رجل من المنافقين وكان اسمه ثعلبة فالتشابه فى الأسماء لا يعطى التطابق فى الصفات .

(٢)سورة التوبة الآيات من رقم ٧٥ ــ ٧٨ .

(٤) الإمام الطبرى ــ تفسير الطبرى ج ١٠ ص ١٩٤ .

كذلك قص القرآن الكريم قصصاً جاءت تترى أخبارها، وتتوالى على الأفهام أنباؤها لقوله تعالى :" **نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين** "(١)فأحسن القصص هنا يراد به أتيان القصة على أحسن ما تكون ،من وصف دقيق ، وخبر موثق أكيد ، وشمول لكل الجوانب ، وعدم إهمال صغيرها أو الكبير من الأحداث ، ولذا جاء التعبير القرآنى بلفظ أحسن ، لما فيه من كمال وتمام ، بجانب الإيجاز مع الإعجاز .

من ثم فإن المنافقين قد جهلوا صفة على الله تعالى وقدرته وأنه يعلم أسرارهم وأحوالهم ، وما يعلنونه بأفواههم وما تخفيه صدورهم وما يتخاطبون به أو يتحادثون فيه لأنه جل شأنه لا يخفى عليه شئ مما غاب عن الأسماع والأبصار ، فهو نحده علام الغيوب ، وكلما كان الوازع الدينى ضعيفاً كانت آثاره مدمرة لصاحبه ومن يتعاملون معه .

من القصص التى ذكرها القرآن الكريم مما يدل على انحطاط الوازع الدينى فى بعض النفوس وخطره على أصحابه خاصة والمجتمع الإنسانى ككل ، قصة قارون(٢) ذلك الرجل الذى نشأ فقيراً معدماً فأتاه الله من عنده مالاً كثيراً لكنه لم يحمد مولاه على ما أنعم عليه ، وإنما تبرم به ، حيث نسب الفضل فى جمعه لذاته ، وانصرف إلى تزكية ملكاته فلم يقل إنه مال رزقنيه الله حتى يقوم فيه على ما شرع الله ، وإنما قال إنما أوتيته طبقاً لملكاتى ، وجمعته بأمكانياتى ، فكانت النتيجة أن أهلكه الله كما أهلك ماله طبقاً لسنة الله فى كل الظالمين.

---

(١)سورة يوسف الآية رقم ٣

(٢) ذهب البعض إلى أن قارون كان ابن عم موسى ، وكان ممن آمن به ثم تغير حاله بسبب الغنى فنافق الكافرين كما نافق السامرى ، وذهب البعض إلى أنه لم يكن ابن عم موسى عليه السلام ، وإنما كان من القوم الذين بعث فيهم والله أعلم ، راجع تفسير الكشاف وتفسير القرطبى وتفسير الطبرى وتفسير الخازن .

قال تعالى حاكياً ذلك عنــه : " **قال إنما أوتيته على علم عندي أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون . فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم. وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون . فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين** ".(١)

قال قارون إنما أوتيت هذا المال على سبيل الاستحقاق لما لديّ من علــم بالتوراة ، وتفضيلي على الناس ، بالتفوق في المال والجاه بسبب العلــم الــذي أمتلكه ، ولم ينظر إلى منة الله تعالى وفضله ، ولذا هلك ، وكل من كان علـــى طريقه في الإدعاء والإفتخار والكفر ، فإنه يهلك بشؤم معصيته وضيعه(٢) .

ولو كان لديه وازع ديني قوي ، لأحال ما هو فيه من نعيم إلى قـــدرة الله تعالى وعلمه وإرادته ، فلما لم يفعل ذلك فقد دل الأمر على أن الوازع الدينـــي لديه كان ضعيفاً إلى ابعد مدى ، ومن ثم فكل وازع ديني قوي يود إلى الإيمان.

في نفس الوقت فإن القرآن الكريم قد حدثنا عن ذلك الذي رزقه الله مـــالاً وفيراً، وجناناً كثيرة ،وثماراً يغطي دخلها نفقاته ويزيد ،كمـا وهبــه الله الولــد والمنعة (٣)لكنه لم يأبه بذلك كله بحيث يشكر الله ، ويقدر ما أنعم عليـــه وإنمــا

---

(١)سورة القصص الآيات ٧٨ ــ ٨١

(٢)الشيخ اسماعيل حقي البروسوي ــ تنوير الأذهان من تفسير روح البيان ــ المجلد الثالث ص ١٥٧ .

(٣)أسباب المنعة كثيرة قد يكون منها المال أو الولد ، أو المركز الأدبي والاجتماعي أو غير ذلك مما هو قائم في النفوس ، وقد يكون ذلك كله ، وهي في ظاهرهــا أســباب ومســببات لكنها في الحقيقة يجب أن ترجع إلى الخالق العظيم وهو الله جل علاه خالق الأشياء ومسبب الأسباب ، وهو الذي عليه اعتقادنا نحن المسلمين .

اعتدى على حرمات الله ، وجادل بالباطل ليدحض به الحق، فمنع الله عنه مـــا كان قد رزقه، وتركه لنفسه التى زحفت وراء شهواتها عاريـــة القدميـــن فـــوق صحراء قاحلة اشتدت نيرانها وغاب الأمن فيها فكان من الخاسرين قال تعالى : **" واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتيـن من أعنـاب وحففناهما بنخل وجعلنـا بينـهما زرعاً . كلتـا الجنتيـن آتت أكلها ولـم تظلـم منـه شيئاً وفجرنا خلالهما نهراً . وكان له ثمر فقال لصاحبه وهوماًلا وأعز نفراً "[1].**

قال المفسرون هما أخوان من بنى إسرائيل أحدهما مؤمن ، والآخر كافر ، ورثا مالاً عن أبيهما فاشترى الكافر بالمال الذى ورث حديقتين ، وأنفق المؤمـن ماله فى مرضاة الله حتى نفد ماله فعيره الكافر بفقره فأهلك الله مـــال الكـــافر ، وضرب هذا مثلاً للمؤمن الذى يعمل بطاعة الله والكافر الذى أبطرته النعمـــة [2] فلم ينظر إلى المنعم الذى تفضل عليه بتلك النعم حتى يستظل بظل الإسلام . فليت ماله حرك فيه الوازع الدينى ، أو ثبت لديه المقدمات والأصـــول الدينيـــة الثابتة ، وإنما كان ماله من أبرز الوسائل التى أدت إلى ظلمه لنفسه ، وإعلانـــه التبرم بما شرع الله وخروجه على تعاليمه مع الكفر به مما كشف عورات كـــان الفقر يسترها ، وفضح سوءة كانت ظلمات الليل تغطيها قال تعـــالى : **" ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً " [3].**

قال الشيخ البروسوى : دخل قطروس صاحب الجنتين الظالم إلى إحداهـــا ومعه صاحبه المؤمن يطوف به فيها ويعجبه منها ، ويفاخره بها وهو فى هـــذه الحال ظالم لنفسه ، ضار لها بالكفر وإنكاره المبدأ والمعاد وهو أقبح الظلم ، قال

---

(١)سورة الكهف الآيات : ٣٢ ــ ٣٤ .

(٢)الشيخ محمد على الصابونى ــ صفوة التفاسير المجلد السادس ص ١٩١ .

(٣)سورة الكهف الآية رقم ٣٥ .

ما أعلم أن هذه النعم تغنى مع طول الأيام وإنما ستظل منحبسة لى .(١)

فهو قد عجز عن السيطرة على مشاعره الغائرة، بل تنامت قدراته المتدنيــه التى أمتدت رغم أنفه فجعلته يكفر بالنعم التى أولاه الله إياها ، ثم كفر بــــالبعث وأعلن أن الذى ينعم فى الدنيا بجهده وعرقه، هو الذى سينعم فى الآخرة وعلـــى ذات المستوى الأول ويزيد عليه ، ولذا فقد قص القرآن الكريم ما كان يجرى فى فؤاد صاحب الجنتين قال تعالى مصوراً ما يجول فى نفسه من إنكـــار البعـث والنزعة الشعوبية : **"وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيراً منها منقلباً "** (٢) .وحيث كشفه النقل المنزل وفضح نفسه التى استبعدت البـهث وكفرت بيوم القيامة ، ثم قال على سبيل الفرض البعيد لئن وقع البعث ورجعـت إلى الله لأجد به خيراً منها مرجعاً وعاقبة بأنى حصلت ذلك باستحقاقي الذاتى.(٣)

ومثل هؤلاء الذين ضعف لديهم الوازع الدينى فى دنيا الناس كثير، غمرتهم عواطف كاذبة ، وسيطرت على وجداناتهم نزعات ثائرة ، قوبلت كلها بأنمـــاط من الوعى الدينى فائرة ومن ثم فقد تقبلوا الآراء التى تحكى إليـــهم، وصدقـــوا بالأساطير التى ملئت أسماعهم ، ثم تدلت إلى حنايا وجداناتهم فأثقلتها بالأوهام ، وكبلتها بأغلال حتى راحت تخبط رؤسهم فى الركام (٤)وإن تعثرت فى طبقـات

---

(١) الشيخ اسماعيل حقى اللبروسوى تنوير الأذهان المجلد الثانى ص ٣٨٤ .

(٢)سورة الكهف الآية رقم ٣٦ .

(٣) الشيخ اسماعيل حقى البروسوى ــ تنوير الأذهان من تفسير روح البيان المجلد الثانى ص ٣٨٤ .

(٤)الركام هو : ما اجتمع من الأشياء وتراكم بعضه فوق بعـــض فصـــارت أجـــزاؤه غـــير معروفة على حقيقتها ، وان أمكن الوقوف على بعض مظاهرها راجع أبجد العلوم للشـــيخ حسن القنوجى ص ١٨٣ .

الرغام [١]ومثل هؤلاء يقبلون على الأفكار المستوردة أقبال الصغير الجائع على ثدى يدر عرقاً حيث يظنه لبناً، لكنه إن امتصه لن يجد فى حلقه إلا المرارة، ولن يصل إلى جوفه ما يروى عطش الفسيل ، أو يعيد ماء الحياة لهزيل ، وأصحاب التيارات الفكرية الذين أنقلبوا على أعقابهم مرتدين إلى جاهلية الأولى وبدائية متوحشة حاولوا ستر أنفسهم بـأثواب العلم وهى منهم براء ، فلما أخفقوا عن بلوغ غايتهم طعنوا فى العلم ومزقوا أستاره ، ثم أتوا على حجبه فأتلفوها .

وفى تقديرى أن الذين ينسبون أنفسهم للوضعية من أهل الشرق ويدافعون عن قضاياها ويعتبرون أنفسهم مسؤلين عن مشكلاتها قد أنزلوا أنفسهم اللئيمة من المعارف منزلة دنيا ، كما أعلنوا عن تخلف الوازع الدينى فى نفوسهم وتدنيه إلى أحط درجاته فبخسوا أنفسهم أولاً والشعوب التى أخرجتهم ثانياً ، كما أنقصوا قدر العلم الذى إليه ينتسبون [٢] أما لماذا ؟

فلأن الوضعية انطلقت من الغرب ممن فقدوا الحماس الدينى وافتقدوا طريق العودة إلى الدين ، وضاعت من بين أيديهم ملامح النصوص الصحيحة وكيف لا ! وأسلافهم هم الذين حرفوا الكلم عن مواضعه ، كما حرفوه من بعض مواضعه ، وهل لمثل هؤلاء رأى يعتمد عليه أو حجية دليل يتوقف العاقل عندها إنها أوهام طفت على مفرداتهم[٣] وقفزت فوق شفاههم ثم أرتدت إلى الخلف معتصمة بأذيال أفئدتهم ومثلهم لاينتج علماً ولا ينطق حكمة ولا يتأتى من خلفه

---

(١) الرغام هو التراب الذى تكاثرت طبقاته حتى صار موضعاً يلقى فيه من يراد به المذلة أو يراد له الوقوع فى المهانة ، فيقال القاه فى الرغام ومعناه أذله وأهانه — راجع للشيخ المناوى مهمات التعاريف ص ٤١٧ .

(٢) لأن قيمة العلم بما يحققه من نتائج عملية إيجابية فى حياة الناس ، ولا يترتب عليها شئ من الفساد العقدى أو الأخلاقى ، كما لا يقع بعدها شئ من الإنهيار الإجتماعي ، فإذا لم يتحقق ذلك كان العلم ضلالاً .

(٣) مصادرهم التى يقفون عليها ، أو التى تخرج من بين أيديهم كلها تكشف زيف قضاياهم ، وضلال معتقداتهم وعجزهم عن تفهم الأصول الثابتة والمشاركة فيها بإيجابية .

خير أبداً .

يقول الشيخ العطار : لقد كان الوضعيون فى الشرق يعبرون عن نفوسهم المهزومة وضمائرهم القلقة ومستوياتهم الدينية المتهافتة ، فما أنتجوا إلا الشر وما خالفوا إلا تعاليم الشرع [١] كما أن دعاة الوضعية فى مصر على وجه الخصوص انكشفت نوازعهم الدينية حيث أعلنوا — فى غير حياء — أن الدين لا وجود له في نفوسهم أو عقولهم ، أما العلم فهو القاعدة التى يجب أن تظل قائمة والديانة التى لابد من الاعتماد عليها ، فصار العلم دينهم ، كما صار العقل إلههم، وما صنيعهم ذلك إلا طريقة من طرق الإعلان عن إفلاس هذه النفوس من الناحية الإيمانية وطرحها بعيداً عن مواطن الهدى[٢] الإلهى الذى جاءت به النصوص الشرعية .

كما أن الوضعية لما أفترقت إلى أنواع ظهرت منها الوضعية المنطقية برجالها وأفكارها كما ظهرت الوضعية الاجتماعية برجالها ومشكلاتها وما يترتب على ذلك ، وكان ظهور الوضعية الطبيعية بمثابة الضربة القاصمة لكل منهما حيث صارت كل منها تضرب الأخرى على وجهها ودبرها[٣] ومثل هؤلاء قد فضح كل منهم أسرار الآخرين وهتك أستارهم ، وعراهم أمام العام

---

(١) الشيخ محمود عبد الله العطار — الوضعية والإسلام ص ١٧ طبعة دار الهدى عام ١٩٤٤م .

(٢) وما من شك في أن من يبتعد عن الهدي الإلهي يزين له الشيطان الشر خيراً ، قال تعالى : وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ " سورة الزخرف الآيات ٣٦ /٣٨ .

(٣) قال تعالى مبيناً أهم فى الآخرة من المعذبين أيضاً :" إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ " سورة محمد الآيات ٢٥ / ٢٨ .

والخاص ، بهم حتى يكونوا أمثولة بين الناس وقروحاً يتوالى الصديد منها فـــلا يقبل عليهم سوى أراذل الناس .

بيد أن الدارس للقضايا العلمية التى أذاعوها ، وفى ظلمة ليل أهتبلوهـــا ، فلسان حالها يحكى عن مآسيها التى تعجز العبارات عن حملها ، والمفردات عن إفشاء أمرها ، لأنها قضايا زائفة ومشكلات متوهمة ، خلت من المناهج العلمية، وتخلت عنها النتائج الإيجابية ، كما دارت حولها المشكلات الاجتماعية والأدبيــة والأخلاقية على السواء .

العامل الثاني : انخفاض أرصدة الثقافة الإسلامية :

كل مسلم ذكراً كان أو أنثى يعمل دائماً على توطيد أواصر الود بين عقلـــه وأرصدة الثقافة الإسلامية الأصيلة التى تتمثل فى الفكر الإسلامي ، لمـــا هـــو معروف من أن هناك فروقاً بين نصوص الإسلام والفكر الإسلامي على أساس أن نصوص الإسلام هى ما أنزله الله جل علاه وهو القرآن الكريم ، وما ألهمـــه قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الحديث النبوي الصحيح .

قال تعالى : **" ياأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدي به الله من أتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم".**[1] قال الشيخ البروسوى : قيل المراد بالنور هو الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبالكتاب القرآن الكريم لما فيه من كشف ظلمات الشرك والشك ، وإبانة ما خفي على الناس من الحق ، بجانب الإعجاز الواضح ، يهدى بهما الله وحده لأن المقصود منهما دعوة الخلق إلى

---

(١) سورة المائدة الآيتان ١٥ ، ١٦ **وقال تعالى : وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا وأتقوا الله إن الله شديد العقاب"** سورة الحشر الآية ٧ .

الحق ، فأحدهما رسول إلهي ، والآخر معجزته وبيان ما يدعو إليه من الحق [١] الذى شرعه الله تعالى فثبت أن سنة الرسول صلى الله عليه وسلم والقرآن الكريم يمثلان للمسلم الرصيد الذي لا يمكن له أن يحل غيره كبديل عنه .

وفى الحديث الشريف : ألا انى أوتيت الكتاب ومثله معه [٢] ، وقوله صلى الله عليه وسلم : " تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى ابداً كتاب الله وسنتى " [٣]. فالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة الصحيحة كلاهما من عند الله فكما أن القرآن الكريم قد نزل من عند الله تعالى بلفظه ومعناه ، فإن الحديث الشريف معناه من عند الله ، أما لفظه فهو من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذى حفظ الله باطنه فلا يقع فى المعصية قصداً ، ولا يصغى لهمزات الشيطان ، لأن الله تعالى قد عصمه عن الهوى فلا ينطق إلا وحيا لقوله تعالى: **" ما ضل صاحبكم وما غوى . وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى . علمه شديد القوى "**[٤]. ما ضل محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم عن طريق الهداية ، وما حاد عن منهج الاستقامة ، وما غوى فاعتقد باطلاً ، بل هو فى غاية الهدى والرشد ، وما ينطق أو يتكلم عن هوى نفسي أو رأي شخصي وإنما يتكلم عن وحي الله عز وجل . قال الإمام البيضاوى ما القرآن إلا وحي يوحيه الله إليه[٥]والسنة هي الأخرى مما أوحى إليه صلى الله عليه وسلم [٦]بالمعنى على ما ذهب إليه العلماء .

---

(١) الشيخ اسماعيل حقى البروسوى تنوير الأذهان من تفسير روح البيان ج ١ ص ٤١٤ .

(٢) الشيخ حفنى ناصف — التاج الجامع للأصول من أحاديث الرسول ج ١ ص ٢١١ .

(٣) وفي رواية الإمام الترمذي كتاب الله وعزتى فانظروا ما أنتم فاعلون حتى تردوا على الحوض .

(٤)سورة النجم الآيات ٢ — ٥ .

(٤) الإمام البيضاوى — تفسير البيضاوى ج ٤ ص ١٧١ .

(٦) الشيخ محمد على أبو سلامة — قبس من أنوار السنة ص ٥٧ .

ومادام اللفظ الذى ينطق به رسول الله صلى الله عليه وسلم فـــى الحديــث الشريف معصوماً عن الغى والهوى ، فإن هذا اللفظ يكون موحى به أيضاً ــ إن هو إلا وحى يوحى ــ ومن ثم تكون النتيجة هى أن القرآن الكريـــم والحديــث الشريف موحى بكل منهما من قبل الله تعالى ، وهما معــاً النقل الإلهى المــنزل الصحيح ، الذى يمثل نصوص الإسلام ــ دين الله الخالد المرتضى من قبــل الله تعالى لكل المسلمين ، قــال تعــالى : **"اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً".**[1] وقال تعالى : **"ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين "**[2]. وما دام الله قــد أكمل الدين ، وارتضى للأمة الخاتمة الإسلام حتى يأمنوا فى رحابه ويسعدوا به، فإن مخالفة ذلك وطلب غيره كبديل عنه إنما يمثل عملا غير مشـــروع يحمــل صاحبه على الكفران فى الدنيا والخسران في الآخرة .

وكلما كان المرء مؤمناً بالله رباً , وبالإسلام ديناً ، وبسيدنا محمد صلــى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً ، فان حرصه على طلب العلم والاستزادة منـــه يكــون أمراً حاسماً فى حياته ، وكلما ازدادت أرصدته فى ميدان القرب من الله تعالى ، فان إقباله على طلب العلم الإلهى والعمل به يزداد تأكيداً وتثبيتاً ، كما يكون فى إقباله نحو المعارف الإنسانية على بينه من أمره ، بحيث لا تنقلب إلى معـــارف لم تثبت أدلتها عنده ، وفى نفس الوقت لن يصدق بمعلومات تلقى إليـــه حتـــى يعرضها على أصول الدين الإسلامي مهما كانت درجة هذه العلوم من الدقـــة ، ومهما بلغت نتائجها من العموم أو التأكيد .

---

(١) سورة المائدة الآية ٣ .

(٢) سورة آل عمران الآية ٨٥ .

فإذا كان مصدر هذه العلوم أو المعارف من غير المسلمين فإن الوضع حينئذ يختلف ، وطلبه لها يتضاءل ، وثقته فيها تتلاشى ، اللهم إلا أن تكون هذه العلوم قد أمكن تصديقها بالبرهان العلمى ، والنظر العقلي الصحيح ، وحينئذ يكون قبوله لها لا لذاتها ، وإنما لأن البرهان العقلى لم يكذبها وإنما نبه إليها أو دل عليها ، وأن النظر الفكرى الصحيح لم يرفضها .

وآية ذلك أن سيدنا عمر بن الخطاب وجد صحيفة بها بعض فقرات ذكر له أنها من التوراة — وكان ذلك فى حداثة عهده بالإسلام — فما أخذها ونظر فيها إذا برسول الله صلى الله عليه وسلم يلمح هذه الصحيفة فى يده ، فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها ثم غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب والله لقد جاءتكم من عند الله بيضاء نقية "[١] فتركها سيدنا عمر وحزن فى نفسه لأنه أنفق فى قراءتها قليلاً من الوقت كان المطلوب الاستفادة منه فى قراءة القرآن الكريم ، أو الحديث الشريف ، أو الأمر بصدقة أو معروف أو غير ذلك من وجوه الخير لقوله تعالى : **"لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً "**[٢] .

وقد صنع خلفاء بنى العباس قريبا من هذا الصنيع ، إذ كانوا لا يقبلون من كتب الفلسفة المترجمة إلى البيئة الإسلامية إلا ما يرون أنه لا يمثل خطراً على الجماعة المسلمة لا من حيث النصوص التى يقوم عليها ، ولا من ناحية الأفكار

---

(١) الشيخ على عبد العظيم سعيد — الخلفاء الراشدون ص ١٤٧ وراجع لابن القيم أعلام الموقعين عن رب العالمين ص ١٣٨ .

(٢) سورة النساء الآية ١١٤ ، فدل الأمر على أن النظر فى ثقافة غير المسلم يعتبر أمراً مقبولاً إذا كان مما حث الدين الإسلامى على طلبه ، ويكون مرفوضاً ومحرماً إذا كان مما حث الدين الاسلامى على رفضه أو إذا خالفت طبيعته ظواهر نصوص الإسلام ، أو كانت نتائجه تعارض أحكاماً شرعية ، او أقيسة فقهية ، أو قضايا أستقر أمر جماعة المسلمين بشأنها .

التى يدعوا إليها ، ولا من حيث النتائج التى انتصب مدافعاً عنـــها ، وإلا كــان الجميع شركاء فى المسئولية متشاركين فى الأثم واقعين تحت ســيطرة الــهوى واتباع الشيطان .

فهؤلاء الذين تنخفض أرصدتهم الثقافية على الناحية الدينية يكونون أقرب شبهاً بالذين تفتقد أجسادهم المناعة الطبيعية بحيث يكون الجميع عرضة لأقـــل الأمراض أو أخطرها على السواء، فمتى هوجم الجسم من خصومه الألـــداء ــ الفيروسات والجراثيم ــ فإن صاحب هذا الجسم تأتيه العلل على كل ناحية ، وما ذلك إلا لأن مناعته الطبيعية ضاعت أرصدتها وصار الجسم غير قـــادر علـــى مواجهة الأخطار التى تتهدده . والذين تنخفض معايير الثقافة الدينية الإســـلامية فى نفوسهم يتقلبون الأفكار الوارده إليهم من غـــير فحـــص أو تميـــيز ، إنـــهم يبتلعونها كأنها اقراص دواء مرة أجبروا عليها طلباً للفحولة الكاذبة [١] والرجولة الخادعة وسعياً خلف الأوهام أما لماذا ؟

فلأن هذه الثقافات الواردة لا تساير ديننا الحنيف وإنما تتعارض نتائجها مع أصوله بدليل أن منها أفكاراً تعرضت لقصة خلق الكون وذكرت مبرراتها لـــهذا التعرض وكلها واهية ، لأن الغيب علمه عند الله عالم الغيب والشـــهادة الكبـــير المتعال [٢]، ولذا فهم قد اختلفوا فى تقدير عمر الكون اختلافا ينبئ عن كذبـــهم

---

(١) وهذه الأدوية صارت منتشرة بين الكثيرين من العوام ومنعدمى الثقافة فجاءت نتائجـــها سلبية بالنسبة لهم من كل ناحية، فخسروا أموالهم وملكاتهم طلباً لشهوة عارضـــة ونـــزوة رخيصة.

(٢) سورة الرعد الآية ٩ . فكل الأشياء عند الله تعالى بقدر محـــدود لا يتجـــاوزه حســب المصلحة والمنفعة وهو سبحانه وتعالى عالم الغيب والشهادة ، وهو ما غاب عـــن الحـــس وما كان مشاهداً منظوراً ، فعلمه تعالى شامل للخفى والمرئي ولا يخفى عليـــه شـــئ لأنـــه الكبير المتعال العظيم الشأن الذي كل شئ دونه المستعلى على كل شئ بقدرته المنزهة عـــن كافة أوجه المشابهة والمماثلة ــ الإمام الطبرى تفسير الطبرى ج ١٣ ص ١١٨/١١٩ .

فمنهم من قال أن عمر الكون عشرة ملايين سنة ، ومنهم من قال عشرين مليون سنة ، ومنهم من قال عشرة مليارات من السنين ، ومنهم من قال غير ذلك . والفرق بين أول رقم منها مع الرقم الأخير يكشف عن كمية هائلة بين الآراء المطروحة مما يؤكد أن أصحاب التقدير الزمني لعمر الكون قد أخفقوا إخفاقاً كبيراً [١] .

والله سبحانه وتعالى قد بين أنه جل شأنه حين خلق السماوات والأرضين لم يكن هناك واحد من المخلوقين حتى يقيد تاريخ الخلق بحيث تكون شهادته من هذه الناحية فيها شئ من القبول قال تعالى : **" ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضداً "**[٢].

ففي الآية إشارة إلي غناه تعالى عن خلقه ، ونفى مشاركتهم في الألوهية حتى يعتضد بأحد في الخلق ، ويشاوره في تدبير أمرهما حيث إنه وحده الخلق بيده الأمور كلها حاضرها فضلاً عن الغائب [٣] سبحانه وتعالى .

فإذا ما التقط أفكار تقدير عمر الكون واحد ممن تنخفض أرصدتهم الثقافية من الناحية الدينية ، فإنه يسارع إلى تقبل هذه الأفكار، وترديدها وكأنها حقائق أساسية أو قواعد ثابتة ، ولا مانع لديه من تبنيها والدفاع عنها إلى حد المقاتلة ، بل ربما يموت متصورا أنه بلغ درجة الشهادة ، وبخاصة أن شيطانه يكون قادرا على دفعه للسوء مع تحسينه له [٤]قال تعالى : **ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين "**[٥].

---

(١) أ .ج كراوثر الكون بداية ونهاية ص ٣٥ ترجمة وفاء صبرى طبعة دار العلم للملايين ١٩٨٩م . (٢) سورة الكهف الآية ٥١ .

(٣) الشيخ منصور محمد نور الدين — تفسير سورة الكهف ص ١٣٣ مطبعة نور الهدى ١٩٥٧م .

(٤)الشيخ محمد بن على البنغالى — الإسلام وبناء المجتمع ص ٥٧ ط الدار الميمنية ١٩٣٧م

(٥) سورة الزخرف الآية ٣٦ .

قال الشيخ الصابونى : ومن يعرض عن القرآن الكريم ويتغافل عن عبـــادة الرحمن نهئ له شيطاناً لا ينفك عن الوسوسة له والإغـــواء فــهو مـــلازم لـــه ومصاحب لا يفارقه[١] وإنما يظل به حتى يرديه وفي الهلاك يلقيه .

كذلك الأفكار التى ظهرت تحت اسم التطور سواء أكان هذا التطـــور علـــى الناحية الإجماعية ، أم على ناحية التاريخ الطبيعي، فإذا وقعت هـــذه الأفكـــار الفاسدة على غر تساقطت أرصدته الثقافية ، فإنه يهرب إلى الأفكار التطوريـــة ويعتقدها ، ورغم أنها مخالفة لنصوص الدين الإسلامى إلا أنه يتمسك بها وربما تفاخر بكونها ثقافته ، مع أن الله تعالى قد بين أنواع الخلق وقيام الزوجية فى كل منها فى آيات كثيرة .

من ذلك قوله تعالى : **" ومن كل شئ خلقنا زوجين لعلكم تذكرون "**.[٢]

قال ابن زيد من كل شئ خلقنا صنفين ونوعين مختلفين ذكراً وأنثى ، وحلـــواً وحامضاً ونحو ذلك ، وقال مجاهد يعنى به المتقابلات كالذكر والأنثى ، والسماء والأرض ، والشمس والقمر ، والليل والنهار ، والنور والظلام ، والخير والشـــو وأمثال ذلك [٣] مما تجرى فيه الزوجية بأشكالها التى يمكن أن تجئ فيها .

وقوله تعالى : **"اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا "**[٤] . ذهب أغلب المفسرين إلي القول بأن الله تعالى هو الذي خلق بقدرته

---

(١)الشيخ محمد على الصابونى ــ صفوة التفاسير ج١٥ ص ١٥٧ .

(٢) سورة الذاريات الآية ٤٩ .

(٣)الإمام القرطبى ــ تفسير القرطبى ج ١٧ ص ٥٣ .

(٤) سورة الطلاق الآية ١٢ .

سبع سماوات طباقاً وخلق من الأرض سبع أرضين بعضها فوق بعض بدون فتوق يجرى أمر الله وقضاؤه بين السماوات والأرض ، ليعلم كافة العقلاء أن من قدر على خلق ذلك قادر على كل شئ كما أنه عالم بكل شئ ولا تخفي عليه خافية أبداً [١] .

فالله سبحانه وتعالى واحد فرد أحد لم يتخذ الصاحبة أو الولد [٢] وكل الكائنات تجرى فيها الثنائية لتظل له وحده الوحدانية ، فالذين اعتنقوا الأفكار التطورية قد دلت سلوكياتهم على أن أرصدتهم من الثقافة الدينية فاقدة القيمة ، لقد صارت كالعملة التى لا رصيد لها أو تفتقد الغطاء البنكى المتمثل فى الرصيد الذهبى .

وأيضاً قال تعالى : " **"يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** "[٣] وكذلك الحال فى الأفكار التى تتعلق بفلاسفة الغرب التى تأتى إلى أبناء الشرق فيظنونها حقائق مسلمة ، أو ثقافات متمايزة ، وهم فى ظنونهم قد سقطوا ، وبعيداً عن مراتع الماء العذب قد تلاقوا .

مع أن هذه الأفكار الرعناء المفرقة فى الخيالات والأوهام لا يوجد لها ضابط ، كما أنها تعبر عن وجهات نظر لم يقف أصحابها على أية حقيقة تدعمهم ، وإنما ذكرت آراءهم بكل ما فيها من غث وسموم ، تنتشر فى المكان

---

(١) راجع لأبى حيان البحر المحيط ج ٨ ص ٢٨٦ ، والقرطبى ج ١٨ ص ١٦٨ .

(٢) قال تعالى : "بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ" سورة الأنعام الآيتان ١٠١/١٠٢ .

(٣) سورة الحجرات الآية ١٣

كله فتصيب من يقترب منها ، لقد صارت هذه الأفكار الفاسدة أشبه بنافخ الكــير إن لم تصبك ناره أصابك سواد كيره ودخانه .

وفوق ذلك فإن من تعلق بثقافة الغرب وتابع أصحابها حذو النعل بــالنعل ، لم تسلم له عقيدة ، كما لم تصح له عبادة ، وإنما داخله الشك من كل ناحية حتى بات أمره قلقاً ، وصارت حياته أشبه بالكوابيس المزعجة والأحلام القاسية ومــن ثم تحولت الأمور معهم إلى الهلاوس والأوهام وهي لا يجئ أصحابها من خلفها إلا الشر والمرض بعد عصيان رب العالمين .

والوضعية المنطقية على وجه الخصوص ما هى إلا مسلاخ فكرى نما فــى ارض سبخة ، وتعلق بنباتات متطفلة ، ما إن يقترب المرء منها إلا وتسقط على رأسه فتغطيه بالأحزان ، كما تلقي به فى الأوهام والأوحال ، على أســـاس أن الوضعية تتمسك بالواقع المشاهد فى بعض جزئياته بجانب التجربـــة الحســية، وتلغى من اعتبارها ما وراء ذلك .

وقد تقبلها بعض أصحاب العقول المتهافتة ظانين أنها حقائق علميــة ، وأن نتائجها يقينية يجب الأخذ بها دون أن يعرفوا مناهضة الإسلام لها ، أو طعـــن هذه الأفكار على النصوص الإسلامية ، وإنكارها للقواعد والأصول الشــرعية ، بجانب إنكارها للغيبيات الدينية وأولها الله سبحانه وتعالى ، والــروح ، وخلــود النفس وكل حديث عن أمر البعث [١]،وأنها قامت في أوربا بالتواجـــه تعســفات الكنيسة ورجالها ولا تصلح في أى بلد سطع علي أهله نور الإسلام .

والمؤسف له أن يتبنى هذه الأفكار ثلة من أبناء الشعوب الشرقية ، مـــهد الاستعمار لهم بعض الطرق فنسبوا هذه الأفكار الهوجاء إلى العلم ، وأعلوا مــن

---

(١)الدكتور يسرى محمد فخرى — الوضعية والأديان ص ٧٣ الطبعة الأولى ١٩٧٥م .

شأنها كما دافعوا عنها [١] ، ولو كانت لديهم حصانة دينية ، وأرصدة من الثقافة الإسلامية ، لما استجابوا لهذه الأفكار ، وما تقبلوها على أنها عقائد يجب الإمساك بها وعدم التخلي عنها ، وإنما كان بإمكانهم النظر إليها على أنها أفكار لم تنل حظها من الصدق .

وفى تقديرى أن الأرصدة الثقافية الإسلامية لأى مفكر تمثل القواعد الثابتة التى يجب أن يقوم عليها ، فإذا انحلت من عقدها أو تضاءلت في طبيعتها فإنه يفقد قدرته على التمييز ، وتتحمل الأسرة بعض الأعباء حول تلك النقطة ، بدليل أن الذين خرجوا على الأصول الإسلامية ، خرجوا أيضاً على الخط العام للمسلمين ، وقد دفعهم لذلك ضعف فى الحصيلة الإسلامية ، وغزو متعمد من الثقافة الغير إسلامية[٢] وكلما نقص الجانب الثقافي الديني لدى فرد فإنه يظل عرضة للإصابة بذات الأخطار ، مهما تقدمت سنه أو علت بين الناس منزلته .

مع الأخذ بعين الاعتبار أن المقصود ليس زيادة الثقافة الإسلامية على الناحية النظرية ، وإنما المقصود ازدياد الرصيد الثقافي الإيماني على الناحية النظرية والعملية معاً ، لأن الإيمان علم وعمل ما وقر في القلب وصدقه العمل ، إنه تكامل بين الإنسان بدناً وروحاً مع التعاليم والتكاليف الشرعية .

العامل الثالث : الافتتان بالغرب والتقليد الأعمى له :

عادة تنبهر النفس بالجديد الوافد ثم ما تلبث أن تقع لها الممارسة عليه وبالتالى لا يكون تقبلها لذات الأفكار فى المرة الثانية كما كان فى الحالة الأولى

---

(١) فى الحكم السائدة من جهل شيئاً عاداه ، ومن عادى الخير فقد حرم منه وخاب مسعاه ، ولأن هؤلاء المحسوبين على الشرق لا يدركون قيمته وأنه مهبط غالبية رسالات السماء لأهل الأرض فقد انتسبوا إلى غيره ، ولأنهم فقدوا هويتهم الإسلامية فقد حسبوا الإسلام غير واف بمقتضيات العصر وهم لا يدركون حقيقة الإسلام وإنما هم مرضى يحتاجون العلاج .

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد *** وينكر الفم طعم الماء من سقم .

(٢) الدكتور / محمد السيد أبو طاحون – الإسلام والتنمية ص ٥٧ ط أولى ١٩٦١م .

لها ، متى كان للمرء قدر من التمييز ، أو لديه مسحة من عقل صائب فضــلاً عن أن يكون صاحب فهم صحيح .

والتقليد فى حد ذاته قد يكون محموداً لأنــه لا يخــالف أصــول الإســلام الصحيحة ، وقد يكون مذموماً متى جاء خارجاً عن قاعدة الالــتزام بــالأصول الإسلامية ، فهما جهتان لا يخرج التقليد عن أحدهما ، أما التقليد الممدوح فــهو تقليد العامى للعالم بدليله [1] كتقليد الناس لأصحاب المذاهب الفقهية فــإن ذلــك الفعل منهم يكون حسناً ، ولا يلامون عليه مادام قد قلد عالماً بدليله ، وبخاصــة فى العمليات [2].

وأما التقليد المذموم فهو الذى يقع مخالفاً لكتاب الله تعالى وسنة رســول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنما يقوم فيه المقلد على متابعة الجهلاء كــالقول بقــدم العالم الجنسى واعتقاده على أنه أمــر صحيــح ، وذكــر حكايــات أصحــاب الأقاصيص الخرافية والأساطير التى لا يتوقف عن حكايتها ، فهى لا تقدم نفعــاً ولا تعين على أداء مصلحة .

ثم التقليد الممدوح يكون فى العبادة لا فى الاعتقاد ، ولذلــك قــال الشــيخ إبراهيم للقاني ناظماً:

وكل من قلد فى التوحيد * إيمانه له يخل من ترديد**

والتقليد الأعمى ، يهدد ملكات الإنسان إذ يحوله من إنسان إيجابى إلى سلبى ومن متميز إلى تابع ، وهى كلها تمثل جرائم يجب التبرؤ منها وتسقط حقوقــاً لصحابها ويوم القيامة يقع بين الطرفين التلاوم ، قال تعــالى :"**إذ تبرأ الذين أتبعوا من الذين أتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب . وقال الذين**

---

(١) الشيخ نور الدين عبد العظيم يسرى — الشريعة الإسلامية ومصادرها الأصيلة ص ٨١ .

(٢) يقصد بالعمليات الفروع الفقهية ومسائله وقضاياه وكذلك ما يتعلق بالسلوك .

اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وماهم بخارجين من النار "[١].

حيث يتبوأ الرؤساء المتبوعون من الأتباع ، كما يعترفون ببطلان ما كانوا يدعونه فى الدنيا ويدعونهم إليه من فنون الكفر والضلال ، ومن ثم فإنهم يعتزلونهم ثم يقابلونهم باللعن فيهم والطعن عليهم وذلك يكون حين يرون العذاب حيث انقطعت بينهم حلقات الوصل وذلك موقع في الحسرة والندم لأن الأعمال التي ظنوها صالحة لم تكن إلا محبطة بالكفر[٢] والله لا يرضى عن الكافرين .

ثم إن الله تعالى حث الإنسان على التفكير الصحيح ونهاه عن قبول ما يلقيه إليه الغير من فضلات فكرية قد يمتصها بين حنايا فؤاده فتتحول عليه ناراً مشتعلة تحرقه فيشتكى منها حتى تأكله ولا يكاد يبين فيقول الحبيب المصطفى (لا تكن إمعه تقول إن أحسن الناس أحسنت ، وإن أساءوا أسأت ، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تظلموا) [٣]. ثم إن التقليد الأعمى يلغى فى الإنسان ملكة الاستخدام العقلى الصحيح ، ويجعله كالحيوان الذي يبتعد عن المشاركة العقلية فتتضاءل قدراته العقلية، وتهبط به إلى أدنى المستويات الفكرية [٤]على أساس أن كل الناس بينهم فروق فردية [٥].

---

(١) سورة البقرة الآيتان ١٦٦ ، ١٦٧ .

(٢) الشيخ اسماعيل حقى البروسوي ــ تنوير الأذهان ج ١ ص ١٢٧ .

(٣)الشيخ منصور محمد أبو عليان ــ أنوار السنة ص ١٥٧ .

(٤)الدكتور فؤاد محمود حسانين ــ الفروق الفردية والأنماط الفكرية ص ١٢٣ ط دار الفؤاد سنة ١٩٨٢م

(٥) الفروق الفردية قد تكون فى الإنسان الواحد ويشعر بها كل منا فى إجادته لعلم دون علم ، أو فن دون فن ، أو يغلب عليه طابع مهارى فى حرفة من الحرف فتقع الفروق الفردية ، وقد تكون هذه الفروق بين مجتمعات صغيرة كالأسرة التى يحترف أفرادها الصيد مثلاً فإنها تتمايز فى هذا الجانب عن الأسرة التى يحترف أفرادها عمليات جمع القمامة مثلاً ، وكذلك تقع الفروق الفردية بين المجتمعات الكبيرة كالمجتمع الصناعى والمجتمع الزراعى . راجع للدكتور فؤاد أبو حطب ــ الفروق الفردية والقدرات العقلية ص ١٣٨ مكتبة سعيد رأفت .

فاتباع مذهب فكرى بعينه من غير نظر إلى ما فيه مع قدرة المقلد على الانفلات من قيوده يعتبر أمراً جائراً .

ولذا فقد حذر الإمام الغزالى من الالتفات إلى تقليد من يتوسم فيهم الأمل ما لم يكن لديه القدرة على النظر العقلى فيكون (جانب الالتفات إلى المذاهب واطلب الحق بطريق النظر لتكون صاحب مذهب ، ولا تكن فى صورة أعمى تقلد قائداً يرشدك إلى طريق ، وحولك الف مثل قائدك ينادون عليك بأنه أهلكك وأضلك عن سواء السبيل ، وستعلم فى عاقبة أمرك ظلم قائدك فلا خلاص إلا فى الاستقلال [1]الفكرى ، والانطلاق العقلى وهو لا يكون إلا في الإلتزام بما شرع الله تعالى).

ثم إن التقليد للثقافات الغربية أو الأخرى الوافدة من الفكر الوثنى يجعل المقلد صورة مستنسخة على ناحية هزيلة لأنه ليس غربى النشأة والاعتقاد حتى يكون واحداً منهم ، كما أنه ليس غربى الأسس الثقافية فيمكنه أن يطوع أمره على ذات الأسس ، أما وإنه قد استلقى بين حنايا الثقافة الغربية الهزيلة ، وطابت نفسه فى أن يكون تابعاً لها ومقلداً فلا تلتفت إليه ، إذ مثله إنسلخ من جماعة المسلمين ومن ثم فلا اهتمام به .

فلأن المسلم الملتزم صاحب الثقافة الإسلامية الأصيلة لا تغريه الثقافات الأخرى الهزيلة ، كما لا تصرفه عن الغايات التى وطن نفسه عليها أو درب ملكاته حتى يتمكن من القيام بها على الوجه الأمثل وبالتالى يكون على وعى بما تأتى به تلك الثقافات الوافدة فإذا ما عرضت له ثقافة منها كانت ملكاته قادرة على فحصها بمعيار لعقل الصحيح ، والقيم السليمة ، والأسس المستقرة ، أما أذا الغى عقله وقلد غيره فإنه يكون مذموماً فى سلوكه سواء أكان التقليد منه فى العقيدة أم فى العبادة أم فى الأخلاق يدلنا على ذلك قول الله تعالى :" **وَإِذَا قِيلَ**

---

(١) الإمام أبو حامد الغزالى / ميزان العمل ص ٤٩ ضمن القصور العوالى مطبعة الجندى بالقاهرة .

لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ " [١].

قال الشيخ الصابوني : وإذا قيل للمشركين اتبعوا ما أنزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم من الوحى والقرآن ، وأتركوا ما أنتم عليه من الضلال والجهل قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا حتى لو كان أباؤهم من أكثر الناس جهلاً ، أو كانوا سفهاء أغبياء ليس لهم عقل يردعهم عن الشر ولا بصيرة تنير لهم الطريق .[٢]

فأصحاب التقليد الأعمى يقعون فى الآخرة موقع القدح والقبح لا موقع المدح والاستحسان ،وما ذلك إلا لأنهم قلدوا الآباء والأجداد الضالين وهم فى الغى لا يبصرون قال تعالى :**"وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ** [٣] "

فهؤلاء المجادلون من أصحاب التقليد إذا قال لهم المبعوث فيهم من قبل الله تعالى وهو النبى اتبعوا ما أنزل الله على نبيه من القرآن الكريم الواضح والنور المبين وآمنوا به ، قالوا نحن نتبع آباءنا الماضين من عبادة الأصنام وهنا تبرز مشكلتهم فى التقليد الأعمى حيث يتبعونهم مع أنهم جند الشياطين وهم لا يدعونهم إلا إلى النار ، ولا يذيقونهم إلا العذاب الأليم [٤]، وهم فى كل حال المترفون فى بعض الأحيان المكذبون للرسل فى كل آن قال تعالى : **"وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ**

---

(١) سورة البقرة آية ١٧٠ .

(٢)الشيخ محمد على الصابونى — صفوة التفاسير ج ١ ص ١١٤ .

(٣) سورة لقمان الآية :٢١

(٣) الشيخ منصور حسن عبد العظيم — نظرات فى سورة لقمان ص ١١٧ ط الدار اليمنية ١٣١١هـ .

آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ " [١].

إذاً الغرب له عاداته وأكثرها فاسدة وتقاليده ومعها نتائجها المدمرة ،فإذا أفتتن بهم أبناء الشرق فقد نقلوا الجوانب السلبية إلى بلادهم الإسلامية حتى يصيروا مبحرين فى المفاسد والمهلكات ، لأنها تجلب من بلاد عاشت فى ممارسة المحرمات ثم يعملون على توزيعها فى بلاد رفضت المحرمات بغية تدمير أهل تلك البلاد ، وربما كان القائمون بها من العملاء الذين تشترى ضمائرهم بثمن بخس نظير دراهم معدودة ، أو كانوا من أصحاب الضمائر الخربة الذين لا يبغون لها نقاء ، ولا يستسيغون الحياة الهادئة الكريمة .

وكم جنت عمليات الافتتان بالغرب وتقليده الأعمى على بعض أبناء المسلمين من شرور وآثام حتى تنازلوا عن عقيدتهم الدينية [٢]وقالوا حتى لا تقوم الشريعة الإسلامية مقامها الذى ارتضاه الله رب العالمين وأعلنوا إيمانهم بالعلم المعملى وكفرهم بالدين الإلهى [٣].

كما فاخروا بالعلم الذى يتبناه الغرب ، وحرصوا على الاستمساك به ، وطالبوا أبناء الشرق النهوض حتى يكونوا على موقف المتابع للفكر الغربى ، متى أراد أبناء الشرق اللحاق بركب الحضارة الغربية ولو أنهم نظروا فى دعواهم لوجدوها ملفقة فاقدة الأهلية ، لأن الحضارة الزاهية نمت فى بلاد الإسلام حين

---

(١)سورة الزخرف الآيات: ٢٣ ـ ٢٥ .

(٢) كالحال فى السودان حين ظهرت جماعة الإخوان الجمهوريين فكفروا بعد إيمان حين قالوا إن لله تنزلات ثلاثة ، وأعلنوا أن السفور هو الأصل والحجاب بدعة ،كما طالبوا بترك الصلاة والحج والزكاة على أساس أن هذه الأمور قد إنتهى دورها ، والحمد لله أن هذه الجماعة انقضى أمر زعيمها ـ محمود طه ـ حيث لقى حتفه إعداماً ـ يراجع للدكتور محمد كسبه ـ الفكر الباطنى ـ الإخوان الجمهوريون وكذلك كتابنا الإخوان الجمهوريون فى السودان وموقف الإسلام منهم .

(٣) الشيخ محمد خليل أبو جديلة الاستغراب وخطره على الأمة الاسلامية ص ١٣٨ طبعة مطابع سحر بجدة

قامت على نصوص الدين الإسلامي ، تغذيها توجيهات القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف بجانب أخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم ، على اساس أن الدين الإسلامي هو الدعامة الأساسية التى قامت عليها الحضارة الإسلامية ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل على نشر هذه الثقافة ، ودفع الصحابة إلى ممارستها طبقاً لنصوص القرآن الكريم وتوجيهاته ، وتعاليم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم العلمية والعملية (١)كما أن المنصفين من الغربيين قد أعلنوا أن الحضارة الغربية مدينة فى أصولها للحضارة الإسلامية (٢)وبالتالي ففرضية ضرورة متابعة أبناء الإسلام طرائق الحضارة الغربية تعتبر فرضية منقوصة .

وكم أنبأت حوادث الدهر ، وتحدثت ذاكرة الأيام عن أولئك الذين افتتنوا بالغرب وقلدوه حيث بان أنهم خسروا أنفسهم وثقافتهم ودينهم ، ولفظتهم الأمم من حولهم ، وتكالبت عليهم الأمراض الاجتماعية والنفسية فصاروا أعجوبة العجائب ، وأمثولة الأماثل (٣)وفوق ذلك فإن تقليدهم للغرب قد أنساهم قيمهم وعاداتهم فصاروا بين الناس كالجمل الأجرب الذى تنفر منه الأباعر السليمة خشية أن يصيبها ما أصابهم .

والذين انحنوا للغرب وافتتنوا به وحاولوا تقليده بعضهم تعلق بالوضعية فى صورة من صورها ، وظل يستظهر ما تركه المهووسون بها من أهل الغرب ، بغية أن يصير هو الآخر وضعياً ، فلما حاول إعلان أنه وضعي ، وأراد خداع الجماهير بأنه كاتب وضعي خذله أمره ، وبان أنه ببغاء يردد ما

---

(١)الدكتورة نازلى اسماعيل حسين ــ فلسفة الحضارة ص ١٥٦ طبعة مكتبة سعيد رأفت ١٩٨٢م .

(٢)جوزيف راوتر ــ أصول الحضارة الغربية ص ٤٥ ترجمة ناصر العقدة ١٩٤٥م .

(٣)راجع كتابنا لماذا إنتشر الإسلام ج ٢ ص ١٥٧ طبعة الكونتننتال ١٩٧٨م .

يلقى إليه ، لقد قصر دوره على ترجمة أقوال دعاتها فى الغرب حتى يظهرها فى الشرق من خلال لغة عربية بدل اللغة اللاتينية التى كتبت بها .[١].

ومن يطالع ما كتبه أتباع الوضعيين فى مصر مثلاً إبان النصف الثانى من القرن العشرين ، ويعمل على مراجعة هذه المكتوبات مع الأصول التى كتبت عن الوضعية فى بلاد الغرب ، كالحال مع شليك وكارناب ، وبيرد يائير ، وغيرهم ، فلا يجد فرقاً بينهما إلا فى اللغة التى كتبت بها كل منهما .

والذى تطمئن إليه النفس أن الافتتان بالغرب الذى وقع فيه بعض أبناء الشرق — الذين نصبوا أنفسهم فوق رؤس العباد ، ثم اصطنعوا معارك وهمية ليقاتلوا طواحين الهواء ، بغية أن يذكرهم الناس ضمن أصحاب المصاف العقلية— قد خانهم التوفيق ، وتفرقت عنهم أسبابه ، كما أنفلتت منهم معاييرهم الصحيحة التى كانوا عليها قبل سفرهم إلي تلك البلاد[٢]ثم إن تقليدهم للغرب قد فتح الباب للطعن على العادات المستقرة ، والأخلاق الفاضلة ، كما ظهر ذلك فيما تبثه القنوات الفضائية ، ويبرز فيما تنقله الشاشات الصغيرة والكبيرة بجانب شبكات المعلومات المختلفة [٣].

وفوق ذلك فقد صار تقليد الغرب أحد الأسباب التى تدفع بالغربيين إلى اتهام أهل الشرق بالضعف فى العقول ، والعجز عن إدارة أمور بلادهم ففرضوا وصاياتهم العقلية على أصحاب تلك البلاد ، حتى برزت بعض نتائجها فى

---

(١) الدكتور فوزى محمد حسن الشورى — الوضعية الشرقية ص ٥٣ ط دار الهدى ١٩٦٥م

(٢) الأستاذ مدحت السيد طلبه — الاستغراب مقدمات ونتائج ص ١١٢ طبعة دار الفؤاد ١٩٨٧م

(٣) والمؤسف له أن بعض هذه الأفكار تنقل على أنها ثقافة علمية أولئك الذين يتصدرون وسائل الإعلام بالحديث فيها والكتابة إليها ، وبعضهم يحمل أسماء إسلامية ، وبعض أخر ربما ظهر على إحدى هذه الشاشات ، أو وسائل الإعلام بالمظهر الإسلامى الملتزم ، وربما أطال اللحية ولعبت أصابعه بحبات المسبحة أثناء الحوار معه فى الاستوديوهات أثناء التسجيل فكانت أخطارهم على المجتمع المسلم خاصة ، والمجتمع الشرقى عامة من الأمور التى يصعب تدارك أخطارها ، وتنحية المشكلات الناجمة عنها فضلاً عن تقديم العلاج الناجح لها.

إعلان الغرب عن ضرورة احتلاله الشرق ، وقد صنعوا ذلك فصار الغربـــي يمتص دماء الشرقي ، ويستبيح دم أفراده وممتلكاتهم تحت اســـم التنويـــر ، أو التحرير وما هو إلا صورة من صور الظلام والاستعباد ، بجانب القهر والإذلال حتى يتمكن الغربيون من سرقة مصادر وثروات البلاد الإسلامية فى هزيع مـــن الليل [١] ولا مانع لدى الغربيين من تلفيق الاتهامات للشرقيين ونصب الأكمنة لهم والإسراف فى الدعاوى الكاذبة عليهم ، وأحداث التاريخ مـــن أبـــرز الشـــواهد القائمة على ما سلف الإلماح إليه .

ربما يقال إن التكنولوجيا وأسباب التقدم العلمى قاسم مشترك بين كل العقول فلماذا تصر على أن تقليد الغرب جناية كبرى ، وأنه سبب وجود الأفكار الهدامة داخل المجتمعات الإسلامية فى الشرق خاصة ، والجـــواب : أن العلـــم قاســـم مشترك بين كل الأناسى ، كما أن الفكر الإنسانى يلقح بعضه بعضاً ، لكـــن إذا أمسكت زجاجة الماء الكراع ، ثم أفرغت هذه الزجاجة مـــن مائـــها النظيـــف وعبئتها بالقاذورات فهل يمكن اعتبار المعبأ هو الماء النظيف الذى يمثل الغايـــة الثابتة لدى المعبأ وهو ذات الماء الكراع ، أم أنها خطوة قام بها ذلـــك الفـــاعل حتى تباعد بين الطرفين [٢] .

ثم إن تقليد الغرب فى الأخذ من العلوم والمعارف الإنسانية يجب أن يكـــون من خلال توجيهات النصوص الإسلامية ، بحيث يصير التقليد فيما يفيد ، أمـــا

---

(١) صنعت ذلك أمريكا بالعراق كما صنعت بأفغانستان وتعد العدة لكل من إيران وسوريا والسودان بجـــانب ليبيا وكلها بلاد إسلامية وشرقية أيضاً مما يؤكد أن الغرب يسعى لذبح الشرق ، وهتك حرماته عن طريق حفنة من الإمامات الباطلة أو من الإبناء الذين فقدوا الأسس الصحيحة وأضاعوا حقوق الأمم التى ينتسبون إليها .

(٢) ونفس الحال فى قارورة تحمل الدواء ، فإذا عبثت بالسم فان الذى يتناول ما بها حتماً يلاقيه المـــوت ولا ينجيه من الموت وهمه أنه كان حسن النية ، وكذلك اناء عسل النحل إذا أفرغ منه ووضع بدله الخمـــر فـــإن الأمر فى الأول كان دواء أما فى الثانى فقد صار داء ، وهكذا فكل ما يجئ به الغرب على هذه الناحية لا يمثـــل سوى الخراب والدمار بجانب الهلاك.

الافتتان به على كل ناحية فهو صورة من صور العدوان ، وفوق ذلك فإن في الافتتان بثقافة الغرب وتقليدهم — على الناحية التى لم يبصر المرء من أين أقبلت عليه ، وإلى أين تلقيه — يمثل جناية عقلية وجريمة أخلاقية لقوله تعالى : **" تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين "**(١) ، وكيف يطمئن المسلم إلى هذه الأفكار الشيطانية وما هى إلا فكر بشر خضعت جوانبه لاهتزازات متزايدة ، وتداخلات متباينة ، واضطرابات عبرت عنها الكثير من المفردات والكلمات ، وفوق ذلك فإن الذين يعلنون عن افتتانهم بالغرب وتقليده ، إنما يخونون أنفسهم وأوطانهم (٢)وكذلك الدين الذى ارتضاه الله لهم لأنهم تركوا ولاية الله وانصاعوا بولاية الشيطان فخسروا الدنيا والآخرة قال تعالى لأهل الإيمان : **" إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ "**(٣).

أما أهل الخسران الذين ينشدون الخوف بدل الأمان ، ويرجون الكفر والمعاصى بدل الإيمان فقد قال الله عنهم :" **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ "**(٤) .

---

(١) سورة البقرة الآية ١١١ ، وقال تعالى :" أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ" سورة الأنبياء الآية ٢٤ ، وقال تعالى : " أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ " سورة النمل الآية ٦٤ ، وقال تعالى : " وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ " سورة القصص الآية ٧٥ .

(٢)الدكتور السيد حسن صبحى — الاستغراب وجذوره ص ٧٣ ط دار مراد ١٩٥١م .

(٣) سورة المائدة الآيتان ٥٥/٥٦ .

(٤) سورة البقرة الآيتان ١٧٥ /١٧٦ .

والمؤسف له أن مقلدي الغرب قد أخذوا النظريات الفاسدة التى فقدت دورها هناك ، أو لقيت حتفها ووراها أهلها التراب أو أعلنوا نفرتهم منها وانقضاضهم عنها ، ثم يقوم أبناء الشرق ببعثها من جديد ــ على أنها علم أو أنها المنقذ للبلاد من أزماتها المختلفة ــ وبذل كل ما يملكون فى سبيل بقائها والمحافظة عليها .

فالماركسية التى ظهرت فى روسيا الشيوعية وتغنى بها أهل الإلحاد ، قد قوبلت بالفشل الذريع والإهمال الشديد ، وظلت تتلقى الضربات حتى كانت نهايتها فى روسيا الشيوعية ذاتها على يد زعيم تلك البلاد ــ ميخائيل جورباتشوف ثم حملها بين يديه وألقاها فى مزابل التاريخ ، وتباعد عن رائحتها الكريهة ومع هذا ما يزال بعض أبناء الشرق يفاخرون بأنهم ماركسيون أو شيوعيون ، ويعملون بكل ما أوتوا من قوة لتظل الماركسية قائمة فى رؤسهم ومتحركة فى أوطانهم ، فهل هؤلاء يمكن حسبانهم ضمن العقلاء .

والعلمانية التى ظهرت فى أوربا المسيحية كرد فعل لسلطان الكنيسة فأنكرت الدين المسيحى وطالبت بفصله عن الدولة ، ودفعت بالناس إلى سعار الأخلاق الفاسدة ، والانحلالات المتوالية ، والإندفاعات الدموية قد لحق بها الهلاك هناك حيث ظهر المذهب التقوى الذى يطالب بضرورة الرجوع للدين الذى سلمت نصوصه من العبث [1]، ورغم أن المذهب التقوى هناك يواجه صعوبات كثيرة فى التعبير عن آرائه ، كما يواجه مقاومة عنيفة من أنصار العلمانية إلا أنه مستمر فى الظهور على سطح الأحداث وربما تزايد مع الأيام .

ونفس الحال مع الوجودية الملحدة التى أذاعت بين الناس كلاً من اليأس والعدم وجردت الإنسان من طبيعته فى التعاون والتشارك مع إخوانه على أساس

---

(١) وهى إشارة صريحة إلى أن كل النصوص قد وقع فيها الفساد إلا نصوص الدين الإسلامي فإنها التي حفظها الله تعالى فلم يقع فيها شئ من الاختلاف أبداً ،وسيأتي اليوم الذى يكثر فيه هذا الاتجاه إلى أبعد مدى .

أن الإنسان مدنى بطبعه ، حتى حولته إلى فكرة حيوان مفترس من خلال تعميق الأنا الأعلى والهو الأدنى[١] وتغنت بالأنا والآخر حتى حركت فى النفوس الشريرة نوازع البقاء لذاتها ، وان أدى بقاؤها لفناء الآخرين ، فتحولت المجتمعات الغربية آنئذ إلى عصابات مسلحة يقوم أفرادها بالسطو على الآخرين وإنتهاك حرماتهم تحت مزاعم كاذبة ، فلما انتشرت أخبارها وذاق الناس كأس الهوان معها بدؤا ينظرون إليها نظرة عدائية وظلوا بها يواجهونها بأخطائها ، ويكشفون عوراتها حتى أهملوا تدريسها ، وطباعة الأفكار التى تدعو إليها ، ثم تناسوها تماماً ، وعقدوا محاكمات فكرية أدانوا فيها سارتر، وهيدجر ، ونيكر، كما أصدروا أحكام الكفر والهرطقة ، ممن دعا إلى الوجودية ، ولعنوا كل من ساهم فى الحديث عنها[٢] .

ومع ذلك فقد ظهر فى بعض جامعات الشرق أفراد قلائل يتيهون فخراً بأنهم وجوديون [٣]وأنهم بلسان الغرب المتقدم يتكلمون ، وفى بلادنا الإسلامية لهذا الهوس الأرعن ينشروه ، والغريب أن يصدر هذا ممن تقلدوا درجات وظيفية أو علمية وصاروا يتحدثون مع الناس باللغة التى يريدونها فصادمت أفكارهم الخاسرة العقيدة الدينية [٤]، وطعنت على القيم الأخلاقية ، كما سارعوا

---

(١)أ . ب باتيسوتا ـ الأنا والهو ـ ص ٤١ ترجمة حنان راشد .

(٢)الدكتور فوزى محمد عبد العظيم ـ الحضارة الغربية وأخطارها المدموة ـ ص ٧٣ .

(٣)والمؤسف أن البعض مازال يتحدث نفس اللهجة ولا مانع لديه من إتهام الأبرياء بما لايليق والوقوع فيهم بالقدر الذى تسمح به نفسه ويفاخر بأنه الذى فهم سارتر وكير كجورد حتى صار واحداً من الوجوديين .

(٤) وكان أكثر من واحد يعملون بإحدى الجامعات الإقليمية يفطرون فى رمضان علناً ، ويجاهرون بأنهم وجوديون لا عنيهم أمر الدين فى شئ وربما كان الواحد منهم يحمل اسماء اسلامية له بجانب والده وجده ، كأحمد وعبد الوهاب ، ومحمد ، وبعضهن كن يقمن بالتدخين فى رمضان وبين الطلاب وتفاخر الواحدة منهن بأن ما فيه المسلمين من تخلف حضارى سببه الالتزام ، بينما ما فيه الغرب من تقدم بسبب الانفلات من قيود هذا الالتزام بئس ما كانوا يفعلون .

فى تنفيذ هذه الخطوات التدميرية دون وازع من ضمير ، أو رقابة من عقل سليم المهم أن يقلدوا الغرب الكافر على طول الطريق .

كما أن هؤلاء المقلدة للغرب قد تعودوا الجدل السوفسطائي ، حتى ان الواحد منهم ربما جادل فى الدين الإسلامي وهو لا يعرفه ، كما لا يعرف طريقة الحوار الموضوعي أو الجدل الهادف ، ان نفسه المريضة قد سولت له — كبراً وحسداً — معاندة الإسلام وأهله ، ومودة الباطل وأهله ، وسار فى ذلك الطريق حتى منتهاه ، لا يرعوى لشئ خلف ذلك ، ولا ينظر إلا لما يطلبه أو يتمناه .

كما أن بعض الذين قلدوا الغرب تقليد العميان ، لم ينظر واحد منهم إلى الجانب المتعلق بالمدنية من الثقافة الغربية حتى يأخذوا ببعضه المعقول ، ويتركوا البعض الآخر وهو اللامعقول ، وإنما لجأوا إلى التراث الغربى المتعلق بالقيم الدينية والأخلاق السائدة فحذفوا الأصيل المقتبس من الأصل — وهو التراث الإسلامي — وأمسكوا بالزائف الهزيل وهو الثقافة الغربية ، فجمعوا إلى سوء النظر سوء العمل ، كما قرنوا بين سوء المعتقد وقبح السلوك ، وبالتالى خسروا الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين .

من ثم يمكن القول بأن الوضعية ظهرت فى الشرق على أيدى مقلدة ساروا خلف غيرهم من الشياطين مسيرة العميان ، واختبأوا فى كهوف الأفكار الإلحادية إختباء الجرذان ، فاستحقوا الوصف بأنهم خانوا الله ورسوله والله عز وجل نهى عن ذلك على سبيل التحريم فقال تعالى : "**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** "[1] .كما بين شأنه أن هؤلاء الخائنين لله ورسوله من جملة الكافرين ، قال تعالى : " **إِنَّ اللَّهَ لَا**

---

(١) سورة الأنفال الآية ٢٧ .

يُحِبُّ الخَائِنِينَ "[١] . وقال تعالى : " **إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ** "[٢] قال الشيخ البروسوى : فى الآية تنبيه على أنه بارتكاب الخيانة والكفران يصير المرء بحيث لا يتوب لتماديه فى ذلك ، وإذا لم يتب لم يحببه الله ، لأن الخيانة والنفاق مآخذهما واحد ، ومن الخيانة الكفر فإنه إهلاك للنفس التى هى أمانة الله عند الإنسان[٣] ويدخل فى الخيانة ترك الفرض من أجل السنة ، والنقص فى المكيال والميزان ، وتتبع عورات الآمنين ، وما كان من هذا القبيل فقد نهى كله رب العالمين ، وكل من دعاة الوضعية وأمثالهم إنما يقطعون الشوط المحرم ، ويفعلون ما يغضب الله رب العالمين . وقال جل شأنه :" **وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا** "[٤].

العامل الرابع : قياس النصوص الإسلامية بالنصوص الكهنوتية :

عاشت الأفكار اللاهوتية ردحاً من الزمان غير قادرة على الإفشاء بأسرارها ، وإعلان نتائج ابحاثها بالنسبة لكتب اللاهوت التى يتمسك بها كل من اليهود والمسيحيين فى أوربا ، وهى فى ذات الوقت تجرى فيها أوجه النقص من كل ناحية ، وتجرى حولها ملامح الرفض لها حيناً بعد حين ، لأنها نتائج أفكار من كتبوها سواء أعلنوا عن ذلك أم كتموه ، لأن القرآن الكريم قد فضح أمرهم قال تعالى :" **فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم**

---

(١) سورة الأنفال الآية ٥٨ .

(٢) سورة الحج الآية ٣٨ .

(٣) الشيخ اسماعيل حقى البروسوى – تنوير الأذهان ج٣ ص ١٦ .

(٤) سورة النساء الآية ١٠٧ .

مِّمَّا يَكْسِبُونَ "(١) ، وما دامت هذه الكتب يحدث لها التغيير فلم يقع لها استقرار أبداً لا فى النصوص التى تحملها ولا فى الممارسة التى تعبر عنها وقد أدى ذلك كله إلى فقدان الثقة فيها (٢).

كما أن بعضاً من رجال اللاهوت لا يصدقون بعصمة هـــذه الأســفار ولا يرون سبباً مقبولاً لاعتناق ما فيها ، وإنما يؤكدون على وقوعـــها فـــى أيـــدى الكثيرين ممن انتسبوا للمسيحية أو اليهودية على قدر سواء وأنهم الذيـــن فعلـــوا بهذه النصوص ما فعلوا من إضافة إليها أو نقصان منـــها ، أو تبديـــل لبعـــض أجزائها ، وكانت تلك النظرة هى السمة الغالبة على كل المثقفين فى أوربا كمـــا كان اللجوء للصمت هو سلوى الخائفين والعاقلين .

لم تكن رؤيتهم لنصوصهم تدفع لإحترامها أو تجعل المرء يعيرها اهتمامـــا كبيراً ، وإنما كانت نظرة تدعوا للتشاؤم حيناً والحذر حيناً أخر وكثيراً ما كـــان الناظر إليها تغلب عليه سمة التشاؤم ، وبخاصة عندما يرى تفسيرات رجـــالات اللاهوت حولها لا تقدم صورة مقبولة عند العقل الصحيح مما حدا بكريســـتوفر فوبيا أن يقول : إذا كانت نصوص الكتاب المقدس غامضة فإن تفسيرات رجال الدين لها جعلتها أكثر غموضاً (٣)كما نعتها بإهمال الجوانب الهامة مـــن أمـــور الحياة اليومية ، وعدم توافقها مع القواعد والقضايا العلمية .

ويقول توماس هيرز : إن آباء اللاهوت قد طرحـــوا نصـــوص الكتـــاب المقدس جانباً ، ثم بحثوا عن بديل يقوم مقامها ، ولم يطل بهم البحث بدليل أنـــهم استحدثوا نصوصاً لا علاقة لها بتعاليم الكتاب المقدس فضلا عن أن تكون لـــها

---

(١) سورة البقرة الآية ٧٩ .

(٢)الدكتور زهدى عثمان الطنطاوى ـــ دراسات فى الكتب المقدسة ص ٧٣ مطبعة زهران ١٩٧١م .

(٣) أ . ج باتوهان ـــ العقائد اللاهوتية والنصوص الكتابية ص ٢٨ ترجمة وفاء زهدى طبعة الدار الحديثة ١٩٧٤م .

أدنى علاقة بنصوصه ، ثم قاموا بعملية تلفيق واحدة حيث نسبوا هذه النصـوص الملفقة للكتاب المقدس فأضاعت هيبته ، كما عرضت كرامة هؤلاء الآباء للبخس والبوار [١]وبالتالي فقد عمل اللاهوتيون على إسقاط نصوص الكتاب المقدس من نفوس أتباع كل من اليهودية والنصرانية ، وأدى ذلك بدوره إلى إعتبـار تلـك النصوص ممثلة لخيالات الحالمين .

وأيضاً إلى اعتبارها منقوصة فخرجت بهذا الاعتبارعن دائرة القداسة إلـى مجال النقد والتقويم ، كما اعتبرت من المكملات الثانوية بالنسبة لتعاليم الكنيسـة ومصادر الدين اللاهوتي ، وذلك من شـأنه أن يجعـل النصـوص اللاهوتيـة متساوية تماماً مع غيرها مما يقول به الأفراد العاديون فى حكمهم ومواعظهم أو وصاياهم [٢]فكان من آثار ذلك الخروج المتواصل على الدين الكنسي ، وعـدم الاعتداد به ومهاجمته بالطرق المختلفة .

كما أن هذه الخروجات المتواصلة قد انطلقت كالنار المشتعلة في ليلة شديدة الريح ، ما أن تمس شيئاً حتى يتحول معها إلى نار ، فلا آباء الكنيسة سلموا من هذه المشكلات ، ولا نصوص الكتاب المقدس كانت بعيدة وإنما صاحت الجماعة التنويرية بهم جميعاً صيحة تقوم على رفضها جميعها ومحاربتها بكل قوة .

ونظراً لفقدان النصوص الأصلية لكل من التوراة الموسـوية ، والإنجيـل العيسوى فإن النصوص التى وضعت كبديل عنها افتقدت عنصر الثقة فيها كمـا تغيبت النظرة التسليمية أو التفويضية بما تحتويه هذه النصوص ، ولذا قيل : إن اللعب بنصوص الكتاب المقدس أطاح به فى الهواء ، فلما سـقط علـى الأرض

---

(١) توماس هيرز — الديانات الوثنية فى العالم الحديث ص ١٤٣ ترجمة السيد محمد علـى هنـداوى طبعـة ١٩٦٨م .

(٢) الدكتور يوسف السيد على القعيد — الكتاب المقدس بين المؤلفين والشراح ج ٢ ص ١٢٣ طبعة الأسـد بدمشق ١٩٧٢م .

تبعثرت مكوناته ، ولم يعد يجدى معها جمع أى جزء من الأجـزاء [١] لأنـها لا ترتبط مع بعضها فى أى رباط .

فى نفس الوقت فإن هذه النصوص التى بأيديهم ويعتبرونها مقدسة قد وقـع عليها التحريف بأقسامه وأنواعها المختلفة ، فإذا ما قرأها بـاحث موضوعـى ليست له وسيلة فى التعلق بالأحكام المسبقة كما لم يفرض عليه القـوم بصحـة بعضها فإنه يعلن انحرافها وبعده عنها .

تكاثرت هذه الاتجاهات المتباينة فظهر العديد من المذاهب وكلها تطعن على الكتاب المقدس وسلوكيات أصحابه ، وفى ذات الوقت بدأ هؤلاء الأتباع خطـاً ديناميكياً ، مهمته تنشئة أجيال تحمل لواء دعم الموقف العلمي فى مجاله النظري والتجريبي معاً ، بغية اعتباره بديلاً يغنى عـن شـطحات رجـال اللاهـوت وتفسيراتهم الجامحة . [٢] فضلاً عن سلوكياتهم الجافة .

تكاثرت الاتجاهات الفكرية التى سارت فى هذا الطريق حتى بات أمر نقـد الكتاب المقدس فى أوربا من الضرورات الفكرية والضروريات العلمية ، ومـن ثم فقد كان ذلك كله بمثابة البذور الأولى التى قامت عليها حركات نقد الكتـاب المقدس بعدئذ ، كما كانت الخطوات الأولى التى قام بها العقل الأوروبي حتـى أمكنه أن يصارع الكنيسة فى نصوصها وتفسيرات آبائها بغرض الحاق أرقـى الهزائم بالكنيسة والنصوص معاً .

والملفت للنظر هو أن الحركات التنويرية التى ظهرت فى أوربا كان هدفها زعزعة الثقة فى النظام الكهنوتى كله مستغلة عوامل الفرقة السائدة بيـن فكـر

---

(١) الدكتور عبدالباسط محمد حبشى دراسات فى اليهودية والمسـيحية ج ٢ ص ٣٧ طبعـة دار الريحـان ١٩٦٤م .

(٢) أ.ب . سيرغي توكاريف — الأديان فى تاريخ شعوب العالم ص ٢٧١ ترجمة د. أحمد فاضل طبعة مكتبـة الغزالى بدمشق ١٩٨٩م.

بعض رجال الدين والنصوص اللاهوتية ، وقد شجعها على المضي قدماً فى هذا الطريق المساندة التى برزت فى نتائج العلم التجريبي ، محلقة فى سماء الفكر الأوربي ، معلنة اندحار السلطان الكنسي وإظهار السلطان التجريبي .(١) أو بالأحرى صرحت بأن سلطان العلم يجب الإعلان عنه بشتى الطرق والإمساك عن روايات الكتاب المقدس من حيث ذكرها أو الاعتداد بها .

ونظراً لاتساع الثورة على الأفكار اللاهوتية فقد اشتدت ضراوتها حتى نالت من كل مظهر دينى كانت الكنيسة تعتد به ، أو تأخذه مظهراً من مظاهرها أو تعتبره طقساً من طقوسها العامة أو الخاصة.(٢)

على كل باتت النصوص المقدسة لدى كل من اليهودية والمسيحية فى موقف القلق وافتقاد الثقة ، بل تعدى أمرها إلى الطعن عليها وطلب استبدالها ، على أساس أن هذه النصوص قد عجزت عن الوفاء بالمتطلبات الضرورية للأمور الحياتية ، كما أنها لم تقدم رؤية صحيحة ، أو حلولاً للمشكلات التى يمكن اعتبارها قضايا مستقبلية ، ومن ثم فقد صارت هذه النصوص بلا أرصدة تدعمها لا من الدين ولا من العلم ، بل ولا من الواقع المعاش فصار الطعن فيها سمة من سمات التنويريين فى أوربا (٣) .

ومن المؤكد أن الصراعات التى نشبت بين رجال اللاهوت المسيحى على وجه الخصوص ورجال العلم داخل أوربا قد ساهمت فى زعزعة الثقة لكل

---

(١) كان ظهور العلم التجريبي ونتائجه المثمرة فى أوربا بمثابة الموقد الذى خرجت نيرانه فأشعلت الثورة على الكنيسة ورجالها. كما طعنت على التفسيرات الدينية فى الكتاب المقدس للآيات الكونية وبخاصة تلك التى تحدثت عن نشأة الكون وخلق الليل والنهار

(٢) تتعدد طقوس الكنيسة ، كما تتعدد أسرارها وكل من الطقوس والأسرار يحظى برعاية الآباء اللاهوتيين وعناية أفراد الشعب وكذلك يحوز الاهتمام لدى الكثير من أصحاب التوجهات السياسية تزلفاً للقيادة المسيحية العالمية .

(٣) الشيخ عبد العظيم عياش البنهاوى ـــ أوربا والكتاب المقدس ص ١٤٣ طبعة دار مراد ١٩٤٦م.

نصوص الدين التى حملتها أسفار الكتاب المقدس ، كما دفعت إلى السخرية من رموزه ، وفتحت نوافذ كثيرة كلها تلقى على الدين اللاهوتي المزيد من السخرية والكثير من الاستهزاء .

لم يكن هذا وحده هو السائد فيما يتعلق بنظرة الأوروبي إلى الدين الذى تمثله الكنيسة ورجالها ، وهي كما ترى مدعاة للشك فى النصوص والطعن فيما تأتى به ، وإنما صار هو السمة الغالبة على روح العصر وهي إنزال الدين من النفوس بحيث تصير مستعدة لتقبل سيادة الفكر اللاديني (العلمانية) [١] والتربص بكل ما هو ديني وسرعة التصرف معه على أنه عمل لا علاقة للواقع به ،أو فكر فقد أبسط مقوماته الإنسانية .[٢]

فلما وفد بعض من أبناء الشرق على أوروبا — فى الآونة الأخيرة — ، (وبخاصة نهايات القرن التاسع عشر ومطالع القرن العشرين) ظنوا أنهم قد جاءوها وفتحت أبوابها فراحوا يمتصون ما تجود به ثقافتها فى الجانب المادي ، ثم اعتقدوا أن ما عليه الغربيون فى الحضارة المادية هو الصواب من تنحية الدين عن ميدان البحث العلمي ، والسعى لجعل العلم فى جهة ، والدين فى جهة ثانية ، والسياسة فى جهة أخرى ، وبالتالي جعلوا القضية الواحدة [٣]ثلاث قضايا ثم حاولوا التدليل على إنفصال كل منهما عن الأخريات ، كما حاولوا التأكيد

---

(١) أ.ج باتوهان — العقائد اللاهوتية والنصوص الكتابية ص ٩١،٩٢ .

(٢)والغريب أن هذه الأفكار رغم أنها تخص المسيحية وتعلن رفض هؤلاء لما يأتى به القسس إلا أنها لم تتعرض للإسلام فى شئ ومع ذلك يحاول أبناء الشرق المقايسة بين نصوص الدين الإسلامى والأخرى التى كتبتها أياد نسبت لكل من اليهودية والمسيحية على السواء .

(٣) القضية الواحدة هى استخلاف الله الإنسان فى الأرصدة حتى يقوم فيها بما شرع الله بحيث يكون الشرع الإلهى هو الموجه والقائد ، وهو الفيصل فى المسألة ، القاضى والحاكم وهو الدين الإلهي ، وبالتالي يحث معه كل من العلم والسياسة وما يصلح أمور الدين وأمور الآخرة ، لكنهم فصلوا الرأس — وهو الدين عن باقى الجسد وهى العلم والسياسة وما به صلاح الناس فى دنياهم وآخرتهم .

على مغايرة الدين لكل من العلم والسياسة ، وإذا كان للدين دور فى الحياة فـــلا يكون إلا داخل الأديرة والكنائس حتى يرتوى منه الرهبان بجـــانب القســس ، وباقى طبقات السلم الكهنوتى .

أجل كانت وفادة هؤلاء الأغرار من الشرقيين إلى أوربـــا أحــد العوامــل الرئيسية فى ظهور الوضعية داخل الشرق ، وبخاصة الإسلامى ، لأنها زرعـت بذور الخلافات ثم عمقتها فى النفوس ، وأخيراً تلاشت قبل أن يجمــــع أمرهـــا ويحكم عليها [١]، وقد انقسمت جهود هؤلاء الوافدين إلى أوربا (بعــد عودتـــهم منها) فمنهم من حاول التعبير عن حبه للغرب وأفكاره فقـــام بترجمـــة بعــض التراث الغربى إلى البيئة الشرقية ، وبخاصة فى الأمـــاكن التـــى يكـــثر فيـــها المسلمون دون أن ينتقى من التراث الأوربى عيوبه التى تخالف طبيعة البيئــــة الشرقية على وجه العموم والإسلامية على وجه الخصوص، وإنما كانت عنايتــه منصبة على عمليات الترجمة والتأليف ، ونشر هذه الترجمات على أوسع نطــاق فظهرت كتب سارتر [٢]كما ظهرت مؤلفات جون ديوى ، ووليم جيمس [٣]كذلــك ظهرت مؤلفات نيتشه [٤]

وشيليك وأوجست كونت ، وبرونو ، وبوترو [٥]وغيرهم من الذين أطلق عليـــهم فى الغرب اسم الفلاسفة ومالهم فى الفلسفة من نصيب .

---

(١) الدكتور حسن محمد عبده زهران ــ الوضعية فى مصر ص ١٧٣.

(٢) فكان ذلك نواة ظهور الوجودية الملحدة فى الشرق ، واستمرت عمليات الترجمة حتى بات أمر الوجوديــة كواقع عملى .

(٣)ومن هنا انتشر المذهب البرجماتى ــ الذرائع ــ وكثرت الترجمات حوله والكتابة عنها .

(٤) وكان هذا الظهور بمثابة اعلام عن وجود فلسفة القوة ، وكذلك التمسك بما تدلى به هذه الأفكار كأنه واقع علمى أو اجراء علمى .

(٥) وهم من أكثر الأفراد الذين نشروا الوضعية بأنواعها ودافعوا عن مشكلاتها .

كما ظهرت ترجمات للمؤلفات التى تحمل اللامعقـــول وتنشـــر العبـــث ، وتحرك فى الناس نوازع الاختلاف والفشل ، كما تدعو للأفكار الســـوداء مـــن الانعزالية والإنطوائية بحيث تسيطر فكرة الأنا الذاتى على الهو والأنا الآخر ثـم تتحول المجتمعات الإنسانية إلى صورة بدائية للمجتمعات الحيوانيـــة المفترســـة على أساس أن الجماعات الحيوانية هى الأخرى أمم لكنها تعيـــش فـــى معـــالم الصور التى خلقت عليها [١].

فى ذات الوقت فقد ظهر فريق آخر من الذين وفدوا للغرب ــ لم يقم بـدور الراوى فقط للأفكار الغربية عن طريق الترجمة ــ صار متحمساً لها ، يدعـــوا إليها ويدافع عنها كأنها عقيدته الدينية التى يلقى الله عليـــها ، وضـــاعف ذلـك المجهود فقام بعقد ندوات يعرض فيها الأفكار التى يتبناها الغربيون وحجتـــه أن الغرب متقدم حضارياً ،والدين يدعو للعلم والتقدم [٢]، وبالتالى فكل ما تأتى بــــه الحضارة الغربية هو ذاته من عمل الدين وغايته .

وقد أجاد هذا الفريق الكذب والخداع بجانب الجدل واللعب على العواطـــف المتأججة ، كما تمرن على ادخال المقدمات الكاذبة لانتاج نتائج زعمها صادقـــة وما فيها شئ من الصدق أبداً ،أنها تحمل الهوس الفكرى ، والجدل السوفسطائى، وتدعو للعبث فى أشكاله المختلفة ، وذلك من معالم جهلـــه بالثقافـــة الإســـلامية الأصيلة ،ورغبته فى التجنى على الدين الإلهى الحق [٣]الذى بعث الله به الأنبياء

---

(١) قال تعالى : **" وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا فى الكتاب من شئ ثم إلى ربهم يحشرون "** سورة الأنعام الآية : ٣٨ .

(٢) هذه أوهام كاذبة ، ودعاوى جدلية لأن الإسلام هو الدين الذى يدعو للتقدم ، وهو الذى وضع أسس الحضارة فى أسمى مراتبها وأدق مراحلها .

(٣) إذن غاية هؤلاء قد انكشف أمرها ، وبان خروج أصحابها على شرع الله تعالى .

والمرسلين ، وجعل درة تاجهم وخاتمة اتصالات الأرض بالسماء هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

ثم ان ذات الفريق إذا كان أفراده قد سارعوا إلى أعلان قناعتهم بالفكر الغربى كله ، فإنهم قد سارعوا أيضاً إلى إعلان خروجهم على شرع الله تعالى كله ، أما لماذا ؟ فلأن الفكر الغربى منه معقول يصح التمسك به فى مجال العلوم الرياضية [١] ومنه دراسات اقتربت نتائجها من المعقول لكنها تقع فى دعاوى معرفة الغيب فخرجت عن المعقول [٢] لأن علم الغيب عند الله تعالى[٣].

ومنه دراسات أعلنت خروجها السافر عن المعقول وحاربت المنقول وطعنت على القيم والأخلاق وهى اللامعقول ذاته [٤] وبالتالى فقبول الفكر الغربى والدعوة إليه ككل إنما هو دعوة تمثل عدواناً على المعقول ورغبة فى نشر العبث واللامعقول .

أضف إلى ما سبق أن هؤلاء الأفراد لما لم يكونوا على المستوى اللائق من الثقافة الدينية الإسلامية ، فقد ظنوا نصوص الدين الإسلامي كنصوص الدين الذى يتبناه الفكر الكنسي من حيث وقوع التحريف فيها – تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً – والعبث بمحتوياتها ، وإمكانية إخضاعها للمستجدات العصرية ، وضرورة إنزالها إلى ميدان البحث فيها من ناحية صدقها إلى غير ذلك مما

---

(١)راجع كتابنا – قضايا حثيثة فى الفلسفة الحديثة ص ٩٧ وما بعدها .

(٢)الدكتور السيد محمد توفيق – موقف الإسلام من العلم ص ٤١ ط ثانية ١٩٧١م .

(٣) والآيات فى ذلك كثيرة منها قول الله تعالى :" عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال " سورة الرعد الآية ٩ وقد بين مواطنها فى السور والآيات القرآنية – المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم راجع مادة غيب .

(٤)راجع كتابنا – الإيمان بالغيب وأثره فى الفكر الإسلامى ص ٣٧٥ الطبعة الثانية ٢٠٠٢م

توجهت به الدراسات فى الغرب نحو الدين الكنسي[1]، ورغم أنها إتجاهات غير معقولة ، إلا أنها وقعت هناك ، وكان لها مردود سلبى على الدين الكنسي واللاهوتيين أيضاً ، ثم امتد ذلك الأثر حتى شمل الأفراد والأفكار بجانب الأصول العامة .

أما الدين الإسلامي فليس فيه شئ من ذلك ، لأن النصوص الإسلامية قطعية فى ورودها عن الله تعالى ، أملاها الوحى المعصوم على قلب النبى محمد الخاتم المعصوم ، وأملاها سيدنا محمد الخاتم المعصوم على كتبة الوحى الذين كانوا يكتبون بالتواتر فى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم عملية المراجعة الإلهية التى كانت تتم لما حفظة النبى صلى الله عليه وسلم ، مما أنزله الله تعالى عليه من خلال ملك الوحى قال تعالى : " **لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ** "[2] والمعنى لاتحرك يامحمد لسانك بالقرآن على سبيل الإسراع مادام جبريل يلقى إليك ويراجع معك ، إن علينا جمعه فى صدرك بحيث لا يخفى عليك شيء من معانيه وإثبات قراءاته بحيث تقرأ متى تشاء ، فإذا أتممنا قراءته عليك بلسان جبريل فاشرع أنت فى القراءة بعده من غير مهلة .

وقال أهل التفسير كان عليه السلام إذا لقن الوحى نازع جبريل القراءة ولم يصبر إلى أن يتمها مسارعة إلى الحفظ ، وخوفاً من أن يفلت منه ، فأمر بأن يستنصت له ملقياً إليه قلبه وسمعه ، حتى يفضى إليه الوحى [3] وقال جل شأن:

---

(١) الدكتور السيد محمد توفيق — موقف الإسلام من العلم ص ٩٧ / ١٠٩ .

(٢) سورة القيامة الآيات ١٦ / ١٩ .

(٣) الشيخ اسماعيل حقى البروسوى — تنوير الأذهان ج ٤ ص ٤٥١

" **فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا** "(1) فالقرآن الكريم منقول بالتواتر والسند المتصل ولا يمكن مقايسة النصوص الإسلامية بنصوص أخرى أبداً .

كما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقوم بمراجعة ما كتبه هؤلاء الكتاب مراجعة تدوينية ، وقرآنية واستظهارية ، بدليل أنه ما من آية نزلت على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا كان جمع كبير من الصحابة يحفظونها ، ويستظهرونها ويتبارون في إبراز حفظهم لها ، والتعبير عن أفهامهم نحوها (٢).

ثم ان الله سبحانه وتعالى قد تكفل بحفظ القرآن الكريم ، ولم يتركه للناس وحدهم ، بحيث يقع لهم شئ من النسيان ، أو تدفعهم الظروف إلى الإهمال ، وإنما حفظه الله تعالى بحفظ رسوله صلى الله عليه وسلم حتى أتمه تنزيلاً على قلبه ، وتدويناً في المصاحف ، واستظهاراً في الصدور والقلوب ، وممارسة لأحكامه في الواقع العملي (٣)بل ان قراءاته نالت نفس العناية والدليل قائم على سبيل المتابعة منذ نزول القرآن الكريم إلى يومنا هذا قال تعالى : "**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** "(٤).

فالقرآن الكريم حفظه الله تعالى بحفظه له ، حيث أودعه صدور حفظة القرأن الكريم تلاوة له واستظهاراً ، علماً له وعملاً به ، كما حفظه في أحكامه وكتاباته وقراءاته ورسمه ونقطه ، من ثم يمكن القول بأن الحفظ للقرآن الكريم شمله من كل ناحية ، وما ذلك إلا من فضل الله تعالى .

---

(١) سورة طه الآية ١١٤ .

(٢)الشيخ محمد حسن الطنطاوى ـــ الوحى القرآنى ص ١٩ ط دار الميمنة ١٣٣١هـ .

(٣)راجع كتابنا لماذا إنتشر الإسلام ج ٢ ص ١٩٧.

(٤) سورة الحجر الآية رقم ٩

أما الناظر إلى الجهود التى يبذلها العلماء فى دراساتهم القرآنية المتنوعة يراها متضافرة متكاملة خدمة للقرآن الكريم فمثلاً عالم حفظ القرآن الكريم الماهر بتلاوته ، يبذل جهده لتحسين صوته بتلاوة القرآن الكريم حتى يكون به أعذب صوتاً ، وأجود قراءة ، وألين حنجرة ، وأكثر قبولاً بين الله والناس ، وربما كانت الغاية الأولى التى طواها فى صدره هى أن يكون أعلى درجة عند الله تعلى لقوله تعالى : "**إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور . ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور**" [١]، وفى الحديث الشريف يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : يقول رب العزة جل شأنه من شغله القرآن عن ذكرى ومسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين [٢]وفى الحديث الشريف أيضاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقال لقارئ القرآن يوم القيامة : أقرأ وأرقى وأرتقى فان منزلتك عند آخر أية كنت تقرأ به [٣]ومنهم طائفة محفظى القرآن الكريم، وطائفة قراء القرأن الكريم [٤] .

كما حفظ القرآن الكريم فنهضت الجهود للتعريف بعدد أجزاء القرأن الكريم وهى الثلاثون، وعدد أحزابه وهى ستون حزباً ، وكذلك بعدد سور القرأن الكريم وعدد آياته وكلماته وحروفه ، فعدد سوره أربع عشرة ومائة سورة ، وعدد آياته عند المكيين تسع عشرة ومأتين وست آلاف آية ٦٢١٩ ، وعند الكوفيين ٦٢٣٦ ست وثلاثون ومائتان وستة آلاف آية ، أما عند أهل الشام فعددها ٦٢٢٦ ست وعشرون ومائتان وستة آلاف آية ، وذهب البصريون فى أحد

---

(١) سورة فاطر الآيتان ٢٩ ، ٣٠ .

(٢)الإمام الترمذى ـــ سنن الترمذى ج٤ ص ٢٥٦ .

(٣) الشيخ محسن محمد عبد اللطيف القرآن الكريم وقراءاته ج١ ص ٣٧ المطبعة الأميرية .

(٤) الحمد لله أنه قد وجدت فى مصر نقابة محفظى القرآن الكريم وقرائه .

أقوالهم إلى أنها ٦٢٠٤ أربع ومائتان وستة آلاف آية [١] وعند الشاميين ٦٢٢٥ خمس وعشرون ومائتان وستة آلاف آية .

ولا يظن ظان أن الاختلاف فى عدد الآيات وسيلة من وسائل الإنقاص من هذا الحفظ الإلهى أما لماذا ؟ فلأن هذا الاختلاف مرده إلى اختلاف العادين عند وقوفهم على بعض مواقف القرآن بالنسبة لرؤس الآيات ونهايتها وهذا أمر يدعو إلى التأكيد على أنهم لم يهملوا شيئاً حول القرآن الكريم إلا قاموا به على أكمل وجه وأتمه .

وأما عدد كلمات القرأن الكريم فهو ٧٧٤٣٩ تسع وثلاثون وأربعمائة وسبع وسبعون ألفاً وهو القول الذى انتهى إليه الإمام عطاء بن يسار ، ولعله الراجح بين العلماء [٢]وعدد حروفه هو ٣٤٠٧٤٠ أربعون وسبعمائة وأربعون وثلاثة مائة ألف .

وفوق ذلك فان الله تعالى حفظ القرآن الكريم فى قراءاته الصحيحة المتواترة وهى السبعة المعروفة ثم الثلاثة التى بعدها ودليل ذلك ظهور المعاهد الدينية على مستوى العالم الإسلامي التى تخصصت فى قراءات القرآن الكريم وتحمل نفس الاسم [٣]، حيث يقوم العلماء فيها والطلاب بتدارس قراءات القرآن والتعمق فى هذا الجانب الذى بذل السلف فيه جهودهم ، وجاء الخلف ليواصلوا

---

(١) الإمام أبو عمرو ، عثمان بن سعيد الدانى — البيان فى عدد آي القرآن لوحه ٢٦ مخطوط.بدار الكتب .

(٢) الشيخ منصور محمد رضوان — القرآن الكريم آياته وكلماته وقراءاته ص ٧١ ط الدار الميمنية ١٣١٥هـ وراجع البيان فى إعجاز القرآن ص ٢٠٩ والاتقان فى علوم القرآن الكريم للإمام السيوطى ج ١ ص ٦٤ ط الحلبى وراجع أحكام القرآن للإمام الجصاص ، والدر المصون فى علوم القرآن المكنون للإمام محمد بن يوسف المعروف بالسمين والبرهان فى علوم القرآن للرزكشي ، وبلاغة القرآن للشيخ محمد الخضر حسين .

(٣) هى معاهد القراءات المنتشرة فى ارجاء البلاد الإسلامية عنايتها الأولى قراءات القرآن الكريم وأحكام تلاوته .

ذات الجهود ، ويقوموا بنفس الدور تحقيقاً لأمر الله تعالى فى قوله جل شـأنه :" **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** "[١].

وقراءات القرآن الكريم المتواترة والصحيحة ثابتة بأسانيدها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا خلاف فى ذلك ، يقول الشيخ مناع القطان أنّ القـراءات القرآنية هى عبارة عن مذهب من مذاهب النطق فى القرآن الكريم ، يذهب إليـه إمام من الأئمة مذهباً يخالف غيره ، وهى ثابتة بأسانيدها إلى رسول الله [٢] لمـا ورد عن عبيد الله بن عبد الله بن عباس رضي الله عنهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أقرأني جبريل على حرف فراجعته ، فلم أزل أستزيده ويزيدنـي حتى أنتهى إلى سبعة أحرف [٣] .

ومن ثم فقد تكاتفت جهود علماء أهل الإسلام فى تقديم تعريفات للقـراءات القرآنية ، وإبراز كل نوع منها ، مع بيان القراءات المتواتـرة والمشـهورة ، بقارئيها ورواتهم المشهورين ، وكذلك التعريف بالقراءة الشاذة الباطلة ،ومن قام بها مما يدل على أن القرآن الكريم لايمكن أن يقاس بالكتب التى بأيدى رجـال اللاهوت أياً كان وضعهم .

ومن جهود علماء الإسلام فى تعريف القرآن معــه ذهـب إلـى أنـها :
أ ــ علم منقولة أصوله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يعلم منه الأوجـه التى أنزل القرآن الكريم عليها ، والطرائق التى تصح من ناحيتـها تلاوتـه [٤] وبالتالى فالقراءات من حيث هى تمثل جزءاً من النقل المنزل لأنها النـص

---

(١) سورة الحجر الآية رقم ٩ .
(٢) الشيخ مناع القطان ــ مباحث فى علوم القرآن ص ١٧٠ الطبعة الثامنة مكتبة المعارف بالرباط .
(٣) الإمام ابن حجر ــ فتح البارى شرح صحيح البخارى ج١٩ كتاب فضائل القرآن ــ باب أنزل القـرآن على سبعة أحرف ص ٢٧ .
(٣) الشيخ محمد عبد العظيم الدكرورى ــ قراءات القرآن ص ٥٧ .

القرآني من حيث إمكانية التعرف عليها ، واكتسابها حتى تكون فى ذهن المتـابع لها علماً له قواعده وموضوعه ومناهجه ، علم يعلم منه اتفاق الناقلين لكتـاب الله تعالى ، واختلافهم فى الحذف والإثبات ، والتجريد والتسكين ، والفصل والوصل وغير ذلك من هيئة النطق والإبدال وغيره من حيث السماع [١]لأن ذلك كلـه لا يكون قائماً إلا فى مصادره الصحيحة وأسانيده القائمة على ذات الأصول .

ب ـ ما نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم نقلاً متواتر على أوجه النطق المختلفة [٢]بحيث تكون القراءات كلها متواترة وقائمة فى الأصل علـى خدمـة النقل المنزل ، وان اختلفت فى طريقة النطق ببعض المفـردات لأن الله تعـالى أنزلها على قلب النبى صلى الله عليه وسلم بذات القراءات المتواترة ، وبلغـها رسول الله صلى الله عليه وسلم على نفس القراءات .

ثم ان القراءات المتواترة هى أرقى درجات الثبوت والإتقان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنها نقلت بالتواتر عن جمع من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم من بعدهم من التابعين لايؤمن تواطئهم على الكذب عن مثلـهم من المبتدأ إلى المنتهى [٣]وقد استمر ذلك إلى يومنا هذا وسيستمر إلى يوم الديـن إن شاء الله تعالى .

والقراءات المتواترة هى السبع المشهورة ، لأنها القسم الذى أتفق العلمـاء على تواتره من أقسام القراءة باعتبار القراء أنفسهم ، والشروط التـى انطبقـت

---

(١) راجع اتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر ج ١ ص ٣١٨ تحقيق الدكتور شعبان محمد اسمـاعيل ط القاهرة .

(٢) الإمام شهاب الدين القسطلانى ـ لطاف الاشارات بفنون القراءات ص ١٣٧ وراجع للشيخ عبد الفتاح القاضى ـ البدور الزاهرة فى القراءات العشر المتواترة ، وللإمام السخاوى جمال القراءوكمال الأقراء مخطوط بالمكتبة الظاهرية .

(٣)الإمام السيوطى ـ الاتقان فى علوم القرآن ط١ ص ٧٧ ط دار التراث الإسلامي .

عليهم ، وهى كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه ، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً ، وصح سندها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فهى القراءة الصحيحة التى لا يجوز ردها ، ولايحل إنكارها بل هى من الأحرف السبعة التى نزل القرآن الكريم بها ، ووجب على الناس قبولها ، ومتى اختل ركن من الثلاثة أطلق على القراءة اسم القراءة الضعيفة أو الشاذة أو الباطلة .(١)

إذن عناية أهل الإسلام بالقرآن الكريم على الوجوه المختلفة تؤكد أنه لا يمكن مقايسة النصوص الإسلامية بأية نصوص أخرى ، كما لا يمكن النظر إلى التراث الإسلامي بنفس النظرة التى تقع للنصوص والمصادر الأخرى ، وفى نفس الوقت فإن ظهور التيارات الفكرية فى نقد النصوص الدينية فى الديانات اللاهوتية أمر طبيعي ، أما إذا وقعت أية محاولة من هذا القبيل بالنسبة للنصوص الدينية الإسلامية فإنها محكوم عليها بالفشل من كل ناحية .

كما أن اتجاه الوضعيين إلى إيجاد نوع من المقابلة بين النصوص الإلهية المنزلة وبين النصوص البشرية لا يمكن قبولها ، وإنما يصح الحكم عليها بأنها لم يقدر لها شئ من التوفيق ، كما لم تحقق أية قبول لمن يعملون على تدعيمها ، أنهم يحاولون بألسنتهم وتكذيبهم قلوبهم وأفعالهم ، إذ العبرة ليست فى الألفاظ التى تجرى منهم كاشفة عن وجهها ، وإنما العبرة بنتائج المحاولة الفاشلة التى قاموا بها فى الماضي أو يقوم بها أذيالهم فى الحاضر .

العامل الخامس : ممالأة الاستعمار :

هناك ثالوث متى حل بقوم فإنه يرديهم ، وهذا الثالوث هو الفقر والجهل والمرض ،بل إن أى مجتمع يظهر بين أفراده هذا الثالوث فإنهم يكونون جميعاً

---

(١) الإمام ابن الجوزى : النشر فى القراءات العشر ط ١ ص ٩ ط المكتبة العلمية ببروت وراجع له أيضاً طية النشر فى القراءات العشر ، وللإمام الشاطبى — حرز الأمانى ووجه التهانى فى القراءات السبع ، وللشيخ عبدالفتاح القاضى — الوافى فى شرح الشاطبية .

عرضة للتفرق الذى يؤدى إلى تحطيم كياناتهم ، وتبديد ثرواتهم [١]، وتعريضهم للهزيمة أينما كانوا .

وكم أنبأت حوادث الأيام ماضيها والحاضر بأن أى قوم تستولى عليهم تلك الآفات فإن شوكتهم تنكسر ، وعزيمتهم تضعف ، وأطماع الآخرين فيهم تزداد وحينئذ يتطلع إليهم طامع فيحيل أمنهم خوفاً ، وهدوءهم فزعاً فإذا ما تمكن منهم وأعتلى رقابهم مستعمراً لبلادهم مستغلاً ثرواتهم ، فإنه يبعد عن نفسه الوصف بأنه مستعمر إلى الوصف بأنه محرر [٢].

وهذا المستعمر يبدأ أمره بالتدخل العسكري متى وجد فى هؤلاء المغلوبين ضعفاً عن مجابهته بالتالي فإن صوت السلاح وطلقات الرصاص ، وعمليات الإرهاب والتفجيرات تكون هي القاعدة العريضة التي يقف عليها بجانب وسائل التدمير الجهنمية بحيث تكون جميعها طريقه إلى هؤلاء المقهورين ولا يفكر فى طريق آخر مهما كان ميسراً [٣].

أما إذا كان فيهم شئ من قوة السلاح ، ومنعة الرجال ، وشدة العزيمة فإنه يلجأ إلى استعمارهم عن طرق أخرى يراها محققة الآمال التى يسعى إليها ، ولما كان حرصه على بلوغ تلك الغاية فإنه يستعمل الغزو الاقتصادي [٤]، أو الغزو الثقافي ، ولا مانع لديه من اعتبار هذه وسائل يحقق بها أغراضه ، فإذا كان الشعب المراد احتلاله يملك قوت نفسه ، فإن الطامع فيه يلجأ إلى إغراق

---

(١) الدكتور فوزى محمد عبد العظيم ـــ الإستعمار أساليبه وأشكاله ص ١٣ ط الأولى ١٩٥١م

(٢) هى نفس المزاعم التى يرددها المستعمرون قديماً وحديثاً ، وها هى ابواق الدعاية الأمريكية والإنجليزية ظلت تردد شعارات كاذبة مفادها الرغبة في تحرير العراق من قيادته الوطنية المتمثلة فى الديكتاتور ، فلما تمكنوا منهم صاروا أسوأ منه فهم لصوص محترفون وقتلة فاجرون ، وسفاكوا دماء لا يتورعون ، كبيرهم ظالم وصغارهم شتم .

(٣) الدكتور فوزى محمد عبد العظيم الإستعمار أساليبه وأشكاله ص ١٩ .

(٤)الدكتوره هدى نور الدين محمد بدوى ـــ الاستعمار ومعوقات التنمية ص ٢١ .

أبناء هذا الوطن فى المخدرات بحيث لا تكون لأفراده قوة على مقاومته[١] باعتبار أن المخدرات تذهب بقوة الشباب ، كما تدمر اقتصاديات ذات المجتمع ، ولذلـــك ظهرت عمليات غسيل الأموال التى تتم عن طرق عديدة ، ومن أبرزها تجـــارة المخدرات .

وقد ينظر المستعمر إلى هذا الشعب نظرة أخرى ، أنها نظرة تقـــوم علـــى استعمال الجنس كوسيلة إغرائية يتحقق بها تدمير ذات المجتمع ، لأنه متى انحل فى المجتمع أصيل القيم وجميل الخلال ، فإن البديل يكون قبيحاً وبالتالى يســـهل على المستعمر تدمير شباب المجتمع وتحويلهم إلى مرضـــى يطـــاردهم الفقـــر والخوف والقلق والمرض [٢] لا يتمكنون من مقاومته ولا يفكرون فيها .

أما إذا رأى المستعمر صعوبة فى الغزو الاقتصادي أو العسكري فإنه يلجـأ إلى أخف الوسائل اتباعاً وأخطرها تأثيراً ، ألا وهو الغزو الثقافي على أساس أن الإنسان يفكر بعقله ، ويحتفظ بقيمه من خلال رصيده الفكري الذى تراكم فـــي ذاكرته منذ سنوات طويلة ، وخطورة الغزو الثقافي أنه يحذف من ذاكرة الفـــرد كل ما هو أصيل ليحل كبديل عنه كل ما هو زائف بحيث تكون النتيجة وقـــوع هؤلاء بين براثن الأفكار المنحرفة ، والتيارات المخالفة ، وفى النهايـــة تختلـــط الرؤى ولا يظهر لهم إلا ما يقلل من شأنهم فى أنفسهم ، شأن المجتمـــع الـــذى ينتسبون إليه مع التركيز علـــى الإعـــلاء المتواصـــل مـــن شـــأن المســـتعمر وثقافته[٣] حتى يكون أمر أبناء المغلوبين مرهوناً بأقدام أولئك المستعمرين الذيـــن يفرضون آراءهم بقوة السيف ، ولغة العنف ، وطريق التدمير والخراب .

---

(١) الاستاذ عبد الوارث رضوان المنياوى ــ العقلية الاستعمارية ومخططاتها ص ١٤٧ .

(٢) هذه الطرق الشيطانية كان المستعمرون ــ ومازالوا ــ يمارسونها فى الخفاء والعلن تحت اسمـــاء وهميـــة أو شعارات كاذبة بغرض الوصول إلى القضاء على المجتمع الذى يحتلونه تماماً بحيث يظل تحت سيطرتهم .

(٣) الدكتوره هدى نور الدين محمد بدوى ــ الاستعمار ومعوقات التنمية ص ٣٣ .

فإذا ما بدا لهم أن أحداً من أبناء هذا الوطن قد فطن إلى ألاعيبهم وفكر فـي التصدي لهم فإنهم يسارعون إلى احتوائه عن طريق الترهيب أو الـترغيب ، أو عن طريق الوعود الكاذبة والأماني الحالمة من اعتلاء منصب أو التنصيب فـي قياده ، أو الاحتفاظ بأرصدة بنكية يكون الدينار فيها هو السيد والمستشار ، المهم أن يتم احتواء هؤلاء فى اقصر وقت ومن أقرب طريق ودون تأخير أو إبطاء .

وبعض أبناء الأمم المغلوبة لا يلتفت إليهم المستعمر كمـــا لا يعـيرهم أى اهتمام ، إما لعلمه بضعف شأنهم ، أو وقوعهم تحت سيطرته ، أو يمكنه الدفع بهم إلى غياهب السجون [1]دون أن يلومه أحد ، أو يسمح له بالتعبير عن نفسه ، وهؤلاء يسعون جادين حتى يكونوا تحت أقدام المستعمر لعلهم ينالون لديه نوعـاً من القبول لأنهم فقدوا وطنيتهم واحترامهم لأنفسهم .

بيد أن ذلك لا يكون كافياً فى إقناع المستعمر بولائهم لـــه حتـى يبلغـوا أغراضهم ، وحينئذ يلجأون إلى تحسين وجه المستعمر فى النفـــوس وتضليـل الرأى العام حتى لا يقاوم أو يفكر فى الانتقام [2]وبالتالى تفســح لـهم قيـادات الاستعمار صدر الصفحات والكثير من وسائل الإعلام ، ليكونوا وسائل تثبيـت قدم المستعمر فى ذلك الوطن ، وهم فى ذلك يعلمون أنهم يمارســون أفعـالاً مرفوضة وسلوكيات غير مقبولة،[3] ولكنهم يفعلونها ويدعون إلـى ممارسـتها ممالأة للاستعمار وطلباً لمصالح شخصية فردية تجرى فيها الأنانية أسرع طريق ، نحفى من خلالها الوطنية حتى تصير بارزة فى رمة غريق.

---

١ - الاستاذ عبد الوارث رضوان المنياوى ــ العقلية الاستعمارية ومخططاها ص ١٥١ .

٢ - دكتور رمزى حسن رزق ــ الاستعمار وألاعيب السياسة ص ٥٧ ط أولى ١٩٦١م .

٣ - إن هذه الأفعال لو لم تكن مرفوضة لشاركهم فيها الرأى العام ، كما أنها لو لم تكن مرفوضة ما احتاجت الدعم المتواصل من المستعمر بجانب الحماية .

وفى نفس الوقت فقد يسارع البعض من هؤلاء إلى تبنى وجهات نظر المستعمر ، أو السعى لنشر ثقافته وما تخرجه معامل بلاده ، والتركيز على أن هذه المنتجات هى التى جعلت الغرب يسبق الشرق ، كما جعلت الغرب قادراً على غزو الشرق بجانب إحكام السيطرة عليه وتولى أموره [١] وهم يعلمون فى قرارة أنفسهم أنها دعاوى زائفة ، وقضايا كاذبة ، لأن المستعمر لا يقدم علماً للأمم التى يحتلها ، وإنما يضيع العلم الذى يوجد فيها ، بدليل أن نهرى دجلة والفرات قد امتلأ بالكتب العلمية حين تمكن الصليبيون من غزو تلك البلاد ، ونفس الحال تكرر مع الاستعمار الأمريكي الإنجليزي للعراق فى مطالع القرن الحادي والعشرين حين أشرف الجنود والقادة المستعمرون على حماية اللصوص[٢] الذين قاموا بنهب الثروات الثقافية من مناحف العراق وغيره .

والحملة الفرنسية على مصر لم يحاول رجالها بث الثقافة فى المصريين ، وإنما اكتشفوا المكتوب على حجر رشيد ، ثم احتفظوا بتلك الكتابات لأنفسهم بغية أن يقوموا فى المستقبل بتصديرها إلى الأمم الأخرى على أنها ثقافة فرنسية وليست ثقافة عربية مما كشف ألاعيبهم وأبان عن الوجه الكالح للمستعمر الذى يخفى أطماعه التدميرية خلف غلاف شفيف ربما جاء باسم الثقافة أو التنوير ، أو التحرير وما هو إلا الجهل والظلام والاستعباد .

كما أن بعضاً من أبناء تلك البلاد يسعون دائماً إلى نقل النظريات العلمية لدى الغرب المستعمر ، ونشرها بين أوساط المجتمع المغلوب حتى تكون وسيلة لتثبيت أقدام المستعمر ، أنهم يمارسون ذلك علناً ، ورغبة فى بلوغ الغاية ، رغم

---

(١) الدكتور رمزى حسن رزق ـــ الاستعمار وألاعيب السياسة ص ٧١ .

(٢) من ثم فإن اللصوص الذين نهبوا متحف العراق وغيره من المتاحف والمكتبات التى تحفظ الثقافة العربية الإسلامية من أيام الرشيد ومن جاء بعده لم يكن هؤلاء اللصوص إلا من الجماعة التى حظيت بالرعاية من المستعمر حتى يحطم الأمة بتحطيم ثقافتها ومعارفها .

أن طبيعة العلم الجيدة والموضوعية [١] فإذا ما إنحاز واحد إلى التعصب الجنسى وتغنى بالشعوبية ، فإنه يكون قد أعلن عن نفسه ، كما انكشف انحيازه وحينئذ تسقط صفته بين افراد المجتمع الذى يعيش فيه .

من ثم فإن ممالأة المستعمر تأخذ شكل التعاون العسكرى ، والعمالة الدنيئة بحيث يكون عيناً على أبناء شعبه [٢] فإذا ماتم إدخاله إلى ميدان العملاء المزدوجين فإنه يسعى إلى تثبيت مركزه ، مهما كانت الوسائل ، ومهما جاءت أخطاره عقب النتائج ، إنه يردد من داخله المثل الأبيقورى الغاية تبرر الوسيلة[٣]فمهما كانت وسائلهم مدمرة أو خادعة أو مخربة لقيم المجتمع إلا أنهم لا يكفون عن القيام بها مادامت تحقق لهم فى صدر المستعمر مكاناً ، أو تفسح لهم فى نفسه حتى يستفيد منها أو يوظفها لصالحه .

والوضعية أحد المذاهب الواهية ، أو النظريات المتهافتة التى انتشرت فى أوروبا ولما أراد بعض ابناء الشرق ممالأة المستعمر ومجاراته فى اتجاهاته ،فقاموا بترجمة هذه الأفكار إلى لغات الشرق حتى يثبتوا بها حكم المستعمر فى تلك البلاد ، بغض النظر عن النتائج المترتبة على وجود المستعمر فى البلاد التى تبحث عن الحرية وكم طالبت بالاستقلال ودفعت في سبيله من أبنائها

---

(١) الدكتور صلاح قنصوه — الموضوعية فى العلوم الإنسانية — عرض نقدى لمناهج البحث ص ١٧ ط القاهرة دار الثقافة للنشر ١٩٨٠.

(٢) كالحال مع بعض الفلسطينين الذين خانوا دينهم وأوطانهم فصاروا يمثلون عيوناً للصهاينة على أخوانهم من الجماعات الفلسطينية حيث يخبرونهم عن تنقلات قادة الجماعات والمنظمات الفلسطينية ، كحماس والجهاد وفتح وغيرها ، ثم تقوم الطائرات الإسرائيلية طبقاً لمعلومات هؤلاء العُملاء من داخل الفلسطينيين باصطياد أولئك القادة وسحقهم ونفس الحال حدث فى العراق حين تمكن العملاء من شراء ذمم القادة الميدانيين فتوارت أسلحة الدفاع عن بغداد ، وسقطت فى لحظة سقوطاً مهيناً .

(٣)الدكتور فوزى محمد صبرى — الفلسفة الأبيقورية ص ١٧ ط أولى سنة ١٩٧١م .

الأحرار الذين جادوا بأرواحهم ودمائهم ولم يبخلوا بأى عزيز فى سبيل بلوغ تلك الغاية .

من ثم يمكن القول بوجود حفنة من أبناء الشرق باعوا أنفسهم رخيصة للمستعمر فراحوا يثبتون حكمه فى بلادهم[١] أو يجعلوا أهل هذه البلاد ــ الشرق المغلوب على أمره ــ يرتضون الواقع ولا يفكرون فى الخروج عليه .

ولا يخفى أن للمستعمر عيوناً يبثها بين طوائف الشعب ، مهمتها التأثير على الرأى العام وإشاعة الحاجة إلى بقاء المستعمر جاثماً فوق صدور أصحاب البلاد [٢]بدليل أن هذه الأفكار السوداء رددها فى الوقت الحالى بعض أعضاء مجلس الحكم العراقى الذى نصبه الاستعمار الأنجلو أميركى فوق أعناق العراقيين بعد الإطاحة بالرئيس العراقى الذى مارس الظلم على شعبه[٣] .

ومن المؤكد أن المستعمر يسعى لهذه الخلايا بطريقة أو بأخرى حتى يكونوا تحت سيطرته ، ومن ثم فهو يوحى لهم باستعمال الأسماء التى تبعد الشبهات عنهم ، بينما يكون هو صاحب رأس المال والعقلية المدبرة ، وهو المستفيد الأول كنادى الليونز ، وعصابات الماسونيه الصهيونية ، وأندية الروتارى التى سعت العصابات الصهيونية إلى غرسها فى جسم المجتمع العربى بصفة عامة والإسلامى بصفة خاصة ، حتى تنال منهما كل منال[٤] .

---

(١) ومن يطالع التاريخ الإنسانى العام يدرك أن الشيوعية والعلمانية بجانب الوجودية والداروينية ثم الواقعية أو الوضعية وغيرها قد انتشرت كلها فى ظل وجود المستعمر بينما العودة إلى الروح الوطنية والاستمساك بالنصوص الدينية أحد معالم التحرير والخروج من سيطرة المستعمر ، ولا سبيل لبلوغ الأمم التحرر من كل شئ إلا فى الإلتزام بالكتاب الكريم والسنة النبوية الصحيحة .

(٢)الدكتورة / هدى نور الدين محمد بدوى ــ الاستعمار ومعوقات التنمية ص ٣٥ .

(٣) فعل ذلك احمد الجلبى أول أمره بمجرد سقوط بغداد ، حيث أعلن أن بقاء الجيش الأمريكى والبريطانى ضرورة .ولست أدرى هل يظل على هذا النهج أم سيغير اتجاهه .

(٤) راجع كتابنا : أوراق متناثرة فى التيارات المعاصرة ص ١٩٧ ط الرابعة ٢٠٠٢م .

بل إن هذه الأندية قد طورت مناهجها ، كما طورت في الآليات التي تقوم عليها ، حتى لا ينكشف أمرها ، لقد أعلنت في برامجها عن تقديم حلول للمشكلات الاقتصادية ، بجانب إعلانها عن إيجاد فرص للعمل في الأماكن المختلفة ، وبعضها راح يقدم وعوداً براقة يحاول بها اصطياد البعض حتى يكونوا عملاء جدد ، ولا مانع من توجيههم للعمل في خدمة العصابات الصهيونية.

وكذلك ما تبثه القنوات الفضائية التجارية فى كل من إسرائيل ولبنان وقطر وغيرهم من البلدان التى اشتعلت فيها تلك النيران ولم تنطفئ حتى يومنا هذا، مما يؤكد خروج المستعمر الأسمى من بعض البلاد وبقائه الفعلى داخل تلك المجتمعات التى تكشف سلوكيات أصحابها عن وجوده المتوالى فى شكل رسمى تنبئ عنه الأفكار السائدة فى طبقات المجتمع التى تعتدى على حرمات الأفراد وتنال من عقيدتهم الدينية وقيمهم الأخلاقية .

كالحال مع جماعة الإخوان الجمهوريين فى السودان [1]حيث أعلنوا الكفر الصراح ، وكانوا يمارسونه فى شكل مفضاح ، وكذلك الجماعات المتطرفة داخل مصر كالماسونية [2] والجماعات التى تمثل خلايا عنقودية غايتها ضرب الاستقرار ، والسعى للوقوع فى أحضان الاستعمار كما هو الحال فى البلاد العربية والإسلامية التى فاخر أبناؤها يوماً بأن بلدهم تضارع أوربا فى مظاهر حضارتها [3].

---

(١) راجع للدكتور محمد كسبه — الإخوان الجمهوريون والفكر الباطنى وكذلك مؤلفات هذه الجماعة ومنها تعلموا كيف تصلون ، الثورة الثقافية ، وغيرها .

(٢)راجع للدكتور صابر عبد العظيم قطب — العلمانية والفكر الإلحادى ص ٤٣ .

(٣)الاستاذ / صلاح عز الدين عبد الباقى — مأساة العالم العربى ص ١٢١ .

وبالتالي قفز بعض كتابها إلى صدر المجلات التى تدعمها الدولـــة وتبنــوا آراء الاستعمار التى تهدم القيم ، وتقفز على العقيدة ، وتدعو للانحلال والسـفور ولم يسلم الشرق من هؤلاء الذين يقدمون خدمات للاســتعمار ، ســواء أكــانت مقصودة أم غير مقصودة ، وسواء أكانت مــن خــلال عمــولات معلنــة ، أم عمولات مستترة .

وفى تقديرى أن محاباة المستعمر لم تقدم للشرق إلا الخراب والدمار بجانب تثبيت الاحتلال فى صورة من الصور ، ولو أحسن أبناء الشرق صنعاً لطــردوا المستعمرين ثم قطعوا أذيالهم بدل أن يعلوهم فوق الرؤوس ويجلســوهم حكامــاً على رقاب العباد ، لأن الذى اعتاد موارد الكلاب لا يصلح معه مورد الأسد .

والوضعية بأنواعها ومشكلاتها لا تخرج فى مظاهر وجودها داخل الشــرق عن إحدى صور الممالأة للاستعمار سواء أكانت قصداً أم غــــير قصــد ، لأن العبرة بالنتيجة مع النظر فى الأسباب التى أدت إليها وهى كلها غير معقولة .

أما لو فطن أبناء الشرق إلى المستعمر وحيله ، ثم أخذوا ثقافتهم الأصيلـــة من الكتاب والسنة النبوية المطهرة ووضعوها فى مكانها اللائـــق مـــن العلــم والعمل لكانت تمثل بالنسبة لهم رصيداً قوياً ، وميزاناً صحيحاً ، ثــم لا يغلقــوا أنفسهم أمام الثقافات الأخرى ، ولا يأخذوا منها إلا ما يتناسب معـــهم ، ويمـــهد لمزيد من تقدم حضارتهم ، ولا يطعن على ثقافاتهم أو قيمهم ، كمـــا لا يمثــل خطورة على مجتمعاتهم ، وحينئذ يكون ذلك الفعل وضعياً فى منطوقه ، معقولاً فى مفاهيمه وتطبيقاته ، وهو الذى أقصده بتعبــــير الوضعيـــة بيـــن المعقـــول واللامعقول .

ولا يخفى أن أهل الشرق فى الهند وبخاصة المسلمين ، قد وقفـــوا لتيـــار الإلحاد حتى فضحوه ، والثقافات الوافدة التى جاءهم بها الغـــرب تحــت اســم

الشركة الشرقية الإنجليزية [١] والشركة الشرقية الفرنسية أو الشركة الأنجلو سكونية ، تحت أسماء وهمية وإعلانات كاذبة منها إصلاح الأرض وتعميرها [٢] بينما هي لاتحمل سوى الخراب والدمار الذي تنفثه أفواه رجالات اللاهوت التبشيريين الذين عينوا في هذه الشركة كمجلس إدارة لها وما كان عملهم هذا إلا من باب الخداع ، قد اتخذوا لأنفسهم مواقع ادارية في أشكالها لكنها تبشيرية في طبيعتها .

العامل السادس : محاولة تجاوز عقد مركب النقص :

الإنسان السوى يشعر دائماً بأنه مع أقرانه سواء ، فلا هو بالأعلى منهم حتى يتكبر عليهم وينزلهم منزلة سلبية ، ولا هو بالأدنى منهم بحيث يذل أو يخزى فيتوارى عن عيونهم ، وإنما تظهر أموره في كل تصرفاته بالمظهر الطبيعي الذي يشترك فيه العقلاء جميعاً. [٣]

أما إذا كان هذا المرء غير طبيعي فإنه يشعر بما يجرى من نقص في صدره ، وبخاصة عندما يلجأ لممارسة فعل من الأفعال ، ويعبر عن رأى من الآراء وبالتالي فإنه يلجأ إما إلى الإنطواء والنزوع نحو الداخل ، وحينئذ لا يستطيع التعبير عن آرائه المكبوته خشية افتضاح أمره وسخرية الناس منه أو الهرب من الواقع والتخلي عنه مع الإندفاع ، على أساس أن الناس جبلوا وفي

---

(١) الدكتور / نور الدين محمد فوزى ، الهند والشركة الشرقية ص ١٧١ وراجع خطورة هذه الشركة في جهود الشيخ رحمت الله الهندى في الأديان والعقائد ص ١٢٨ للأستاذ / عمر عبد القادر — رسالة ماجستير بمعهد الدراسات والبحوث الآسيوية جامعة الزقازيق ٢٠٠١ م .

(٢) الأستاذ / رمزى السيد طلب — الاستعمار والأغراض الخفية ص ١٥٣ وقد ذكر أن مزاعم المستعمر لا تتوقف عند غاية بعينها ، إنما تمتد لتشمل ألوان الحياة في كافة أشكالها ومظاهرها بجانب أن المستعمر لا يتوقف عن الاحتلال ومحاولات قلب الحقائق وتزييف الواقع .

(٣) أ.ج — روبرت هدسون — أعراض الشخصية غير السوية ص ٢٣ ترجمة حنان مرسى ط أولى دار الفؤاد ١٩٥٧م .

أعماقهم المشاركة الطبيعية والتعاون الهادف الجاد [١] وهو ما أكد عليه القـــرآن الكريم فى قولــه تعـــالى : **"يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير"** [٢].

وكلما كان المرء من الأسوياء فإن قدراته العقلية تكون علـــى وفـــاق مـــع ملكاته النفسية ، باعتبار أن القدرات العقلية هى المحـــك الطبيعـــي والمقيـــاس الحقيقى لكل فرد على حده ، ولما كانت القدرات العقلية بين الناس جميعاً ليســت على قدر سواء ، فقد دل الأمر على وجود فروق فردية نفسية ، وأخرى عقلية ، وثالثة وجدانية ، ورابعة بدنية إلى غير ذلك من الوجـــوه التى أفاضت الدراسات العلمية فى عرضها وذكر تفاصيلها .

أما إذا كان المرء من غير الأسوياء نظراً لوجود علة فى بدنه ، أو آفة فى عقله أو عرض[٣] فى نفسه فإن هذا الشخص يشعر بعجز من نوع ما يفارق بينه وبين أقرانه ، فإذا استولت هذه الفروق على قلبه ، ودقت بعنف ، فإنها تؤثر فى حاضره ومستقبله كما تؤثر فى وضعه الحياتى والخيالى أيضاً[٤]،
وحينئذ تظهر عليه بوادر أزمات سلوكية ، كالكذب ، والخداع ، والنفاق ، وحب الذات ، وسيطرة الأثره على الإيثار ، وتغلب الأنا الذاتى على الآخر واعتبـــار الهو فى مجال اللامعقول ، فتنقلب الأحوال معه من السئ إلى الأكثر سوء.

---

(١) الدكتورة ناهد محمد صبحي ـــ الشخصانية العيوب والميزات ص ١٤١ ط أولى ١٩٩١م

(٢) سورة الحجرات الآية رقم ١٣ .

(٣) الأعراض هي الأحوال التي لا تبقى زمانين كما أنها كالأعراض التي لاتقوم بذاتها وإنما تقوم بغيرها ومن ثم قالوا أن الأعراض حاملة فى طبيعتها عوامل اثبات حدوثها الشيخ خيرى محمد ثروت مناهج البحث ص ١٢٧.

(٤) الدكتورة ناهد محمد صبحي ـــ الشخصانية العيوب والمميزات ص ١٥٣ .

وهؤلاء هم الذين يشعرون بنوع ما من مركبات النقص وحينئذ يتحولون فى المجتمعات الإنسانية إلى علامات للنشاز والتوتر واللعب بالنار التى إذا اشتعلت لن تترك أخضر أو يابساً ، وإنما ستأتى على الكل ، ولن يسلم شئ منها أبداً ، كما لن يتمكن أحد من الانفلات بعيداً عن شرورها .

وهؤلاء الأغرار هم العملاء المخدوعون الذين تفضحهم تجاوزاتهم حيث يظهر من سلوكياتهم الكبر والاستعلاء ، كما تطل على الرؤوس الأنانية والبخل ، وإمساك النصح ، بحيث تكون تلك الصور داخل المجتمع من أبرز العلامات على وقوع هذا المجتمع فى دائرة الأفكار المنحرفة .

وأصحاب النقص المركب دائماً يعتصمون بالجهل مع دعواهم العلم ولا يحاولون فتح نوافذ التعامل مع الآخرين إلا من خلال نعرة التعالى ، وصوت الأنا الذاتى [1] وهم فى ذلك يهدمون أنفسهم ويحكمون عليها بالجهل المركب حتى يصير الحمار الذى يخدم الحكيم أعلى قدرات منهم .

قال حمار الحكيم يوماً * لو أنصف الدهر كنت أركب**

فأنا جاهل بسيط * وصاحبي جاهل مركب.**

وأصحاب عقد النقص فيهم جهل مركب ، بدليل أنهم يسعون دائماً لممارسة الشذوذات التى تجعلهم بين الناس أمثولة للسخرية من حيث يظنون أنها تجعلهم فوق الناس إرتفاعاً ، فمثلاً الذى يروج أفكاراً كاذبة ، ويدعى معرفته بالغيب ، يسقط فى أول الطريق الذى يخطوه ، لأن أبسط الناس عقلاً يمكن أن يسأله حول مصدر معلوماته ، وحينئذ يعجز عن الابانة ، فيقع عليه عبئ النقل الكاذب والرواية الكاذبة [2]، وما أكثر هؤلاء الذين يعيشون فى بطولات وهمية ،

---

(١) أ. ج . روبرت هدسون ـ أعراض الشخصية غير السوية ص ٧١ .

(٢) ومثل هؤلاء يجمع بين كذب النقل مع الاعتداد به ، وكذب الرواية التى يحكيها مع علمه بأنها غير صحيحة .

وينسجون حول أنفسهم خرافات ما ان تصل إلى عقول السذج فلا يصدقونـــها لا لأن حاكيها ساذج ، وإنما لأن الذي يسمع مميز[١].

وقديماً فى الأمثال قالوا : إذا كان المتحدث مجنوناً توجب أن يكون السامع عاقلاً ، لأنه الذى ينظر بعين عقله أما المتحدث فإنه قد ينظر بعين فمه الذى لا يميز بين الرطب والجاف ، ولا الحلو من الحامض بل لا يمـــيز بيـــن الغـــث والسمين ، وإنما الذى يميز هو الملكة الموجودة بالمخ التى تعمل بنظام اســتقبال الموجات الكهرومغناطيسية ، ثم تصديرها إلـــى موجـــات نقديـــة إيجابيـــة أو سلبية[٢]لكنها جميعاً ليست وليدة هذه اللحظة بذاتها، ومع هذا فالآلة تعجز عـــن إدراك ذلك ، أما الملكة فهى التى تدرك ذلك تماماً ، والله وعز وجل ألمح إلـــى الملكة وحذر من إهمالها أو استعمالها على وجه غير مشروع ، ونبه إلي أنه لـو أخذها لن يتمكن أحد من إرجاعها قـــال تعـــالى : " **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ** "[٣] فالترهيب ليس في حذف الآلة وهـــي الذن التي هي آلة السمع ، ولا حذف العين التي هى آلة البصر ، وإنما إبطـــال عمل الملكة فى المخ بدليل أن العميان لهم عيون والصم والبكم لهم آذان وألســنة ولكنها لا تعمل لتعطل الملكة التي تخدم هذه أو تلك .

كما أن عين العقل لها توهجات وانفلاتات ، بجانب العديد من الانطلاقـــات لأنها تعمل من خلال عملية إلهية ، منظمة ، فهى تعشق وتبغض ، وتحب وتكره وتقدح وتمدح ، لكنها أعلى قدراً من عيون الناظرين وقديماً قيل :

---

(١) والعقل الصحيح لايقبل كل ما يعرض له من غير نظر ، وإنما لابد له من النظر الجاد فيه ، وتقليبه علـــى الوجوه المتعددة .

(٢)الدكتورة ناهد محمد صبحي ــ الشخصانية العيوب والمميزات ص ١٥٣ .

(٣) سورة الأنعام الآية ٤٦ .

قلوب العاشقين لها عيون * ترى ما لا تراه عيون الناظرينا**

من ثم فإن أصحاب عقد النقص المركب يلجأون إلى الثقافات الأخرى حتى يرتضعوا من ثدييها دون أن يدركوا هل ما استرضعوه هو من اللبن، أم من مرض كامن فى مكان اللبن يسبب لأصحابه الهلاك ، ويقذف بهم فى لجج الشك فتعصف بهم موجات الريح العاصف وتوهجات البرق القاصف وحينئذ لا يجدون مأوى .

ولأن أصحاب هذه العقد المركبة غايتهم كامنة فى التعالى والظهور ، فإنهم يلجأون إلى التركيز على الانحياز للأفكار الساقطة وترديدها ، حتى تكون هى وحدها بضاعتهم ، بل تكون هى المن والسلوى الذى يبحثون عنه ولا يجدون أنفسهم فى غيره ، إنهم كالجراثيم لا تستطيع أن تعيش فى منطقة نظيفة ، بل هم أقرب شبهاً إلى العائلة الميكروبية والجرثومية والفيروسية التى تتسلق فوق أكتاف الآخرين لتبلغ شأوها ، وترضى مشاعرها ، وتسرى بين الآناسى سريان النار فى الفحم ، ولذا فإن الابتعاد عنهم يكون فضيلة بينما في الالتجاء إليهم ألف مذمة ورذيلة ،والله تعالى حذر منهم وأمثالهم فقال جل شأنه :**"وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ"**[1].

وفى تقديرى أن عوامل ظهور الوضعية ــ بأنواعها ــ فى الشرق يمكن أن تتداخل فيما بينها ، لكنها فى النهاية تؤكد على وقوع القائلين بها فى مجال التقليد المذموم ، ونقل الثقافات الجدلية إلى البيئة الإسلامية ، ومحاولة القفز فوق النصوص الإسلامية ، والطعن على العقيدة الإلهية ، ومهاجمة القيم الصحية

---

(١) سورة الأنعام الآية ١١٦ قال الشيخ البروسوى : قل يامحمد لأهل مكة وغيرهم أخبرونى أيها المشركون ان أخذ الله سمعكم فأصمكم وأبصاركم فأعماكم وغطى على قلوبكم بحيث تصيرون مجانين هل من أحد غير الله في استطاعته أن يأتيكم به ـــ الشيخ البروسوى تنوير الأذهان ج١ ص ٤٧٣ .

والأخلاق الفاضلة ، بغية إشباع بعض الجوانح المتطلعة للشهرة ، والباحثة عــن زيوع الصيت ، دون نظر إلى أى اعتبار آخر ، مع أن الإلتزام بشرع الله فيـــه العصمة والنجاة قـــال تعـــالى :" **قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ**"[1]

لقد فشلت الوضعية فى أوربا حينما ركزت على مناقشة قضايا الميتافيزيقـا وانزالها إلى ميدان البحث التجريبى ، أو تعرضت لإنكار الغيـــب ، وهـــاجمت الميتافيزيقا التأملية على حين أعلنت تمسكها التام بالميتافيزيقا النقديـــة وحدهـــا ، وحين انصاع مفكروها إلى الأهواء وابتعدوا عن ممارسة الضغوط الفكرية على العقول حتى تؤب إلى رشدها، فجمعوا بين المتخالفين ، لكنهم فتحوا الباب لعقول أخرى حتى تنازع الكنيسة سلطانها، وقد حققوا فى هذا المجال بعض النجاحات.

أما فى الشرق فإن غالبية أهله يسعون دائماً إلى التمسك بالدين الإلهى إنـــهم قد أسلموا وجوههم وقلوبهم لله ، وسلموا أيضاً بما يأتيهم من عند الله على أنـــه حق كله ، وبالتالى فلم تحقق الوضعية فى الشرق إلا كل الخسران ، أنهم أشـــبه بالدبب التى تقتل أصحابها ، وهى تزعم أنها تدفعهم للنجاة .

كما أن الشرق قد حباه الله بالديانات الإلهية التى ختمت بدين خير البشـــرية سيدنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وقد ألف الشرق التدين حتى صار فطرة متوارثة بين أفراده ، كما أن هذا التدين الإلهى قد دفعهم فى أغلب الأحوال إلى الابتعاد عن الأفكار الفاسدة ، والتيارات الإلحادية[2] فإذا حاول واحد من أهل الشرق تقليد الغرب فى هذه المفاسد فإنه يواجه بالهجوم العنيف ، كما يرفضـــه كل من يتعامل معه ، لأن العقل الصحيح يتوافق مع الفطرة السليمة التى فطـــر

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٤٩ .

(٢) الشيخ / محمد حسن عبد اللطيف ـــ الشرق والوحى ص ١٧ ط الدار الجديدة ١٩٤٧م.

الله الناس عليها ، كما قر فى العقول الصحيحة أن النقل السليم لا يعارضه العقل الصحيح [١] وإنما يتعاونان إلى أبعد مدى .

والدليل على ذلك أن الرسالات الإلهية كلها ماجاءت إلا للعقل السليم ، الذى هو مناط التكليف ، فإذا لم يكن هناك عقل سليم لـم يتحقـق تكليـف ، ودلـت النصوص النقلية على أن العقل متى رفع عن صاحبه فقد رفع عنه التكليف أيضا من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : " رفع القلم عن ثلاثة عن النائم حتى يستيقظ وعن الصبى حتى يبلغ ، وعن المجنون حتى يفيق" .[٢]

ودعاة الوضعية فى الشرق لم يهتدوا إلى صواب ، وإنما إنقادوا للشـيطان والهوى ، فزينت لهم أنفسهم الضلال على أنه الهدى والظلام على أنه النـور ، قال تعالى : **" أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون "** [٣].

كما أنهم خسروا أنفسهم وكفروا بآيات الله فصاروا من أهـل النـار قـال تعالى: **"قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا "** [٤].

والمعنى قل يامحمد لهؤلاءالكافرين هل نخبركم بأخسر الناس عند الله تعالى

---

(١) شيخ الإسلام ابن تيمية كتاب تحت ذات العنوان ـــ درء تعارض العقل والنقـل ، أو موافقـة صحيح المقعول لصحيح المنقول .

(٢)الشيخ محمد سالم عبد القوى ـــ من هدى السنة ص ٥٧ ط الأولى ١٩٤٥م .

(٣)سورة فاطر الآية رقم ٧ .

(٤) سورة الكهف الآيات ١٠٣/١٠٦ .

إنهم الذين بطل عملهم وضاع في هذه الحياة الدنيا لأن الكفـــر لا تنفـــع معـــه طاعة[١].

ونقل عن الإمام الضحاك قوله أنهم القسيسون والرهبان الذيـــن يتعبـــدون ويظنون أن عبادتهم تنفعهم وهي لا تقبل منهم وهم في هذه الحـــال يظنـــون أن أفعالهم حسنة لكنهم كفروا بالله تعالى وبالقرآن الكريم والبعث والنشور فبطلـــت أعمالهم ، فليس لهم عند الله تعالى قيمة ولا قـــدر ، ولا منزلـــة مقبولـــة ، لأن عقوبتهم النار جزاء لما كفروا واستهزؤا بآياته [٢] .

ومن يكن من الخاسرين فلا تستبعد منه أن يجرى فـــى مخالفـــة رب العـــالمين ويكفر بدين الله الذى تعبد به الخلق أجمعين .

---

(١) .الشيخ محمد نجدى الشافعى — نظرات فى سورة الكهف ص ٢١١ .

(٢) الشيخ محمد على الصابونى — صفوة التفاسير ج ٦ ص ٢٠٨

الفصل الخامس

مبادئ وأصول الوضعية المنطقية

تمهيـــــد :

من السهل التعرف على الأصول التى قامت عليها أية حركة علمية ، كما أنه من اليسير الوقوف على الأسس التى تستند إليها المذاهب التى يحسن أصحابها اختيار مواقعهم العلمية ، أو مواقفهم الفكرية حتى لو كانت مذهبية ، بدليل أن الفرق الكلامية أمكن التعرف على أصولها ومناهجها العامة ، كما أمكن الوقوف على رؤس المذاهب والأتباع الأوائل الذين ساهموا فى بناء كل مذهب .

فمثلاً يمكننا القول بأن منهج السلف الصالح والأسس التى قام عليها هى **الالتزام بالكتاب والسنة النبوية المطهرة الصحيحة وتقديمهما على كل منهج عقلى** [١]أما أهل السنة والجماعة ـ أشاعرة وماتريدية ـ فإن منهجهم يقوم على **النقل والعقل مع تقديم النقل على العقل فى كل قضية يمكنهم التعرض لها** [٢] **أما المعتزلة فانهم يقومون فى أصولهم على العقل والنقل مع تقديم العقل فى القضايا** التى يتناولونها بحيث يكون دور النقل هو التأكيد على صحة النتائج العقلية ، بينما يجئ دور الفلاسفة قائماً على العقل فى أوسع مفاهيمه[٣] .

ورغم أن هذه المفاهيم أو القواعد التى سلف الإلماح إليها ليست على إطلاقها ، أو على العموم ـ لوقوع بعض الحالات الاستثنائية فى المسألة ـ إلا أنه قد أمكن الوقوف على الأسس العامة لها ، ودور اللاحق فيها هو التأكيد على ما ذهب إليه السابق ، وبعبارة أخرى فان السابق فى المذهب يضع الصورة المبدئية ، ثم يأتى الخلف من بعده فيؤكدونها ويعملون على توضيحها إذا كانت

---

(١)الشيخ / محمد عبد العظيم الثروى ـ السلفية أصولها وتطوراتها ص ٧ ـ مطبعة وهدان ١٩٤٧م.

(٢) الدكتور / فوزى محمد ضبع ـ طبيعة المنهج فى الدراسات النظرية ص ٤٥ مكتبة الهدف ١٩٨٥ م .

(٣) الدكتور / ثابت فتح الله ـ المناهج الفكرية وأثرها والاتجاهات العلمية ص ١٥ .

فيها مسائل غامضة ، أو يقيمون بجوار الأصول مدعمات تجعل المذهب أقــوى بناء وأكثر وضوحاً [١].

بل ان بعضهم ربما نظر إلى نقاط الضعف التى انكشفت فى المذهب الــذى يعتنقه ــ من خلال المحاورات أو المجادلات ــ فيسارع إلى ســترها وتقديــم وجهة نظره فى المسائل التى اعتبرها الخصم نقاط شعف حتى يزيل الأشــكال ، أو يخفف من حدته ، وهكذا يقع الحال فى كل المذاهب ذات الأسس الصحيحــة والأهداف المحددة [٢] .

بدليل أن المذاهب الفقهية ــ الفروع ــ ظهرت على أيدى زعمائها الأوائــل ــ الأمام أبو حنيفة ، الإمام الشافعي ــ والإمام مالك ، والإمام أحمد بن حنبل[٣] وقامت فى أصولها الأولى على الكتاب والسنة النبوية المطــهرة الصحيحــة ، وبجانب ذلك ظهرت إبداعات فكرية جديدة فى طرائق الاســتدلال بــالنصوص الدينية واتفاقها مع التخطيط العام لكل قضية فقهية فى توصيفها وتوظيفها أيضــاً من خلال الاستدلال الأكثر وضوحاً مع ممارسة نوع مــن القيــاس والاجمــاع والاستحسان ثم المصالح المرسلة[٤] .

ثم قام أتباع كل مذهب فقهى مما سبق بمحاولات كثيرة تتم بــها إضافــات بحثية لذات المذهب طبقاً لمستجدات العصر ، مع الالتزام بالخط العــام لــرأس

---

(١)الشيخ محمد عبد العظيم الثروى ــ السلفية أصولها وتطوراتها ص ٢٥ .

(٢)ومن ثم ظهر فى المذاهب الفكرية متقدمون ومتأخرون ، مؤلفون وشراح ومحشون ، حتى ان الاختلاف بــين المتقدمين والمتأخرين يمثل نوعاً من التكامل فى حقيقته ، وأن كانت ملامح الاختلاف بينها تظهر ، فما ذلــك إلا من طبيعة المذاهب الفكرية .

(٣) هذه المذاهب الأربعة عند أهل السنة والجماعة أما الشيعة فعندهم مذاهب أربعة هى : ١ــ الزيدية ، ٢ــ الجعفرية ٣ ــ الاباضية ٤ ــ الامامية ، راجع للدكتور محمد مصطفى امبابى الحركة الفقهية الإسلامية.

(٤)دليل ذلك ظهور المؤلفات العديدة فى كل مذهب فقهى ، وظهور طبقات المؤلفين والنتاجات العلميــة فى هذا الميدان .

المذهب فى الغالب الأعم ، ومن ثم يمكن الوقوف على الأصول العامة والأسس التى انتصب المذهب عليها فى كثير من اليسر .

أما الوضعية بأنواعها [١] فنظراً لعدم وقوفها على أصول محددة ، أو قواعد ثابتة ، فان المتابع لرصدها ربما يلاقيه الكثير من العنت [٢]، بل قد يصعب بالنسبة له حصر الأصول والأسس التى قامت معها على وجه دقيق ، ومن ثم فإنني سأحاول التقاط بعض المبادئ التى ظهرت فى أقوال دعاة الوضعية واعتبارها الأصول والمبادئ التى تعتمد عليها الوضعية المنطقية على وجه الخصوص ، والوضعية على العموم وذلك فيما يلى :

المبدأ الأول : تنحية الدين والتمسك بالعلم :

الدين الإلهي هو ما ارتضاه الله رب العالمين ، يوجه الإنسان إلى الخير فى الدنيا والآخرة ، وحيث يعرف المرء بخالقه العظيم ، وكيفية عبادته على الوجه الذى يرضيه جل علاه ، كما يقدم الصورة المثلى فى التعامل مع بنى جنسه ، وكيفية الاستفادة من المخلوقات التى جعلها الله تعالى مسخرة لخدمة ذلك الكائن الأرقى فيها وهو الإنسان ، قال تعالى : " **وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** " [٣]. يقول الإمام ابن الجوزى : الدين ما التزمه الإنسان لله عز وجل وحده ، وقال بعضهم : الدين قول الهى رادع للنفس يقومها ويمنعها من الاسترسال فيما طبعت عليه [٤]،

---

(١) ومن أنواعها : الوضعية الطبيعية ، والإجتماعية ، والمنطقية ، والتجريبية ولكل منها ما يجمعه مع الخط العام ، وما يستقل به عن غيره .

(٢) لأن ذلك يستلزم متابعة هذه الأفكار لدى كل من فير باخ ـ شليك ، ماخ أصحاب حلقة فيينا ، كارنلب ويراث ، بلوتزمان ، بوانكاريه ، دوهيم ، منجر ، راسل وغيرهم وهو ما يمثل صعوبة كبيرة .

(٣) سورة الجاثية الآية ١٣ .

(٤)الإمام ابن الجوزى . منتخب قرة العيون النواظر فى الوجوه والنظائر فى القرآن الكريم ١١٣ تحقيق محمد السيد الصفطاوى والدكتور / فؤاد عبد المنعم ماجد .

والدين الالهى بهذه السمات يدفع الانسان العاقل إلى الخير حتـــى تتحقـق لـه السعادة فى الدنيا والآخرة ، كما يدفعه عن الشر بحيث لا يقع له شئ من العاقبة السيئة ، والمآل الذى يجئ فيه الخسران .

ويقول الإمام الماوردى : كان من رأفته جل علاه بخلقه وتفضله على عباده أن قدرهم على ما كلفهم ، ورفع الحرج عنهم فيما تعبدهم ، ليكونوا مع ما قـد أعد لهم ناهضين بفعل الطاعات ، ومجانبة المعاصى ، قال تعـالى : "**لا يكلف الله نفساً إلا وسعها** [1]قال الشيخ البروسوى جرت سنته تعالى أن لا يكلـف نفساً من النفوس إلا ما يتسع له طوقها، ويتيسـر عليـها دون مـدى الطاقـة والمجهود ، فضلاً منه تعالى ورحمة لهذه الأمة ، كقوله تعالى :" يريد الله بكـم اليسر ولا يريد بكم العسر "[2]وقال جل علاه: **وما جعل عليكم فى الدين من حرج[3] " وجعل ما كلفهم به ثلاثة أقسام :**

القسم الأول : ما أمرهم باعتقاده

القسم الثانى : ما أمرهم بفعله .

القسم الثالث: ما أمرهم بالكف عنه .

أما الأول :ـ ما أمرهم باعتقاده ـ فهو نوعان :

النوع الأول : الإثبات : وهو إثبات توحيده وصفاته ، وإثبات بعثة رسله ، وتصديق محمد صلى الله عليه وسلم فيما جاء به [4].

---

(١)سورة البقرة الآية ٢٨٦

(٢) الشيخ اسماعيل حقى البروسوى ـ تنوير الأذهان من تفسير روح البيان المجلد الأول ص ٢٢١ اختصار الشيخ محمد على الصابونى ط دار الصابونى. (٣)سورة الحج الآية ٧٨ .

(٤)وهذا النوع قام فى اثبات وجود الله تعالى ذاتاً وصفات وأفعالاً ، كما يشمل اثبات بعثة الأنبياء والمرسلين من لدن آدم عليه السلام حتى ختموا جميعاً بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بجانب اثبات حقيقة اليوم الآخر، وما فيه ومن ثم فهو يشمل أجزاء العقيدة الالهية السته التى جاء بها الحديث الشريف الإيمان أن تؤمـن بـالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره .

النوع الثانى : النفى : وهو نفى الصاحبة والولد ، والحاجة والقبائح أجمع وهو التنزيهات ، وهذا القسم الأول بنوعيه هو ما كلف الله به العاقل [١] وهو لايحتاج بذل مجهود بدنى ، لأنه خارج نطاق التكاليف البدنية ، وداخل فى نطاق جملة التكاليف النظرية .

وأما القسم الثانى : — ما أمرهم بفعله — فثلاثة أنواع :[٢]

النوع الأول : ما يجئ على الأبدان كالصلاة والصوم

النوع الثانى: ما يجئ على الأموال كالزكاة والكفارة .

النوع الثالث: ما يجئ على الأبدان والأموال معاً كالحج والجهاد ، ليسهل عليهم فعله ، ويخف عنهم أداؤه تفضلاً منه عليهم .

وأما القسم الثالث — ما أمرهم بالكف عنه — فثلاثة أنواع :

الأول : ما فيه إحياء نفوسهم ، وصلاح أبدانهم كنهيه عن القتل وأكل الخبائث ، وشرب الخمور المؤدية إلى فساد العقل وزواله .

الثانى : ما فيه ائتلافهم ، وصلاح ما بينهم ، كنهيه عن الغضب ، والغلبة ، والظلم والسرف المفضى إلى القطيعة والبغضاء .

الثالث : ما فيه حفظ أنسابهم وتعظيم محارمهم ، كنهيه عن الزنا ونكاح ذوات المحارم ، فكانت نعمته فيما حظره علينا كنعمته فيما أباحه لنا ، وتفضله فيما كفنا عنه كتفضله فيما أمرنا به .[٣]

وللدين الالهى نصوص تحمله جاءت من عند الله تعالى فهو المنزل لهذه النصوص ، وأنبياء يبلغونه لأنهم المكلفون بهذا الدور، ويعلمون المكلفين طرائق

---

(١) وهذا القسم بنوعية يمثل الجانب النظرى فى الدين الإلهى على أساس أن الدين الإلهى عقيدة وشريعة واخلاق

(٢) الأنواع الثلاثة هى جملة التكاليف العملية فى الدين الالهى سواء ما يتعلق بالأبدالن أو الأموال أو هما معاً .

(٣) الامام الماوردى — ادب الدنيا والدين — باب أدب الدين ص ٧٠ ، ٧١ .

العبادة والمعاملات ، كما يعلمونهم كيفية اكتساب الفضائل والتحلى بها ، وكيفية الابتعاد عن الرزائل ، وطرائق التخلى عنها ، على أساس أن الدين الإلهي يأتى فيه الأمران معاً ، أمر التحلية وأمر التخلية ، وكلاهما يؤازر الآخر ولا ينفصل أحدهما عن الآخر ، كما يجئ فيه الترغيب والترهيب أيضاً .

وقد بعث الله الأنبياء والمرسلين من لدن آدم عليه السلام إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بأصول واحدة ، تقوم عليها العقيدة الالهية ، أما ما يتعلق بنوعية التكاليف الشرعية والمعاملات بجانب شئون الأسرة فلما كان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة [١] فقد جاءت مع كل نبى بما يناسب القوم الذين بعث بين أظهرهم ، قال تعالى :" **لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً** "[٢]. قال الإمام أبو السعود : جعل الله الشرائع ومناهج تبليغها مع كل نبى بما يناسب قومه تمهيداً لمجئ النبى الخاتم حتى يكون شرعه ومنهاجه على الجميع . [٣] ومن ثم فقد كانت رسالاتهم جميعاً خاصة ،لأممهم دون غيرهم [٤] مؤقتة بالمكان والزمان والقوم المخصوصين ، حتى جاء الخاتم

---

(١) من ذلك قوله تعالى :" **وإلى عاد أخاهم هوداً** " وقوله تعالى : " **ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا** " حتى صار كل نبى منتسب إليه شيعته ، أو ينتسب هو إلى قومه الذين بعث فيهم ، قال تعالى : **فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ**" سورة يونس الآية ٩٨ .

(٢) سورة المائدة الآية ٤٨ قال العلامة أبو حيان لليهود شرعة ومنهاج ، وللنصارى شرعة ومنهاج كذلك ، والمراد فى الأحكام ، وأما المعتقد فواحد لجميع الناس ، توحيد وإيمان بالرسل ، وجميع الكتب وما تضمنته من المعاد والجزاء ــ البحر المحيط المجلد الثالث ص ٥٠٢ .

(٣)الشيخ الإمام أبو السعود ــ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم المجلد الثانى ص ٢٦ .

(٤) الشيخ محمد على عبد العظيم ــ النبوة والأنبياء ص ٥٧ مطبعة المهدى ١٩٤٧م .

سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فكانت بعثته صلى الله عليه وسلم للإنس والجن جميعاً ، قال تعالى : " **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** "[1].وقال جل شأنه "**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**"[2].

كما أن الدين الالهى له نصوص تحمله ، ونبى يبلغه اعتقادا وقولاً وعملاً ، فلا يمكن للنبى مهما علا قدره أو تطاول عمره ، أو كثر أتباعه أن يزيد عليه أو ينقص منه ، أو يبدل فيه ، وإنما يحرص كل الحرص على أن يكون التنزيل المبلغ إليه هو ذاته الذى يقوم بتبليغه إلى المبعوث فيهم ، قال تعالى : "**وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ** "[3].

قال أهل التفسير لو اختلق محمد بعض الأقوال ، ونسب إلينا ما لم نقله لانتقمنا منه بقوتنا وقدرتنا[4]، لقطعنا نياط قلبه حتى يموت[5]لأن حكمة الله قد اقتضت أنه ما من نبى يختلق على الله إلا قتله الله من فور[6]فما يقدر أحد على منع قضاء الله من النزول به ، وكل نبى يعلم عن الله ذلك ، ومن ثم فمن المستحيل أن يخالف النبى تعاليم الله أبداً ، لأن رسل الله يختارهم الله جل علاه، كما يضعهم على عينه قال تعالى ولتضع على عين.

---

(١)سورة سبأ الآية ٢٨ .

(٢)سورة الأنبياء الآية ١٠٧ .

(٣)سورة الحاقة الآيات ٤٤ / ٤٧ .

(٤) وهو ميل الإمام عبد الله بن عباس ومجاهد وغيرهما ، وروى عنهما فى أكثر من طريق .

(٥) قال الإمام القرطبى الوتين عرق يتعلق به القلب ، إذا انقطع مات صاحبه ـــ الجامع لأحكام القرآن المجلد الثامن عشر ص ٢٧٦.

(٦) قال الإمام الخازن ـــ ان محمدا لا يتكلم الكذب أبداً ولا علينا لأجلكم ، مع علمه أنه لو تكلم لعاقبناه ، ولا يقدر أحد على دفع عقوبتنا عنه . الإمام الخازن تفسير الخازن ج٤ ص ١٤٨ .

فى نفس الوقت فلا يمكن للنبى أن يخفى بعض ما أنزل إليه ، أو يتحـرج فى تبليغه حتى لو كان متعلقاً بخصوصية من خصوصيات ذاته ، إذ العصمة التى جعلها للنبى تحول بينه وبين إخفاء شئ أو كتمانه بصرف النظر عن كـون ذلك الإخفاء أو الكتمان لبعض الوقت أو كل الوقت قـال تعـالى : **"يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ "**[1] .

قال ابن عباس بلغ جميع ما أنزل إليك من ربك ، فإن كتمت شيئاً منـه فمـا بلغت رسالته [2]والله يمنعك من أن ينالك أحد من النـاس بسـوء وهـذه مـن خصوصيات سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم[3].

أضف إلى ما سبق أن دور النبى فى المبعوث بين أظهرهم لا يقتصر إلـى مجرد الإبلاغ ، وإنما يمارس ما يبلغه على نفسه أولاً حتى يكون النبـى هـو القدوة وهو الأسوة ، وإلا كان لقومه بعض الأعذار فيما يتعلق بالتكاليف ، بـل كان الرسول فى قومه يمثل القدوة فى أعلى صورها وأبرز مظاهرهـا ، فـهو يتحمل أكثر منهم ، ويقوم بأداء التكاليف مبيناً لهم العزائم والرخص ، ومن ثـم يقطع على المبعوث فيهم طريق الاعتذار ، فهو فى التكاليف كلها مثلهم تماماً — من حيث هى تكاليف — ويزيد أمره بالنسبة لقدرته على المزيد من الاحتمـال ، والأكثر من الابتلاء .

---

(١)سورة المائدة الآية ٦٧ .

(٢) الإمام القرطبى الجامع لأحكام القرآن ج ٦ ص ٢٤٢ .

(٣) قال الإمام الزمخشرى : هذا وعد من الله لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم بالحفظ والكلاءه والمعنى والله يضمن لك العصمة من أعدائك فما عذرك فى مراقبتهم روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحرس حتى نزلت الآية فأخرج رأسه من قبة آدم وقال : انصرفوا أيها الناس فقد عصمنى الله عز وجل — الإمام الزمخشرى — الكشاف المجلد الأول ص ٥١٤ .

كما أنه من حيث الصفات البشرية معهم الله تعالى سواء ، أما من حيث القيام بالتكاليف فإنه يؤديها على الصورة المثلى التى شرعها ، ثم هو فى النهاية حريص كل الحرص فى أن يكون أداؤه لها النموذج الأعلى فى الاقتداء ، لأنهم جميعاً فى البشرية على قدر واحد ، أما هو فإنه يتمايز عن الجميع بأنه يوحى إليه من قبل الله تعالى ، قال تعالى :" **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** "[1].

إذن يمكن القول بأن الدين الإلهي يجئ فى قواعد أربعة :

الأولى : النبى المرسل من قبل الله تعالى المبلغ عنه جل علاه .

الثانية : التعاليم التى يبعث بها الله عز وجل ذات النبى ، وتحمل الأسس العامة والتفريعات المترتبة عليها لصلاح الدنيا والآخرة .

الثالثة : القوم الذين بعث فيهم .

الرابعة: بيان الغاية التى جاء بها النبى .

أما الأديان الوضعية التى ينشئها أصحابها فإنها تفتقد هذه القواعد جميعها ، إذ ليس فيهم أنبياء مرسلون من قبل الله تعالى ، وإنما هم جملة من الأدعياء الذين يزعمون لأنفسهم امتيازاً على غيرهم [2]، أو تفوقاً — من أى نوع — على من سواهم ، ومن خلال هذه المزاعم يحاولون السيطرة والتوجيه لأولئك الذين انخدعوا بهم ، أو أسلموا قيادهم لهم [3]، أو ألقوا بعقولهم تحت أقدامهم ، ثم داسوها بنعالاتهم .

---

(١)سورة الكهف الآية ١١٠ .

(٢) راجع المتنبئون قديماً وحديثاً ص ٣١ للأستاذ زمضان محمد حسن الطبعة الأولى ١٣١٥هـ .

(٣)الشيخ / محمد على صبرى — الاتجاهات الحديثة فى فهم العقيدة الصحيحة ص ٢٣ ط دار الوفاء عام ١٩٤٧م .

حينئذ تراهم يعلنون عجز نصوص الدين الالهى عن مسايرة الركب المتقدم نحو للعلم ، ثم يحاولون اصطناع مقارنة شكلية بين نتائج العلم وقضايا الديـــن، مستغلين سذاجة من يعرضون عليهم قضاياهم ، أو عدم قدرتهم علــــى فضـــح نواياهم ، وكشف اتجاهاتهم التى تعبر عنها سلوكياتهم ، وهـــم فـــى خطواتـــهم يعملون طبقاً لخطة مرسومة فى أذهانهم ، تقوم على صرف الناس عن الديــــن الالهى من خلال :

١ ــ التشكيك فى مصدر الدين الالهى [١] ومحاولة نزع ماله من قدســـية فـــى نفوس أهل الإيمان ، وذلك بإدخال أسئلة فاجرة توحى إلى السامع باحتمـــال أن يكون مصدر ذلك الدين غير معروف .

٢ ــ **التشكيك فى نصوص الدين الالهى [٢] حيـــث يزعـــم البعـــض أن هنـــاك نصوصاً زائدة ، وأخرى ناقصة ، ولا يمكن معرفة الزائد من الناقص ، ومن ثم يقع التشكيك فى أيها الصحيح ، وأيها الذى لا يمكن الحكم عليه بالصحة .**

٣ ــ **التشكيك فى النبى المرسل من قبل الله تعالى[٣]فاليهود يزعمون أن نبى الله** موسى الكليم عليه السلام أخبرهم بانقطاع النبوة بعده،ويعتبرون عيسى ابن مريم ليس نبياً ، كما أنهم ينكرون نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بزعم لزوم

---

(١)هذا الجانب يقوم فوق أساس أن التأكيد على صحة نسبة الدين إلى جهة عليا أمر غير مسلم ويتساءل هـل المصدر هو الله أم النبى وهم فى كل ما زعموا قد كذبوا لأن الله تعالى هو المصدر الوحيد للدين الالهى ، مـــن ذلك ما كتبه السفير الروسى اللاديفى كورما تزيوف القرآن ليس كلمة الله ص ١٣ ترجمة حنان بكر وما كتبته الأيادى النجسة وأملته القلوب السوداء تحت عنوان تعليقات على القرآن سلسلة الهداية العدد الرابع تـأليف خدام الرب واسرار القرآن للقس الملقب بسال والعربى ومصادر الاسلام للقس المتمرد تسدل ط خدام الـرب نور الحياة وكلها كافرة وكتاباتها فاجرة . طبعة استراليا .

(٢)عبرت عن هذا الاتجاه مجلة نور الحياة التى يصدرها خدام الرب ، وكل غايتهم الطعـــن علـــى النصـــوص القرآنية التى قال الله فيها :" إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون " ــ قاتلهم الله أنى يؤفكون .

(٣) يفعل ذلك كل من اليهود ودعاة المسيحيه بجانب أصحاب الديانات الوثنية فكلهم فى الكفر سواء .

النسخ فى الشريعة والبداء على الله وهم فى كل ذلك كاذبون .

٤ ــ التشكيك فى علماء الإسلام [١]يمارس هذا الدور أولئك الذين لاهم لهم سوى إظهار أنهم قد وضعوا فى مواضع ليسوا أهلاً لها ، كما أنهم قد استفادوا من مواقعهم التى اغتصبوها فأرادوا الكيد لأهل الإسلام حقداً وحسداً .

٥ ــ توجيه الأنظار إلى إمكانية إيجاد بديل عن دين الإسلام الدين الالهى : كما يفعل العلمانيون فى الوقت الحاضر، والوضعيون فى الغرب والشرق ، وغيرهم من الذين لا يعنيهم سوى أن يكونوا ملحدين فى آيات الله والله تعالى توعدهم بما أخفاه لهم من العقاب قال : " **إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** " [٢].

والمعنى أن الذين يطعنون فى آياتنا بالزيف والتكذيب والإنكار لها لا يغيب أمرهم عنا فنحن لهم بالمرصاد وفيه وعيد وتهديد لأهل الكفر والعناد الذين لن ينجيهم ذلك من غضب الله تعالى وعقابه [٣].

٦ ــ إعلان الإكتفاء بالعلم ونتائجه عن الدين فى قضاياه وعقائده : حيث يزعم أصحاب ذلك الاتجاه المنحرف أن الدين الإلهي مجرد أفكار نظرية ، وقضاياه وعقائده لا تخرج عن هذا الإطار الذى لا يحقق للناس نفعاً فى معاشهم ودنياهم أما العلم بنتائجه العملية فإنه يحقق للناس الخير كله بجانب السعادة فى الدنيا . ولأنهم يكفرون بالآخرة فلا يذكرونها على أية ناحية من النواحى ، إنهم جعلوا العلم الاحتمالي دينهم ونظرياته المتأرجحة شريعتهم ، فخرجوا على الدين الإلهي

---

(١)يقوم بهذا الكثيرون من أصحاب الديانات الوثنية وبعض من ينتسبون للإسلام .

(٢)سورة فصلت الآية ٤٠

(٣) الإمام القرطبى : الجامع لأحكام القرآن المجلد ١٥ ص ٣٦٦

مع أنه الذى يدفع إلى البحث العلمى[١] ، كما خرجوا عن العلم الذى يدلهم على الله تعالى .

أما الوضعية — وبخاصة المنطقية — فقد أعلن القائمون عليها أن الدين النظرى يجب استبعاده من ميادين الحياة كلها ، واعتبار العلم التجريبى هو الدين العملى لأنه يحقق نتائج صحيحة ، ويمكن التأكد منها عن طريق التجربة العملية عدة مرات ، كما أن الدين إذا كان له وجود فليكن داخل رؤس أصحابه ولا يسمح لهم بالإعلان عنه خارج الأماكن التى يقيمون بها من الكنائس والأديرة.[٢]

كما أن هيمنة الكنيسة واللاهوت فى العصور الوسطى كانت من العوامل الأساسية التى أدت إلى رفض كل مجال من المجالات التى تأتى فيها الدراسات العلمية ، لأن العقائد المسيحية تقوم على أساس الإيمان النظرى ، فى حين يعتمد العلم على الإيمان التعقلى ، وفوق ذلك فإن إصرار الكنيسة على توجيه الناس نحو الحياة الباطنية أعمى أنظار المعاصرين عن العالم الطبيعى المحيط بهم. [٣]

بيد أنه لما تمكن العلم من الإعلان عن نفسه سرى فى نفوس أصحابه غضب شديد طالب بتنحية الدين من طريقهم ، كما كانت الكنيسة تنحى العلم عن طريقها بحيث يمكن القول بأن ذلك يمثل رد فعل من العلماء فى مواجهة ما قام به رجال اللاهوت .

ويتساءل نوبراث قائلاً لصالح من تظل العقول أسيرة افكار نظرية قوامها الدين النظرى ، وتهمل النتائج العلمية التى تفرزها المعامل محققة أعلى النتائج الإيجابية ، ثم يقول : هل من المعقول التمسك بالدين الذى ثبت عجز نصوصه

---

(١) أنحت إلى ذلك من عدة نواح ، راجع كتابنا المدخل لدراسة الحكمة الإسلامية ص ٣١٥ وما بعدها.

(٢)الدكتور / عبد العظيم السيد الحويلة — أوربا — الدين والعلم ص ٩٥ .

(٣)الدكتور / سعيد عبد الفتاح عاشور — أوربا العصور الوسطى — الجزء الثانى النهضات والحضارة والنظم ص ٤١٢ مطبعة الأنجلو المصرية ١٩٨٦ م .

عن مسايرة الحياة وفى نفس الوقت نهمل العلم الذى أثبتت نتائجه صحتها، وقدرتها على مسايرة ركب الحياة ودفعها للتقدم المتواصل [١] .

ولا شك أن نويراث يقصد الدين الكنسى لأن الكنيسة هى التى أعلن دعاتها فى العصور الوسطى أن الدين ضد العلم ، وأن الدين والعلم عدوان ، أما دين الإسلام فان نصوصه تدعوا إلى العلم وتحث عليه ، وتعلن عن مكافأة عظيمة لطلابه ومعلميه أيضاً ، ففى الحديث الشريف من خرج من بيته فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع [٢]وفى الحديث الشريف أيضاً يقول الرسول صلى الله عليه وسلم خيركم من تعلم القرآن وعلمه [٣].

ويقول ثوليك أن نصوص الدين قد خاطبت الوجدان المرهف قديماً ، ولكنها لا تستطيع أقناع العقل العملى فى الوقت الحاضر ، وهى فى خطابها كانت تستخدم لغة الإلزام ،وفى عجزها تستخدم لغة الالزام ، وهما معاً لغة واحدة غير قابلة للحكم عليها بالصحة طبقاً للوقائع والأحداث اليومية [١] فهو يمارس الإعلان الصريح بإبعاد الدين ونصوصه عن ميدان الحياة العامة ، وهى ذات الأفكار التى يطالب بها دعاة الوضعية عموماً والمنطقية خصوصاً فى الغرب والشرق على السواء .

وكان بوانكاريه يقول : صحيح كنا نؤمن بنصوص الدين لكنها الآن عاجزة عن إثبات أحقيتها فى السبق ، وقدرتها على تجاوز الأزمات ، ومن المناسب إبعادها عن ميدان الحياة العملية ، حتى لا تفقد وجودها على وجه

---

[٢] الدكتور / عبد العظيم السيد الحويلة — أوربا — الدين والعلم ص ٩٧ .

(٣)رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين — باب طلب العلم ص ٣١٥ .

[٤] الامام النووى — الأذكار — باب العلم ص ٢١٧ وفى رواية خيركم من تعلم العلم وعلمه ، والأحاديث كثيرة فى الحث على العلم وطلبه واتفاقه .

(١) ثوليك — هكذا أتحدث ص ٧١ ترجمة الدكتورة وفاء رمزى .

الإجمال [١] فهو يسعى إلى حث الناس على إهمال النصوص الدينية أو تناسيها على أقل تقدير ، كما يقرر أنه إذا كان من الضرورى الإبقاء عليها كنصوص مقدسة فيكن ذلك فى إطار الكنيسة التى تتبناه ، أو الدير الذى يتمسك بها قسسه لا أن يكون قاعدة ينطلق الناس منها إلى ممارسة أحوالهم الاجتماعية أو الثقافية والعلمية .

ويقول : ريشنباخ أن نصوص الدين تمثل قضايا جوهرية ، لكن ليس بالإمكان التحقق من صدقها لا على أساس الخبرة الحسية ، ولا على أساس التجربة العملية ،إنها أقرب ما يكون شبهاً بالقضايا الخالية من المعنى الحقيقى [٢] وهو نفس الاتجاه الذى يسير فيه الوضعيون المنطقيون على أساس رفضهم للميتافيزيقا التأملية من كل ناحية سواء فى الموضوعات التى تتناولها أم فى النتائج والمناهج إنهم يرفضونها تماماً .

كما أن أرنست باخ طالب باستبعاد كل العناصر الميتافيزيقية من العلم [٣] على أساس أن الدين لا علاقة له بالعلم من حيث المفهوم العام ، الذى يقصده الوضعيون ، من ان العلم وحده هو الذى يقوم على التجربة العملية والخبرات الحسية .

لم يخرج الوضعيين عن هذه القاعدة — تنحية الدين — وإنما كانوا يمارسون القيام بها على الدوام ، حتى صارت المبدأ الأول ، والقاعدة الثابتة فى بناءاتهم الفلسفية ، بحيث يمكن القول بأن الوضعية المنطقية لا تعير الدين أى اهتمام ، كما أن القضايا الإيمانية عندهم غير مقبولة إلا فى نطاق كونها

---

(١) الدكتور البدرى محمد بدوى — الفلسفة الحديثة ص ١٣٧ .

(٢) الدكتور / فوزى محمد طلبه — الاتجاهات العامة فى الفلسفة المعاصرة ص ١٧١ ط الدار القومية ١٩٧١م

(٣) الدكتور / أحمد السيد على رمضان — المدخل إلى دراسة الفلسفة المعاصرة ص ١٥٠ ط الدار الإسلامية للطباعة والنشر ١٤٢١هـ — ٢٠٠١م .

نصوصاً نظرية ، أنها أشبه بقطع الأثاث المتوارثة ، لا يعنى الاحتفاظ بها سوى الإبقاء على ميراث الآباء والأجداد من الناحية الشكلية .

والوضعيون بهذه الجرأة يعلنون خروجهم على الدين ككل ، لأن نصوص الدين المسيحى – رغم إعلانهم أنها المقصودة – إنما تمثل فكر الذين كتبوها[١]، وتحمل أسماءهم ، لما هو معروف من أن الأناجيل القانونية فى المسيحية لا تخرج عن كونها بشارات نادى بها كل من متى ومرقص ولوقا ويوحنا ، كما أن أعمال الرسل ورسائل بولس لا تخرج عن كونها هى الأخرى بشارات وتعليمات جاءت فى شكل قصصى أو تعاليم تربوية تنقصها الدقة فى كثير من الأحيان .

أما الدين الإسلامي فان نصوصه معصومة بعصمة الله تعالى القائل : "**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**"[٢] ، وقال جل شأنه :"**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**"[٣] قال العلامة الزمخشرى إن الذين كفروا بالقرآن وطعنوا فيه ، وحرفوا تأويله هم الملحدون فى آياتنا ، وانه لكتاب عزيز منيع محمى بحماية الله تعالى فلا يتطرق الباطل إليه أبداً ، ولا يجد إليه سبيلاً على أية ناحية من النواحى أو جهة من الجهات حتى يصل إليه أو يتعلق به ، فإن قلت : أما طعن فيه الطاعنون وتأوله المبطلون ؟ قلت بلى ، ولكن الله تعالى

---

(١) فكل انجيل قانونى من الأناجيل الأربعة منسوب إلى صاحبه الذى كتبه كالحال مع كل من إنجيل متى ، ومرقص ، ولوقا ، ويوحنا ، وكلها لم يكتبها المسيح ، كما لم يملها على أى من تلاميذه ، وإنما كتبت بعده بثمانين سنة على أنها تمثل حياته الخاصة .

(٢)سورة الحجر الآية ٩ – قال الشيخ الصابونى: نحن بعظمة شأننا أنزلنا القرآن عليك يامحمد ونحن الحافظون لهذا القرآن حيث نصونه عن الزيادة والنقصان والتبديل والتغيير ، وقال المفسرون تكفل الله بحفظ هذا القرآن فلم يقدر أحد على الزيادة فيه ولا النقصان منه ، ولا على التبديل والتغيير كما جرى فى غيره من الكتب فإن حفظها كان موكولاً إلى أهلها بما استحفظوا عليه . الشيخ الصابونى – صفوة التفاسير ج ٧ ص ١٠٦ .

(٣) سورة فصلت الآيتان ٤١ ، ٤٢ .

قد تقدم فى حمايته عن تعلق الباطل به ، بأن قيض قوماً عارضوهم بإبطال تأويلهم وإفساد أقاويلهم فلم يبق طعن طاعن إلا ممحوقاً ، ولا قول مبطل إلا مضمحلاً [١] .

ولئن كان وضعيو أوربا قد غاب عنهم نور الإسلام جهلاً به أو حقداً على أهله ولا عذر لهم فى ذلك ، فماذا يصنع أذيالهم ممن زعموا لأنفسهم تفوقاً على غيرهم أو امتيازاً ، وهم فى ذات الوقت من أبناء الشرق الذي بزغ فيه نور الإيمان ، وغطى جوانب حياته الإسلام ، ومع هذا يعلنون أنهم وضعيون ، ويحاولون إقامة الجدال من كل ناحية ، زاعمين وجود فوارق بين الإيمان القلبى والإنكار المعرفى ، وهم فى كل ذلك واهمون ، وعلى ربهم يكذبون ، وما يتحدثون فيه يخرج بهم بعيداً عن نطاق المعقول.

المبدأ الثاني : الاعتماد على الطرائق التحليلية للألفاظ والعبارات :

كان السائد فى الفكر الأوربى إبان العصور الوسطى هو الإصغاء للموروثات بجانب ما تلقيه المفردات والعبارات التى تخرج من أفواه رجال اللاهوت لأنها أمست فى بعض المفاهيم ذات قداسة ، كما كان أهل تلك العصور أصحاب همجية مفرطة، لم يخلصهم منها إلا اتصالهم بأهل الإسلام وبخاصة العرب وهو ما يعلنه جوستاف لبون حيث يقول : تخلص النصارى من همجيته بفضل اتصالهم بالعرب ، واقتباسهم منهم الطبائع النبيلة ، ومبادئ فروسيتهم التى منها مراعاة النساء ، والشيوخ والأولاد ، واحترام العهود ، والوفاء بالوعود[٢]، وما كان من هذا القبيل الذى تحتاجه البشرية ، وتعلو به النفوس الذكية ، ويمهد للحضارة الإنسانية .

---

(١)العلامة الزمخشرى ـ الكشاف ج ٤ ص ٢٠٢ .

(٢)جوستاف لبون ـ حضارة العرب ص ٥٩٧ .

إذ لم يكن ذلك من سمات العصور الوسطى التى فرضت الكنيسة على الناس حينئذ الانغلاق الفكري ، والتبلد العقلي ، والتفسخ الأخلاقي ، والاستماع إلى الأفكار القائمة على الخرافات والأساطير، ومحاربة التقدم العلمي ، والتطور الحضاري ، كما أغلقت كافة المنافذ التى يمكن أن تدخل منها أنوار معرفية .

ويقول بارتلمى سانت هيلير : لقد هذبت طبائع أمرائنا الإقطاعيين الخشنة فى العصور الوسطى بفضل علاقاتهم بالعرب وتقليدهم لها ، فتعلم أشرافنا وفرساننا رقة العواطف ، ولين الطبائع ، وحسن الأخلاق ، دون أن يفقدوا شيئاً من شجاعتهم ، وإنني أشك فى أن النصرانية وحدها كانت تستطيع أن تأتى فى مثل ذلك التأثير مهما بالغنا فى إكرامها [1]، وليس ذلك فحسب إذ أن الإسلام وحده هو القادر على ذلك ، أما أية حيلة أخرى فإنها منقوصة الأداء مفتقدة أبسط جوانب الوفاء بهذه الالتزامات أو إصلاح ذات المعوجات .

فلما أرادت أوربا بناء حضارتها لم تجد إلا الحضارة الإسلامية حتى تأخذ عنها وتقتبس منها ، غير أن آباء الكنيسة طاردوا هذا الإتجاه ، وحاولوا فرض وصايتهم على ضمائر الناس وعقولهم ، فبات أمر الصراع قائماً ، ومحاولة كل فريق بسط نفوذه على الآخر أمراً واقعاً . ومن هنا ظهر اتجاهان :

الأول : الاتجاه التقليدي الذى تتبناه الكنيسة ويدعمه آباء اللاهوت بكل ما لديهم من قوة ، أو تمكنوا من سلطان وهم الذين يتعلقون بالقشور دون اللباب ، ويتمسكون بالمظاهر دون مراعاة لموقعها من الظاهر ، وهذا الفريق حرص على إنكار كل ما للعرب من حضارة ، أو للمسلمين من وجود ، وبالغوا فى هذا الاعتقاد الذى زرعوه فى النفوس ، حتى صار الاعتراف بفضل العرب على

---

(١)بارتلمى سانت هيلير ـ محمد والقرآن ص ٩٧ طبعة باريس ١٨٦٥ نقلاً عن أوربا والعصور الوسطى ج ٢ ص ٥٥٠ .

حضارة الغرب جريمة [١] .

يقول جوستاف لوبون : لماذا ينكر علماء الوقت الحاضر — الذين يضعـون مبدأ حرية الفكر فوق كل اعتبار دينى — تأثير العرب فى الحضارة الغربية إننى لا أرى سوى جواب واحد عن هذا السؤال ، وهو أن استقلالنا الفكرى لم يكـن فى غير الظواهر ، وأننا لسنا أحرار الفكر فى بعض الموضوعات ، ويـتراءى لبعض الفضلاء أنه من العار أن تكون أوربا مدينة فـى خروجـها مـن دور الهمجية للعرب ، ولكن من الصعب أن يحجب مثل هذا العار الوهمـى وجـه الحقائق[٢] التى لا تخفى فى طبيعتها كما لا يخفى أثرها من حيث هو .

الثانى : الإتجاه الجديد الذى يتبناه الفلاسفة ويدعمه أصحاب المنهج التجريبـى ، وهم الذين حرصوا على أبراز العلم ودوره فى بناء الحضارة الإنسانية ، وفـى نفس الوقت عملوا على إظهار نصوص الدين ورجاله بمظهر الضعف العـاجز عن مقاومة أى تيار صحيح ، أنهم رسموا الدين كما شاعت لهم أهواؤهم دون أن يقفوا على حقيقة هامة وهى طبيعة الدين ذاته ، ثم تفرع من هذا الاتجاه جملـة من التيارات أبرزها :

أ — الاتجاه الوضعى .

ب — الاتجاه العقلى المثالى .

ج — الاتجاه العلمى التجريبى .

---

(١) ومن الأدلة على ذلك ما كتبه المستشرق الفرنسى مالارميه حين قال : كنا نحن الغربيين نعتقد أن الاعتراف بفضل الحضارة العربية على أوربا تحتل إهداراً لكرامة العقل الأوربى ، ولكننا حين نعترف به إنما نحقق هدفـين هما الاعتراف بالحق والثانى قدرة العقل الأوربى على الاستيعاب والإبداع — الدكتور محمد حسن زهـران — أوربا والإسلام ص ٥٣ .

(٢) جوستاف لويون — حضارة العرب ص ٥٩٩ .

د ــ الاتجاه الذى يبحث عن هوية .

أجل حاول كل تيار إقامة بنائه على أسس ظنها أصحابه تدعم مواقفهم ، أو اعتبروها صحيحة فى مواجهة الأخرى التى لم تنل لديهم القبــول ، أو تحظــى بشئ من الصدق ، أو يقع لها التقدير الإيجابي فى النفوس [١].

ولما كانت الوضعية المنطقية هى إحدى المسلاخات التى برزت ملامحــها تحت اسم البحث العلمى ، فقد أنكرت كل معرفة لا يكون مصدرهـــا الاعتمــاد على الطرائق التحليلية ، واعتبرت أن أية معرفة تقوم على الألفاظ والمعانى من غير تحليل لها إنما تكون معرفة ناقصة [٢]، أما لماذا فلما يلى :

١ ــ أن تحليل العبارات والألفاظ إنما هو تحليل للفكر نفسه من حيث الصــورة التى جاء عليها ، لا من ناحية المادة التى تتكون منها[٣] فــإذا كــان الأقدمــون يهتمون بمادة الألفاظ ويعتبروها الأصل المعول عليه ، وكان من جـــراء ذلــك، وقوع هذه الأمم فى التدهور العلمى وهيمنة العقلية الأسطورية ، فمن الضرورى الابتعاد عن مفهوم المادة والانتقال إلى الصورة .

٢ ــ ان تحليل العبارات والألفاظ تحليلاً منطقياً ــ وهو الذى يظهر العبارة ذات معنى أو خالية من المعنى ــ يجعلها ترفض العبارات التى تتحدث عن قضايا ما وراء الحس على أنها خالية من المعنى ، دون نظر إلى تاريخيتها التى تنسب لها صلاحية فى زمن دون زمن ، كما يفعل أوجست كونت ، الـــذى ينظــر إلــى العبارات نظرة تاريخية [٤] .

---

(١) لايمكن اعتبار وجهة نظرهم مقبولة ، أو معقولة ، لأنها لم تخرج عن كونها جملة من الإتجاهات التى يجئ معها الفساد على كل ناحية .

(٢) الدكتور محمد السيد السلاب ــ الوضعية والفكر الفلسفى ص ١٣٧ .

(٣)الدكتور / فوزى محمد عبد العظيم ــ الاتجاهات الفلسفية الحديثة ص ١١٧ .

(٤)الدكتور / زكى نجيب محمود ــ نحو فلسفة علمية ص ٣٨ ، ٣٩ نقلاً عن الدكتور / محمود عبد الحكيم عثمان ــ الفكر المادي الحديث وموقف الإسلام منه ص ٤١٣ ط الأنجلو .

٣ — ان تحليل العبارات والألفاظ على أساس من المنطق لا يجعلها مرتبطة بالنفع أو الضر ، إنما يجعلها مرتبطة بشئ واحد محدد هو الاستنباط الذى هو عماد القضايا التحليلية ذاتها لأنها تقوم عليه [١]، اقتناعاً بأن المنطق والرياضة يمكن أن يقوما بدور فعال فى هذا الجانب .

ان عالم الرياضة لا يشغل نفسه بالواقع ، بقدر ما يشغل عقله التنظيم الدقيق للمقدمات والنتائج المجردة عن أصول أو دوال طبيعية ، فليس عالم الرياضة مسئولاً عن كون العلاقات والدوال الرياضية موجودة فى الخارج من عدمه ، أو موجودة على ما هى فى ذهنه ، أم لها صور أخرى ، إنه يشغل عقله بشئ واحد هو عملية الاستنباط الرياضى ، والإنتهاء إلى النتائج من خلال المقدمات الصحيحة[٢]، ومن ثم فهو يرفض كل عبارة أو فكرة أو لفظ لا يقبل التحليل الرياضى أو لا يقوم عليه .

وكذلك عالم المنطق الرياضى والرمزى فإن كلا منهما لا يشغل عقله بما إذا كانت هذه الرموز والدوال لها صور طبيعية أم لا ، إنها تجعل العالم المادى الطبيعى مدركاً فى ابسط صوره [٣]، وينظر إليه على أنه جملة من الرموز والأرقام التى تعبر عن كميات لا متناهية ، لكن العبرة عنده بإمكانية إرجاع هذه المقدمات إلى ذات النتائج ، وإجراء عملية التداول على الناحيتين [٤].

بيد أن الوضعية المنطقية لما كانت تذهب إلى ضرورة أن تكون العبارات والألفاظ قابلة للتحليل المنطقى ، فإنها فى ذات الوقت قد حرصت على أن تكون الألفاظ والعبارات التى لا تدخل فى نطاق قبول التحليل المنطقية من قبيل

---

(١)الدكتور / فوزى محمد عبد العظيم — الاتجاهات الفلسفية الحديثة ص ١١٩ .

(٢)أ .ب كراوثر — الرياضة الدالات والمفاهيم ص ٢٣ ترجمة هدى سلمان البعلبكى .

(٣)الدكتور / فوزى محمد عبد العظيم — الاتجاهات الفلسفية ص ١٣٠ .

(٤)أ . ب . كراوثر — الرياضة الدالات والمفاهيم ص ٢٤ .

العبارات والألفاظ الخالية من المعنى [١] ، ومن ثم فلا يلتفت إليها ، وهم بهذا قد حذفوا من المعرفة الإنسانية أكبر قدر ، كما اسقطوا من حساباتهم كل مـــا هـــو كائن وراء الحس ، فصارت معارفهم ناقصة فى مصادرها وأنواعها ودرجاتها.

على أساس أن الرياضة علم بدأ تجريبياً ثم انتهى إلى التجريد ، إذ لم تكـــن للإنسان الأول معرفة بالكموم المنفصلة أو المنفصلة ، كما لم تكن لديـــه فكـــرة تامة عن كيفية احتساب الكموم المتصلة والعلاقات القائمة بينها ، وكذلك الكمـــوم المتصلة وكيفية تجريدها من وضعها الطبيعى إلى وضع رياضى [٢] ومن وضـــع تجريبي إلى ما هو أعلى من كل وضع تجريدى .

٤ — أن التحليل الدقيق للعبارات والألفاظ ينتهى إلى جعل المعرفـــة الإنســـانية منحصرة فى مسميات محددة يمكن للحواس أن تلاحظها ، على أساس أنه ما من اسم إلا وله مسمى ، وما مَن مسمى إلا وله دلالة بعينها ، أو صفات محـــددة ، ويستحيل أن تكون هناك جزئيات فى الكون غير معروفة [٣]، لكـــن أن تعـــرف على حقيقتها — وهو طبيعة التحليل المنطقي — فذلك المطلوب بحيـــث لا يقـــع الإنسان بين أفكار مستقاة من بيئة ، أو منقولة إليه من أساطير ، أو تحكى لـــــه عن أمور ليس من اليسير إثباتها على جهة الحقيقة ، يقول الدكتور / زكى نجيب محمود — إذا أردنا أن نحلل فكرة ما النرى إن كان قـــد تـــم بناؤهـــا بطريقـــة مشروعة أولم يكن الأمر كذلك رددناها إلى أحداثها التى تأثرت بـــــها حواســـنا

---

(١) وهم يكررون ذات العبارة ويسوقونها عند أنكارهم الميتافيزيقا ، كما يرفعونها فى وجوه الآخريـــن كلمـــا ارادوا إنكار شئ من الأشياء ، أو موجود من الموجودات ، لقد صارت قريبة الشبه بالسيف الذى يرفعونـــه فى وجه الآخرين مئ أرادوا إرهاقهم أو النيل منهم ، وهو ما يدل على أنهم قد أفلسوا تماماً ولم يعد لهم ما يمكـــن الاعتماد عليه .

(٢)أ . ب . كراوثر — الرياضة الدالات والمفاهيم ص ٣٥ ولا شك أن عملية التحول الرياضى من التجريب إلى التجريد قد استغرقت فترة زمانية .

.(٣) الدكتور / صبرى محمد حسن — الوضعية والتحليل المنطقى ص ٥٣ ص أولى ١٩٥٧م .

المختلفة من ضوء وصوت وصلابة ... حتى إذا ما وجدنا بين عناصرها عنصراً لا يرتد إلى حاسة بعينها عند اكتسابه بادئ ذى بدء ، أيضاً أن الفكرة باطلة .[١]

٥ ـ أن التحليل المنطقى للألفاظ والعبارات ينتهى حتماً إلى حصر قضايا المعرفة ومشكلاتها حصراً دقيقاً على ناحية فنية ، ومن ثم يمكنه إصدار أحكام صحيحة بشأنها ، يكون أمرها قائماً على الدقة واليقين وهو ما تسعى إليه المعرفة الإنسانية فى أرقى صورها .

يقول الدكتور / محمود عتمان مهمة الفلسفة عند أنصار الوضعية المنطقية هى تحليل العبارات والألفاظ من حيث بنائها المنطقى العام ، لا من حيث طرائق استخدامها فى لغة بعينها ، وتحليل العبارات والألفاظ على هذا النحو هو نفسه تحليل للفكر من حيث صورته لا من حيث مادته .[٢]

بيد أن اعتماد الوضعية المنطقية على الطرائق التحليلية للألفاظ والعبارات دون اعتبار لشئ آخر قد يفضى بهم إلى إنكار حقائق ثابتة فى الشريعة الإسلامية ، لكنها غير خاضعة للطرائق التحليلية بالمفهوم الذى يقف عنده هؤلاء الوضعيون ، كالحال فيما يتعلق بالقضايا التى لم يقف العقل الإنسانى على حقيقة أمرها ، وإنما جاء بها النقل المنزل فى القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف، كالروح والنفس والعقل ، بجانب حقيقة الموت والحياة واليوم الآخر ، كحياة البرزخ وما فى القبر من نعيم لأهل الطاعة ، وعذاب لأهل العصيان .

---

(١) الدكتور / زكى نجيب محمود ـ نافذة على فلسفة العصر ١٢٤ الكتاب السابع والعشرون ، كتاب العربى ابريل ١٩٩٠م .

(٢)الدكتور / محمود عبد الحكيم عثمان ـ الفكر المادى الحديث وموقف الاسلام منه ص ٤١٦ وراكع نفس الفكرة بذات الألفاظ للدكتور أحمد السيد رمضان ـ المدخل إلى دراسة الفلسفة المعاصرة ص ١٤٣ ط الدار الإسلامية ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م .

فمن القرآن الكريم عن عذاب القبر قوله تعالى : " **النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ** "[١] قال المفسرون المراد بالنار هنا نار القبر وعذابهم فى القبور بدليل قوله تعالى :" ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب "حيث يقال للملائكة يوم القيامة أدخلوا فرعون وقومه نار جهنم التى هى أشد من عذاب الدنيا [٢] فلو كان العذاب فى القبر غير موجود الآن ما كانت هناك حاجة إلى قوله تعالى :" ويوم القيامة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ، فثبت بالنص القرآنى أن العذاب فى القبر لأهل العصيان حقيقة واقعة جاء بها النقل المنزل .

والوضعية المنطقية ليس بإمكانهم الوقوف على حقيقة القبر ، ولا ما يجرى فيه من نعيم أو عذاب لأن ذلك لا يقبل التحليل اللغوي للألفاظ والعبارات ، كما لا يستطيع أحد أن يضبطه من خلال تجربة حسية أو خبرة ذاتية ، إنما هو عالم غيبي لا يعرف حقيقته إلا الله ، والمادة هى الحروف والألفاظ أما الصورة فهى الحالة التى تكون عليها هذه الألفاظ عند استعمالها .

كما أن الحديث الشريف قد دل على ذلك أيضاً فى قوله صلى الله عليه وسلم ، القبر إما روضة من رياض الجنة وإما حفرة من حفر النار [٣].

ومن ثم فإن القبر من أمور الآخرة ، ولذا يقولون من مات فقد قامت قيامته الصغرى ، وسمى قيامة على هذا القول لقيام المرء فيه من الإضجاع إلى القعود لسؤال الملكين ، ثم ضم القبر عليه فأشبه يوم القيامة الكبرى [٤].

---

(١)سورة غافر الآية ٤٦ .

(٢)الشيخ محمد على الصابوني — صفوة التفاسير ج ١٤ ص ١٠٤ .

(٣)الشيخ محمود عبد العظيم رسلان — نعيم القبر وعذابه ص ٧٥ ط الدار اليمنية ١٣١٥ هـ .

(٤)الشيخ محمد نووى الشافعى — نور الظلام شرح منظومة عقيدة العوام ص ٢٣ ط مصطفى الحلبى ١٣٥٥هـ — ١٩٣٦م .

فى نفس الوقت فليس بإمكان الوضعيين أينما كانوا تحليل العبارات والألفاظ الدالة على القيامة والبعث والنشر ثم الحشر ، إلى غير ذلك مما يتعلق باليوم الآخر كما لا يمكنهم معرفة اليوم الأخير والتفرقة بينه واليوم الآخر من حيث المفهوم ، ومن ثم فأمرهم ينحصر بين أمرين لا ثالث لهما .

أ — أما إنكار هذه الأصول العقدية وهو الكفر بعينه .

ب — التصديق بها من غير أن تكون قابلة للتحليل المنطقى وهو الجهل بعينه.

من ثم فقد وقع الوضعيون فى الكفر أو الجهل مع قدرتهم على تحصيل العلم والمعرفة وهو الإلحاد ذاته ، ولن يخرج أمر الوضعيين عنهما نسأل الله السلامة فى الدين والنجاة فى الآخرة .

بل من أين لهم معرفة الملائكة وأنهم أجسام لطيفة نورانية[1] بأرواح قادرون على التشكل بأشكال مختلفة فى أشكال حسنة شأنهم الطاعة ومسكنه السماوات غالباً ، ومنهم من يسكن الأرض ، صادقون فيما أخبروا به عن الله تعالى يسبحون الليل والنهار لا ينقطعون ، ولا يعصون الله فى الأمور التى قد أمرهم ، ويفعلون الأمر الذى به يؤمرون ، ويموتون بالنفخة الأولى إلا حملة العرش والرؤساء الأربعة : جبريل — عزرائيل — إسرافيل — ميكائيل — فهم يموتون بعدها . أما قبلها فلا يموت منهم أحد [2].

وهل يمكن لهؤلاء المنكرين قضايا الغيب معرفة أن الملائكة لا يأكلون ولا

---

(١) عرفهم الشيخ اللقانى بأنهم أجسام لطيفة نورانية قادرة على التشكل بأشكال مختلفة كاملة فى العلم والقدرة على الأفعال الشاقة شأنها الطاعة ومسكنها السماوات منهم رسل الله تعالى إلى أنبيائه عليهم الصلاة والسلام ، وأمناؤه على وحيه — الشيخ عبدالسلام اللقانى . اتحاف المريد على جوهرة التوحيد ص١٢٠ هامش حاشية الأمير .

(٢)الشيخ محمد نووى الشافعى — نور الظلام ص ١٦ .

يشربون ولا ينامون [1]، كما أنهم لا يتوالدون ولا يتناكحون ، وأنهم يخلقون خلقاً ويكلفون منذ خلقهم ، وفى الآخرة من ربهم يؤجرون ، وهو جل شأنه الأعلم بهم وأجرهم الذى يمنحهم إياه تفضلاً منه جل شأنه .

فى نفس الوقت ليس بإمكان هؤلاء الوضعيين معرفة الجن وأنهم خلق من خلق الله مادتهم الأولى النار ، لقوله تعالى : **" وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ "** [2] وأنهم يأكلون ويشربون ويتناكحون ويموتون ومنهم المؤمن والكافر ،وفيهم البار والفاجر وأنهم كما قال الله تعالى فيهم:**"إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ** [3].

بل من أين للوضعيين إمكانية تحليل العبارات والألفاظ تحليلاً منطقياً فى أمر الحور العين والولدان المخلدون ، وان الولدان خلق جميل فى رؤيتهم سرور لأنهم كاللؤلؤ المفرق ، وهم مرد لا شعر على وجوههم ، وهم على صورة أجمل أولاد الدنيا ، وأنهم لا يشيبون أبداً ، ولذلك يسمون ولدانا ، لا يخطر بقلب أحد منهم فاحشة ، لا أب لهم ولا أم ، وأن الحور العين خلق من خلق الله تم

---

(١) لأن من يأكل ويشرب تخرج الأبخرة إلى مخه ومن ثم يغلبه النوم .الدكتور دوجان بارتلمى — المخ وقدراته ص٣٥ ترجمة هناء صبرى ١٩٧٥م.

(٢) سورة الحجر الآية ٢٧ — والجان سمى بذلك لأنه يستتر ، وقد خلقه الله قبل خلق الإنسان من النار الشديدة الحر وهى السموم التى تكون غالباً بالنهار ، وهى غير الحرارة التى تكون بالليل — البروسوى — تنوير الأذهان ج٢ ص٨٥ ٢ .

(٣) سورة الأعراف الآية ٢٧ — قال الإمام الزمخشرى أنه بمنزلة العدو المتوارى يكيدكم ويغتابكم من حيث لا تشعرون ، وعن مالك بن دينار أن عدواً يراك ولا تراه لشديد المؤنة إلا من عصم الله ، وكما يراكم هو من غير أن تروه فإن جنوده وهم الشياطين كذلك لا يظهرون للإنس ، وأن اظهارهم أنفسهم ليس فى استطاعتهم وان زعم من يدعى رؤيتهم زور ومخرفة — الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ج ٢ ص ٩٨ .

بقدرته لا أب لهم ولا أم أيضاً ، وأنهم خلقوا من مادة نور خاصـــة ، ينكحـــهم المؤمنون ، لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان [(١)].

ان هذه الأمور الغيبية ليس بإمكان أحد الإبلاغ عنها أو الحديث فيها علـــى ناحية العقل وحده مهما كانت سعة اطلاعه ، إنما مصدرها الوحيد هو الله تعالى، ومن ثم فإن الوضعيين إينما كانوا إنما يعلنون عن كفرهم بـــالله وآياتـــه ، كمـــا يعلنون الإلحاد فى أسمائه وصفاته وينكرون علمـــه تعـــالى وقدرتـــه وســـننه المضطردة فى خلقه وربما جرهم ذلك إلى إنكار وجود أنفسهم .

وهؤلاء فى دنيا الناس قد يتكـــاثرون حتـــى يكونـــوا كالذبـــاب ، لكنـــهم يتساقطون من حيث يظنون فيما يفعلون العلو ، ومثلـــهم لا يلتفـــت إليـــه ، ولا ينصت عاقل لما يقول ، لأنهم مع كفرهم بالله ينـــاقضون أنفســـهم ، ويـــهدمون القضايا التى سبق الإعلان المتواصل عنها ، قال تعـــالى : " **بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ** "[(٢)].

وحيث لم يعتبر الكافرون بما حل بالكفرة المكذبين من قبل ، بل هم مســـتمرون فى التكذيب ، ومن ثم فهم أشد منهم كفراً وطغياناً ، والله محيط بهم قادر عليهم، لا يفوتونه ولا يعجزونه ، لأنهم فى قبضته كل حين وزمان ، ثم ان الذى كذبـوا به وهو القرآن المجيد فى كتاب عظيم شريف ، متناه فى الشرف والمكانة قـــد سما على سائر الكتب السماوية ، محفوظ من الزيادة عليه أو النقصان منه ، كما هو سالم من التحريف والتبديل ، لأنه كلام رب العالمين .[(٣)]

---

(١) الشيخ محمد نووى الشافعى — نور الظلام ص ١٦ .

(٢)سورة البروج الآيات ١٩ / ٢٢ .

(٣) الشيخ محمود عبد العظيم البسيونى — تفسير سورة البروج ص ١٢٥ .

المبدأ الثالث : الإذعان للتجربة الحسية والخبرات الذاتية فقط :

ذهب الوضعيون إلى ضرورة التصدى للأفكار النظرية التى تخلو من المعنى ، وقد تمادوا فى ذلك حتى أنكروا كافة الحقائق التى لا يمكن إخضاعها للتجربة العلمية ، أو الخبرة الذاتية ، ومن ثم نادوا بضرورة أن تكون الفلسفة تحليلاً صرفاً لقضايا العلم بصفة خاصة . (١)

لكن أى علم ذلك الذى يسعون إليه أو يتمسكون به ، إنه العلم الطبيعى الذى يستخدم البدهيات الرياضية ، على أساس أن قضايا العلم كلها تحتكم إلى القوانين العامة والقواعد الثابتة فى العلوم التجريبية ، فما من قضية يمكن قبولها لمجرد أنها قضية ، وإنما لابد أن يتوفر فيها شرطان :

- الأول : قبول القضية ذاتها للتحليل المنطقى بحيث لا يوجد لها نقيض ينقضها أو ينفيها ، فالتراكمات الذهنية هى بمثابة الرصيد الثابت الذى يعبر عنه بالخبرات الذاتية ، وهي فى ذات الوقت الممثل الحقيقى للخبرة الحسية المباشرة ، ويستحيل أن تقع تلك الأرصدة فى مجال التكذيب .

يقول شيلر : المفروض فى القضايا جميعاً قبولها الصدق والكذب ،ويستحيل أن تقبلهما معاً لكن إذا كانت القضية صادقة بحكم الخبرة الحسية المباشرة أو التجربة الذاتية ، فيستحيل أن تكون كاذبة (٢) من ثم فإن المعول عليه حين الحكم على قضية ما هو الخبرات الذاتية الحالية كطريق أولى ، ثم يأتى بعد ذلك ما هو قائم فى تجارب الآخرين بحيث يدعم نفس الطريق ، أو تكون هذه التجارب بمثابة الأرصدة الداعمة لما هو قائم فى الفهم أو منتظر من النتائج المستجدة .

ونفس الفكرة يعرضها الدكتور زكى نجيب محمود حيث يقرر أن الكلام لا يكون له من معنى حقيقى إلا إذا كان يحمل إشارات محددة نحو واقعة ذرية

---

(١)الدكتور / ذكى نجيب محمود ــ نحو فلسفة علمية ص ١٦ .

(٢)الدكتور / محمد السيد أبو طاحون ــ مشكلات الوضعية المنطقية ص ١٧٥ .

واحدة محسوسة ، أو يمكن تحويل ذات الكلام إلى جمل ذرية تتحدث كل جملة منها عن شئ واحد جزئى محسوس [١] ولا مانع من أن تحمل كل جملة من ذات الكلام حديثا بعينه عن أكثر من شئ واحد ، لكن بشرط أن يكون محدداً على الطزيقة الحسية ذاتها .

بيد أن هذا الشرط — عدم وجود نقيض للقضية التحليلية — قائم فى القضية الذرية التى ينتهى أمرها للتحليل ، بمعنى أن تكون الخبرة الحسية الذاتية المباشرة فى ذات القضية مستحيلة التكذيب ، على أساس خبراتى الأخرى التى سبق الوقوف عليها وأنها صادقة، أو على أساس خبرات الآخرين الحسية أيضاً، ومن ثم فهم يربطون بين عبارات اللغة ومفرداتها والوقائع الخارجية فى رباط واحد عندما يريدون اختبار صدق القضايا التى تخبر عن شئ ، من العالم الخارجى.[٢]

وهنا يظهر إختلاط الأفكار بين الوضعية المنطقية ، والفلسفة التحليلية التى ترى أن مهمة الفلسفة رد الأفكار جميعها إلى عناصرها الأولية الأصلية بحيث يمكن من خلالها إرجاع كافة الكائنات إلى جمل قليلة من البسائط التى لا يمكن تجزئتها ويعير عنها بالأرقام والرموز ، أو تصير فى حوزة التعبير عنها بالمفاهيم والدلالات الرياضية [٣].

---

(١)فلو إنتهى الأمر معها إلى نتيجة غير محسوسة ، أو الإنتهاء إلى جزء غير محسوس،تولد عن البحث ، فإنه يكون كلاماً غير ذى معنى حسب فهم الوضعيين ،الذين يجعلون غايتهم الإعلان المتواصل عن رفض التمسك بغير المحسوسات فى النتائج والمقدمات .

(٢)لمزيد من التفصيل راجع خرافة الميتافيزيقا ص ١٣٤ ونشأة الفلسفة العلمية ص ٢٥١ ونحو فلسفة علمية ص ١٢٩ وما بعدها .

(٣)الدكتور / رمزى محمد ثروت الفلسفة العلمية ص ٤٥ وراجع للدكتور / عزمى اسلام إتجاهات فى الفلسفة المعاصرة ص ٢٣٣ .

فإذا كانت الفلسفة التحليلية قد جعلت المفاهيم الرياضية القائمة على التجريب ثم التجريد هى الغاية التى تسعى إليها الكائنات كلها حتى تتحدث بلسانها من خلال عملية التحليل اللغوى ، فإن ذات المفاهيم هى التى نادى بها دعاة الوضعية المنطقية ، ولما كانت الكائنات الطبيعية وحدها هى التى يمكن تجزئتها فإنهم جميعاً يؤكدون على وجودها وحدها وإنكار ما وراء ذلك ، وهذا يستلزم رفضهم للمفاهيم كلها لأنها غير محسوسة أيضاً ، وخارج نطاق التجربة ومثلها المعقولات الأولى والثانية .

ثم إن إحالة الحكم فى القضايا المعروضة على استخدام الرموز والصور يمثل مشكلة كبرى ، لم تتمكن الخبرات الحسية ولا التجربة العملية من تقديم حلول لها ، غاية ما هنالك أنها تقدم مقترحات أو مسودات ، أو على افضل تقدير تقدم مشروعات حلول ، بدليل أن الفلسفة التحليلية والوضعية المنطقية لم تتمكن أى منهما من تقديم معلومات مهما كانت درجتها عن العوالم غير المحسوسة ، وهى أكثر وأكبر بكثير من العوالم المحسوسة[1] لما هو معروف من أن العالم نوعان :

الأول : عالم الشهادة المحسوس الذى تدرك بعضه حواسنا ، وتتكون لدينا عن هذا البعض معارف قليلة بالنسبة له ، بعضها حقيقى وبعضها خيالى ، وبعضها الأخير فيه أشباه من هذا وذلك ، كالسماوات والأرض وما بينهما ، فان حواسنا تعطينا بعض المعارف عن كل منها . لكنها عاجزة عن إثبات كون السماوات سبعاً ، والأرض كذلك ، فإذا حاولت حواسنا تقديم معلومات عن هذه الأعداد فقط ، فإنها تكون أحكاماً خيالية لعدم قدرتنا على اختبارها والقيام بعدها .

أما النقل المنزل فهو الذى يقدم ذلك كله فى صورة صادقة مأمونة معاً لأنه كلام الله ومن ثم علمنا منه ، أن السماوات سبعاً ، وأن الأرض سبعاً على الحقيقة من

---

(١) الدكتور / جمال محمد عبد العظيم – الأرض تحتنا والسماء فوقنا ص ٤٣ ط أولى ١٩٥٧م.

غير أن ندرك الحقيقة أو الكيفية قال تعالى : " **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا** "[١].

قال العلامة الزمخشرى : ما فى القرآن الكريم آية تدل على أن الأرضين سبع إلا هذه الآية ، وقيل ما بين كل سماءين مسيرة خمسمائة عام ، وغلظ كل سماء كذلك ، والأرضون مثل السماوات يجرى أمر الله وحكمه بينهن ، وملكه ينفذ فيهن ، وورد عن قتادة [٢]أنه قال فى كل سماء ، وفى كل أرض خلق من خلقه ، وأمر من أمره ، وقضاء من قضائه ، وقيل هو ما يدبر فيهن من عجائب تدبره، وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما [٣] أن نافع بن الأزرق سأله هل تحت الأرضين خلق ، قال نعم ، قال فما الخلق ، قال إما ملائكة أو جن [٤] .

---

(١)سورة الطلاق الآية ١٢ ، فالله العظيم المتعال هو الذى خلق بقدرته سبع سماوات طباقاً ، وخلق من الأرض مثلهن سبع أرضين ، بعضها فوق بعض بدون فتوق يتنزل وحى الله ويجرى قضاؤه مع أمره بينهن لتعلموا أن من قدر على خلق ذلك قادر على كل شئ وعالم بكل شئ ولا يغرب عن علمه شئ صغر أو كبر — الشيخ عبدالعال عبد العظيم النبوى — نظرات فى سورة الطلاق ص ١٣٧ ط الدار الجديدة .

(٢)هو قتادة بن دعامة بن عزيز السدوسى البصرى من الثقات الإثبات ، كان حجة فى الحديث مأموناً ، تبوفى سنة بضع عشرة ومائة راجع للإمام أحمد بن حجر العسقلانى : تقريب التهذيب ج ٢ ص ١٢٣ ط دار الرشيد بسوريا وتهذيب التهذيب ج ٨ ص ٣١٥ ط دار الفكر بيروت ١٤٠٤هـ ١٩٨٥م .

(٣)هو الصحابى الجليل عبد الله بن عباس بن عبد المطلب القرشى ابن عم النبى صلى الله عليه وسلم وكنيته أبو العباس مات النبى صلى الله عليه وسلم وقد استوفى ابن عباس ثلاث عشرة سنة ودخل فى الثانى عشر ، كان يصفر لحيته قراء المحكم على عهد النبى صلى الله عليه وسلم ودعا له الرسول الكريم بالتفقه فى الدين وعلم تأويل كتاب الله رب العالمين وكان بحر لا ينفذ مات بالطائف سنة ثمان وستين وله ثمانى وسبعونه سنة راجع للعلامة أحمد بن على بن منجويه — رجال صحيح مسلم ج ١ ص ٣٣٩ رقم ٧٣١ ط دار المعرفة بيروت .

(٤)العلامة الزمخشرى — الكشاف المجلد الرابع ص ٥٦١ .

كما أن العالم المحسوس تجرى فيه قدرة الله بالخلق والإعدام على الـدوام لقوله تعالى :" ويخلق ما لا تعلمون " ولكن من غير أن تضبط ذلك كله حواسنا على سبيل الحصر ، أو المعرفة اليقينية ، بل لا سبيل إلى معرفة ذلك إلا مـن خلال القرآن الكريم ، وسنة النبى الأمين سيدنا محمد بن عبد الله بدليل قـول الله تعـالى : " **أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ** "[١]. وسواء أكان إنقاص الأرض من أطرافها قد جاء على الناحية الحسية أم جاء على الناحية المعنوية فان عملية الإنقـاص على الناحية الحسية ليس بإمكان أحد ضبطها لأنه لم يقم سلفاً بـوزن الأرض أو قياسها على دون مقدار ما نقص منها .

فهل استطاعت حواسنا إثبات هذه الحقيقة أو الإخبار عنها ، مع أننا علـى ذات الأرض التى يقع عليها الإنقاص من أطرافها ؟ أم أنه العقل المتكبر الذى لا يدرك حقيقة ذاته ، ومع هذا يزعم قدرته على إصدار أحكام صحيحة فى أمـور لا يقبل منه الحديث عنها ، فضلاً عن أن يكون قوله فيها مقبولاً أو فـاصلاً ، إن الغرور العقلى يصيب أصحابه بالعمى الفكرى [٢]، فتراهم يجحدون حقائق ثابتة، ويكذبون النصوص الصحيحة ، وهم ممن غضب الله عليهم ولعنهم وأعدّ لـهم جهنم وساءت مصيراً ، فحياتهم فيها ضرر لهم ، ومماتـهم فيـه نفـع لـهم ، ولغيرهم الذين يسترحون من شرورهم ، أما العلماء بالله فإن حياتهم فيها بركة ، وفى مماتهم رحمة لهم وقديماً قال الحكيم :

الأرض تحيـا إذا ما عاش عالمها ... متى يمت عالم منها يمت طرف
كالأرض تحيا إذا ما الغيث هل بها ... وإن أبى عاد فى أكتافها التلف

---

(١) سورة الرعد الآية ٤١ .

(٢) كالحال مع فرعون الذى نادى فى قومه ، أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون ـ سورة الزخرف الآية ٥١.

الثانى : العالم الغائب غير المشاهد وهو الذى لانعرف عنه شيئاً بعقولنا : وإنما نعلم عنه ما يخبر الله عز وجل به ، وهو أكبر من عالم الشهادة بكثير [1]، ومن ثم فان واقعاته الجزئية وأحداثه الفردية لا تنحصر يستوى فى ذلك أمر العالم الغائب بالنسبة لنا فى دار الدنيا ، أو دار الآخرة ، دليل ذلك فى دار الدنيا ما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ما السماوات السبع والأرضون السبع فى ملك الله إلا كحلقة ملقاة فى فلاة [2] ومن ثم فالعالم الغائب أكبر من كل السماوات والأرض بكثير جداً ، ربما لا نعرف هذا الفرق بعقولنا ، أما دليل ذلك ما جاء من حديث عن ألوان النعيم فى الـ..رة كقوله تعالى : " **وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ** " [3] وقوله تعالى : " **سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** ". [4]

فإذا كان عرض الجنة الواحدة كعرض السماوات والأرض التى نعلم عنها ما نعلم فماذا يكون الحال إذا حاولت العقول معرفة طول الجنة ، وماذا يكون موقف العقل القاصر إذا علم أن الله تعالى تفضل على أهل الخوف منه بأن يكون لكل واحد منهم جنتان قال تعالى : " **وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ** " [5] .

---

(١) وهذه الكثرة فى الجزئيات والأنواع معاً ، وهو مما تدل عليه الظواهر النقلية .

(٢) الشيخ الفشنى ــ شرح الفشنى على الأربعين ص ١٣٥ .

(٣)سورة آل عمران آية ١٣٣ .

(٤)سورة الحديد آية ٢١ .

(٥)سورة الرحمن آية ٤٦ .

لاشك أن العالم الغائب أكبر وأكثر وأوسع من العالم الحسى الذى نعرف بعضه ، ومن ثم فإن ضغط الوضعية المنطقية وأصحاب فلسفة التحليل ومن يجرى مجراهم على عقول الناس حتى تعتقد فى صدق ما يقولون ، مع مصادمته لأصول العقيدة الإيمانية يعتبر جريمة كبيرة وهو فى ذات الوقت من الأعمال العدوانية ، التى تمارسها العقول الرعناء ، والصدور المريضة ، فى مواجهة دين الله رب العالمين .

إنهم يعشقون الماديات ، ويتغنون بالملذات ، وينصرفون إلى كامل الشهوات البهيمية الصارفة عن اللذات الملكية الباقية فى دار البقاء ، وقديماً قيل :

حيران فى سجن الحوادث موثق ··· خدن[1] الصبابة فى الحضيض الأوهد[2]

نسى المعارف واللطائف فانبرى ··· يبغى الحياة من الموات[3] الجلمد[4]

وفى تقديري أن حصر الوضعية المنطقية المعرفه فيما يذعن للتجربة والخبرات الذاتية فقط إنما يمثل عدواناً على الأصول الصحيحة ، بجانب محاولة إنتهاك حرمات قضايا الغيب ، لأن التجربة الحسية إنما هى فرع من فروع عديدة متولده عن التجربة بمفهومها العام ،على أساس أن التجربة فى حقيقتها اللغوية اختبار الشئ الواحد مرة بعد أخرى[5] .

---

(١)الخدن هو الصديق الذى لا ينفك عن صاحبه والصبابة هي الشوق الشديد الذى تبدو فيه الحرارة مع الرقة من جانب العاشق ـ راجع قطر المحيط ص ٣٢٥، ٣٢٧ .

(٢) الحضيض الأوهد هو المكان المنخفض جداً فى الأرض ، ويستخدم للدلالة على سقوط الموصوف به من أعين الناس على الناحية المعنوية راجع محيط المحيط ، وأساس البلاغة ، وقطر المحيط المعجم الوجيز ص ١٥٨ ، ٦٨٣

(٣) الجلمد هو الشديد من الصخر والشديد من الرجال والصوت وهو القطيع الضخم من الماشية ، والموات الجلمد هو الذى يأتى على اية ناحية مما سبق أساس البلاغة باب الجيم ص ١١٥ وقطر المحيط حرف الجيم ص ١٢٧ والمعجم الوجيز باب الجيم ص ١١٣ .

(٤) الشيخ عبد الرحمن بن محمد الأنصارى المعروف بابن الدباغ ـ كتاب مشارق أنوار القلوب ومفاتيح أسرار الغيوب ص ٥ تحقيق هـ . ريتر ط دار صادر .

(٥) ولذا يقال على الرجل صاحب الخبرة أنه رجل مجرب عرف الأمور وجربها .

وهذا الاختبار يقع فى المعقولات كما يقع فى المحسوسات ، بل أنـــه فـــى المعقولات أكثر اتساعاً ونشاطاً وقوة ، ثم إن التجربة فى المنـــاهج التجريبيـــة والبحثية نوع من التدخل فى مجرى الظواهر الطبيعية للكشف عن فرض مـــن الفروض ، أو للتحقق من صحة فرض ما ، ثم ان التجربة الحسية تمثل نوعـــاً من المراقبة لما تم فعله حتى ينظر إلى نتائجه هل فيها نقص يمكن علاجـه [1]أم أن التجربة حاكمة بضرورة إعادة النظر فى الشئ كاملاً ، وهو ما يعرف باسـم إعادة التجربة على وجه كلى .

بناء عليه فإن التجربة الحسية وحدها لا تمثل كل التجربة ، إنما تمثل نوعاً من أنواعها واعتماده كممثل لها كلها إنما هو إتجاه غير صواب ، أمـــا لمـــاذا؟ فلأن النفس الإنسانية تتلمس طريقها إلى التجربة ، وهو ما يعرف باسم الخبرات الذاتية ، لكن ما هو دور العواطف والمشاعر بالنسبة للتجربة التى يتمسك بـــها أصحاب الوضعية المنطقية ، هل لها مكان فى معارفهم وهى لا تقبل التجربـــة الحسية ، أم لا مكان لها وكل الناس يشعرون بوجودها فيـــهم ووقوعـــهم بيـــن جنباتها . يقول الفيلسوف المسلم باجه الأندلسي ٥٣٣هـ يشارك الإنسان الحيوان غير الناطق فى كل هذه من الحياة والجسمية ، الهبوط من أسفل والصعود إلـــى أعلى طوعاً أو قسرا ، وما جانس ذلك وكذلك يشارك الحيوان الحى فى هذه إذ هما من اسطقس واحد ، ويشاركه أيضاً بالنفس الغاذية والمولدة والناميـــة فـــى أفعالها ، وكذلك يشارك الإنسان الحيوان غير الناطق فى كل هذه ويشاركه أيضاً فى الحس والتخيل والذكر ، والأفعال التى توجد له عن هـــذه ، وهـــى النفـــس البهيمية ويمتاز عن جميع هذه الأصناف بالقوة الفكرية ، ومالا يكون إلا بـــها فلذلك يوجه له التذكر ولا يوجه لغيره .(٢)

(١) الدكتور / السيد محمد بدوى ـــ المنهج العلمى ص ١٩٧ ط أولى عام ١٩٥٧م

(٢) ابن باجه الأندلسى ـــ كتاب تدبير المتوحد ص ٤٨ تحقيق وتقديم د/ معن زيادة ط دار الفكر بيروت .

وماذا يقولون عن العوارض التى ترد على الخواطر حيناً ثم تزول لتحـــل مثلها محلها ، رغم اختلاف ناحية كل منها كالحب والبغض ، والفرح والحزن ، وهى كلها داخلة فى نطاق التجارب التى لا تحس ولكنها قائمة فى نطـــاق مـــا يخص الإنسان وحده على ناحية الفكر ويعرف باسم القوة الفكرية ، التى تخـص الإنسان وحده من باقى الكائنات ، ويوجد له بها التذكر الذى لا يوجد لغيره[١]هل تدخل فى نطاق التجربة الحسية ، وهى ليست من موضوعاتها ، أم تسقط مـــن حساباتهم ولا يتمايز الإنسان عن الحيوان إلا بها ، فيصير الإنســان والحيــوان أمامهم شئ واحد [٢]. وهذا أمر غير ممكن لأن الله تعالى أخبر بأنه كرم بنى آدم وميزهم على غيرهم قال تعــالى :" **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً** "[٣].

فالله تعالى أخبر بأنه شرفَ آدم وذريته على جميع المخلوقات بـــالعقل والعلــم والنطق ، وتسخير جميع ما فى الكون لهم بجانب حملهم على ظـــهور الــدواب والسفن ووسائل النقل الأخرى التى تسير فى البر والبحر والجو ، كما رزقـــهم الله تعالى من لذيذ المطاعم والمشارب ، وفضلهم على جميع الخلائق من ســائر الأصناف يستوى فى ذلك الحيوان والجان والبهائم والدواب والوحــش والطــير وغير ذلك مما جعله الله تعالى للإنسان وحده.[٤]

---

(١) هذا الحكم فيما نعرفه بالنسبة للعالم المشاهد ، أما العالم الغائب فإن أحكامنا هذه لا تجرى فيه وإنما نقر من به على ما جاء به الذكر الحكيم ثم نفوض الأمر فى الحقيقة إلى الله تعالى .

(٢) وهذنا فيه مغالطة ظاهرة ، وجدل واضح ، وخروج عن المألوف جريانه مع العقلاء .

(٣) سورة الأسراء الآية ٧٠ .

(٤) الشيخ محمد عبد العظيم البنهاوى ــ تفسير سورة الإسراء ص ٣١٥ الطبعة الأولى ، وراجع للدكتـــور محمد أبو النور الحديدى الضياء فى تفسير سورة الإسراء ــ مطبعة الأمانة .

كما أننا فى حياتنا العامة والخاصة نواجه بمشكلات تعرض ثم تزول ، سواء أكانت هذه المشكلات مما يتعلق بالماديات ، أم ما يتعلق بالمعنويات أم الروحانيات ، وكل هذه العوارض تزول بمجرد أنهاء وقتها وليس بإمكان أحد استرجاعها حتى يجرب عليها بحيث يستبقى منها ما يروق له ، ويترك ما يضايقه أو لا تستريح نفسه إليه ، وسواء أتركت أثراً إيجابياً أم أثراً سلبياً كالسقوط من مكان عال اضطراراً ، وإتيان النائم الأحلام المزعجة ، والكوابيس المتوالية التى تفض مضجعه ، وتجافى النوم عن جنبيه .

فهل يتمكن الوضعيون من إدخالها التجربة الحسية ، والخبرات الذاتية، وهى أمر واقع لا يمكن إنكاره ، أم يجادلون فى البدهيات ، وينكرون الضروريات بغية نجاحهم فى ترسيم خطوط تكون مقبولة لأفكارهم الهزيلة ، أم يتخلون عن هذه وتلك ويلوذون إلى المفردات اللغوية فيكون حالهم أقرب شبهاً بمن لا يدركون نتائج ما يفعلون ؟

ربما يقال ان الوضعية المنطقية أعلنت ضرورة أن تكون الفلسفة تحليلاً صرفاً لقضايا العلم بصفة خاصة [١] فما يدخل من العلم فى هذا النطاق هو الموضوع المعدل عليه عندهم ، ومن ثم فلا يرد عليهم هذا الإنكار ولا تأتى على أفكارهم هذه اللوازم ، ضرورة التفرقة بين ما يقصدونه وهو الجانب العملى من العلم وليس مطلق العلم .

والجواب أن التحليل المراد عندهم لو كان خاصاً بالعلم التجريبى مع عدم إنكار غيره من الجوانب المعرفية الأخرى أو الإعتقادية ، لما كان هناك مجال لنقدهم فى هذه الناحية لكنهم أعلنوا أن التحليل الذى يقصدونه هو تحليل العبارات والألفاظ التى نستخدمها فى لغتنا ، ونصوغ فيها المشكلات الفلسفية

---

(١) الدكتور / زكى نجيب محمود – نحو فلسفة علمية ص ١٦ .

وقضايا العلوم [١]، ومن ثم فقد جاء إعلانهم صريحاً فى غاية التحديد للموضوع الذى يتعاملون معه ، فى اللغة والعلم بمعناه الشامل .

لقد جعلوا أنفسهم فوق رؤس العباد حكاماً ، ونصبوا معارفهم وإفهامهم فوق قمم العلوم قضاة ، وتعرضوا للعقيدة الإلهية نفس تعرضهم للمفردات اللغوية ، فتخيلوا إمكانية الحذف منها أو الإضافة إليها ، أو اتخاذ القرار بإلغائها جميعاً تحت ستار اصطنعوه بأفهامهم التى لا قدرة لها على استجلاء هذه المواقف ، كما لا إمكانية فيها بحيث تصدر أحكاماً لها من العموميات أو القبول ما زعموه لأنفسهم ، يستوى فى ذلك دعاة الوضعية المنطقية فى أوربا والشرق معاً

يقول الدكتور محمد البهى إن كتاب خرافة الميتافيزيقا [٢] فى الجانبين – النظرى والعملى – يتشبث بدعوى الأسميين والوضعيين ، ولكن بالصورة التى عرض هو بها آراءهم ، وليس بالصورة التى أفرغوها هم فى تاريخ مذهبهم [٣] فصار الكتاب يؤدى دوراً ناقصاً مشبوهاً ، كما يحمل بين جنباته أفكاراً خالية من المعنى لا علاقة لها بالحقيقة .

ثم إن التجربة الحسية فى العلوم الطبيعية ، لا يمكن الاحتكام إليها كمعيار ثابت فى العلوم العقلية ، لما هو معروف من أن كل علم من العلوم أو فن من

---

(١)الدكتور / عزمى إسلام – لدفيج فتجنشين ص ٣٦ .

(٢)صاحبه هو الدكتور زكى نجيب محمود وقد غير عنوانه أكثر من مرة بعد الأزمة التى أثارها الكتاب ،حين تصدى له كل من العالمين الأزهريين الأستاذ الدكتور سليمان سيد أحمد دنيا استاذ العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين ومدير المركز الثقافى الإسلامى بلندن فى كتابه التفكير الفلسفى الإسلامى ، والأستاذ الدكتور محمد البهى وزير الأوقاف الأسبق فى كتابه – الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالإستعمار الغربى ، وقد أبان كل منهما عورات الكتاب التى عجز صاحبه عن سترها أكثر من مرة بل أن كتابه كله عورات وأكثرها بروزاً أن الكتاب ليس له وإنما قام بترجمة ما قال به غيره ثم نسب الكتاب إلى نفسه

(٣) الدكتور / محمد البهى – الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالإستعمار الغربى ص ٢٤٥ وهو قد تصدى لبيان المآخذ التى وقع فيها أصحاب الفكر المادى حين تجاوزوا حدود التفكير المسموح بها ، وقفزوا إلى ما هو ابعد منها ، فجاءت مفرداتهم بالكفر طافحة .

الفنون له موضوعاته التى يجرى فيها ، ومسائله التى تقع عليها المعالجة ، ولــه قبل ذلك المناهج والغايات بجانب الوسائل التى تؤدى به إلـــى إنجــاح مهمتــه البحثية .

ومن ثم فإن القضايا المتعلقة بالدراسات النفسية أمراضاً وعلاجاً لا تخــرج عن كونها أطروحات يخضع بعضها لنوع من التجربة الحسية فى المعالجــــة ، ولا يخضع لها فى الفحص والمقابلة ، كما أن الوجدانيات تمثل حــالات فرديـــة تجرى فى كل واحد منهم استقلالاً ، ولا يمكن اعتبارها قاعدة عامة بحيث تكون الخبرة الذاتية ذات تأثير فيها .

لما هو معروف من أن المرء فى حالة العشق والشوق قد ينسى طبيعتــه ، ويفلت منه قيد التحفظ والكتمان ، فإذا عبر عن نفسه استراحت هذه النفس متـــى أمكنها التخلص من أثقالها[١] لكنه قد يسارع إلى التخفى من مسرح الأحداث لأنه شعر بأن ما عبر به قد تجاوز به الحد المسموح فى العلاقات واللغة التعبيريــة ، وقد يعجز عن إدراك ذلك ويستمر فى الطريق ، وحينئذ تندر بــه النـــاس ، ولا يمكن اعتبار الخبرة الذاتية قاعدة ، من ذلك ما قاله صاحب ليلى :

أمر على الديار ديار ليلى ... أقبل ذا الجدار وذا الجدارا

وما حب الديار شغفن قلبى .. ولكن حب من سكن الديارا [١]

فهل يمكن اعتبار الخبرة الذاتية فى الوجدانيات قاعدة عامة يحتكم إليــها ، مع أن ما قام به صاحب الخبرة الذاتية إنما كان تعبيراً عن شــئ أعتمــل فـــى صدره ، وتمكن من وجدانه هو[٣] ، كما أن عمليات الشك التى قد تصل إلى حد

---

(١)الدكتور / أحمد محمد العجمى — النفس الإنسانية وأمراضها ص ٨٣ ط دار فؤاد ١٩٨٧م .

(٢)الإمام أبو حامد الغزالى — الإقتصاد فى الإعتقاد ص ١٣٧ .

(٣) وذلك مما يمثل الحالات الخاصة ولايمكن اعتباره قاعدة أو معيار ، لما هو معروف من أن ما يشعر به فرد قد لا يشعر به آخرون فضلاً عن أن تكون الدرجة واحدة راجع للدكتور سبنسر كولز اعرف نفسك ص ٣٧ .

الوسواس القهرى ، أو تسير فى إتجاه آخر فتبلغ مع صاحبها مبلغ الأمـــراض العقلية ، حتى أن صاحبها يعيش فيها وفى نفس الوقت يكون عاجزاً عن التعبـير الصحيح لما يجرى فى داخله [١]، وهل يمكن اعتبار هؤلاء أصحــاب خـبرات ذاتية بحيث يحتكم إليهم فى قضايا العلم ، أو قبول قضية علمية أو رفضها ، وما هم إلا حالات استثنائية ليس من الممكن تجاهلـــهم أو إســقاطهم مــن مســاحة الخريطة الإنسانية [٢].لأن وجودهم الطبيعي أمر ثابت .

لقد جاء الوضعيون وأعلنوا أنهم يبشرون بفكر جديد ، ولكنهم فى الحقيقــة يحكمون بأن كل ما اعتمدوا عليه إنما هو رجع صدى ، وناتج سلبى لما جــاءت به الفلسفة الحديثة ، التى أعلنت منذ البداية عن إسقاط الدين من حساب العمليــة الفكرية التى تمارسها ، ورفضت الطريقة المدرسية التى وظفت الفلسفة لخدمــة الدين [٣]، وأحلت محلها النزعة العقلية الفردية الاستقلالية ، التى تتــأبى علــى التبعية ، أياً كان لونها — ولا ترضى بغير الحرية الفكرية بديلاً.

وتلكم انطلاقة علمانية واضحة ، أقل ما يقال عنها أنها أبعدت الدين عــن منهج التفكير ، ونزعته عن أية فاعلية فى انتاج الفكر والعلم ... كما أنتجــت فكراً وضعياً خالصاً سياسياً واجتماعيا وأخلاقياً واقتصاديا وعلمياً يتولى مُهمــة توجيه الحياة والإنسان ، بل أنتجت فكراً معادياً للدين ليس فى عزله عن قيـــادة الحياة فقط ، بل فى رفض الدين وكل ما هو دينى ابتداء[٤] .

---

(١) أ . ب بانتيوم — القدرات العقلية والفروق الفردية ص ٥٢ ترجمة الدكتور عبد العزيز عطية .

(٢) الدكتور / رفعت محمد توفيق الإنسان فى المفهوم الوضعى ص ١٢١ .

(٣) هذا التوظيف لبعض النصوص وليس لها كلها ، فضلاً ع، أن المقارنة تكون لصالح المسـلمين لا لصــالح غيرهم .

(٤)الدكتور / أحمد عبده حموده الجمل — نظرات فى الفلسفة الحديثة ص ٢٧٢ دار الطباعة المحمدية بالقــاهرة — الطبعة الأولى ١٤١١هـ — ١٩٩١م .

ومما لاشك فيه أن تمسك الوضعية المنطقية بالاحتكام للتجربـــة الحســية، والخبرات الذاتية ، فى الحكم على المعارف من حيث القبول لها أو الرفض، إنما هو اتجاه عام لديهم جميعاً ، ومنهج يسيرون طبقاً لمبادئه على أساس أن الفلسفة الوضعية فى مفهومهــا العام اتجاه تجريبي خالص ، لا يعـــترف إلا بالوقــائع المحسوسة التى تخضع للتجربة الحسية ، وترفض المفاهيم الميتافيزيقية[١] بوجه عام .

لكنهم أخفقوا فى التدليل على كيفية الاحتكام للتجربة الحسية ، وهل كيفيـــة الاحتكام فى صدقها أو كذبها هى الأخرى تقبل التجربة الحسية ، من حيث هـــى كيفية فى حد ذاتها [٢]، أم تقبل الحكم عليها بالخبرة الذاتية ، أم أن كيفية الاحتكام كمفرد لغوى ومفهوم عقلى غير داخلة فى نطاق التفكير الوضعـــى ، ولايمكــن احتسابها إحدى الدلالات اللغوية ذات المعنى المحدد [٣].ومن ثم تخرج عن جملة القضايا التى يتجادل فيها الوضعيون ، وهى فى ذات الوقت أحد المبادئ التـــى وضعوها لأفكارهم الهزيلة .

والوضعيون يقعون فى تناقض واضح عندما نسألهم عـــن كيفيـــة إيصـــال المعارف بين الناس وكذلك الطريقة التى تصل بها إليهم ، لأن تلك المعارف قــد تكون خبرات ذاتية يستحيل ترجمتها إلى خبرات موضوعية ولكنـــهم حـــاولوا وضع حلول لتلك المتناقضات بصياغتهم لها كفكرة الهيكل والمضمون فإنها مبدأ ثابت عندهم من حيث هى فكرة ، ولكنهم لا يستطيعون اثبات وجودها من خلال التجربة الحسية ، وكذلك استعمالهم لألفاظ الإطار والمحتوى التى تمتـد فـــى

---

(١)الدكتور / صبرى محمد يسرى — الوضعية والدين ص ٥٧ ط أولى سنة ١٩٥٧م .

(٢) بمعنى أن كيفية الاحتكام مسألة عقلية ومفهوم زهنى لا تقبل الاحتكام فيها إلى التجربة الطبيعيـــة ولا إلى الخبرات الذاتية ، ومن ثم فلا مجال فيها للتحليل اللغوى فما هو الحاكم اذن على قبولها أو رفضها .

(٢) الدكتور صبرى محمد يسرى — الوضعية والدين ص ٨١ .

مفرداتهم حتى صارت قاسماً بين كل ما يقولون وليس من السهل الاحتكام في صدقها أو كذبها إلى الخبرات الذاتية أو التجربة العملية ولا التحليل المنطقى مع أنها موجودة وهم يمارسونها على الدوام ، إذن هم مع ذلك كله فشلوا فى تقديم حلول مقبولة لذلك التناقض [١] ولا يشفع لها فى تخفيف هذا العجز ما يلقونه حولها من عبارات مزيفة ، وأنها كانت واحدة من أهم تيارات الفلسفة الجديدة [٢] أو أنها كانت تياراً جديداً وثورياً فى المنهج أى فى أسلوب البحث ، وأكثر حدة وثورية فى المذهب أى فى مضمون البحث [٣] لأن هذه العبارات ذاتها خالية من المعنى ، بدليل أننا لو عرضناها على الواقع التجريبي لظهر أن الوضعية المنطقية لا تمثل سوى إنفلاتات غير مسئولة ضد الدين بصفة خاصة ، والعلم بصفة عامة ، وهى المسئولة عن ذلك التفسخ الأخلاقي الذى أصاب المجتمع الإنساني فيما بعد.[٤]

ربما يتساءل المرء قائلاً أن الوضعية المنطقية اعتبرت الخبرة الذاتية أحد القواعد التى يحتكم إليها ، بحيث تجئ على التوازى مع التجربة الحسية ، أفلا يؤدى ذلك إلى النسبية فى الأحكام الصادرة عنها ، ومن ثم تسقط من دائرة الحسبان الأحكام اليقينية التى لابد منها لبقاء أية معرفة .

---

(١) عاطف أحمد — نقد العقل الوضعى ص ٧٤ تقديم إبراهيم فتحى ط دار الطليعة بيروت لبنان — الطبعة الأولى ١٩٨٠ م.

(٢) بوشنسكى — الفلسفة المعاصرة فى أوربا ص ٣٦ ترجمة الدكتور عزت قرنى سلسلة عالم المعرفة العدد ١٦٥ لسنة ١٩٩٢م .

(٣) الدكتورة / يمنى طريف الخولى — ما هى الوضعية المنطقية من مقال ضمن الكتاب التذكارى لجامعة الكويت ١٩٨٧م .

(٤) لأنه متى قلل الإنسان من الدين ، وانفلت من أحكامه فإنه يتحول إلى جملة من الغرائز والشهوات الفاجرة التى تعبر عن نفسها من غير مراعاة لوجود شئ آخر ، راجع كتابنا أوراق متناثرة فى التيارات المعاصرة ، وكذلك كتابنا من وحى البيان فى جماعة الشيطان .

والجواب أن هذا التساؤل صحيح ، وقد عبر عنه راعيهم فى مصر ، بقوله لقد اتخذت لنفسى فى اتجاهات الفلسفة المعاصرة اتجاهاً هو فى حقيقتـــه منـــهج للتفكير، لا مذهب يورط نفسه فى مضمون فكرى بذاته ، فكنت كمن وضع فـــى يده ميزاناً يزن به ما يشاء ، دون أن يملأ يديه بمادة معينة ، لابد أن تكون هـــى وحدها موضع الوزن والتقدير[1] ومن ثم فقد تحول الأمر معه إلى ما كان عليـــه السوفسطائيون قديماً ، من إنكار وجود حقائق ثابتة طبقـــاً لقواعدهـــم الثلاثـــة المشهورة :

- لا توجد حقائق ثابتة .
- إذا وجدت لا يمكن معرفتها .
- إذا عرفت لا يمكن تبليغها .

وهذا الاتجاه الفوضى يفضى حتما إلى إنكار الحقائق اليقينية كلها وإبعادهـــا عن مجال الأحتكام إليها[2] فيتحول المجتمع المعرفى كله[3] أنواع متباينـــة مـــن المعارف التى تتضارب فيما بينها ، ومن المؤكد وقوع الصراع الفكـــرى إلـــى الحاد بينها جميعاً ، حيث يتمسك كل فريق بما بين يديه ، ويزعم أنـــه الحقيقـــة التى بلغها .

بينما يمارس الثانى نفس الادعاء ويسير فى ذات الاتجاه وهو ما يؤدى إلى عدم اجتماع الناس على مفهوم بعينه ، فيقع الاختلال الفكـــرى ، والاضطـــراب العلمى ، والانحلال الأخلاقي ، وهى كلها مدمرات للمجتمعات الإنسانية التـــى

---

(١)الدكتور / زكى نجيب محمود — مجتمع جديد أو الكارثة ص ٢٤٦ ط دار الشروق الرابعة ١٩٨٧م .

(٢) لأنه مادام قد رفضها وجوداً فمن باب الأولى يقع له رفضها احتكاماً .

(٣) أقصد به المعرفة الحسية والعقلية والنقلية والإلهامية أو الحدسية فهذه الأنواع تمثل من وجهة نظرى مجتمعاً متكاملاً فى المجال المعرفى .

يزعم دعاة الوضعية المنطقية أنهم يقومون فيها بدور تنويري ، وأنهم إنما يوظفون الوضعية لصالح الفكر التنويري [١] .

ولست أدري إذا نظرت الوضعية المنطقية إلى الحب والكره والغضب والرضا ، فاعتبرتها وأمثالها من اللامعقول فهل قامت بدور تنويري ، أم دور تدميري ، يقول زكي نجيب محمود اللاعقل حالة تسري في كيان صاحبها فيصبح بها محباً أو كارهاً ، غاضباً أو راضياً إلى آخر هذه الحالات النفسية وذلك هو ما يتألف منه مجال اللامعقول من حياة الإنسان[٢] .

لقد فزع الوضعيون من الإعتراف بوجود قوى داخل الإنسان لا يمكن القيام عليها في الحكم بما تمليه الخبرة الحسية لأن اعترافهم بوجود هذه القوى كفيل بالقضاء على المذهب الوضعية كله ، كما أنه يكشف سوءاتهم ويعري كل ما يسترون ، ومن ثم أنكروه وتباعدوا عنه .

أجل لقد حصرت الوضعية المنطقية نفسها في قوالب جامدة مغلقة وهي في ذات الوقت هشة ومن شدة هشاشتها لا تحتمل الطرق عليها وإلا إنهارت، يقول الدكتور سليمان دنيا : أن الوضعية المنطقية قد دخلت حجرة النوافذ ، ثم حبست نفسها فيها وأبت أن تخرج منها ، أو تعترف بشئ لا يكون داخل هذه

---

(١)الدكتور / إمام عبد الفتاح إمام ــ زكي نجيب محمود كما عرفته ص ٥٩ الكتاب التذكاري لجامعة الكويت ــ زكي نجيب محمود فيلسوفاً وأديباً ومعلماً ، وراجع لي أيضاً الفلسفة الثنائية عند زكي نجيب محمود ص ٩٨ وما بعدها حيث يقول : ان الوضعية المنطقية عند زكي نجيب محمود تمثل مرحلة توقف عندها قليلاً حيث تأملها طويلاً ثم درسها بعمق كي يستفيد منها في هدف أعلى هو المهمة التنويرية التي يقوم بها . ط عالم الفكر المجلد العشرون العدد الرابع ١٩٩٠م .

(٢)الدكتور زكي نجيب محمود ــ المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري ص ٣٦٦ ط دار الشروق ط ٤ ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م وراجع للباحثة نادرة حسن عبد الجواد موقف زكي نجيب محمود من الميتافيزيقا والدين ص ١٣٧ / ١٤٥ رسالة ماجستير بكلية البنات بالقاهرة عام ١٤١٥هـ ١٩٩٥م .

الغرفة [1]. كما أن الوضعيين أدخلوا أنفسهم حجرة مظلمة مغلقة النوافذ ثم حبسوا أنفسهم داخلها ، وأبوا أن يخرجوا منها ، أو يعترفوا بوجود شئ خارجها، لا يحسونه مع أنهم قبل دخولهم إلى ذات الغرفة كانوا يرون أشياء كثيرة ، ويسمعون عن معارف متنوعة ، فلما دخلوا الغرفة المظلمة بإرادتهم ، أنكروا ما هو خارج الغرفة استكبارا عن قول الحق ، ورغبة فى الوقوف على شفا جوف هار ، اعتقاداً بأن المخالفة مهما كانت غير صحيحة ، فإنها أولى من المتابعة حتى لو قامت على أصول كلها بدهية [2] .

والغريب أنهم فى كل هذه المواقف المتناقضة يزعمون سعيهم نحو الحقيقة العلمية ، بل ولا مانع لديهم من الميل نحو الميتافيزيقا التأملية التى ينكرونها للاستعانة بها فى موقف بعينه ، ثم بعد ذلك يمارسون الانقضاض عليها متى انقضت هذه الحاجة فى الاستعانة .

يقول الدكتور زكى نجيب محمود : أراد لى توفيق الله منذ بدأت حياتي العقلية المنتجة أن أقع على طريق من طرق التفكير الفلسفي رأيته كأنما خلقت له [3] وخلق لى ، ثم رأيته وكأنه أنسب ما أقدمه فى عالم الفكر لأمتى ، لأنه إذا كان الغموض والخلط بين المعانى أحد الأمراض العقلية التى أصابت أمتى [4] .

فتلك الطريقة من طرق التفكير هى من أنجح رسائل العلاج [5]وقد خانه أن العلاج يأتى بعد تشخيص العلة ،حتى يكون مناسباً وناجحاً ، أما إذا كان قبل

---

(١) الدكتور / سليمان دنيا — التفكير الفلسفة الإسلامى ص ٣٣ مطبعة الخانجى بمصر الطبعة الأولى ١٩٦٧

(٢) وهذا ما يفضى إلى القول بأن كل ما ذهب إليه الوضعيون لا يخرج عن كونه همزات شياطين .

(٣)لاشك أن هذا التعبير المتعالي يكشف عن تسليم صاحبه بالميتافيزيقا التأملية ، بجانب الاعتراف بـالآخر وان كان لم يخلق ، لنفس الطريق لكن الوضعية المنطقية تعترف بالشئ ، ثم تنكره للاتجاهات السوفسطائية القديمة .

(٤)ما أظن هذا الأفهام إلا منصباً على العلمانية والوضعية وغيرها من القرى التى تنبت الإلحاد ودعت إلى ممارسته تحت اسماء تنويرية وما هى إلا تخريبية .

(٥)الدكتور / زكى نجيب محمود — قيم من التراث ص ١١٧ ط دار الشروق الطبعة الثانية ١٩٨٩م .

التشخيص ، فإنه يكون قائماً على التخمين والتعبئة اللاشعورية ، إن أفاد فبالمصادفة ، وإن لم يفد فهو الأمر الطبيعي المنتظر منه .

لقد هدفت الوضعية إلى تخريب القيم ، وتدمير المعارف الصحيحة فى أوربا ، نظراً للشك القائم هناك فى كل المسلمات بل والبدهيات والمؤسف له أن من تابعهم فى الإتجاه من أبناء الشرق لم ينظر إلى الفروق بين الإسلام والأديان الأخرى .

بيد أنى إذا انتقلت مع الوضعية المنطقية فى ميدان التجربة الحسية والخبرة الذاتية إلى ميدان الجمل والمفردات اللغوية وطريقة استخدامها ، فلاشك أنها ستكشف نفسها من جديد وتعرى كل ما سترت،أو ظننته مستوراً ، ذلك أنها تعتمد على ما تدلى به التجربة الحسية ، كما تعتمد على الخبرة الذاتية [١].

وهنا يقع التساؤل ما هى التجربة الحسية ، ما المراد بهذا المركب التوصيفى ، أليس هذان اللفظان من الألفاظ المفردة التى تبحثها الفلسفة كما يبحثها المنطق وعلم اللغة ، فهل يمكن اعتبار كل فرد لغوى منهما، قد استخدم فى غير موضعه ، أو تم التعامل معه فى غير موضعه طبقاً لمنطق الوضعية المنطقية [٢] .

وكذلك الحال مع المركب التوصيفى ــ الخبرة الذاتية ــ ان أبسط الناس علماً يحكم بأن هذه المركبات لا يمكن تحليلها إلى أجزاء بسيطة ، وإلا أنحل كل من اللفظين عن الآخر، وحدث تباعد بين الألفاظ والمعانى ، لأنك لو قلت : التجربة ــ الحسية ــ الخبرة ــ الذاتية ، وفارقت بين هذه الألفاظ فان المعنى الذى أمكن التعرف عليه منها كمركبات توصيفية ، لم يعد له وجود عند تحليلها إلى عناصرها الأولية ، وأجزائها التى تتكون منها .

---

(١) وذلك مما لا مجال للطعن عليه أو مراجعته ، لأنه من الثوابت الى تقوم عليها الوضعية المنطقية .

(٢)الدكتور / السيد محمد شعبان ــ الفلسفة الحديثة والمعاصرة ص ١٥٣ ط القاهرة ١٩٧١م .

من ثم فان استعمال فلسفة التحليل اللغوى هى الأخرى تعلن فساد الفكر الوضعى ، كما تعلن فشله فى الوقوف على قواعد صحيحة ، أو الوصول إلى نتائج مقبولة لأن الألفاظ المركبة على الناحية التوصيفية لها دلالة غير التى تجئ مع الألفاظ المركبة على ناحية التركيب المزجى أو الإضافي فلابد من انحلال كل نوع منها إلى طبيعته الأصلية لا إلى الاتجاهات التى تقوم عليها الوضعية المنطقية .

فى نفس الوقت فإن علم اللغة شاهد على أن هذه المركبات تؤدى معان لم تؤدها المفردات [١]، فإذا كان احتجاج الوضعية على إنكار الميتافيزيقا قائم على علم اللغة القابل للتحليل المنطقى ، فإن عباراتهم هى الأخرى كانت أكثر إعلانا عن هذا الإنكار ، حيث يقرر الوضعيون أن الفلسفة التأملية لايمكن أن تعطينا أية معلومات عن العالم الحاضر والغائب وعما يسيره من قوانين فى جانب الشهادة على الأقل ، ولا سبيل أمامها لدراسة شئ من هذا القبيل ، إلا بأن تقصر نفسها على دراسة علم اللغة وتحليله تحليلاً منطقياً [٢].

أضف إلى ما سبق أن الوضعيين يفرقون بين العبارات الوصفية الدالة على مركب توصفى ينطبق على فرد واحد له وجود مشاهد ، والعبارات الوصفية الدالة على مركب وصفى ينطبق على فرد فى مجموعة متشابهة الأفراد ويقررون أن الرموز الوصفية لاتقتضى بالضرورة وجود مسماها وجوداً فعلياً ، ولايكفى أن يكون الرمز اللغوى موجودا لنحكم بأن له مسمى فى الواقع ، ولابد من حكمنا بوجوده الفعلى طبقاً لما نشاهده مع الفرد الموصوف فى الحالة الأولى، أو أحد أفراد المجموعة الموصوفة فى الحالة الثانية ، لأن الفيصل بين

---

(١)الدكتور / على عبد العظيم زكى ـــ نظرات فى الفكر الوضعى ص ٣٤ ط منشأة الإسكندرية ١٩٦٧ م

(٢)الدكتور /أحمد السيد على رمضان ـــ المدخل إلى دراسة الفلسفة المعاصرة ص ٧٦ . .

الكائن الوهمى والكائن الفعلى هو شهادة الحواس وحدها [١].

ولكن هذه التفرقة هل مصدرها التجربة الحسية ، أم الخبرة الذاتية ؟ لاشك أن الألفاظ والجمل اللغوية مسميات ذات دلالات بعينها ، وهذه الدلالات قائمة بين ثنايا الألفاظ والجمل ، لكن إذا انتقلنا إلى الذى يربط بينها [٢]بحيث إذا قلنا الجامع الأزهرمثلاً فهم أنه المبنى الإسلامي المعروف [٣] ، فهل الرابط الذى يربط بينها جميعاً هو الآخر حسى ، يمكن أن يضبط بشهادة الحواس وحدها ،مع أنه ليس حسياً أم يمكن ضبطه بشئ آخر خارج نطاق الحس أيضاً .

ويغلب على تقديرى أن الوضعية المنطقية لم يضع أصحابها لأنفسهم خطة بحث يسيرون عليها أول الأمر ، فلما دخلوا الميدان وجدوا أنفسهم فى مواجهة مع الأمور القائمة فى قواعد ثابتة وهم يريدون هدمها ، وحقائق دينية وهم يرغبون فى الإطاحة بها [٤] ولم يضعوا فى حساباتهم حجم الغضب الذى سيواجهون به .

من ثم جاءت اتجاهاتهم متضاربة ، ونتائج أفكارهم غير قابلة للتطبيق العملى مع إعلانهم المتواصل أنهم أصحاب الفلسفة العلمية التحليلية ، فكانت العناوين التى ينادون بها غير النتائج التى تعقب ما هو صرحوا به .

---

(١)الدكتور زكى نجيب محمود ــ نحو فلسفة علمية ص ١٠٠ .

(٢) الرابطة قد تكون شيئاً منطوقاً به ، وقد تكون بمعنى من المعانى أو ضميراً يقع فى دائرة الأستتار.

(٣)فمثلاً إذا قلنا الجامع وهو لفظ مفرد ، وقلنا بعد ذلك الأزهر ، فإنه هو الآخر لفظ مفرد وكل منهما له دلالة خاصة والسؤال هنا عن المفهوم الذى ربط بين لفظ الجامع ولفظ الأزهر فى المركب التوصيفى هل يمكن اعتباره حسياً وما أظن عاقلاً يقول به مع أنه لا يدل سوى على فرد واحد ولذلك عرفه المناطقة بأنه لفظ مفرد

(٤)لاشك أن الثورة على محاكم التفتيش فى أوربا قد يكون لها ما يبررها عندهم ، لكن ذلك لا يعنى الانفلات فتقع نيران هذه الثورات على الدين الكنسي الذى يتمسك به آباء اللاهوت وهم القائمون بمحاكم التفتيش ، والدين الاهى الذى به النبى الخاتم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فإذا كانت الثورة فى أوربا على الدين الكنسي فإنه لا يصح لمقلد يهم فى الشرق التعرض للدين الاهى وهو الإسلام لوجود الفارق بين هذه وتلك .

ومن المظاهر على ذلك أن العقل الإنسانى ما سمى عقلاً إلا لأنـــه يعقـل صاحبه عن الوقوع فى المهالك[١]، ومع هذا يقف زكى نجيب محمود ليقـول أن العقل هو الحركة التى انتقل بها من مشاهد إلى مشهود ، ومن دليل إلى مدلـول عليه ، ومن مقدمة إلى نتيجة تترتب عليها ، ومن وسيلة إلى غاية يؤدى إليـها تلك الوسيلة [٢].

فإذا كان العقل عنده مجرد حركة انتقال من مقدمات لنتائج بغية الوقوف به عند الاستنباط والاستقراء فقط ، ألا يدل ذلك على أنهم قد أخفقـوا فـى إثبـات صحة دعواهم ؟ وعجزوا كذلك عن دفع الخصوم الذى تبنوا مواقـف أخـرى متناقضة معها ، لا شك أن ذات المبدأ يعلن وضوح فقدان القدرة علـى تقديـم تنازلات جديدة لحساب الميتافيزيقا التأملية أو الفلسفة العملية ، ومن ثم تصبـح هذه الأفكار غير معقولة ، كما أن محاولتهم ممارسة هذا النوع من التفكير ، إنما تذكر القارئ بالتفكير المادى الذى مر بمراحل عديدة بدأ من الأغريق ومـروراً بالهنود والصينيين كما عرفه بعض المصريين فى الزمان القديم ، وكانت جذوره تمتد إلى أزمان بعيدة ثم تصاب بالكثير مـن المعالجـة ، ومحاولـة تصحيـح الأوضاع [٣]والوضعية إحدى صور هذا الفكر المادى لكن فى العصر الحديث.

المبدأ الرابع : ضرورة الفصل بين حقائق العقل وحقائق الواقع :

زعم الوضعيون أن التجربة الحسية والخبرة الذاتية تسـتلزمان ضـرورة الفصل بين القضايا التى يكون مصدرها حقائق العقل ، والأخرى التي يكـون مصدرها حقائق الواقع ، كما يزعمون أن العمق الفلسفي التحليلـي للعبـارات والألفاظ تحليلاً منطقياً بنائياً ينتهى هو الآخر إلى إشادة بناء فلسفى سليم ، يبلـغ

---

(١)العلامة ابن منظور — لسان العرب ج ٤ ص ٣٠٤٦ ط دار المعارف .

(٢)الدكتور / زكى نجيب محمود — تجديد الفكر العربى ص ٣٠٩ ط دار الشروق الثامنة ١٤٠٨/١٩٨٧م.

(٣) الدكتور / عبد المعطى محمد بيومى — جذور الفكر المادى ص ٢٣ .

فى وقته مبلغ العلوم الرياضية ، والمنطق الذى عماد صدق قضاياه قائم علـــى ضبط المقدمات مع النتائج،من خلال عملية استنباط صحيحة واستقراء كامل[١].

من ثم فقد نبهوا إلى أن القضايا التى تمثل حقائق الواقع هى التى تقوم على التحليل الذى عماده التجربة الحسية والخبرة المباشرة ، مادام ذلك الحديث عـــن ظاهرة من ظواهر الواقع التى تمثل العالم الخارجى ، كما نبهوا إلى أن حقـــائق العقل بدهية ،متى تعلقت بالعلوم الرياضية التى لا تسمح بظهور التناقض بيـــن قضاياها على أساس أن حقائق العقل ربما تكون واضحة ذاتياً ، وربمـــا يكـــون وضوحها لاستخلاصها من حقائق سبق الوقوف عليها [٢] إذن هم يرون ضرورة الفصل الدقيق بين حقائق كل منهما وأعرض له على النحو التالي :

١ — من ناحية التسمية :

لما كان من الممكن التعرف علي حقائق العقل ، والتحقق مـــن صدقـــها أو كذبها من خلال مراجعة الكلام نفسه ، وملاحظة ما إذا كان عجز العبارة تكرارا لصدرها أم لها ، فإن كان العجز فيها هو التكرار لصدرها كانت القضية صادقة وإن لم يكن تكراراً كانت كاذبة [٣] سميت حقائق العقل القضايـــا التكراريـــة أو القضايا التحليلية [٤]، وهى يقينية فى صدقها إن كان عجزها تكرارا لصدرهـــا ،

---

(١)لمزيد من التفصيل راجع للدكتور / فوزى محمد نصر — الوضعية من منظور وضعى ص ٧٣ ط دار الاتحاد بالعراق وللدكتور يحيى هويدى — مقدمة فى الفلسفة العامة ص ٢٠٠ وما بعدها ، وللدكتور / فؤاد زكريا — نظرية المعرفة والموقف الطبيعى للإنسان ص ٣٧ وما بعدها ط مكتبة مصر .

(٢) الدكتور / زكى نجيب محمود — نافذة على فلسفة العصر ص ١٣٥ الكتاب السابع والعشرون — كتاب العربى ابريل ١٩٩٠م ، والدكتور / محمود عثمان — الفكر المادى الحديث وموقف الإسلام منه ص ٤١١ والدكتور / فوزى محمد نصر — الوضعية من منظور وضعى ص ٨٥ .

(٣)الدكتور / محمود عبد الحكيم عثمان — الفكر المادى الحديث وموقف الإسلام منه ص ٤١٠ .

(٤)والتكرار هناك مراد عند الوضعية المنطقية فى اللغة كما هو مراد فى القضايا الرياضية ومن ثم فيمكن اعتبار كل من الرياضة والمنطق من قبيل حقائق العقل .

ويقينية فى كذبها إن لم يكن عجزها تكراراً لصدرها ، إذن العبرة فـــى الحكـــم عليها هو صدق التكرار أو عدم صدقه .

أما حقائق الواقع فلما كان العلم بها مجرد أخبار بأمر ما قد يضيف جديـداً لما هو قائم فى التجربة الحسية أو الخبرة الذاتية مستقر فى الفطرة الإنسانية فان هذا يدعم الوقائع ، ويغطى القضايا التى تجئ على تلك الناحية ،ومن ثم تخــف حدة البحث عن البدهيات القائمة في الخبرة الذاتية .

ولمّا كانت هذه القضايا تتركب من جزئياتها التى تمــت ملاحظتــها فـــى الواقع فإنها تسمى القضايا التركيبية ، كما تسمى أيضاً القضايـــا الإخباريـــة [١] لأنها تقع فى دائرة التركيب لجزئياتها كما تقع فى منطقـــة الإخبار بها ،لكن هذه القضايا التركيبية فى كل حالاتها احتمالية وليست يقينية ، وبالتالى فالتسمية فـــى كل منهما راجعة إلى الموضوع والغاية ، وليست لذات التسمية ، وهذا الفـــرق بقدر ما هو جوهرى فى ظاهره ، إلا أنه لا يمثل حقيقة ذاتية علـــى أســـاس أن الوضعية المنطقية تعتقد أن حقائق العقل يمكن أن تقوم على التجارب الحســـية والخبرات الذاتية فقط دون اعتبار لشئ آخر .

٢ ـــ من ناحية التعريف :

تعرف حقائق العقل بأنها القضايا الضرورية البدهية التى لا تقبل التناقض ، سواء أكان ذلك راجعاً إلى حقائق العقل الأولية ، أم إلى حقـــائق ســـبق الحكـــم بصحتها من خلال التجربة الحسية [٢]ككون الكل أكبر من أى جزء من أجزائـــه

---

(١) الدكتور / فؤاد عبد العظيم ياقوت ـــ الفلسفة الحديثة والإتجـــاه العقلـــى ص ٦٣ والدكتـــور محمـــود عبدالحكيم عتمان الفكر المادى الحديث وموقف الإسلام منه ص ٤١٠ ، والدكتورة هانى محمد مصطفـــى ـــ الفلسفة المادية ص ١٤١ ط الأولى ١٩٥٥ بالمغرب .

(٢)والملاحظ أن هذا التعريف قائم على الإلتفاف إذ كيف تسمى حقائق عقلية مع أن العقل فى نظرهم ما هـــو إلا حركات ترددية لقوى وانفعالات حسية الدكتور / حسن محمود الضبع ـــ الوضعية اتجاهات ومذاهـــب ص ١٤٥ .

مثلاً فوضوح هذه القضية قائم بذاته ، أو كان وضوح القضية لاستنادها إلى حقائق أكثر وضوحاً ، ككون مجموع زوايا المثلث يساوى قائمتين ، لأنها قائمة على أخرى قائلة لا يمكن رسم أكثر من زاوية قائمة فى مثلث واحد[١] وهى أكثر وضوحاً من الثانية التى تقوم عليها .

أما حقائق الواقع فتعرف بأنها القضايا التى تثبت الملاحظة للجزئيات أنها صحيحة سواء أكان ذلك فى القضايا المنطقية ، أم فى غيرها مما له تعلق بالجزئيات الواقعة تحت الملاحظة ، حتى يتم استنتاج حكم كلى صحيح قائم على متابعة جزئيات بعينها والحكم عليها بأنها صحيحة [٢] .

ولكل من أنصار الوضعية المنطقية — فى هذه المفاهيم — بعض الاتجاهات التي قد يقع بينها التقابل حين تتناول هذه المفاهيم،وقد يقع عليها بعض التطوير،أو يتم إدخال شئ من ذلك إلى ميدان آخر يحتكم إليه المتنازعون .

٣ — من ناحية الموضوع :

موضوع الحقائق العقلية هو البدهيات الواضحة بذاتها فى العقل ، وهى فى ذات الوقت تمثلها الضروريات التى لا يقع فيها التناقض أبداً من حيث الحقيقة ، فإذا قبلت مبدأ التناقض ولو فى الصورة ، فإنها لا تكون حقائق عقلية صحيحة ، كما لا يمكن اعتبارها واضحة بذاتها [٣].

أما موضوع حقائق الواقع فهو الظواهر التى يقوم فيها العالم الخارجى ، فكل القضايا التى يقتضى التحقق من صدقها الرجوع إلى عالم الواقع الخارجى

---

(١)الدكتور / فوزى محمد نصر — الوضعية من منظور وضعى ص ٨٧ .

(٢)والملاحظ أن هذه الأمثلة ليست بدهيات وإنما هى مسلمات بدليل أن أغلب الناس ممن ليست لهم معرفة بالعلوم الرياضية لايعرفون أن مجموع زوايا المثلث يساوى قائمتين ولا أنه لايمكن رسم أكثر من زاوية واحدة قائمة فى مثلث واحد. .

(٣)مع ملاحظة أن هؤلاء الوضعيين يذهبون إلى أن الأحكام نسبية وبالتالى فالحقائق هى الأخرى نسبية وليست مطلقة ومن ثم فهم تناقضوا مع أنفسهم . ويهدمون أمراً كم أعلنوا التمسك به

تعتبر من موضوعاته ، لأنها التى تتم فيها عملية التحليل القائمة فى الأصل على التجربة الحسية والخبرة الذاتية ، وتتمثل فيها التراكمات الذهنية ومـــا يخــص الفروق الفردية.

وهذه التفرقة من ناحية الموضوع ليست قاعدة عامة لدى كل الوضعييـن ، وإنما هى إتجاه غالب على بعض أنصار جماعة فيينا الذين نظروا إلى النوعيـن نظرة تتعلق بموضوع كل منها لا بالأصول التى يقوم عليها ، والغايـــات التـــى يمكن أن تكون محل اهتمام من الطرفين المتحاورين ، مع أن هذا الحصر ليـس دقيقاً ، لأن حقائق العقل مادامت تؤخذ من نتائج الظواهر الخارجية التى أمكـــن تصديقها بالتجربة الحسية والخبرة الذاتية ، فقد رجعت إلى حقائق الواقـــع ، ولا قيمة للتفرقة .

٤ ــ من ناحية المصدر :

مصدر الحقائق العقلية هو العقل الطبيعى الذى تم اختبار صحتـــه فكـــانت النتيجة حاكمة بأنه صحيح ، أما العقل الذى تم اختباره وثبت عجـــزه أو عـــدم قدرته فى الوقوف على تفهم الضروريات واستخلاصها من غيرها ، أو لم يسبق اختبار صحته ، فإنه لايكون عقلاً يمكن قبول أحكامه [١] أما مصدر الحقائـــــق الواقعية فهو الخبرة التى تجمع المبادئ العقلية الفطرية القائمة فى النفس ، بحيث يمكن اعتبارها مصدراً صحيحاً [٢]، ولا يتم ذلك إلا إذا سارت الخبرات الحســية السابقة ، والمبادئ العقلية القائمة فى اتجاه واحد ، أو هما معاً يسيران فى خطين متوازيين ، بحيث يؤديان في النهاية إلى غاية واحدة أو نتيجة بعينها .

---

(١)الدكتور / حسن محمود الضبع ــ الوضعية اتجاهات ومذاهب ص ١٥٤ .

(٢)الدكتور / فؤاد زكريا ــ نظرية المعرفة والموقف الطبيعى للإنسان ص ٥١ .

٥ ــ من ناحية الصدق والكذب :

حقائق العقل لما كانت ضرورية ، قائمة على مبدأ عدم التناقض ، وواضحة بذاتها ، فإنها تكون صادقة بدهياً ، لأن ما قام على البديهة والضرورة فإنه يكون صادقاً لا محالة [١]، وكيف لا والعقل عندهم هو مصدر الحقائق ، على معنى أن العقل هو الذى يحكم بأن هذا الشئ صواب أو خطأ ، أو أن هذا الشئ حقيقة أو وهم ، ولا مجال لشئ بعد العقل فى إدراك هذه الحقائق التى سميت به ونسبت إليه [٢] .

كما لا يحتاج العقل فى الحكم عليها بالصدق إلى أكثر من مراجعة ذات الكلام ، حتى يمكن التأكد من أن عجز العبارة تكرار لصدرها ، فان كان تكراراً فهى صادقة وإلا فهى كاذبة .

أما حقائق الواقع فلما كانت قائمة على حقائق أخرى فطرية نتيجة للتجارب والخبرات السابقة فإن صدقها لا يكون ضرورياً ، وإنما يكون عرضياً [٣]، أما لماذا ؟ فلأن الضرورى هو ما كان قائماً على البدهيات العقلية ، أما حقائق الواقع فلما كانت قائمة على ناتج التجارب الحسية ، والخبرات الذاتية ونسبة

---

(١) هذا الفرق من جهة الوضعيين المنطقيين قد يكون مقبولاً ، لكنه من الناحية العلمية لم يحالفه التوفيق ، لأن حقائق العقل متى قامت على نتائج التجارب السابقة والخبرات الذاتية القابلة للتعديل بجانب الاحتمال فإنها تكون حقائق نسبية ومن ثم فإطلاق اسم الحقائق عليها يكون من باب التجوز في الاستعمال .

(٢)الدكتور / فؤاد محمد عبد العظيم ياقوت ــ الفلسفة الحديثة والاتجاه العقلي ص ٥٧ ط أولى ١٩٧١م وهذا الاتجاه القائم على جعل العقل مصدر المعارف وحقيقة الحقائق يتبناه العقليون ولكن نتائجهم غير متوافقة مع المقترحات ، بل هناك العديد من أوجه القصور .

(٣) العرضية هنا تقابل اليقينية فى القضايا التحليلية أو حقائق العقل كما يسميها الوضعيون وليست فى مقابلة الجوهرية أو الغرضية على ما ذهب إليه المتكلمون والفلاسفة .

الاحتمالات فيها قائمة ، فإن الصدق فيها يكون عرضياً ، وبالتالى فالكذب أيضاً يكون محتملاً .

وقد أكد ليبنتز على أن الذى يربط بين حقائق الواقع ليس هو البدهيات العقلية ،أو مبدأ عدم التناقض ، وإنما هو مبدأ آخر أطلق عليه اسم العلة الكافية[١]، وهى غير العلة التامة ، والعلة الفاعلة والعلة المادية والصورية بل غير العلل التى جرى ذكرها فى مؤلفات علماء الكلام وفلاسفة أهل الإسلام ، وإنها علة يمكن تسميتها بالسنن الكونية التي جرت بها العادة في الأفعال الإلهية[٢] .

٦ ــ من ناحية الوسيلة :

الوسيلة لاكتشاف الحقائق العقلية أو الوقوف عليها وتحصيلها ، هو مراعاة مبدأ ثابت يقوم على عدم الوقوع فى التناقض ، سواء أكان ذلك فى العمليات العقلية الخالصة كالرياضة والمنطق ، أم فى العمليات التى تستنتج من الظواهر الطبيعية ب ستخلاص نتائجها وهذه العملية عقلية خالصة ، إنها أشبه بالقوانين المنطقية ال متى روعيت سلم العقل عن الخطأ في التفكير [٣].

أما الوسيلة التى يمكن الوقوف بها على حقائق الواقع العرضية وتحصيلها فهى ملاحظة الوقائع الجزئية على ناحية فنية ، تربط بينها وتحلل مكوناتها ، حتى تنتهى بها إلى جزئياتها الأولى ، على معنى أن قضايا الواقع عبارة عن جزئيات بعضها مادى يمكن إجراء التجارب عليه فى سهولة ، وبعضها غير

---

(١)الدكتور / محمود عبد الحكيم عثمان ــ الفكر المادى الحديث وموقف الإسلام منه ص ٤١٠ .

(٢)قال تعالى :" فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا " سورة فاطر آية ٤٣ .

(٣) يعرف المنطق بأنه آلة قانونية تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ في التفكير ــ الشيخ حسن محمد حسن الأكوع فالمنطق من حيث هو ليس عاصماً للذهن عن الخطأ في التفكير ، إنما الذي يقوم بذات المهمة هو عملية المراعاة للقواعد المنطقية .

مادى فى صورته ، وان كان ماديا فى الدعائم التى يقوم عليها ، بناء علـــى أن الفكر ما هو إلا جملة من الذبذبات المتجهة نحو غاية ما للتعبير عن طبيعتها [١]

وفى تقديري أن هذا المبدأ غير معقول ولا مستقيم أما لماذا؟ فلما يلى :

(١) قيامه على الدور الباطل :

المعروف أن الدور هو توقف الشئ على ما يتوقف عليه مباشرة ، إن كـان دوراً مصرحاً ، كتوقف أ على ب وبالعكس ، أو هو توقف الشئ على ما يتوقف عليه بمراتب إن كان دوراً مضمراً كتوقف أ على ب ، وب على ج ، وج على أ ومن ثم يلزم فى الدور تقدم الشئ على نفسه بمرتبتين ان كان صريحاً ، وبـأكثر ان كان مضمراً [٢] وهو بنوعيه باطل لما يترتب عليه من كون الشـــئ فـاعلاً لنفسه بحيث يسبقها ، ومفعولاً لها حتى يتأخر عنها [٣].

ولما كانت حقائق العقل لدى الوضعية المنطقية تقوم أساساً علـــى حقــائق الواقع ، باعتبار أن حقائق الواقع تمثلها التجارب الحسية ، والخـــبرات الذاتيـــة المكونة لحقائق العقل ، فالرياضة بدأت بحقائق واقعية عن طريق التجريب ثـــم انتهى الأمر معها إلى التجريد[٤] .

ومن ثم فإذا اعتبرت الوضعية نتيجة التجريب في الرياضة حقائق عقليـــة ليست قابلة لمبدأ التناقض العقلى فإنها ترتد إلى التجريب مرة أخرى وهـــو ذات حقائق الواقع ، ثم تقوم حقائق الواقع فى صحتها وقبولها علـــى حقـــائق العقـــل

---

(١) جون لويس ــ مدخل إلى الفلسفة ص ١٣٧ ترجمة أنور عبد الملك ط الثالثـة ــ دار الحقيقـة بـيروت ١٩٧٨ م وراجع للدكتور / زكريا ابراهيم دراسات فى الفلسفة المعاصرة ص ٢١٥ مطبعة مكتبة مصر .

(٢) العلامة الشريف على بن محمد الجرجانى ــ التعريفات باب الدال ص ٩٤ ط الحلبى ، ومن أنواع الـــدور أيضاً أ ــ الدور السبقى ب ــ الدور المعى .

(٣)وهذا مما تشهد به الفطر السليمة ، والعقول الصحيحة ، بل والواقع العملى وإذا كان الشئ متقدماً علـــى نفسه متأخراً عنها فان قبوله من تلك الناحية يعتبر جدلاً لا قيمة له .

(٤)الدكتور / بدوى السيد بدوى ــ المفاهيم الرياضية ص ١٣ ط أولى ١٩٥٧م .

وبالتالى فكل منهما – حقائق العقل وحقائق الواقع – يقوم على الثانى وهو الدور الفاسد[١]، ومن هنا يظهر أن الوضعية المنطقية قد خانهم التوفيق حتى مع بدهيات العقل.

(٢) فساد النتائج والمقدمات :

حقائق الواقع عندهم احتمالية فى أعلى صورها ، وحقائق العقل القائمة عليها أو المنتزعة منها يقينية فى أبسط مراحلها ، فكيف تأتى نتائج حقائق العقل وتعتبر يقينية ، رغم أنها أقيمت على حقائق الواقع الاحتمالية ، ألم يكن الأولى بحقائق الواقع هى الأخرى أن تكون يقينية ، ومن ثم حتى تنتج عنها حقائق العقل اليقينية ، أم أن الأمور اختلطت عند الوضعية المنطقية فتناسوا المبدأ العام فاقد الشئ لا يعطيه .

بمعنى أنه ما دامت حقائق الواقع عندهم احتمالية ، وحقائق العقل قائمة على صورة من صورها فى التجارب الحسية ، والخبرات الذاتية المتمثلة فى التراكمات الذهنية ، فإن المنطق الطبيعى يحكم بأن حقائق العقل هى الأخرى لابد أن تكون احتمالية ، طبقاً للأصل الذى قامت عليه [٢]أو تكون حقائق الواقع يقينية وهم يرفضون هذا الاحتمال .

من ثم لاتكون هناك حقيقة ثابتة أبداً لا فى العقل ولا فى الواقع ، وفي هذا إلغاء تام لحكم القاعدة العقلية القاضية بأن حقائق الأشياء ثابتة ، والعلم بها متحقق، وأن تكون حقائق الواقع كلها يقينية وهى ليست كذلك ، ومن ثم فإذا

---

(١) وبهذا يخرج الدور المعى فإنه لا يكون فاسداً لأنه يقوم على مجرد الارتباط الذهنى كقولنا متى ظهرت الشمس عالية أختفى القمر والزوجية والأربعة ، ويعرف لدى الأصوليين بأنه دوران العلة مع المعلول ، وكذلك الدور السبقى كون الأب من له ابن ، والابن من له أب ، فسبق الأب للابن وتأخر الابن عن الأب لا يعتبر دوراً فاسداً .

(٢) الشيخ / بدر الدين عبد العظيم يسرى – أصول العقيدة الإسلامية ص ٧١ ط أولى ١٩٣١م والعبارة مكررة فى المؤلفات الكلامية كالمواقف والمقاصد .

قامت عليها حقائق العقل فإنها تكون أيضاً يقينية [١]، وهذا يناقض الاتجاه العام الذى أقام الوضعية أفكارهم عليه من ضرورة الفصل بين حقائق كل من العقل والواقع من حيث الصدق والكذب ، واليقين والاحتمال ، بل ولا يتفق مع جملة المبادئ التى أعلن الوضعية تمسكهم بها .

(٣) عدم دقة الفصل :

إذا كان الوضعيون قد حاولوا الفصل بين حقائق العقل وحقائق الواقع حتى يكونوا متفقين مع اتجاههم العام ، من ضرورة فصل المعارف الإنسانية بعضها عن بعض باعتبار موضوعاتها المختلفة ، وغاياتها التى تبحث عنها ، وكذلك باعتبار مصادرها [٢]فلابد لهم من تقديم بيان حصرى لمفردات كل من حقائق العقل وحقائق الواقع ، وبيان الحدود الفاصلة بين هذه المفردات ، وعلى أى أساس يتم التصنيف ، أما أن يقال أن هذه المعارف ما ما كان مصدرها العقل والثانية ما كان مصدرها الظواهر العامة التى تقع تحت نطاق الملاحظة الحسية والتجربة العملية ، فلا يخرج عن كونه نوعاً من الفصل الهولامى الذى لايعرف له أصل صحيح ، لأن العقل ذاته أحد الظواهر العامة التى تخضع للملاحظة وبالتالى فكل حقائقه لابد أن تكون من جنسه .

---

(١) هم لا يعترفون بأن حقائق الواقع يقينية ، وإنما ذكرت ذلك على سبيل الالزام لهم ، ومع أنه لم يقع لهم به تسليم ، إلا أنهم مضطرون إليه ، إذ ما قيمة قولهم ان حقائق العقل بدهية وحقائق الواقع فطرية فى النفس ، ألا أن يكون المراد بالفطرية هنا كونها برهانية على الطريقة الفطرية ، ولكن فكيف تكون برهانية لفطريتها فى النفس ، ثم تكون احتمالية فى نتائجها أليس ذلك من قبيل التنازل عن بعض الأفكار التى تمسكوا بها وسلموا بصدقها من قبل .

(٢)الفصل بين نوعية المعرفة أمر ثابت متى قصدنا بالفصل الوقوف على المعرفة التى بكون مصدرها النقل المنزل وهى المعرفة الوصفية ، وبين المعرفة التى مصدرها الحس وهى معرفة للظن فى نتائجها والشك فى مقدماتها متى بعدت عن المعجزات الحسية التى تجئ مع الأنبياء والمرسلين ، وكذلك فكل منهما تختلف عن الأخرى من جوانب كثيرة أفاضت فيها المؤلفات التى خصصت لبحث نظرية المعرفة .

لكن أصحاب الفكر المادى يغالطون حتى فى البدهيات لأنهم لا يؤمنـون إلا بالمادة وعالم الحس والمشاهدة ، ثم ينكرون مـــا وراء المـــادة مـــن غيبيـــات وروحانيات[1] وذلك يدفعهم إلى الجدل ومحاولة قلب الحقـــائق بدليـــل إعلانـــهم المتواصل أنه ليس فى الوجود سوى هذا العالم المحسوس المشاهد ، وليس وراء هذا العالم قوة خلاقة مبدعة بيدها الخلق والأمر والتدبير[2].

(٤) الانقلاب الماهوى :

عقيدة الوضعيين إنكـــار مـــا وراء المحسوســـات ، والعقـــل ممـــا وراء المحسوسات لأننا لو سألنا عن العقل ما هو ؟ كان الجواب أنه نـــور روحـــاني تدرك به العلوم الضرورية والعلوم النظرية [3] أو أنه جوهر روحانى خلقـــه الله تعالى متعلقاً بالبدن الإنساني يعرف الحق من الباطل [4] فإذا اعتـــبرت حقائقـــه يقينية ، فقد اعترفوا بوجود ما وراء المحسوسات على أنه قاعدة أصيلة وأحكامه يقينية لأنها التى تقوم على حقائقه .

كما أننا لو سألنا عن حقائق الواقع ماهى ؟ وعن الواقع ذاته ما هو ؟ كـــان الجواب أنه الظواهر الجزئية المنبثة فى الكـــون ويمكـــن ملاحظتـــها وإجـــراء التجارب الحسية عليها ، وإمكانية إصدار أحكـــام تتعلـــق بـــالخبرات الذاتيـــة

---

(١) كارل ماركس ، بؤس الفلسفة ص ٢٣ ترجمة أندرية يازجى ط دار اليقظة العربية بسوريا .

(٢) الدكتور عبد المعطى محمد بيومى ، والدكتور أحمد عبد الحميد الشاعر ـــ الآسلام والتيارات المعاصرة ص ٥٨ الطبعة الثالثة ١٩٨٠م .

(٣)الشيخ محمد عبد العظيم الميلاوى ـــ الشرح القويم للمنطق القديم ص ١٣ ط الدار الميمنية ١٣١١هـــــ

(٤)الشيخ الجرجانى باب العين ص ١٣٢ ،وذكر تعريفات عديدة للعقل كما ذكر من أنواعه العقل الهيـــولانى وهو الاستعداد المحض لإدراك المعقولات وهو أن تصير النظريات مخزونة عند قوة العاقلة بتكرار الاكتســـــاب بحيث يحصل لها ملكة الاستحضار متى شاءت من غير تجشم كسب جديد لكنها لا يشاهدها بالفعل والعقـــــل المستفاد وهو أن تحضر عنده النظريات التى أدركها بحيث لا تغيب عنه راجع ص ١٣٢ .

وتوصيفها فى نطاقها ، وهو ما يعنى أن حقائق الواقع انقلبت تلقائياً — بعد إجراء التجارب عليها — إلى حقائق عقلية ، وفى نفس الوقت صارت حقائق العقل قابلة للاحتمال على أساس أنها مأخوذة من الظواهر الجزئية المنبثة فى الكون [1].وهو ما يمثل حقيقة الانقلاب الماهوى ، وهم مضطرون للاعتراف بوقوعهم فيه ، ومن ثم تصير مسائلهم غير معقولة ، طبقاً لمبدأ اثبات الأشياء فى حقائقها .

(٥) انعدام الفائدة :

الوضعية المنطقية لم يتوقف أصحابها عند الإعلان بضرورة التمسك بما فيه فائدة ، والتخلص مما لافائدة فيه حيث أن قضيتهم الأساسية هى الإيمان بالعلم والكفر بما وراءه ، واعتباره لهواً أو عبثاً لا طائل من دراسته أو النظر إليه ، لكن ما هى الفائدة المعرفية التى تعود من هذا العمل بناء على عملية الفصل المتوهمه مادام كل منهما يؤدى إلى الآخر ، أو يؤدى إليه الآخر ، أليسا متكاملين طبقاً لمفاهيم الوضعية المنطقية ذاتها . ألم يكن الأحرى بهم إعادة صياغة أفكارهم من خلال المنظور الدينى الذى بين أن عالم الشهادة مستقل فى جزئياته وعالم الغيب مستقل فى جزئياته ، وأنهما معاً يدلان فى كلياتهما وجزئياتهما على وجود الله تعالى ووحدانيته [2] ، وأنه سبحانه وتعالى الذى خلق

---

(١)وما أظن أن الوضعية المنطقية يمكن أن تفلت من هذه الالزامات ، لأنها فى حقيقتها لم تخرج عن متابعة النتائج التى وقفوا عليها ثم النظر إليها بعين فاحصة ، وعدم قبولها على علاتها ، وراجع للدكتورة هدى محمد رزق — الفلسفة المادية ص ٧١ .

(٢) والآيات القرآنية فى هذا الشأن كثيرة منها قوله تعالى:" **عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ** " سورة الرعد الآية ٩ ، وقوله تعالى :" **وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** " سورة النمل الآية ٧٥ ، وقوله تعالى :" **عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا** " سورة الجن الآيات ٢٨/٢٦ .

العقول ورزقها القدرة على تقبل الفيوضات والمنح الالهية بدرجات متفاوتة ، ومن ثم فان الإحالة في الأسباب كلها تكون إلى الله تعالى ، ومن هنا تصح للمرء عقيدته وتسلم له عبادته ، أما خلط الأمور ، وإضاعة الثوابت ، والقفز فوق الحدود يحكم بأن ما يقوم به الوضعيين ليس معقولاً .

ألم يكن الأولى بالوضعية المنطقية أو بخاصة أبناء الشرق الإسلامي – الاهتمام ببيان أن جوانب المعرفة الإنسانية تتعدد بالمصدر كما تتعدد بالموضوعات والمسائل والغايات واليقين والظن ، أما العقيدة الإلهية فشئ آخر أعلى وأعظم إنها تنزيل رب العالمين ، فأنواع المعرفة باعتبار المصدر:

١ – المعرفة الحسية التى يكون مصدرها الحواس .

٢ – المعرفة العقلية التى يكون مصدرها العقل .

٣ – المعرفة الالهامية التى يكون مصدرها القلب المستنير بنور الله .

٤ – المعرفة النقلية التى يكون مصدرها النقل المنزل فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة [١] .

ألم يكن اللائق بأصحاب الوضعية المنطقية المحافظة على إنفاق الوقت فيما يرضى الله تعالى وبذل المجهود العقلى والنفسى ، بل والبدنى فى عرض العقيدة الإلهية وتأكيدها في النفوس ، وصرف الاعتقادات الباطلة ، لأن الإنسان مخلوق لله ومن ثم فلا يملك عمره ، إنما يملكه المولى العظيم الخالق الكريم رب العالمين الذى خلقه فسواه ، وهو الذى أودعه ذلك العمر ، سوف يحاسبه

---

(١)راجع للدكتور / عبد الحليم محمود – التفكير الفلسفى فى الإسلام ص ٩٨ وللدكتورة / فوقية حسين محمود – مقالات فى أصالة المفكر المسلم ص ١٣٧ وللدكتور / محمد غلاب – نظرية المعرفة عند مفكرى المسلمين ص ٢١١ وما بعدها .

عليه[1]، ومن ثم فالواجب إنفاقه فى المعارف التى ترضى الله تعالى طلباً لها وبذلاً .

لقد أخفق الوضعيون فى أوربا إخفاقاً كبيراً ، وخرجوا على الدين المسيحى الذى لم ينل منهم القبول ولم يتعرضوا للدين الإلهى دين الإسلام ، لأنه لم يكن مقصوداً لهم فى هجماتهم وافتتن بهم بعض أبناء الشرق فلم ينظروا إلى الاخفاقات الأوربية فى الناحية العقدية والأخلاقية من حيث هى ، وإنما نظروا إلى التقدم المادى الذى تعيش فيه أوربا فخلطوا بين ناتج العقل فى مجال البحث العلمى والتجربة الحسية ، وبين ناتج العقل فى الجانب النظرى الذى لا مجال للتجربة فيه [2]، ومن ثم طالبوا بإسقاطه من الحسبان .

وقد امتدت بهم هذه الجرأة الكاذبة حتى نالت من عقيدتهم الدينية بعد أن كانت عند غيرهم تنال من اتجاهاتهم المعرفية ، ومبلغ تقديرى أن الوضعية المنطقية قد خالفت المعقول ، فصارت أبحاثها ونتائجها داخلة فى إطار العبث أو اللامعقول . ولو أنهم لم يخلطوا بين ما تدلى به العقول من معارف والنصوص الدينية من أحكام فربما كان لهم شأن آخر .

المبدأ الخامس : نسبية الأحكام الخلقية :

الوضعية المنطقية كما يفرقون بين العبارات الإخبارية والتكرارية ، ويعتبرون الإخبارية احتمالية بينما التكرارية يقينية ، فإنهم كذلك مضطرون إلى قبول فكرة النسبية التجريبية والتكرارية معاً ، على أساس أن التحليل إذا انتهى فى القضايا التكرارية — إلى أن عجز القضية تكرار صحيح لصورها فإنها

---

(١) وفى الحديث الشريف لا تزولا قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عمره فيما أفناه ، وجسده فيما أبلاه ، وعلمه ماذا عمل به ، وماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه — راجع شرح الفشنى على الأربعين ص١٣٩.

(٢) وهذا الخلط مما ترفضه المبادئ الأولى في البحث العلمي ، ولكن الوضعية وقعوا فيه فأعلنوا إفلاسهم عن الوصول للحق ، وهدموا قضيتهم الأساسية بأيديهم .

تكون صادقة ، أما إذا انتهى إلى أن العجز ليس تكراراً للصدر اعتبرت كاذبة ، لكن الصدق والكذب فى كل منهما ليس يقينياً وإنما هو احتمالي ، ومن ثم فإن هذا الحكم يكون نسبياً على وجه من الوجوه [١].

بيْد أنهم انتقلوا من هذا الشكل العام فى المعرفة إلى القيم الجمالية وما يتعلق بالأخلاق ، فالحق ، والخير ، والجمال ، والوفاء بالعهد وكتمان السر ، وما كان من هذا القبيل فى القيم الإيجابية إنما يدخل عندهم فى نطاق النسبية وحسبانها ذات تأثير دال فى المواقف التى يتعرضون لها .[٢]

وكذلك الحال فى تصورهم لكل من الظلم والعدوان ، والكذب والشح ، وخلف الوعد ، وإفشاء السر ، والنفاق الاجتماعي أو السياسي أو الوظيفي إلى غير ذلك من أنواع النفاق وما يعرف بالأخلاق الذميمة ، والقيم السلبية ، على أساس أنها لا تقدم نفعاً بقدر ما تلحق الأضرار العديدة .

بيد أن موقفهم من نسبية الأحكام الخلقية قد أقاموه على ما يلى :

١ ـ ذاتية الأعمال بذاتية الأفراد :

يقرر فولهان أن الأحكام الخلقية لا تخرج عن كونها مجموعة الأفعال الذاتية التى يتأثر بها أصاحبها ، وقد لا يتأثر بها الآخرون ، إنها ارتباطات داخلية تؤدى انعكاسات تظهر على الفرد ذاته بغير أن يكون لها أدنى ارتباط بما يجرى داخل الآخرين فالصدق عند بعض الأفراد متى تعلق بمصلحته يكون فضيلة ، وإذا تعلق بضد مصلحته فإنه يكون رذيلة[٣].

فإذا قلنا لمن يدلى بشهادة فى المحكمة أمام القاضي أن قولة الحق التي تصدر عنك ستعيد الحقوق السليبة لأصحابها المجني عليهم ، فإنه حينئذ سيبذل

---

(١) نسبية الأحكام الخلقية يقضى تماماً على القواعد الثابتة ويحول المجتمع إلى صورة عبثية غير معقولة .

(٢)راجع للدكتور فوزى محمود يسرى ـ دراسات فى الفلسفة المادية ص ٣٧ .

(٣)أ . ج هيرز ـ المنظومة الأخلاقية ص ١٣٧ ترجمة حنان رشدى ١٩٥٧ .

جهده حولها ، ويعتنى بإبرازها على شكلها الصحيح ، وإذا قلنا له إنها فـى ذات الوقت قد تعرقل مسيرة الحياة بالنسبة للجانى الذى لن يفرج عنه ، بـل يعـاقب بجريمته فإن ذلك الشاهد سوف تتأرجح شهادته ، وربما لا يذهب إلى المحكمـة فلو كانت الأحكام الخلقية غير قائمة على النسبية الذاتية فربما كان لـها شـأن آخر [1].

بينما يذهب ديلاس إلى أن نسبية الأحكام الخلقية ليست فى كونـها تمثـل إيجابيات أو سلبيات ، وإنما لكونها معبرة عن حالة ذاتية داخل الكيـان الفـرد الإنساني نفسه ، ومن ثم فما يراه الواحد خيرا يراه الثاني شرا ، وما يراه آحـاد الناس فضيلة يعتبره الثاني رذيلة ، وبناء عليه لايوجد مبدأ عام أو قانون يمكـن اعتباره قاعدة أخلاقية حاكمة أو معيار ثابت للناس جميعاً [2] .

ونفس الفكرة يكررها كوزيمان ويؤكد عليها ومعه جملة مـن وضعييـن فرنسا حيث يقول : هل يمكن اعتبار الخير والشر قاعدة ، والحـب والبغـض قاعدة ، مع أن الخير ليس مطلقاً ولا كذلك الحب ، فإذا جئنا للنقيضين من حيـث إحكامهما وجدنا الحال فيهما يختلف ، بل كل المتناقضات فى المسألة سـواء ، ومادام الأمر كذلك فحسبان الأحكام الخلقية مطلقة أو عامة إنما هو هذيان [3].

بيد أن كار ناب يحاول تقديم تبرير غير منطقي لنظرة الوضعيين المنطقيين للأحكام الخلقية ، حيث يقول : أن الكريم يعطى للفقير ، بينما البخيل يمسك عـن الإعطاء ، فإذا سألت كلا من الكريم والبخيل هل ما فعله كل منـهما صحيـح،

---

(١) الدكتور / صبحى محمد توفيق — الفلسفة الوضعية ص ١٥٣ .

(٢)الدكتور / فوزى محمود يسرى — دراسات فى الفلسفة المادية ص ٤٣ ط أولى ١٩٧١م .

(٣) أ . ج هيرز — المنظومة الأخلاقية ص ١٥٢ ولا شك أن فى عباراته قسوة ، بجانب ما فيها من جرأة بالغـة وهو مما يدفع إلى القول بأن سلاح الوضعية المنطقية فى أوربا لم يكن العلم كما زعموا ، وإنما هو الجرأة فى غـير موضع .

أجابا بأنه فعل صواب مع أنهما يتناقضان ، فلو كانت الأحكام الخلقية مطلقة عامة ، أو تقبل التطبيق العملى ، طبقاً لمفهوم التجارب الحسية والخبرات الذاتية لما اختلفت إجابات الرجلين على السؤال الواحد والفعل الواحد بإجابتين مختلفتين[١] ومن ثم فالأحكام الخلقية نسبية وليست مطلقة .

بيد أن هذا التصور الساذج الذي تمسك به أصحاب الوضعية المنطقية يفضي إلى الإطاحة بالثوابت الأخلاقية جميعها ، إذ أن غاية الوضعية من هذا الجانب هى الإجهاز على القيم والأخلاق وهو تصور — طبقاً لمفاهيمهم — خال من المعنى بل تحمله عبارة فارغة أيضاً .

أما لماذا ؟ فلأن كلا من الغنى المنفق والبخيل الممسك قد أمكن الإمساك بعواطفه ، وجعلها الحاكم على فعله ، بينما الوضعية ينكرون وجود العواطف الإنسانية ككل ، وذلك من طبيعة منهجهم وأحد الأسس التى يقوم عليها تفكيرهم، فلماذا اعتبروا بها الآن [٢] .

كما أن كلا من المنفق والممسك لا يعتبر عمل أي منهما هو القاعدة ، لأن الأخلاق الصحيحة ليس مصدرها الأشخاص وحدهم حتى يقعدوا لها ، وإنما مصدرها الأعلى هو الدين الإلهى ، وبالتالي فلا يعتبر فعل واحد منهم هو الحق حتى يقال أنه أساس الأخلاق أو مصدرها ، أضف إلى ما سبق أن الدين له منطقة فى القلب والعقل والوجدان والضمير ، ومن ثم فان تعاليمه تحكم على فعل الحواس ، لأن الإيمان هو ما وقر فى القلب وصدقه العمل .

---

(١) الدكتورة / هدى محمد رزق — الفلسفة المادية ص ١٣٧ وانظر للدكتور صبرى طلبة — الفلسفة الحديثة والمعاصرة ج ١ ص ٢٣٤ وللدكتورة / يمنى طريف الخولى — فلسفة كارل بوبر ٣١٤.

(٢) ألا يدل على أن الوضعية المنطقية قد أفلست فكرياً فراحت تعترف بما أنكرت ، وتقر بوجود ما كانت ترفض الاعتراف به أو الحديث عنه و ذلك التراجع يكون صواباً متى سار الوضعيون فى الإتجاه الصحيح ، وحينئذ يكون الأمر معقولاً ، أما أن يفعلوا ذلك من باب ذر الرماد فى العيون ، أو كصورة من صور التراجع الموقفى لاتخاذ مواقع أكثر قوة فذلك هو اللامعقول .

كما أن أعمال الجوارح ما هى إلا صورة من صور التعبير عن قيمة الدين فى نفس الفرد ذاته ، وكلما كانت تعاليم الدين متغلغلة فى ضمير الفرد كان سلطانها على الجوارح أعلى وأكبر ، ومتى انخفضت درجات الوازع الدينى فى النفس انفلتت الجوارح[١]، وفى الحديث الشريف لو سكن قلبه لسكنت جوارحه[٢] ثم الأعمال لا تقيم بأصحابها ، وإنما يقيم الأفراد بمقدار حسن الأداء للأفعال فمن كان أداؤه سليماً وفعله حسناً فإنه يمدح به ، ومتى كان أداؤه غير سليم فإنه يقدح به ، فالمدح والقدح لا يقعان على الأفعال فى ذاتها ، وإنما يقعان على الصورة التى يتم بها وهى أداء الفعل والفرق بين الأمرين كبير .

٢ ــ تناقض العواطف :

يقرر الوضعيون أن عواطف الإنسان ومشاعره هى التى تدفعه إلى فعل شئ ما أو الكف عنه ، فمَن ضرب صغيراً وهو في طفولته لم يضرب قد يرى ذلك الفعل خطأ لأنه لم يضرب فى طفولته ولم يعتده من غيره ، وبالتالي فضرب الصغير قد تمثل فى وجدان ذلك الإنسان عملاً عدوانياً يجب الكف عنه أما من ضرب في صغره ، وعجز عن دفع ذلك الأذى ، فقد يستحسن ذات الفعل كنوع من استرداد الكرامة ويراه عملاً مشروعاً ، ومن ثم فعواطف كل منهما متناقضة ولا يمكن إقامة أحكام أخلاقية عامة على جملة من العواطف المتناقضة ،[٣] والسؤال الآن ما هى الحالة التى يمكن اعتبارها قاعدة وما هى الحالة الأخرى التى يمكن إهمالها مع أنهما معاً سواء .

---

(١) راجع فى مسألة الوازع الدينى كتابنا : فى التيارات الفكرية ص ١٣٩ / ١٤٣ الطبعة الخامسة ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م مطبعة آل بسيونى .

(٢) الشيخ محمد على عبد العظيم أحكام الصلاة ص ١٥٣ .

(٣) الدكتورة / هدى محمد رزق ــ الفلسفة المادية ص ١٥٣ وهذا مبنى على أن الناس يختلفون فى الأداء للفعل والنظرة لما يقومون به وليس مبنياً على قاعدة عامة ولست أدرى إذا لم يقيموا أحكامهم على قواعد عامة فهل يمكن لهم أن يستخرجوا أحكاماً عامة أم أنهم لن يتمكنوا إلا من استخدام واستخراج أحكام جزئية نسبية

ويذهب فولباخ وكارناب وفيشر إلى أن الاعتماد على العواطف المتناقضة في تقييم الفعل الأخلاقي أمر ضروري في الوضعية ، لأن الإنسان الفرد هو الذى يقبل التجريب عليه ، كما يمكنه أن يعبر عن ذاته ، ومن ثم فعواطفه هي الأصل في الحكم على الأخلاق ، والناس جميعاً مختلفون في عواطفهم ، وبالتالى فلا يمكن وضع قاعدة أخلاقية عامة ، كل ما يمكن فعله هو الإعلان عن إمكانية إقامة أحكام خلقية نسبية [1] .

بيد أن تناقض العواطف الذى يتمسك به أصحاب الوضعية المنطقية قد اختلط أمره في عقولهم ، لأنهم استخرجوا العواطف الغير مرئية من خلال تصورات مادية تمثلها أجزاء الإنسان البدنية ، التي تقبل التجريب عليها والوقوف عندها ، فهم قد خالفوا قواعدهم التي ترفض الاعتراف بوجود ما وراء الحس فوقعوا في تناقضات عديدة ، وهم الذين افتعلوها .

٣ ــ تخالف الاعتقادات مع الأعمال :

الوضعيون كلما انحدروا من شاهق وأبصروا الهلاك ، حاولوا صرف أنفسهم عنه إلى غيره ظانين أن في هذا الانصراف منجاة ، دون أن يكون لهم تبصر بنوع ما إليه ينصرفون ، من ثم فهم في كل محاولاتهم لم يكونوا طالبين الهدى بقدر ما كانوا حريصين على السير في الطريق المعاكس ، ابتغاء أن ينالوا في نفوس الناس منالاً حتى لو كان غير مقبول من الناحية الواقعية ، أو يركبوا لهم أعناقا تحت اسم التقدم العلمي والسبق المهارى ، ولكنهم لم يوفقوا

---

(١) الدكتور / صبري طلبه ــ الفلسفة الحديثة والمعاصرة ج ١ ص ٢٤٧ والملاحظ أنهم يبذلون قصارى جهودهم لاثبات الموجود فقط هو المحسوس وأن الما وراء الحس لاقيمة له ،ولكنهم معترفون بوجود العواطف ولا يمكن اعتبارها مادية أبدا ، إلا إذا حدثت المغالطة والذين يعتمدون على المغالطات لايمكن حسبانهم على صواب أبداً .

لشئ من ذلك ، ومن ثم أعلنوا عن قصور آخر في قرارة أنفسهم يحاولون منـــه إثبات عجز الأحكام الخلقية عن القيام بفكرة العموم .

يقرر مالارميه أن الإنسان حين يمارس عملاً خلقياً إنما يفعله بنـــاء علـــى قاعدة آمرة مضللة تخالف ما فى ضميره وعقله ، وهو حين يفعل ذلك إنما يعتقد خطأ القاعدة الآمرة ، والتالى يقع التناقض بين الاعتقاد المستقر عنـــده ، وبيـــن الأعمال التى يقوم بها [1] .

ونفس الفكرة يذهب إليها فيوشر حيث يقول : من المستحيل اعتقاد وجـــود أحكام خلقية عامة ثابتة لأن كل فرد من بني الإنسان تقوم فى نفسه جملة مـــن المصالح التى تمثل حياته الشخصية وطموحاته الذاتية ، وهو يسعى إليها بكـــل قوته لأنه يعتقد صحتها ، وكل الأفراد فى ذلك سواء ، فإذا جاءت أوامـــر مـــن جهة أخرى لكبح هذا الخيال ، أو لتحد من ذلك الطموح ، وقام بتلبيتها فإنه يكون فى تلك الحال يمارس ما لا يعتقد ، أو يفعل ما يظن أنه خطأ[2] ، ومثـــل ذلـــك يكشف عن وجود تخالف شديد بين ما هو فى الاعتقادات الثابتة ، وما هو فـــى الأعمال القائمة .

أما ريشنباخ فيعلل تخالف الاعتقادات مع الأعمال بأنه قائم فى ذات الواقع وليس فى الأفراد ، أو نوعية الفعل الذى يؤدى ، وهـــو تطـــور فـــى الاتجـــاه الوضعى الذى لا يقبل الاعتراف بوجود مفاهيم خلف الماديـــات ، بعيـــداً عـــن الرياضة والمنطق ، لكن ريشنباخ يقول إن الاعتقادات فى المصالح الذاتية أمـــر طبيعى ، وقيام الفرد بعمله تجاهها أمر أخلاقى ، فإذا تعارض الأمران فما ذلـــك إلا لأن الواقع يرفض دمجهما فى شئ واحد ، كما يرفض انصيـــاع المصلحـــة

---

(١) أ . ج . هيدر — المنظومة الأخلاقية ص ٢٤٤.

(٢) الدكتور صبرى طلبه — الفلسفة الحديثة والمعاصرة ج ١ ص ٣١٥ والدكتوره هدى محمد رزق — الفلسفة المادية ص ١٦٣ .

الذاتية لأغراض تعلن من خلال قواعد أمره [١]وذلك مما يستدعى القـــول بـــأن الأخلاق نسبية وليست مطلقة .

لكن هذا التصور فى وجود تخالف بين الاعتقادات والأعمال لم يكن له مـــا يبرره ، إذ أن القيم الأخلاقية الصحيحة تعرف طريقها للنفوس من خلال تعـــاليم الدين الإلهي،كما أن الفطرة الإنسانية السليمة تستوجب ذلك فمن ذا الذى ينكر أن الاعتقاد الصحيح موصل إلى العمل الجيد السليم ، ومن ينكر أنه متى كان المرء سليم العقيدة فى الله وكتابه ورسوله فان مصالحه الذاتية تذوب بحيث لا يبقى إلا ما يأمر به الشرع ، ففى الحديث الشريف . والله لا يؤمن أحدكم حتى يكـون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وفى القرآن الكريـــم :" **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** " [٢].

قال الشيخ البروسوى : على العاقل أن يزكى نفسه عن الأخلاق الذميمـــة ، ويطهر قلبه عن لوث العلائق الدنيوية ، ويجتـــهد فـــى تحصيـــل مرضـــاة الله بالأعمال الصالحة كى يجدها عند ربه يوم احتياجه ويفوز بالسعادة [٣]، وكـــــان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يا حنان يا حنان يا ذا الجلال والإكرام ، باعد بينى وبين خطيئتى كما باعدت بين المشرق والمغرب ، ونقنى من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس ، وأغسلنى بماء الثلج والبرد ، سبحان الله

---

(١)الدكتورة / هدى محمد رزق ــ الفلسفة المادية ص ١٥١ .

(٢)سورة آل عمران الآية ٣١

(٣)الشيخ اسماعيل حقى البروسوى ــ تنوير الأذهان من تفسير روح البيان المجلد الأول ٢٣٤ .

وبحمده استغفر الله العظيم وأتوب إليه [1].

من ثم فإن الاعتقاد الصحيح يعبر عنه العمل السليم ، وإلا فما قيمة عمل لم يقم على عقيدة صحيحة ، وما قيمة العقيدة إذا لم تترجم إلى واقع عملي نافع للناس في دنياهم وأخراهم ، إنها إن لم تترجم إلى واقع عملي تكون أشبه بالشيكات البنكية التي لا رصيد لها ، فلا تساوي الورقة التي تحملها ولا الحبر الذي كتبت به ، بل ان الورقة التي تحملها تكون ذات قيمة بينما بياناتها فاقدة القيمة .

ومما يدل على ارتباط العقيدة الصحيحة بالأعمال الحسنة ما روى عن جابر بن عبد الله [2]رضي الله عنه أنه قال : جاءت ملائكة إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم وهو نائم ، فقال بعضهم إنه نائم ، وقال بعضهم ان العين

---

(١)أخرجه الامام الترمذى فى سننه والامام ابن باجه فى سننه وصححه وفى الحديث الشريف لايؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من نفسه ، وأهلى أحب إليه من أهله ، جمع الفوائد ج ١ ص ٢١ ، وروى أن النبى محمدا — صلى الله عليه وسلم كان آخذا بيد عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فقال عمر : يارسول الله أنت أحب إلىّ من كل شئ إلا نفسى ، فقال عليه الصلاة والسلام ، والذى نفس محمد بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه ، فقال عمر رضى الله عنه فإنه الآن والله أنت أحب إلى من نفسى ، فقال عليه السلام الآن ياعمر . جمع الفوائد ص ٢١ . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كل أمتى يدخلون الجنة إلّا من أبى ، قالوا ومن يأبى يارسول الله قال صلى الله عليه وسلم من أطاعنى دخل الجنة ومن عصانى فقد أبى . صحيح الإمام البخارى كتاب الاعتصام ج ١٣ ص ٢١٤ وجامع الأصول ج ٩ ص ١٩٤ .

(٢) هو جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام بن كعب بن غنم بن كعب بن سلمة الأنصاري السلمي ، يكنى أبا عبد الله ، وأبا عبد الرحمن ، وأبا محمد هو أحد المكثرين في الأقوال عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، روى عنه جماعة من الصحابة ، وله ولأبيه صحبة ، وفي الصحيح انه كان مع من شهد العقبة ، روى مسلم في صحيحه من طريق أبي الزبير أنه سمع جابراً يقول : غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تسع عشرة غزوة، قال جابر لم أشهد بدراً ، ولا أحداً ، منعني أبي ؛ فلما قتل لم أتخلف ، وعن جابر قال استغفر لي رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجمل خمساً وعشرين مرة ، أخرجه أحمد ، وغيره عن ابي الزبير عنه ، وقال قتادة كان آخر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم موتاً بالمدينة جابر ، سنة أربع وسبعين ويقال انه عاش أربعاً وتسعين سنة ، راجع للإمام ابن حجر — الإصابة باب الجيم بعد الألف ص ٤٣٤ .

نائمة والقلب يقظان ، فقالوا ان لصاحبكم هذا مثلاً فاضربوا له مثلاً ، فقالوا مثله كمثل رجل بنى داراً وجعل فيها مأدبة وبعث داعياً ، فمن أجاب الداعى دخل الدار وأكل من المأدبة ، ومن لم يجب الداعى لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة ، فقالوا أولوها له يفقهها ، فقالوا : الدار هى الجنة ، والداعى هو محمد ، فمن أطاع محمداً فقد أطاع الله ، ومن عصى محمداً فقد عصى الله [1] .

وفى تقديري أن عملية الإفلاس الفكري للوضعية المنطقية قد أعلنت عن نفسها مراراً ، وتكرر ظهور ذلك فى مفرداتهم اللغوية بجانب الأفكار العبثية التى يدعون إليها ، وهى فى جملتها خارج نطاق المعقول على اساس أن النصوص الشرعية هى الفيصل فى المسألة .

٤ ــ الارتباط الشرطي بين الفعل وما يعقبه :

يذهب جودل إلى أن امتثال المرء لفعل ما أداء له أو تركاً ، إنما هي نتيجة حتمية لوعد سابق بجزاء لاحق ، فإذا قام المرء بفعل ما أداء له أو تركاً ، فإن فعله هذا لا يكون لذاته ، وإنما للجزاء الذى ينتظره بناء على الوعد السابق ، وهو ما يعرف بالارتباط الشرطى طبقاً لنظرية بافلوف فى عالم الحيوان التى يجب تطبيقها فى عالم الإنسان فى تماماً بتمام [2] فالحيوان والإنسان عند الوضعية المنطقية شئ واحد ، وما يطبق على أحدهما يطبق على الثانى ، وما دامت الأخلاق بهذا الشكل ، وأنواع الجزاء تختلف باختلاف الواعد بها ، فإن أحكامها تكون نسبية وليست مطلقة .

ويقرر بوبير أن النسق الكلامى اللغوى ينتهى إلى اعتبار الأخلاق نسبية فى كل شئ ، على أساس أن الشرط والمشروط متلازمان فى نسق كلامى

---

(١) الإمام البخارى ــ صحيح البخارى ج ٦ ص ٢٢٣ ، وجامع الأصول ج ٨ ص ٥٢١ وروى الإمام الترمذى نحوه فى الأمثال برقم ٢٨٦٤.

(٢)الدكتور أحمد السيد درويش ــ الفلسفة الحديثة مذاهب ونظريات ج ١ ص ١٢٥ ط الأولى ١٩٦١م .

واحـــــد، فإذا قلت لإنسان ساعدنى فى حمل بضاعتى على سيارتى دون مقـابل لن يقوم بهذا الدور ، أما إذا قلت له ساعدنى وسأنقدك مبلغاً بعينه فإنه يفكر فـــى قيمة المبلغ أو المكافأة ، فإن وجدها مجزية قام بالفعل ، وإلا امتنع عن القيام بـــه ولما كانت الأعمال تختلف فى طبيعتها وتختلف فى الأجور التى تقـــع كمكافـــأة عنها ، وتختلف باختلاف الأفراد الذين يقومون بها فإنها لا تعتبر قاعدة حاكمـــة فى الأخلاق بقدر ما تعتبر أحكاماً نسبية [١] .

وهم بهذا التصور الساذج إنما يخلطون بين الفعل الأخلاقـــى ، والأعمـــال التى يتم الإتفاق عليها ، كما لا يفرقون بين نوعية العمل وقيمة الأجر الدنيـــوى الذى يتعلق بالجانب المهارى والتقنى ، بجانب القـــدرات العقليـــة والإبداعـــات الفكرية ، التى تبرز فيها الفوارق الفردية ، وتدخل فى المباحث الكلامية تحـــت مفهوم المعارضة فى الصنائع والمعاوضة فى الأجور ، وهي من ناحية الشريعة الإلهية لابد فيها من منظم دقيق متعال عنها وهو النبى الذي يكلفه الله تعالى بهذا العمل ضمن ما يكلفه به ، ولذلك اعتبر المتكلمون وجود النبى ضرورة شـــرعية للفصل فى هذه المسائل بجانب المهام العقدية والتشريعية التى تناط به [٢] .

وفى تقديرى أن الوضعية المنطقية قد تعجل القـــائمون بـــها فـــى تنـــاول الموضوعات التى يدرسونها ، كما تعجلوا إصدار الأحكام بشأنها ، لأنهم في كل ذلك يخلطون بين علاقة الشرط بالمشروط التى تجئ على سبيل الارتبـــاط فـــي تدريب الحيوان واكتشاف قدراته الميكانيكية فى التعامل مع الأشياء المحيطة به.

---

(١)الدكتورة / هدى محمد رزق — الفلسفة المادية ص ٢١١ وأنظر أيضاً للدكتور صبرى طلبة الفلسفة الحديثة والمعاصرة .

(٢)راجع للإمام الإيجى فوائد بعثة الرسل فى كتابه المواقف ، وكذلك للإمام السعد التفتازانى فى كتابه مقاصد الطالبين فى أصول الدين ، الجزء الثانى ص ٢٨ وما بعدها ، وكتابنا الغزاليات فى النبوات أثناء الحديث عن فوائد بعثة الرسل .

يقول الدكتور توفيق الطويل : هذا مرفوض لأن الحكم الخلقى لا يعنـــى أن لدى المرء مجرد ميل إلى هذا الحكم أو رغبة فيه ، بل ان وراء هذا الميل نظـو عقلى يسنده ويؤيده ، وبهذا النظر العقلى السليم تســتقيم موضوعيــة الأحكــام الخلقية [1]، كما تستقيم فكرة عموميتها واطلاقها على عكس ما ذهب إليه دعـــاة الوضعية المنطقية .

ثم إن عملية الإرتباط الشرطى التى يؤكد عليها الوضعيون – لا تخرج عـن كونها مجرد اتجاه يهدف إلى قيام الأخلاق على التجربة الحسية والعقــل الــذى تمثله الخبرات الذاتية ، وبهذا يتحول الإنسان فى منظورهم إلى آلـــة ميكانيكيـــة تعمل من غير إرادة لها ، ولا اختيار ، ومن ثم فلا مثوبة مشروعة ولا عقوبـــة رادعة من قبل الله تعالى وفى هذا مفسدة ما بعدها مفسدة .

إنها تنزع الإنسان من إنسانيته التى خلقها الله عليها ، وميزه عن غيره بها إلى صورة باهتة تجرى فيها المادية الخسيسة أطول شوط ممكن ، مما يدل على أن هذا الجانب من جوانب الوضعية المنطقية ليس معقولاً هو الآخر ، إنما هـــو صورة من صور العبث العقلي ، واللامعقول الفكري ، ومثله يجب الانصـــراف عنه مع عدم الالتفات إليه .

المبدأ السادس : رفض الميتافيزيقا :

لم يقف أصحاب الوضعية المنطقية فى تجاوزاتهم السافرة عند حد بعينـــه، وإنما تجاوزوا كل الحدود ، فلا الأحكـــام الخلقيـــة ترضيـــهم ، ولا المعــــارف الإلهامية تنال قبولهم كما أن الميتافيزيقا هى الأخرى لم تنل منـــهم إحترامـــاً ، وحيث عرضت للمبادئ الخمسة الأولى التي تقوم عليها الوضعية المنطقية وكان ذلك فى شئ من التفصيل فإنى سأعرض موقفهم من الميتافيزيقا داخـــل فصـــل

---

(١) الدكتور / توفيق الطويل – أسس الفلسفة ص ٤٤٦ وراجع له مباحث في الأخلاق حيث تكلم عن الحاسة الخلقية وأثرها فى الفعل الأخلاقي .

مستقل [1]على أساس أن أغلب المبادئ التي أعلنوها تشتم منها رائحة الابتعاد عن الميتافيزيقا . بل فيها الإعلان الصريح عن الرفض لها مع الإنكار ، فما هو موقفهم من الميتافيزيقا والدين ، ذلك ما سوف أعرض له فى الفصل السادس إن شاء الله تعالى .

---

(١) لما كان هذا الفصل الخامس قد طالت صفحاته ، وموقف الوضعية من الميتافيزيقا متعدد الجهات ، فقد آثرت جعله فصلاً مستقلاً حتى أتمكن من عرض وجهات نظرهم وأناقشها ، كما أن موقفهم من الميتافيزيقا يتمثل فيه موقفهم من الدين ، ومن ثم فقد رأيت ضرورة الحديث عن الميتافيزيقا في فصل مستقل عن جملة المبادئ الأخرى التي سبق انتزاعها من المؤلفات الحاملة أفكار الوضعية .



الفصل السادس

موقف الوضعية المنطقية
من
الميتافيزيقا

تمهيـــــــــد :

عرضت فيما سلف من سطور للمبادئ التى قامت عليها الوضعية المنطقيــة وبان أن هذه المبادئ أو الأسس التي قامت عليها لا يمكن اعتبارها معقولة ،على الناحية التي قصدها الوضعيون ، ولكنها فى ذات الوقت يمكن أن تحمل بعـــض المعانى التى تجعل جزءا منها معقولاً متى جاء على الناحية الأخرى ، أو بمعنى آخر يمكن إعادة صياغتها على نحو جديد بحيـــث تصـــير معقولـــة كلـــها أو بعضها[1]، وقد ألمحت إلي أن موقف القوم من الميتافيزيقا سأخصه بالدراسة في فصل مستقل ، وهاأنذا ــ بفضل الله تعالى ــ أحاول الوفاء ، وسيكون ذلك على النحو التالى :

أولاً : تعريف الميتافيزيقا وأنواعها وعلاقتها بالفلسفة :

١ ــ مفهوم الميتافيزيقا :

تطلق الكلمة بمعناها الواسع على كل ما بعد الطبيعة من البحث فى الوجـود باعتبار ماهيته ، ومعناه وغايته ، وأنواعه وطبيعته [٢]، والبحث فى المجــردات كالروح والعقل والنفس والمطلق ، وكذلك ما يتعلق بالقيم من الحـــق والصـــدق والخير والجمال والعدل [٣]، فإذا حاولنا تقديم تعريف عام لها تحمله ألفاظ قليلـــة قلنا : إن الميتافيزيقا هى مالا يدرك بالحس ، ويقابل العالم الطبيعي .

غير أن مفهوم الميتافيزيقا الواسع قد يشمل دراسة الألفاظ المتعلقة بجوانـب تخص العالم الطبيعى ــ العالم المشاهد ــ كالوجود والبقاء ، والفناء ، كما يشمل

---

(١)لما هو معلوم من أن كل عمل فكرى تحمله ألفاظ منطوق بها ، فان كانت الناحية التى قصد منها صحيحـــة موافقة للنصوص الشرعية كانت معقولة ، وان لم تكن موافقة فإنها تصير لا معقولة .

(٢)الدكتور/ محسن السيد طاهر ــ الفلسفة العامة ص ٣٣ ط دار المنشأة ١٩٦٧م .

(٣)الدكتور / على الدين نصر ــ الفلسفة اليونانية ص ٧٤ ط أولى ١٩٥١م .

دراسة ما يخص الألفاظ المتعلقة بجوانب العالم المـــا وراء الطبيعـــة ـــ العـــالم الغائب ـــ كالوجود الثانى فى دار الآخرة ، والخلـــود ، والنعيـــم ، والثـــواب ، والعقاب ، وما شابه ذلك من ألفاظ تحمل معانيها مبـــاحث دقيقـــة غـــير قابلـــة للتجريب عليها ، أو الحكم من خلال الحواس ، وفرق كبير بين دراسة الألفـــاظ وبين دراسة معاني الألفاظ .

فى نفس الوقت فإن مفهوم الميتافيزيقا قد يضيق حتى لا يقع فى دائرتـــه إلا ما يتعلق بالله تعالى ذاتاً وصفات ، وأفعالاً ، ومن ثم يكون معناها : ما يتعلـــق بالإلهيات ، وربما اتسع أكثر من ذلك قليلاً وضاق عن المعنى العام [1] وحينئـــذ يطلق على ما يتعلق بالإلهيات ، والنبوات ، واليوم الآخر ، وبناء عليه يكـــون لفظ الميتافيزيقا يجئ في إطلاقات ثلاثة :

الأول : الإطلاق العام : فتكون الميتافيزيقا هى العلم الذى يبحث فيه عـــن مـــا وراء الطبيعة ، والعالم الغائب ، بغية الاستدلال على طرائق إثبات وجـــود الله تعالى وصفاته ، ومن ثم فإنها تصير مرادفة لمفهوم الفلســـفة الإســـلامية التـــي تعرف بأنها التشبه بالآلة بحسب الطاقة البشرية ، لتحصيل السعادة الأبدية كمـــا أمر الصادق المعصوم صلى الله عليه وسلم فى قوله عليـــه الســـلام " تخلقـــوا بأخلاق الله ، أى تشبهوا به في الاحاطة بالمعلومات والتجرد عن الجسمانيات[2] والمعلوم أن الدين والفلسفة الإسلامية لا يختلفان ، لا من حيث الموضـــوع ولا من حيث غاية المذهب ، التي يختص بها كل منهما فربما يبحثان ويعلمان حقيقة واحدة بطرق مختلفة ، ويخاطب كل منهما ملكات مختلفة في الإنسان.

---

(١)وهذه المرحلة هى التى تمثل مرتبة وسطاً بين طرفين فى أحدهما العموم المطلق ،وفى الثانى أخص الخصـــوص ، ولاشك أن هذه المرحلة تختلف عن سابقتها ولاحقتها اختلافاً جوهرياً .

(٢)العلامة الجرجانى ـــ التعريفات باب الفاء ص ١٤٨/١٤٧

(٣) هنرى كوربان ـــ تاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٣٥٠ طبعة بيروت . .

الثانى : الإطلاق الخاص : فتعرف بأنها العلم الذى تدرس فيه مباحث الإلـــهيات والنبوات واليوم الآخر فتكون مرادفة لعلم التوحيد ، حيث يعرف بأنه [1]معرفـــة النفس ما عليها من العقائد المنسوبة إلي دين ملة الإسلام عن الأدلة الشرعية.[2]

الثالث :الإطلاق الأخص : فتعرف بأنها العلم الذى تدرس فيه مباحث الإلهيات ، من إثبات ذات الله وصفاته وأفعاله ، ومن ثم يقع لها به أخص الخصوص .

٢ ــ التســـــمية :

يطلق الدارسون على النوع الأول اسم الميتافيزيقا التأملية ، وقد يطلقـــــون عليه اسم الميتافيزيقا الإيمانية ، على أساس أن المعتقد لــــها مؤمـــن بـــالغيب ، وارتباط مباحثها بالإلهيات والقضايا الدينية ، وارتباطها بالأخلاق العملية ، كمـــا تقدم تفسيرات لبعض العلوم والمباحث الطبيعية [3].

ويطلقون على النوع الثانى اسم الميتافيزيقا النقدية والدين الوضعي ، كمـــا يطلقون عليه اسم الفلسفة العلمية ،أو الدين الطبيعي ، وربما تكاثرت التسميات ، وتدافعت الاحتمالات ، لكنها تمثل الجانب التحليلي ، أو الفلسفة الطبيعيـــة لـــدى الوضعية المنطقية ، وهذا ما يجعل أى دارس يقف موقف الحيرة والقلـــــق ، إذ كيف تتمثل في الإفهام أو بعضها فكرة عبادة الإنسان العاقل المفكر إلى الأفكـــار التي لا يوجد لها واقع صحيح كالحال مع الوضعية المنطقية .

لكنهم بهذه التسميات يحاولون الابتعاد عن إطلاق اسم الميتافيزيقـــا علـــى الأبحاث التي يقومون بها خشية أن يقعوا فى دائرة الإيمان،وهـــى تســـميات لا

---

(١) ذهب الفارابي أبو نصر إلى تعريفه بأنه صناعة الكلام يقتدر بها الإنسان على نصرة الآراء والأفعال المحدودة التي صرح بها واضع الملة ، وتزييف كل ما خالفها ــ أبو نصر الفارابي ــ إحصاء العلوم ص ٧٠ .

(٢) العلامة كمال الدين بن أبي شريف ب، الهمام ــ المسامرة شرح المسايرة ص ١٠ مطبعة السعادة بالقاهرة

(٣)الدكتور / أبو بكر محمد عبد البر ــ الميتافيزيقا ص ١٨ طبعة أولى ١٩٥٧م .

يمكن اعتبارها بديلاً عن الميتافيزيقا التأملية وإنما تمثل اتجاهاً يعتمد على جزئية من جزئياته فقط .

٣ـ أنواع الميتافيزيقا :

والميتافيزيقا بالإطلاق العام تجئ الدراسة فيها من ناحيـــة الموضوعــات والوسائل والغايات إلى نوعين :

النوع الأول : الميتافيزيقا التأملية : وهى التى تقـــوم علـــى الإيمـــان بـــالغيب والتعرف على طرائق الاستدلال الموصلة إلى معرفة الخالق العظيم جل عـلاه ، كما تبحث عن أسباب الأشياء وعللها ، وجواهرها وحقائقها ، بغية الوصول إلى حقيقـــة الحقائق ، والوقوف على السبب الوحيد الذى منه تأتى كل الأسباب[١]، وإليه ترتد ، ويطلقون عليه اسم المبدأ الأول ، أو العلة الأولى [٢]، ويتسم هـــذا النوع بالإطلاق والتعميم .

النوع الثاني : الميتافيزيقا النقدية : وهى التى تتجنب البحث عن أسباب الأشـياء وعللها ، والعلاقات القائمة بينها ، وإنما تتجه مباشرة إلى استنباط القوانين التــى تحكم هذه العلاقات ، ومن ثم فإن هذا النوع يتسم بأنه نسبى احتمالي ، وقوانيــن الميتافيزيقا النقدية لا تخرج عن ذات الإطار [٣]، ومن البين أن هذين النوعيـــن

---

(١)الدكتور / محمد البهى ـ الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر ـ مشكلات الحكم والتوجيـــه ص ١٤٦ ط الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٥ / .

(٢) الإطلاق الأول يتمثل في إفهام الفلاسفة بينما الإطلاق الثاني يجرى في إفهام المتكلمين الذين كان حرصـهم أول الأمر قائماً على مواجهة الفلاسفة اليونان والسوفسطائيين بمثل أدلتهم ومناهجهم .

(٣)الدكتور / رمزى محمد تعيلب ـ موقف الوضعية من الميتافيزيقا ص ١٥ والملاحظ أن الوضعية المنطقيـــة يحصرون الميتافيزيقا التى يريدونها فى الفلسفة التحليلية ، كما يؤكدون على أن الفلسفة التحليلية هى وحدهـــا التى يمكن قبولها ، ويرفضون اطلاق اسم الميتافيزيقا على أية مباحث يتناولونها ، وإذا أطلقت فإنهم يحصرونها فى أضيق نطاق ، كما يبذلون جهودهم لاثبات أنه لاتوجد علاقة بين القضايا التى تبحثـــها الميتافيزيقـــا النقديـــة والأخرى التأملية ، وإنما ينظرون إلى كل منهما على أنها تمثل لوناً من التفكير العبثى أو اللامعقول وهم فى ذلك واهمون .

يتخالفان فى الموضوعات الدراسية ، وهذا يستلزم اختلاف الغايـات والنتـائج، متى جاءت الدراسة فى كل منهما على ناحية الانفصال .

بيد أن كلا من النوعين يتكاملان متى قصد الدارس الوقوف علـى حقيقـة الأشياء ، والعلاقات التى تربط بينها ، وهذا التكامل النوعى يجعل دراسة كـل منهما ذات غاية محددة ، ويكشف وجود العلاقات القائمة بين النوعين .

٤ ــ علاقة الميتافيزيقا بالفلسفة :

لاشك أن الألفاظ قد يحدث بينها نوع من التلاقي أو الافـتراق ، كمـا قـد يحدث بينها العموم والخصوص المطلق أو الوجهى ، ولما كانت ألفاظ اللغة قـد وضعت فى الأصل على التواضع والاتفاق ، لقول ما وإطلاقه على معنى بذاته، فما من لفظين أو أكثر إلا وتوجد بينها علاقة من نوع ما ، سواء أكان ذلك مـن ناحية اللغة أم من ناحية المعنى ، أم منهما معاً. بيد أن كـلاً مـن الفلسـفة أو الميتافيزيقا له خصوصية فى الاستعمال ، ولذا يحسن بيـان العلاقـة بينـهما ، والآراء فى المسألة .

أ ــ الانفصال والتغاير :

ويذهب أصحاب هذا الاتجاه إلى أن الفلسفة تغاير الميتافيزيقا تماماً بتمـام من ناحية الاسم ، فهذه فلسفة ، والثانية ميتافيزيقا ، ومن ناحية التعريف حيـث تعرف الفلسفة لدى أرسطو مثلاً بأنها كسب أو تحصيل المعرفة ، كما عرفـها بأنها معرفة الأمور الأزلية ، ومعرفة حقائق الأشياء على ما هى عليه [1]وهـذا التعريف جعل الفلسفة شاملة لكل من :

- الجدل : وهو الذى يشمل النظر فى العلم الإنساني ، ومسائل ما وراء

---

(١)الدكتور / صلاح عبد العليم ابراهيم ــ دراسات فى الفلسفة ص ٢٢ ط ١٤٠١ /١٩٨١م .

الطبيعة التى تتعلق بالوجود ككل والمعقولات الأولى[١] بصفة خاصة ٠

- العلم الطبيعي : وهو العلم الذى يشمل البحث في العالم الطبيعي ، وعلوم الطبيعة ، والفلسفة الطبيعية وعلم النفس ، ومن ثم فهو يبحث فى العلاقات التى تربط بين الأشياء على نحو من الأنحاء .
- علم الأخلاق : وهو الذى يبحث فيه مسائل السلوك الإنساني ، وما يتعلق به على وجه تفصيلي [٢] .

أما الميتافيزيقا فتعرف بأنها البحث الجاد فيما يتعلق بطرائق الاستدلال على الله تعالى والنبوات واليوم الآخر [٣] وبناء عليه فكل من الفلسفة والميتافيزيقا يغاير الثانى فى التسمية والموضوع والغاية بجانب المنهج والوسيلة ٠

ب ـــ الترادف :

يذهب فريق آخر إلى أن بين الميتافيزيقا والفلسفة ترادفاً فى المفهوم بحيث إذا أطلق لفظ الميتافيزيقا فهم منه الفلسفة ، وإذا قيل لفظ الفلسفة فهم أن المراد هو الميتافيزيقا ، كما أن موضوعاتهما واحدة ، والنتائج التى يبحثان عنها واحدة والغايات الكامنة فى كل منهما واحدة ،ان لم تكن متقاربة [٤]٠

---

(١)المعقولات الأولى هي ما يكون بازائها موجود فى الخارج ، نحو طبيعة الإنسان فإنهما يحملان عل كل موجود خارجي كقولنا زيد إنسان والفرس حيوان ، أما المعقولات الثانية فهى ما لا يكون بازائها موجود فى الخارج كالنوع والجنس والفصل فانها لاتحمل على شئ من الموجودات الخارجية راجع للعلامة عبد الرؤف المناوى " التوقيف على مهمات التعاريف ص ٦٦٧ ط دار الفكر المعاصر بيروت ١٤١٠هـ تحقيق الدكتور / محمد رضوان الدايه .

(٢)الدكتور / يحيى هويدى ـــ مقدمة فى الفلسفة العامة ص ٣٣ بتصرف يسير .

(٣)الدكتور / أبو بكر محمد عبد البر ـــ الميتافيزيقا ص ١١ ط أولى ١٩٥٥ ط دار الفارس بالمغرب .

(٤)الدكتور/ فوزى محمد جبران ـــ الميتافيزيقا والفلسفة ص ٢٣ ط ثانية ١٩٦٦ ولاشك أن الفلسفة اليونانية أو الفلسفة العامة فضلاً عن الفلسفات الأخرى كلها لاعلاقة لها بالميتافيزيقا ، لأنها جميعاً تبحث عن أصل الكون ولا تستدل عليه والفرق بين المفهومين كبير .

ولعل هذا الرأى قام على مفهوم الفلسفة الإسلامية ، فإنها التى قد يقع معــها الترادف بالنسبة للميتافيزيقا متى روعي في كل منهما أنه البحث عن الأســـباب التي توصل إلي معرفة حقائق الأشياء ، بغرض الوصول إلي معرفـــة الخـــالق العظيم جل علاه .

ج ــ العموم والخصوص المطلقين :

أصحاب هذا الاتجاه يرون أن الفلسفة أعم من الميتافيزيقا لأنها تتناول العالم الغائب والمشاهد معاً ، أو عالم الغيب وعالم الشهادة ، أما الميتافيزيقا فهى امـــا أن يراد بها ، ما يقابل عالم الشهادة فتكون قاصرة على عالم الغيب ، ومن ثـــم تكون أخص من الفلسفة ، واما أن يراد بها دراسة الإلهيات ، وحدهـــا فتكــون أخص الأخص [1] ومن ثم فالعلاقة بينهما العموم والخصوص المطلقين ، علـــى أساس أن الفلسفة أعم مطلقاً ، بينما الميتافيزيقا أخص مطلقاً ولكـــل مـــن الآراء الثلاثة والاتجاهات التي قامت عليها بعض المبررات التي قد تنال القبـــول فـــي بعض الأحيان ، وقد لا تنال ذلك أبداً .

<u>ثانياً : موقف الوضعية المنطقية من الميتافيزيقا :</u>

لما كانت الوضعية المنطقية لا تؤمن إلا بالمحسوس ، ولا تســـلم بوجـــود العالم الغائب على أساس أنه غير خاضع للتجربة الحسية ، أو الخبرات الذاتية ، كما لا تخضع المفردات الدالة عليه لمنطق التحليل اللغوى على الناحيـــة التـــى يريدونها، فقد أعلن دعاتها رفضهم للميتافيزيقا التأملية مطلقاً ، واعتقادهم فـــــى الميتافيزيقا النقدية وحدها ، وبالتالي يستتبعه حصر مهامهم المعرفية فيما يمكـــن إدخاله ميدان التجربة الحسية حتى يتم الحكم عليـــه بـــالصدق أو الكـــذب ، أو الاحتكام فى قبوله أو رفضه للخبرات الذاتية .

---

(١)يراجع كتابنا . رياض الأشواق فى الميتافيزيقا والأخلاق ص ٣٥ ط أولى ١٩٩٥م .

ولما كانت الميتافيزيقا التأملية لا يمكن إخضاعها لشئ من ذلك فقد أعلنوا استبعادهم لها تماماً ، وإنكارهم وجودها على كل ناحية معرفية ، وفوق ذلك فلم يكن لديهم أدنى استعداد للسعي نحوها ودراستها ، كما أن تسامحهم الفكري تضاءل بالنسبة لها وضاق تماماً عن قبولها [1] .

بيد أن إنكارهم لها فى المعرفة ، واستبعادهم إياها قد أقاموه على شبهات عندهم ظنوها قواعد ثابتة ، ومن ثم فمن الضرورى عرض شبهاتهم ، ثم مناقشتها لبيان ما يمكن اعتباره مقبولاً من هذه الشبهات لكونه معقولاً ، وما يمكن اعتباره غير معقول فيكون مرفوضاً ، على أساس أن الفرق بين المعقول واللامعقول قد يكون واضحاً جداً ، يدرك بالبديهة ، وقد يكون دقيقاً يحتاج فى إبرازه إلى نوع من النظر العقلى والتأمل الفكرى وها هى الشبه على سبيل العرض ثم المناقشة .

الشبهة الأولى : إن قضاياها ليست محسوسة :

أ ـ عرضها :

المعروف أن الموجودات قسمان ، **أحدهما:** هو القسم الواقع فى عالم الشهادة وهو متنوع إلى ما هو واقع تحت الملاحظة الحسية والتجربة الذاتية ،

---

(١) ولما كانت الميتافيزيقا التأملية متعلقة بالمباحث التى يقوم فيها العالم الغائب ، فقد نالت عناية القدامى والمحدثين ، بل يمكن الوقوف على بعض مباحثها لدى كل من الهنود ، والصين والقدماء من المصريين الذين بحثوا فى الفكر النظرى والطبيعى ، بدليل أنهم تحدثوا عن الآلهة وعلاقتها ببعضها ودور هذه الآلهة فى تنظيم الحياة مع البشر ، كما أن هذه الشعوب ظهر فيها من آمن بالحياة بعد الممات كالحال مع بعض المصريين القدماء والذين تصوروا الميزان وعمليق الثواب والعقاب اللتين تقومان على الطهارة الخلقية والسلوك الإنسانى والتفرقة بين الجسم الإنسانى والروح التى تجرى فيه ، والانتهاء إلى وجود ثنائية فى الكون ترجع إلى جوهرين أحدهما روحانى والثانى مادى الدكتور / حنا الفاخورى والدكتور خليل الجر ـ تاريخ الفلسفة العربية ج ١ ص ١٩ الطبعة الثانية دار الجيل بيروت ١٩٨٢م .

بجانب التحليل المنطقي ، وهو العالم الطبيعي التجريبي ، وإلى ما هو ممكن الوقوع تحت الملاحظة الحسية والتجربة الذاتية والتحليل المنطقى ، وهو الجانب الثانى من العالم الطبيعي ويعبر عنه بالعالم القابل للاكتشاف [١] وأنواع هذا القسم خاضعة لأحكام الحواس الآن ، كما إنها قابلة للوقوع تحت سيطرة الحواس في الحال أو الاستقبال .

الثاني : وهو القسم الواقع فى عالم الغيب ويتنوع إلى ما هو مصرح به فى النقل المنزل[٢] ، وإلى ما هو مشار إليه بالتلميح الإجمالى[٣] ، وإلى ما تمت الإشارة إليه فى ثنايا الحديث عن غيره ، وهذا القسم غير مدرك بالحواس، كما لايمكن معرفته لكثير من الناس ، وإنما هو من علم الغيب قال تعالى : **"عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا "** [٤] دليل ذلك ما روى عن حذيفة رضي الله عنه قال : لقد خطبنا النبي صلى الله عليه وسلم خطبة ما ترك فيها شيئاً إلي قيام الساعة إلا ذكره ، علمه من علمه ، وجهله من جهله ، ان كنت لرى الشئ قد نسيت ماعرف ما يعرف الرجل إذا غاب عنه فرآه فعرفه [٥] . وقال تعالى : **"إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ**

---

(١) الدكتور / محمد على طلبة ــ الفلسفة الإسلامية ص ٣٧ ط أولى ١٩٦١م .

(٢) كالعوالم العلوية من اللوح والقلم والعرش والكرسي وسدرة المنتهى فإنها جميعاً وأمثالها موجودات غير مدركة بالحواس ولكن مصرح بها في النقل المنزل.

(٣) قال تعالى : " ويخلق ما لا تعملون "، وكذلك ما كان من قبيل الغيب الذى وضعت أسبابه في الأرض والإنسان بفعله يعمل على إخراجها واكتشافها .

(٤)سورة الجن الآيتان ٢٦ ، ٢٧ .

(٥)الشيخ محمد زكى الدين محمد أبو القاسم ــ جامع البيان لما اتفق عليه الشيخان ــ الجزء الثالث تتمة القسم الأول ــ العقائد ص ٧٦ والحديث متفق عليه طبعة دار الصفوة ــ الغردقة .

مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ [1] قـــال الشيخ البروسوى إن الله عنده علم وقت قيام القيامة وما يتبعـــه مـــن الأحـــوال والأهوال وهو وحده المتفرد بعلمه ، وإنما أخفى الله وقت الساعة ليكون النـــاس على حذر وأهبة ، وينزل الغيث الذى به يقات الخلق حيث ينزله فى زمانه الذى قدره إلى محله الذى عينه فى علمه ، فهو متفرد بعلم زمانـــه ومكانـــه وعـــدد قطراته ، ويعلم ما فى الأرحام التى هى منبت الولد ذكراً كان أم أنثى ، حيا كان أم ميتاً ، كما يعلم صفاته أتام هو أم ناقص ، حسن أم قبيح ، ســـعيد أم شـــقى ، وكذلك ما فى الأرحام من الحيوان وغيره ، وما تعلم نفس من النفوس المدركـــة العاملة المدربة أى شئ تكسب غداً من اجتلاب المنفعة وتحصيل الحظ ، فإذا لـــم يكن المرء عالماً بما يجئ فى غده مع قربه ، فإن نفى علمه بما بعده أولى ، وما تدرى نفس وان أعملت حيلها بأى أرض تموت من بر وبحر ، وسهل وجبـــل ، كما لا تدرى فى أى وقت تموت إن الله عليم فلا يخفى عليـــه شـــئ ببواطنـــها وظواهرها ، فمن ادعى علم شئ من هذه المغيبات الخمس فـــهو كـــافر بـــالله تعالى[2].

وكل من عالم الشهادة ــ العالم الطبيعى ــ وعالم الغيب مخلوق لله ، واقـــع تحت سلطانه وجوداً لما هو موجود ، وعدماً لما هو معدوم ، وقائم فى علـــم الله تعالى على سبيل الإمكان وجوداً أو عدماً ، وإلى ما علم الله تعالى أزلاً انه لـــن يوجد أبداً ، وإلى ما علم الله تعالى أنه لن يعدم أبداً ،وهى مسألة نعتقدها نحـــن المسلمين .

---

(١)سورة لقمان الآية ٣٤ ،

(٢) الشيخ / اسماعيل حقى البروسوى ــ تنوير الأذهان المجلد الثالث ٢١٢ / ٢١٣ بتصرف يسير .

أما الوضعية المنطقية أو أصحاب فلسفة التحليل فقد أعلنوا اعتقادهم في وجود العالم المحسوس وحده ، أما ماليس بمحسوس فإنهم يعلنون إنكارهم له بمعنى أنه ليس موجوداً أبداً ، وعدم قبولهم إياه ، زاعمين أن الموجود هو المحسوس فقط ، وأن ما ليس بمحسوس لا يمكن الحكم عليه بأنه موجود على أية ناحية من النواحي ، والمحسوس في نظرهم أو الذي يمكن الحكم عليه بأنه محسوس هو ما يخضع للملاحظة العلمية ، والتجربة الحسية ، ويمكن ضبطه من خلال الخبرة الذاتية .

أو يمكن إرجاع الحكم عليه في وجوده إلى التحليل المنطقي في اللغة ، وبناء عليه فما لا يخضع لهذه الإجراءات لا يكون موجوداً . يقول : فبرباخ من الصعب على لغة العلم التصديق بوجود أشياء غير محسوسة ، كالتي تتحدث عنها الميتافيزيقا التقليدية ، إذ لا طريق لإثباتها أو تكذيبها [1].

ونفس الفكرة يعلنها الدكتور / زكى نجيب محمود حيث يقول : ان الذى نتصدى لإنكاره في هذا الكتاب [2]إنكاراً قاطعاً ، هو امكان التحدث عن أشياء غير محسة ، وهو موضوع الميتافيزيقا بالمعنى الذى نرفضه[3]ولا شك أن الموقف الثاني ما هو إلا ترجمة للأول ، وإعلان صريح بأنه صورة للفكر المادى الذى حصر ذاته في المادة وحدها ، وإنكار الغيب بكل ما له من مفهوم لأنه ليس مادة محسوسة ، ولما كانت هذه الشبهة يرددها الوضعيون أينما كانوا فإن مناقشتها تعتبر أمراً ضرورياً .

---

(١)الدكتور فايز عبد البديع صبرى ــ الوضعية وقضية العلم ص ١٥١ .

(٢) خرافة الميتافيزيقا أو نحو فلسفة علمية ، أو موقف من الميتافيزيقا وهي كلها أسماء متعددة لمسمى واحد.

(٣)الدكتور / زكى نجيب محمود ــ موقف من الميتافيزيقا ص ٦ .

ب ــ مناقشتها :

أولاً: تناقض الوضعية : لاشك أن هذه الشبهة تكشف عن تناقض الوضعية المنطقية مع نفسها أما لماذا ؟ فلأنهم يعلنون عدم وجود غير المحسوسات ، ولابد لهم من تعريفها ــ غير المحسوسات ــ حتى يعملوا على إنكارها، لأنه لا يمكن لعاقل أن ينكر مجهولاً[1] فإذا تحولت أجزاء العالم الغائب إلى معلومات يسعى الوضعيون من المناطقة إلى إنكارها ، فقد أثبتوا اعترافهم بها ، أو تناقضوا مع أنفسهم فى إنكار وجودها مع علمهم بها ، ولا يستقيم الإثبات ــ والإنكار على جهة واحدة أبداً .

ثانياً : الضرورة العقلية تكذبها : ذلك أن كل إنسان يدرك من نفسه رغبة فى فعل شئ ما أو الكف عنه ، طبقاً لإرادته وقصده ، كما أن كل عاقل يجد فى نفسه منطقة يحتفظ فيها بأسراره الخاصة ، التى لا يجب أن يطلع عليها أحد سواه[2] وفوق ذلك فما من إنسان عاقل إلا وفيه جانب إبداعي تنظمه قاعدة الفروق الفردية والقدرات العقلية ، ولا شك أن مفاهيم القصور والإرادات بجانب النوايا والضمائر والفروق الفردية ، ليست هى الأجزاء المادية التى يتكون منها

---

(١) وهو منهج علمى قام به الإمام الغزالى فحين أراد مهاجمة الفلسفة لم يرجمها بغيب ، وإنما سارع إلى دراستها دراسة موضوعية متأنية ، حتى إذا سبر أغوارها وأطلع على أسرارها ، ورأى ما اعتبره من وجوه القصور التى تجئ فيها لجأ إلى مهاجمتها عن طريق تجميع الشبهات التى غلبت عنده فى كتاب مستقل أطلق عليه اسم مقاصد الفلاسفة ، ثم قرر أن يجهز على هذه المقاصد فى النفوس فكان كتابه تهافت الفلاسفة ، وكان المناسب أن يقول مقاصد الفلسفة ، وتهافت الفلسفة لكنه لم يقصدها لذاتها وإنما قصدها والقائمين عليها فكان واضح المنهج والغاية ، محدد الهدف ، ولو لم يعلن عن رأيه مسبقاً من أنه قصد هدم الفلسفة والفلاسفة ما صادر على مطلوبه وكان له متسع فى إعادة المهاجمة عدة مرات وهو ما حدا بابن رشد الفقيه المالكى إلى الرد عليه وتأليف كتابه تهافت التهافت .

(٢)ويذهب البعض إلى أن هذه المنطقة الخاصة يمكن تسميتها بالضمير ويستشهدون على ذلك بقول النبى صلى الله عليه وسلم البر ما اطمأنت إليه النفس ، والإثم ما حاك فى الصدر وكرهت أن يطلع عليه الناس ــ والحديث من رواية سيدنا وابصة وهو طويل وفيه معان كثيرة ، كما يحمل قضايا عديدة .

البدن ، كما أنها ليست رجع صدى لأى جزء من أجزائه ، فثبت بالضرورة العقلية تمايز هذه المفاهيم عن البدن المادى .

وكل عاقل يدرك من نفسه هذه التفرقة ، بل ويراها حاسمة طبقاً لقاعدة المعلومات التى يحتفظ بها ، والإمكانيات التى تخصه ، كما أن كل صاحب تفكير سليم يدرك ما تقوم به الأعضاء البدنية ،وأنه غير ما تقوم به النوايا والقصود والإرادات [1]، من ثم يتأكد له أنها موجودات مدركة بأمثالها ، وهى أوسع من الجزء المادى فى الإنسان نفسه ، وأشد عمقاً ، بل وأكثر تأثيراً ، ومن ينكر وجودها إنما ينكر وجود نفسه بالأولى طبقاً لأحكام الضرورة العقلية .

ثالثاً : الثنائية المشهورة : كل العقلاء يدركون أن الإنسان جسم وروح ، بدن وعقل ، وأن الجسم المادى الظاهر تسرى فيه روح غير ظاهرة ، سريان الماء فى العود [2]، وأنه صورتها تماماً ، ولكل منهما عمله الخاص ، وموضوعه وتعريفه بحيث لايمكن القول بأن أحدهما هو الثانى .

ونفس الحال مع البدن والعقل فأجزاء البدن ظاهرة من يد وعين وأنف وما يتعلق بالأبعاد الثلاثة الطول والعرض والعمق ، أما العقل فأجزاؤه غير مرئية ، لكنها تظهر فى الفروق الفردية والملكات العقلية[3]، فإنكار الورح أوالعقل مجرد فرض جدلى يعوزه الدليل ، فإذا ردد أحد مقولة أن الروح هى الجسم كما ذكر

---

(١)كما أن النوايا هى الأخرى غير القصود وهما معاً غير الإيرادات، وهذه التفرقة كفيلة بإبراز أوجه الاختلاف والاتفاق فى الفكر الإنساني بصفة خاصة .

(٢) حيث تعرف الروح بأنها جسم لطيف مشتبك بالجسم اشتباك الماء بالعود ، وأنها سارية فيه سريان الريحان في الورود .الشيخ محمد لطفى فضل الله أساسيات العقيدة ص ٥٣ ط أولى ١٣٣٧هـ .

(٣)الدكتور / فؤاد محمد خليل ــ نظرية الفروق الفردية ــ دراسة تحليلية ص ١٧ ط أولى دار المنشأة ١٩٦١

الأصم أو عنه نقل فلا يمكن أن تكون الروح هى أيضاً العقل والجسم [(١)].

بدليل أن كل الناس ليسوا فقهاء ، وليس كلهم أطباء ولا فلاسفة ، بل فيهم الفقيه النابه بمسائله والخامل الكسول الذي لا يمكنه التعرض لأبسط المسائل إلا ويقع في الخطأ ، فإذا حاولت إدخال هذا المثال إلى العلوم الأخرى كالجغرافيا مثلاً لم يكن بارزاً فيها ، نفس بروزه فى الفقه مثلاً .

كما أن الفقيه المتمكن لن يكون على نفس المستوى حين يتعرض لدراسة العلوم الجيولوجية أو البيوكيمائية أو غيرها من العلوم التي وقف عند بلوغها ، وعجز عن الإصابة بسهم فيها[(٢)]،وقد اعترف الإمام السيوطى بأنه ضرب فى كل العلوم بسهم وافر لكنه فى الحساب ظل يعانى أشد المعاناة ، وان أبسط مسألة حسابية تعرض له كانت تكلفه مجهوداً كأنه ينقل جبلاً [(٣)] .

ونفس الموقف تم بالنسبة لديكارت — مع اختلاف فى الجهة — الفيلسوف الرياضى صاحب الجهود الكبيرة فى الهندسة التحليلية حيث ظل يعلن أن أصعب شئ عليه هو استظهار قصيدة شعرية مهما كانت قليلة الأبيات ، وقد اعترف بأن أستاذه ضاق به كثيراً من ذلك الموقف ، وأن هذا التلميذ كان يهرب من دروس الأدب والنثر مفضلاً تحمل العواقب [(٤)] .

وما دامت هناك ثنائية فى كل إنسان أحد طرفيها هو الجانب المادى المرئى الواقع تحت سيطرة الحواس ، فلا شك أن الطرف الثانى هو الجانب غير المادى

---

(١)نقل الإمام الأشعرى عن الأصم أنه كان يقول النفس هى هذا البدن بعينه لاغير ، وإنما جرى هذا الذكر على جهة البيان والتأكيد لحقيقة الشء لا على أنها معنى مغاير للبدن ، الإمام أبو الحسن الأشعرى مقالات الأسلاميين ج ٢ ص ٢٧ تحقيق الشيخ/ محمد محى الدين عبد الحميد ودعوى الأصم لايسمع لها ، كا أنها لا تعتمد على قواعد صحيحة .

(٢) الدكتور / عبد العظيم محمد عبد الوارث — الإسلام والعلوم العقلية ص ١٣٧ ١٩٥٧م .

(٣)الإمام / جلال الدين السيوطى — حسن المحاضرة ص ١١٧ .

(٤)الدكتور / حسن السيد طه — ديكارت ص ٥٣ ط الثانية ١٩٥٧ م

الذى لا يقع تحت سيطرة الحواس ، فمن أنكر وجود غير المحسوسات فإنما ينكر عقله وروحه ، بل بالأحرى ينكر ذاته ، ومثله لا يلتفت إلى قوله ، ولايعتنى أحد بذكره لأن الجانب المادى يذبل وقد لا يذبل طبقاً لقاعدة العوارض من صحة ومرض [١]، أما الجانب غير المادى فإنه ثابت من حيث هو ، كما أنه متسع لكل المعارف طبقاً لقاعدة التراكمات الذهنية [٢]، والفرق بين الاثنين يكشف وجودهما معاً في كل إنسان ، فإنكار أحدهما إنكار للآخر، ولابد من الاعتراف بوجود الاثنين وإلا كان المنكر لهما أو أحدهما قد فقد الصواب ، كما لم يعد له من مكان بين العقلاء ، وهل يأخذ أحد بالمفردات التي تخرج من أفواه البله أو المجانين ؟.

- **رابعاً : التبدل والثبات :**

من المشهور في الدراسات العلمية أن البدن وهو الجانب المرئي في الإنسان قد يصيبه شئ من العلل التي يعقب بعضها النقص في جزء من أجزاء ذلك البدن كبتر الساق ،أو اليد أو الأذن أو أى عضو آخر ، فيقع في الجانب المادى عجز يتناسب مع الجزء الذى بتر [٣].

---

(١)قاعدة العوارض تقوم على أن ما لا يولد به المرء لا يكون ذاتيا به ، وإنما يكون من جملة العوارض ومنها الصحة المال ، والولد ، والأهلون ، بجانب كبر الحجم وصغره ولون البشرة الجلدية ، وهى صفات عرضية أيضاً ، ومنها الحب والبغض إلى غير ذلك مما يجئ على هذه الناحية ، وهذه القاعدة تجرى فيها العوارض بمعنى قد يغاير ماهى عليه بين المتكلمين والمناطقة والفلاسفة أيضاً .

(٢)قاعدة التراكمات الذهنية تقوم على أن الإنسان يولد خالى الذهن ثم يأخذ فى اكتساب معارفه الأولية شيئاً فشيئاً وهذه المعارف تتراكم فوق بعضها بحيث تمثل له ثروته الفكرية واللغوية ، وهى تتسع كلما بذل صاحبها جهداً فيها وبخاصة فى المعارف الكسبية ، أما المعارف الإلهامية فلها شأن آخر .

(٣) فإن من بترت ساقه تحت عجلات قطار ما ، أو تحت تروس آلة من الآلات فإنه يظل متذكر الواقعة لأنها محفورة فى عقله مع أن الجزء الذى بتر تآكل تماماً فالتروع والوجدان يسيطران عليه وكلما تذكر ما حدث له نفر منه خائفاً فالفرق بين الجسم المحسوس والأمور غير المحسوسات كبير من هذه الناحية .

وفى نفس الوقت فإن عواطف ذات الإنسان ومشاعره من حب وبغض ، ومعارفه من تذكر واسترجاع لا يحدث فيها شئ من العجز بناء على نقص الجزء الذى بتر من الجسم ، بل يضاف إلى رصيده الذهني الواقعة التى أودت به إلى بتر ذات الجزء [1] ، فتصير أجزاء البدن قابلة للتبدل .

أما الجانب الغير مرئى فى الإنسان فإنه ثابت على أصله قابل للزيادة عليه كما أنه قادر على استرجاع ما فاته ، ومن ثم يصير وجوده أظهر من وجود المحسوسات وأقوى [2]، بل وأوسع ميداناً ، وأكثر انتشاراً.

من ثم يمكن القول بأن الوضعية المنطقية لما أراد اتباعها التمسك بالمحسوسات فقط ،وإنها هى وحدها الموجودات، فلزمهم اعتقاد وجود غير المحسوسات من باب أولى،حتى يمايزوا بين المحسوسات والغائبات أثناء الحكم على كل من موجودات عالم الغيب والشهادة .

خامساً : نفى الإثبات وإثبات النفى :

من المعلوم أن نفى النفى أثبات ، وبناء عليه فمادام الوضعيون قد سعوا إلى إثبات أن نفي وجود ما ليس بمحسوس ، فقد عزلوا المحسوسات عن غير المحسوسات ، وبالتالي أثبتوا وجود الأثنين معاً ، بينما كانت غايتهم هى إنكار وجود غير المحسوس [3] وهو دليل على أن القوم خلطوا بين هذه وتلك ، فلما عجزوا عن تقديم أدلة تفيد حصر الموجودات فى المحسوسات فقط وقعوا فى إثبات أن الموجودات منها محسوسات يتمسكون بإثباتها ، وغير محسوسات يتمسكون بنفيها .

---

(١) الدكتور / محمد السيد نبوى ــ مشكلات الفكر المادى ص ٤٣ ط دار التوفيق ١٩٥٧ م .

(٢) الدكتور / عبد العاطى حسن يوسف ــ الإنسان فى الأديان ص ١٥١ ط أولى ١٩٥١م .

(٣) الدكتور / محمد السيد نبوى ــ مشكلات الفكر المادى ص ٧١ .

ومن ثم فقد لزم إما اعتقاد وجودها جميعاً المحسوسات وغير المحسوسات، أو إنكارها جميعاً ، وهم لا ينكرون الماديات حسب دعواهم ، وبالتالي فلابد لهم من الإقرار بوجود غير الماديات أيضاً وحينئذ تزول قضيتهم الأساسية[١] وأيضاً حديث النفس الذي يساورهم في الوصول إلي الإنكار هو نفسه إما أن يكون مادياً وهم لا يتمكنون من التجريب عليه ،أو يكون غير مادي وهم ينكرون وجـــوده، فكل من الماديات المثبتة تثبت به الموجودات غـــير الماديـــة ، كمـــا أن غـــير الماديات المنفية يترتب عليه إنكار وجود الماديات وهو المقصود عندي بمفـــهوم نفى الإثبات أو إثبات النفي .

سادساً : التقيد والانطلاق :

الجزء المادي فى الكائن الحي مهما علا قدره ، فهو مقيد بالزمان والمكـــان والحركة ، بجانب الأبعاد الثلاثة الطول والعرض والعمق ، ومثله تكون حركتـــه مقيدة بقيود عديدة وهو ما ينطبق علي كافة الأجسام ، ومنها الجســـم الإنســـاني ويدرك ذلك كل إنسان منا لكن الجزء الغير مادى كالعقل والروح فى الإنســـان مثلاً ، فإنه لا يتقيد بهذه القيود .

بدليل أن الواحد منا قد يكون نائما فى فراشه ، أو جالساً على مقعده فـــى منزله وجسمه مقيد بهذه العوارض ، أما عقله فإنه ينطلق إلى الأماكن المقدســـة حـــيث يتذكر آخر مرة حج بيت الله تعالى فيها [٢] واعتمر، وتظل هذه المشاهد

---

(١)هذا المنهج هو الذى تبناه الشيخ الرئيس ابن سينا أثناء إبطاله مزاعم الحسيين فى إنكار وجود مـــا ليـــس بمحسوس ، حيث أن الأمر لايقف عند حد اثبات أحدهما ونفى الثانى ، وإنما لابد من إثباتهما معاً ، أو نفيـــهما معاً راجع الإشارات والتنبيهات القسم الثالث النمط الرابع في الوجود وعلله تحقيق الدكتور سليمان دنيا ..

(٢)دليل ذلك قوله تعالى : " فأجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وأرزقهم من الثمرات لعلهم يشرون " ســـورة إبراهيم الآية ٣٧ قال ابن عباس لو قال أفئدة الناس لازدحمت عليه فارس والروم والناس كلهم ولكنه قال من الناس وهم المسلون وحدهم ــ الإمام القرطبي ــ الجامع لأحكام القرآن ج ٩ ص ٣٧٣ .

مستولية على وجدانه تنقله من مشهد إلى آخر ، ومن مكان إلى الثانى من غير أن يتحرك بدنه الذي تربع ثابتاً في مكانه.

فحركة الجسم المادى بناء على ما سلف مقيدة ، أما حركة العقل والروح والنفس — وهي من الجانب غير المادى فى الإنسان — فإنها منطلقة لا تتوقف وانطلاقها يكون من خلال عمليات عقلية خالصة ، وقد يتذكر المرء موقفاً تم فيه التعاطف ، أو استرعى العقل فدفعه للتراحم ، أو جذب إليه العواطف النبيلة [1] كوداع صديق عزيز إلى الدار الآخرة ، أو إلى سفر يطول ، أو فقد شئ كان يعتز به .

ربما يقال أن التذكر العقلى والاسترجاع الذهني يمثلان فى الوضعية المنطقية الخبرات الذاتية التي هي وليدة التجارب الحسية ، وبالتالي فهم لا ينكرونها لكنهم يعتبرونها خبرات ذاتية تمثل رجع صدى ، وصوراً ثابتة لموجودات وأعمال كانت فى الأصل مادية؟

والجواب : إنا لا نعنى بالتذكر والاسترجاع الصور الملتقطة من المحسوسات حتى يمكن حسبانها من الخبرات الذاتية ، إنما نعنى عملية التذكر ذاتها كشريط أحداث يتحرك فى العقل والذاكرة لاعلى أنه صور المحسوسات[2] وبعبارة أخرى نقصد العملية الذهنية من حيث هى ، ولا نقصد ما يجرى فيها وهو الموضوع الذى تتم عليه عملية الاسترجاع أو التذكر أو ما شابه ذلك ، والفرق بين العملية ذاتها ، وبين الموضوع الذى تجرى فيه كبير جداً .

---

(١)راجع فى المسألة للشيخ عبد العظيم طلبه الضانى — الروح الإنسانى ص ١٥١ طبعة الدار العثمانية ١٣١١هـ .

(٢) لأنه لو تم التعامل مع هذه المعقولات من حيث هي معقولات فان المسألة تكون أكثر وثوقاً وأعلى من ناحية التوقع ، وأكثر تأكيداً على الفوارق القائمة بين الماديات وغير الماديات .

ثم إن الذهن الإنساني قد يتخيل أموراً لم تدرك له بخلد ، وليس لديه علم مسبق بها ، كما لاصورة لها فى ذهنه بحيث يقال انه اقتبسها من موجودات محسوسة ، وكل الأسوياء يدركون ذلك من أنفسهم ، ولاشك أن عملية التخيل لأمور ليست لها صور فى الواقع المادى ، ولم يسبق التقاط صور لها من ناحية الماضي يمثل اعترافاً صريحاً بأن هناك موجودات غير محسوسة .

أضف إلى ما سبق أن ما تحدث عنه النقل المنزل من نعيم القبر وعذابه على ناحية تفصيلية أو إجمالية [1] لم تكن له فى العقل صورة انتزعها من الواقع المادى ، ولكن النصوص النقلية هى التى جاءت بها ، والعقل تصور جانباً منها طبقاً لما جاءت به ذات النصوص ، وهذا التصور العقلى فى توظيف جانب من النصوص يؤكد أن العقل يستطيع أن يثبت وجود موجودات غير محسوسة على ناحية من النواحي .

كما أثبت العقل — بعد النقل المنزل — ضرورة وجود الدار الآخرة ليقع فيها الثواب لمن أطاع ، والعقاب على من عصى ،وكان الفيلسوف الألماني عمانويل كانت يقول: إنى أعتقد عن طريق العقل ضرورة وجود دار أخرى، غير التى نعيش فيها يقع فيها الجزاء ثواباً أو عقاباً [2] ومن ثم فإنى أعتبر هذه الشبهة متهافتة وغير معقولة أيضاً .

الشبهة الثانية : عجز قضاياها عن إثبات صدقها :

أ — عرضها : يقرر أصحاب الوضعية المنطقية أن الميتافيزيقا التأملية عاجزة عن إثبات صدق ما تدعيه من قضايا أو صحة ما تزعمه من مقدمات أما لماذا؟

---

(١)ففى الحديث الشريف القبر إما روضة من رياض الجنة وإما حفرة من حفر النار .— الإمام النووى — الأذكار نعيم القبر وعذابه ص ٣١٣ .

(٢)الدكتور / محمد السيد نبوى مشكلات الفكر المادى ص ١٥٧ وراجع للأستاذ وحيد الدين خان الإسلام يتحدى أثناء الحديث عن اليوم الآخر .

فلأن هذه القضايا لا يمكن إجراء التجارب الحسية عليها ، كما لا توجد خبرات ذاتية تحكم في صدق قضاياها ، وفوق ذلك فان عملية التحليل اللغوي على الناحية المنطقية تؤكد عجز قضايا الميتافيزيقا عن إثبات صدقها .

فمثلاً القضايا القائلة بوجود المطلق ، وخارج الزمان ، والعلة الأولى أساس الوجود ، والروح حقيقة واقعة ، وأمثال هذه القضايا التى هى من موضوعات الميتافيزيقا التأملية ، لايمكن التأكد من صدقها ، أو كذبها ، لأنها جميعاً خارج نطاق إمكانية التصديق بها أو الحكم عليها ، وكل ما لا يخضع للتجربة الحسية ، أو الخبرات الذاتية ولا يمكن النظر فيه بعين التحليل المنطقى فإنه يكون مرفوضاً [(١)].

كما أن رفض هذا النوع من التفكير لا يؤثر على حركة العلم إيجاباً أو سلباً ، ولا يؤثر كذلك فى الاتجاهات العامة للفكر المطروح على ناحية تحليلية ، بل على العكس من ذلك فإن الاعتقاد فيها ، والإيمان بها يقود إلى السفسطة والجدل وحتما ينتهى إلى الوقوع فى الوهم [(٢)].

ثم إن هذا النوع من القضايا غير جدير بإطلاق اسم الميتافيزيقا عليه ، لأنها وان اعتقد البعض صدق قضاياها من الناحية النظرية ، إلا أنه ليس من الممكن الوقوف معهم على صدق هذه القضايا ، وإلا فما الدليل على كذب القضايا المتقابلة معها على سبيل التناقض ، فإذا كانت القضية القائلة بأن المطلق خارج الزمان صادقة عند الميتافيزيقية التقليدية .

---

(١)الدكتور / صبرى حسن جمال الدين ــ مشكلات الفلسفة المادية ص ١٢٥ ط أولى ١٩٦٧ .

(٢)لاشك أن هذا يمثل نوعاً من الجدل والغاية منه قلب الحقائق ، لأن الإيمان الصحيح يدعو إلى العلم ويحرص عليه ، أما الإلحاد فإنه يتلمس الطرائق البديلة للإيمان فى قضايا العلم المادى .

فما الدليل على كذب القضية المتقابلة معها ، القائلة بأن المطلق ليس خارج الزمان [١] إنهما معاً لايمكن التحقق من صدقهما إلا عن طريق التجربة وهما لا يخضعان لها[٢]، بينما التحليل اللغوى يمكن أن ينتهى إلى صدق القضية القائلة بأن المطلق ليس خارج الزمان ، لأنه لا وجود له ، ويؤكد كذب القضية الميتافيزيقية القائلة بأن المطلق موجود خارج الزمان .

على أن أرنست ماخ كان من أكثر المتحمسين لهذه المفاهيم حيث يقدم بحثاً فى كيفية استبعاد كل العناصر الميتافيزيقية التقليدية من المعرفة الإنسانية [٣] بزعم أنها لا يمكن إثبات صدقها أو كذبها ، وفوق ذلك فإنه يقول إذا كانت القضية التى تبحثها الميتافيزيقا التقليدية — فى المعرفة — من ذلك النوع الذى تجرى به ألسنة الناس دون اعتقاد صحته من خطئه ، فإن أخطار هذه القضايا على المعرفة الإنسانية لايمكن تفاديها ، أو معالجة ذات الأخطار الناتجة عنها .

بدليل أنه ما من مجتمع يعتقد أفراده هذه الأفكار إلا وعاشوا فى التخلف عن ركب الحضارة بمسافات طويلة ، لأنه مجتمع يعيش على الخرافات ، ويعتمد على الأوهام ، وتسيطر عليه اعتقادات أسطورية ، وهى كلها من ألد أعداء العلم [٤].

ومن ثم يجب التخلى عن الميتافيزيقا التأملية ، واستبعاد قضاياها من مجال التفكير العلمى ، ووضعها فى مجال القضايا التى تعجز عن إثبات صدقها .

---

(١)الدكتور / صبرى حسن جمال الدين — مشكلات الفلسفة المادية ص ١٤٧ .

(٢)هذا التركيز المتواصل على ضرورة التجربة والاحتكام إليها فى كل ما يتعلق بالعالم الغائب والمشاهد حسب ما يقول به الماديون إنما هو دليل على أنهم يعيشون فى الدين الطبيعى ،وليس الدين الالهى ، وبعبارة أخرى هو دليل على أنهم هجروا دين الله تعالى إلى دين صنعوه لأنفسهم ، وارتضوا السير فى هذا الاتجاه حتى النهاية .

(٣)الدكتور / عبد اللطيف محمد نصر الله الفقى — الفلسفة الحديثة ص ١٤٧ عام ١٩٥٧ م .

(٤)الدكتور / فايز عبد البديع صبرى — الوضعية وقضية العلم ص ١٤٧ ط أولى دار فواز ١٩٥٧ م .

ب — مناقشتها :

أولا : أن العلوم الإنسانية كلها تعجز وحدها عن إثبات صدق قضاياها أو كذبها وإنما الذى يقوم بذات الدور هو العقل الإنساني الذى مكن الله له من الأسباب حتى ينال منها ، فيثبت صدقها أو كذبها ، صحتها أو فسادها ، ومن ثم فإذا لم تتمكن الميتافيزيقا من إثبات صدق قضاياها ، فالعجز إنما يكون فى عقل الإنسان لا فى القضايا التي تتمثل فيها ، وكل العلوم الإنسانية من هذه الناحية سواء .

فالعقل الإنساني هو الذى يحكم ببداهة المقدمات أو بداهة النتائج ، كما أنه الذى يقضى بكون هذه المقدمات مظنونة أو متوهمة ، صحيحة أو فاسدة بناء على جملة من القواعد العقلية التقى عليها العظماء من الناس ، أو تواضعوا حتى صارت بالنسبة لهم قواعد ثابتة لها قوة البرهان العقلي ذاته [1] ومن ثم اعتبر العلماء أن المجادل فى صحة البرهان لا يلتفت إليه .

ثانيا : إن هذه الشبهة قد قامت على مظنونات تجرى فيها الاحتمالات المختلفة ، والوضعيون أنفسهم لا يقبلون من الأحكام ما كان قابلاً للاحتمال ، وهو المتمثل فى القضايا الإخبارية ، فإذا قبلوه فبناء على كونه منتظماً فى خبرات ذهنية متوافقة وتراكمات فكرية سبق التأكيد عليها ، والتماس الصواب عندها ، وبناء عليه فإن شبهتهم تكون ساقطة لقيامها مجرد على الاحتمال الكائن فى القضايا

---

(١)المعروف أن الحكم العقلى أنواع ثلاثة هى : أ — الواجب ويعرف بأنه الثابت الذى لايقبل الإنتفاء أصلاً بوجه من الوجوه ،وهو الحق الواجب الله سبحانه وتعالى .ب — المستحيل ويعرف بأنه المعدوم الذى لايقبل الوجود أصلاً بوجه من الوجوه ، وهو شريك البارى عز وجل . ج — الممكن ، ويطلق عليه الجائز أيضاً ويعرف بأنه ما يقبل الوجود تارة ، والعدم أخرى من غير ذاته كالعوالم كلها الموجود منها والمعدوم ، ما نعرفه وما لا نعرفه ، الغائب والمشاهد — راجع تفاصيل ذلك فى نور الظلام شرح منظومة عقيدة العوام للشيخ محمد نووى .

الخبرية وهى الاحتمالية [١]، وليس معتمداً على اليقين القـــائم علـــى القضايـــا التكرارية اليقينية .

ثالثاً : ان قضايا الميتافيزيقا التأملية بالمفهوم الشرعي تعتمد عندنا نحن المسلمين على النصوص السمعية ، باعتبار أن عالم الغيب عالم لا يدركه الناس من خلال الطريق الذي أخبر به الصادق المعصوم ولا يقع تحت سيطرة الحواس . وهـــذه النصوص السمعية تعرض مسائل الدنيا وما يتعلق بالآخرة ، فـــهى نصـــوص تجمع بين الأمرين وتوحد بين الغايتين الدنيوية والأخروية لأنها مـــن عنـــد الله جاءت [٢].

ومن المؤكد أن الأمور الأخروية لا يستطيع العقل وحده إصدار حكم فيـــها وبالتالي تكون النصوص القائمة على تفهم قضايا الغيب ، أو ما يتعلق به مما لا يوضع تحت أحكام العقل ، كما لا تخضع للتجربة الحسية ولا الخبرات الذاتية .

رابعاً : أن مباحث الميتافيزيقا التأملية أعلى من امكانيات العقل وطاقاته ، ولمـــا كان من حكمة الله أن لا يكلف الخلائق إلا ما يطيقون[٣]، فلم يكلف العقل بحثـــها على الحقيقة ، وإنما نهاه عن الخوض فيها ، كما حذره من الوقوع فى الضـــلال ان هو تجاوز حدوده .

ففى الحديث الشريف ما روى عن أبى ثعلبة الخشنى أن رسول الله صلـــى الله عليه وسلم قال : ان الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحد حدوداً فلا تعتدوها وحرم أشياء فلا تقربوها ، وترك أشياء من غير نسيان رحمة لكم فـــلا

---

(١) وهذا في حد ذاته يهدم قضاياهم الأصلية ، مادامت الأمور كلها قائمة في اليقينيات علي الاحتماليات .

(٢) الدكتور / عبد العاطى حسن يوسف ـــ الإنسان في الأديان ص ١٩٣ .

(٣)قال تعالى : " لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت " سورة البقرة الآية ٢٨٦

تبحثوها[1]، ولا شك أن علة المنع قائمة ، والمحققون من أهل الأصول على أن عدم تأثير العلة ان كان لوجود مانع من التأثير ، أو انتفـــاء شــرط التــأثير ، فوجودها من تخلف الحكم لا ينقضها ولا يقدح فيها ، وخروج بعض أفراد الحكم حينئذ تخصيص للعلة لا نقص لها ، ولا يقدح في هذه العلة تخلف الحكم عنــها ، لأن تأثيرها منع منه مانع ، وأما ان كان عدم تأثيرها لا لوجود مانع أو انتفـــاء شرط فإنه يكون نقضاً لها وقدحاً فيها .

ومع أن الله تعالى حذره من الخوض فيما هو أعلى من إمكانياته ، وأوقفـه عند حدوده لا يتجاوزها ، إلا أنه دعاه إلى تأمل الروح الإنساني وجاء ذلك فــي آيات كثيرة ، من ذلك قوله تعالى : **"وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً**[2]. قال الشيخ البروسوى ويسألك اليهود عن روح البدن الإنساني ومبدأ حياته فقل لهم إنها من جنس ما اســتأثر الله تعــالى بعلمه من الأسرار الخفية التى لا يكاد يحوم حولها عقول البشــر ، وأنــها مــن الإبداعيات الكائنة يكن من غير مادة ، وتولد من أصل كأعضاء جسده ، ومــا أوتيتم من العلم إلا علماً قليلاً تستفيدونه من طرق الحواس .

فان اكتساب العقل للمعارف النظرية إنما هو من الضروريات المســتفادة من إحساس الجزئيات ، ولذلك قيل ، من فقد حساً فقد علماً ، ولعل أكثر الأشياء لا يدركه الحس ، ولا شيئاً من أحوال المعرفة لذاته ، وهو إشارة إلى أن الروح مما لايمكن معرفته على حقيقته الذاتية ، وانما تدرك بالآثــار الناجمــة عنــها ويفوض الأمر فى حقيقتها إلى الله تعالى [3] .

---

(١) الإمام البيهقى — السنن الكبرى ج ١٠ ص ١٢ ط الأولى مجلس دائــرة المعــارف العثمانيــة ١٣٥٥م وبهامشه الجوهر النقى .

(٢)سورة الإسراء الآية ٨٥ .

(٣)الشيخ اسماعيل حقى البروسوى — تنوير الأذهان — المجلد الثانى ص ٣٦١ .

على أساس أن الروح التى يتميز بها الكائن العاقل الحى إذا ما خرجت عنه أو فارقت بدنه فإنه يموت ، غير أنه لم يطلب منه التماس حقيقتها ، مع أنها فـى بدنه ذات وجود حقيقى ، يدرك ذلك الواحد منا متى تحـــرك أو ســكن ، فـــان الحركة والنوم ليسا من بدنه وإلا ظل متحركا أبداً أو ساكنا أبداً ، طبقاً للقوانيــن الميكانيكية .

وبالتالي فلابد من الأعتراف بوجود شئ آخر داخل الجسم وهو غيره ، فى ذات الوقت. ومع هذا لا يدرك المرء حقيقة الروح ، ولم يكلفه الخالق العظيـــم إدراك حقيقتها ، ومن هنا حذر علماء المسلمين من التعرض لحقيقتها الذاتيـــة ، وإنما تعرضوا لمظاهرها البادية فى الجسم ذاته [1] .

- **خامسا :** أن هذه المباحث من القضايا السمعية التى تحصل عن طريق المرشـــد والأدلة السمعية [2] وإليه ذهب جمهور أهل الإسلام ، ولما كانت أموراً ســـمعية فإن التصديق بها ليس من خصائص التجربة الحسية ، أو الخبرة الذاتية ، بـــل ولا التحليل اللغوى ، إنما السبيل إلى التصديق بها هو الإيمان بالغيب طبقاً لمـــا جاء به النقل المنزل فى القرآن الكريم وعلى لسان النبى المعصـــوم صلـــى الله عليه وسلم ، الذى أبعده الله عن هوى نفسه وأخضعـــه لذاتـــه ، قـــال تعـــالى: "**واصطنعتك لنفسي**" [1] . قال العلامة الزمشخرى مثل حاله بحال من يـــراه بعض الملوك لجوامع خصال فيه ، وخصائص أهلاً لئلا يكون أحداً اقرب منزلة

---

(١)ومن جهود علماء أهل الإسلام فى مسألة تأمل الروح المؤلفات الكثيرة التى تبحث عن مظـــاهر الـــروح وعلاقة هذه المظاهر بما يجئ مع النفس الإنسانية يقول الشيخ إبراهيم اللقاني :

ولا تخض فى الروح إذا ماوردا ... نص عن الشارع لكن وجدا
لمالك هى صورة كالجســـد ... فحسبك النص بهذا الســـند

الشيخ إبراهيم اللقاني ـــ جوهرة التوحيد ص ١٦ ضمن مجموع مهمات المتون ط الحلبى الرابعة ١٣٦٩هـــ .

(٢) إمام الحرمين الجوينى ـــ البرهان فى أصول الفقه لوحة ١٩ مخطوط بدار الكتب المصرية .

(١) سورة طه الآية ٤١ .

منه غليه ولا ألطف محلاً ، فيصطنعه بالكرامة والأثرة ،ويستخلصه لنفســـه ولا يبصر ولا يسمع إلا بعينه وأذنه، ولا يـــأتمن علـــى مكنـــون ســـره إلا ســـواء ضميره.(١)

بناء على ما سلف اتضح أن هذه الشبهة لا مكان لها فى الحقيقة ، كما أنها لا تعبر عن حقيقة واقعة بقدر ما هى مظهر من مظاهر الإعلان عن الرغبة فى اصطياد الشبه ، والسعى بها رغبة فى أن تبلغ فى الناس مبلغاً ، أو تحـــل مـــن نفوسهم منزلاً ، وما هى بالغة ذلك أبداً مادامت الغاية هى الانفلات من قضايـــا الإيمان والتصديق بالغيب ، ومن ثم فهى شبهة غير معقولة أبداً .

الشبهة الثالثة : مشكلاتها زائفة :

أ ـ عرضها :

لما كان الوضعيون حريصين على إفساد العلاقة بيـــن الفكـــر الإنســـاني وأصول الدين الإلهى ، فقد عمدوا إلى إبراز مشكلات متوهمة ، وإبطال حقـــائق ومسائل قائمة ، فهم يقولون أن كل عمل فلسفى يقوم أساساً على مشكلات حقيقية تبحث عن حلول لها ، ولابد أن يكون لهذه المشكلات أو القضايا وجود حقيقـــى فعلى ، بمعنى أن يتوجه المفكر إليها بالسؤال ، ثم يحاول الإجابة عليـــه إجابـــة صحيحة على ناحية حقيقية لا مجال فيها للتفويض أو الإحالة إلى ما فوق قـــدرة المفكر نفسه (٢) أو الإحالة إلى مبدأ لايمكن التأكد مـــن صدقـــه لأن الطريـــق الصحيح إلى تقديم إجابات سليمة هو التجربة العملية والخبرة الذاتية ، بجـــانب التحليل المنطقى للعبارات والألفاظ ، ومن ثم فلا قيمة للاعتراف بوجود ما هـــو

---

(١) العلامة الزمخشري : الكشاف المجلد الثالث ص ٦٥ .

(٢)فكأن المفكر هو مقياس نفسه ، ومقياس الحكم على صحة الفكرة أو فسادها ، فارتد الأمر معهم إلى ما كان عليه السوفسطائية وان اختلفوا معهم فى التسميات .

قائم وراء الحس أو ما يطلقون عليه اسـم الميتافيزيقا التأملية ، لأنه لا وجـود لشئ خلف الواقع الحقيقى ، حتى وان أطلقوا عليه اسم ما وراء الطبيعة [١] .

فإذا قلت مثلاً : الملاء موجود ، والخلاء غير موجود ، فإنهما معـاً مـن القضايا الزائفة ، لأنها لا تمثل مشكلات فلسفية بقدر ما تمثل كل جملـة منـهما شبه مشكلة نظرية ، لا جدوى من بحثها ولا طائل من ورائها ، كما لا فائدة من السعى خلفها ، إنها أشبه بمن يقول لطفل أنت هو أنت ، أو أنت صـاحب روح وعقل ، وكل القضايا التى تجئ من هذا القبيل لا يمكن حسبانها قضايا صحيحـة أو مشكلات حقيقية [٢]، وإنما هى مشكلات متوهمة وقضايا غير متكاملة .

كما يعلن الوضعيون أن إحالة الأسباب إلى مسـببات غـير واقعيـة ، أو ارتباطها بها ، إنما يمثل صورة مهترئة للفكر فى مراحله البدائية حيـن كـان يؤمن بالخرافة ، ويعتقد فى الأساطير ، ويقيم بناءه الفكرى على أنمـاط غـير مقبولة ، فالتجربة أثبتت وجود علاقة ضرورية شرطية بين كل سبب والنـاتج عنه ، ولا يمكن إعتبارها علاقة عادية أبدا .

بدليل أن الشبع إنما ينتج عن الأكل ، والجوع يعبر عن فراغ المعدة مـن الطعام ، والحريق يقع دائماً إذا تلامس جسم مشع مع آخر قـابل للإشـتعال أو الاحتراق ، وأيما رجل عاشر إمرأة معاشرة كاملة ، وجاءت الأسباب متكاملـة فإن الذرية تأتى عقيب ذلك لا محالة [٣] لأنه ما من سبب أو شـرط اسـتجمع شرائطه إلا تحقق المشروط مباشرة من غير احتياج لشئ ، زائد على الأصل ،

---

(١)الدكتور / رمزى محمد السيد زكى — الوضعية والميتافيزيقا ص ٤٤ ط الثانية ١٩٥٧ م .

(٢) الدكتور/ عبد اللطيف محمد نصر الله الفقى — الفلسفة الحديثة ص ١٥٩ .

(٣)أ . م . بوشنسكى — الفلسفة المعاصرة فى أوربا ص ٩٧ ترجمة الدكتور عزت قرنى سلسلة عـالم المعرفـة بالكويت العدد ٦٥ ١٩٩٢ .

وكل ذلك يتم بطريقة لا مكان فيها للقصدية ، وإنما تجـــئ معـــها العشـــوائية والمصادفة .

كما يقرر الوضعيون أيضاً أن الاعتقاد فى وجود قوة عليا غير محسوســـة تحكم قوانين الكون أمر غير ممكن ، إنها قوة تأتى من أسفل ، ولا تـــأتى مـــن أعلى ، إنها قوة تربط الجزئيات ببعضها على نحو ما لشعورها بالحاجة إلى ذلك التكامل ، على أساس أن العالم بأسره مكون من مجموعة وقائع محسوسة ، كـل واقعة منها تمثل جزئية بعينها ، لها استقلال تام عن باقي الوقـــائع الأخـــرى ، لكنها مرتبطة معها فى رباط واحد ، أما فمعرفتنا بها فما هى إلا نسخة من هذه الوقائع الفعلية[1] ذات مضمون بعينه ، وصورة لها استقلال ذاتي .

من ثم فلا يمكن الاعتماد على الميتافيزيقا لتبرير نشأة الكون أو التصديـــق بوجود مشكلات حقيقية تطرحها الميتافيزيقا على مائدة البحث العلمي ، أو يمكن التفاوض حول صدقها من عدمه ، أو يمكنها السعي لدى العقل حتـــى يعتبرهـــا مشكلات حقيقية ذات معنى محـــدد تحتـــاج حلـــولاً واقعيـــة . إن المشـــكلات الميتافيزيقية خيال حالم على أحسن تقدير ، فإذا استيقظ من نومه بان له أن مـــا كان يحلم به لا وجود له [٢] .

أجل قد ينظر البعض إلى قضايا ما يســـمى بالميتافيزيقـــا التأمليـــة ، ثـــم يسارعون إلى اعتبارها ذات مشكلات فإذا لم يجدوا لها مشكلات افتعلـــوا مـــع الفلسفة التحليلية مشكلات بغرض اكتساب أرضية جديدة ، يمكنهم مـــن خلالـــها

---

(١) الدكتور / رمزى محمد تعيلب — موقف الوضعية من الميتافيزيقا ص ١٢٥ .

(٢) الملاحظ أن عبارات الوضعية المنطقية فيها القسوة على الميتافيزيقا التأملية من كل ناحية ، وهى طبيعة ثابتة فيهم حيث يأخذون بمبدأ أن الهجوم أقوى طريقة للدفاع ، وليت هجومهم له حقائق واقعية أو قام على صحيح فكر ، إنه الهجوم الأرعن والتصرف الهزيل ، على اساس أن الذى يسارع بالقدح والقبح إنما هو العاجز عـــن إثبات صدق قضاياه .

إقامة بناء ميتافيزيقى تقليدى عليها ، ولكنهم فى كل ذلك، غير جديرين بـــإطلاق اسم الفلاسفة عليهم ، كما لايمكن اعتبار المشكلات التى يتناولونها ذات عمـــق فلسفي [١].

بل الصواب القول بأنها مشكلات زائفة ، وأفكار متوهمة ، وأشباه قضايـــا صنعتها أحلام أصحابها ، كما يقولون أن الميتافيزيقا التأملية قد فشلت فى إحداث تقدم أو ثورة علمية فى البناء الحضاري ، بنفس القدر الذي لم تتمكن فيه هـــذه الميتافيزيقا من إثبات صدق القضايا التى تطرحها أو تدعو إليها .

وفوق ذلك فلم يقدر للمسائل التى تتبناها البروز إلى سطح الأحداث الفكرية فى صورة معبرة عن نفسها من خلال التجربة الحسية أو الواقع الذاتى ، فضـــلاً عن الخبرات الذاتية والتحليل المنطقي المفضي للحكم الصادق الصحيح ، وهـــو ما نعنيه بقولنا ان المسائل التى تبحثها الميتافيزيقا التأملية لا وجود لها [٢] ، وأن تكرار القول بها لا يعدو كونه مجرد أوهام وسفسطة ، أو تلبيسات خيال ، ونتاج موروثات فاسدة [٣]. كما أنها حين تسعى في الموضوعات التـــي تجعلـــها مـــن خصوصيتها ، إنما يكون سعيها كسعي الأعرج الذي لا يعـــرف الأرض التـــي يمكنه أن يقف عليها [٤]

وهكذا يسعى الوضعيون لتشويه الميتافيزيقا التأملية ، وإعلان إفلاسها فـــى كل الميادين التى تطرق أبوابها ، بجانب إخفاق الموضوعات التى تتناولها فـــى التعبير عن ذاتها أو تكشف عن أهدافها ، ولا شك أن هذه الاتجاهات التى يقـــف

---

(١)الدكتور / رمزى محمد السيد زكى — الوضعية والميتافيزيقا ص ١٥٧ .

(٢)الدكتور / صبحى محمد شعبان — زكى نجيب محمود والوضعية المنطقية ص ٢٥ ط الأولى ١٩٩١م .

(٣)أ . م . بوشنسكى — الفلسفة المعاصرة فى أوربا ص ٩٨ .

(٤) الدكتور / فوزى محمد يونس — الفلسفة الحديثة والمعاصرة ص ١٣٧ ط ثانية ١٩٦٧م.

خلفها أتباع الوضعية المنطقية ، ويدفعونها بكل قوة قد ارتدت عليهم ، بدليل أن الميتافيزيقا التأملية مازالت قوية ، كما أن الاتجاهات حولها لم تتوقف .

بل ان موضوعها الرئيسي هو إثبات وجود الله تعالى وتوحيده بأدلة عقلية خالصة ، والاتجاه بهذه الأدلة نحو الدليل النقلى السمعى بحيث تؤكد ما لذات البارى جل علاه من الكمال والجمال والجلال والإكرام ، بجانب القدرة والإرادة والعلم والحياة ، ومن ثم فاعتراضات الوضعية المنطقية على مشكلات الميتافيزيقا إنما هى اعتراضات زائفة ، لأنها قامت على مقدمات متوهمة .

لكنهم لم ييأسوا من ملاحقة قضايا الميتافيزيقا التأملية ، وإنما انتقل موقفهم العدائي لها معهم أينما انتقلوا فها هو فتجنشتين يقول المشكلات الميتافيزيقية بصفة عامة ، ومشكلات الفلسفة الواقعية أو المثالية بصفة خاصة ينبغى وصفها بأنها أشباه مشكلات ، أو أنها مشكلات زائفة [1].

وقد سار هذا الفهم لدى أفراد الوضعية أنفسهم وبخاصة أعضاء جماعة فيينا ، حتى أن بعضهم أفتتن به كالحال مع شليك وكارناب وريشنباخ ، ومالارميه ، وغيرهم من أصحاب الأسماء ذات الشهرة فى الغرب أولئك الذين أخذ عنهم أبناء الشرق ، ثم صاروا أبواقاً تتحدث بأفكارهم نيابة عنهم .

أجل لقد اعتقد الماديون فى وجود المادة وحدها ، وأرجعوا كل الموجودات إليها ، حتى العمليات الذهنية العقلية والوجدانية نفسها من الحب والبغض ، وحاولوا إرجاع وجودها وتصورها إلى المادة وحدها، وإذا سألتهم قائلاً أن

---

(١) الدكتور / عزمى اسلام ـــ اتجاهات فى الفلسفة المعاصرة ص ٦٤ غير أنه مادام قد اعترف الوضعيون بوجودها كمشكلات فقد لزمهم التصديق بأنها ذات عمق من نوع بعينه ، أما اعتبارها مشكلات زائفة فهو غير مسلم لهم ، وإلا فكيف تكون مشكلة وزائفة فى نفس الوقت ، فهل قدموا لها حلولاً مادامت مشكلة ، أو أمكنهم تقديم نماذج تصلح كبدائل عنها ، أم أنها المأساة التى يعيش فيها الماديون عموماً والوضعيون المنطقيون على وجه الخصوص .

العمليات الذهنية العقلية والوجدانية ليست مادية ، فلماذا اعتبرت مادية ، أليست هذه مشكلة زائفة ؟ .

كان جوابهم جدلياً قائلين أن المعرفة مصدرها الإحساس الذى هو عملية مخية تبدأ بمؤثر خارجى يضغط على الجسم الإنساني ، أما الانفعالات فهى كلها حركات جسمية ، وكذلك التخيل فان أساسه إحساس متقادم والذاكرة ما هى إلا مجموعة احساسات قديمة ذابلة ، وأما تداعى المعانى فهو يرجع إلى حركات فى المخ [1] ، ومن ثم يمكن القول بأنهم خلطوا الماديات باللاماديات ، واعتبروا ذلك الخلط الهلامي مشكلات حقيقية ، مع أن هذا الخلط فى حقيقته لا يعبر إلا عن أفكار هزيلة ، وتحمله مفردات لا معنى لها .

بيد أن الوضعية المنطقية اعتبرت الوجود نفسه أحد مظاهر المادة ، وأن المادة فى أشكالها المتعددة فيزيائية وكيمائية وبيولوجية واجتماعية ما هي إلا صور متعددة لأصل واحد ،هو المادة ، التى تتخذ أشكالاً متعددة فيزيائية وكيمائية كحركات ذرات الماء وجزئياتها ، وبيولوجية كحركات الأجسام البروتينية ، واجتماعية كالصراع بين طبقات المجتمع الواحد [2] مع أن هذا الخلط فى نظر الوضعية عمل فكرى جدير بالتقدير.

والسؤال الآن أليس من الممكن القول بأن هذه المقدمات التي تتبناها الوضعية المنطقية والقضايا التى جاءت معها من قبيل المشكلات الزائفة والجمل التي لامعنى لها ؟ وماذا يقولون إذا ما توجه عليهم ذات السؤال عن الأفكار التي يدعونها أو يزعمون أنها ذات عمق فكري ؟ .

وربما ذهبوا إلى أن الميتافيزيقا ليست لها مشكلات وإنما مشكلاتها فى كون عباراتها غامضة ، ومن ثم يتصور المتناولون لها أنها مشكلات حقيقية كخلود

---

(١) الدكتور / محمد على أبو ريان ـــ الفلسفة ومباحثها ص ١٧٥ .

(٢)الدكتور / يحى هويدى ـــ مقدمة فى الفلسفة العامة ص ١٧٨ .

النفس أو فنائها ، وهل وراء العالم المحسوس عالم عقلى أم لا ؟ وهل الحقـــائق الكلية لها وجود فعلى فى أفرادها على سبيل الاستقلال أم لا ؟.

أما الوضعية المنطقية فإنهم يرونها مشكلات زائفة ، لأن فيلسوف التحليـل حين يتناول هذه الألفاظ والأمثلة ، بل والأسئلة ، ويحاول التعرف عليـــها مـــن الناحية اللفظية ، فإنه يراها فارغة لاتنطوى على شئ ، وإزاء هذه المشـــكلات المزعومة الموهومة تذوب ، ثم تتبخر فى الهواء وتختفى ، لذا فإننـــا نرفـض الميتافيزيقا لا لصعوبة حلها بل لأنها مشكلات زائفة [1]، والحقيقـــة أن قضايـــا الميتافيزيقا التأملية على العكس من ذلك تماماً ، إنها قضايا ذات عمق فكـــرى ، وتقوم على قواعد شرعية .

ب ـــ مناقشتها :

لاشك أن هذه الشبهة قد حوت الكثير من الشواهد على إفـــلاس الوضعيـــة المنطقية من ناحية الاستدلال لما إليه ينهضون ، إنهم أشبه بصاحب البضاعـــة البوار الذى يعلن عن سلعه ويخدع الجمهور بعرضه سلعة أخرى أكـثر رداءة ، فيذكر عيوبها باعتبارها محاسن ويجهد نفسه فى إخفاء ذات العيوب ، لكنه فـــى كل محاولاته يكشف عن عيوب سلعته من غير قصد ، ومهما بذل فـــى إخفـــاء العيوب واجتهد فى ذلك ، إلا أنه لما كان حريصا على قلب الحقائق ، فقد أعـــان فعله الجمهور للتأكد من أنها بضاعة خاسرة ، وسلعة بوار .

أما لماذا ؟ فلما يلى :

أولاً : شاهدة أقوالهم عليهم :

يقولون ان مشكلات الميتافيزيقا زائفة ، ولم يعرفوا القارئ بالمقصود مـــن معنى زائفة ، وهل يمكن الحكم على كلمة ، زائفة عن طريق التجربة الحسـية ، أو الخبرات الذاتية ، أو التحليل المنطقى ، أم أنها مفهوم عقلى خالص ، ولما لم

---

(١) الدكتور / زكى نجيب محمود ـــ نحو فلسفة علمية ص ١٧ .

يكن هناك من سبيل لمعرفة معناها سوى العقل [1]فقد شهدت أقوالهم على أن الميتافيزيقا لها مشكلات حقيقية .

كما يقولون إننا نرفض الميتافيزيقا [2]، وماداموا قد اعترفوا بوجودها وإنها صارت حقيقة واقعة [3]بدليل محاولتهم رفضها . أفلا يكون ذلك الاعتراف الصريح بأن لها مشكلات ، وأن هذه المشكلات حقيقية ، وإلا ما أمكنهم الحكم عليها ، أما القول بأنها زائفة فلا معنى له ، من ثم يمكن القول بأن عبارات الوضعية المنطقية تدينهم وتشهد عليهم .

يقول جورج أرنست ليليان : أن الاعتراف بالميتافيزيقا ضرورة لغوية،لأن لفظ الميتافيزيقا مما يتداوله الناس ، أما قضاياها فلا تعبر عن مشكلات حقيقية، بقدر ما تعبر عنه مشكلات يعانى منها الذين يحاكونها أويحاولون تقليدها[4].

ويقول هيرز : بإمكاني إعلان القضاء على الميتافيزيقا ، ولكن تبقى مشكلة عويصة ، وهى قدرة قضاياها على الطفو من جديد إنها من أكثر المسائل سخونة ، ومشكلاتها من أصعب المسائل جدلاً [5] وهذا اعتراف صريح بأن الميتافيزيقا ذات مشكلات حقيقية ، وإلا أمكن القضاء عليها .

---

(١) ربما يقال ان طريق الحكم عليها بالصدق أو الكذب يمكن أن تجئ به اللغة ،ولكن هذا القول مردود بأنهم طعنوا فى اللغة ،واعتبروا القضايا الإخبارية احتمالية ،بينما اعتبروا القضايا التكرارية يقينية ،وهذا الاعتبار عندهم لم يقدموا له شواهد ،كما لا يمكنهم إعلان الأدلة عليه ، ومن ثم فهم يعتبرون العقل هو الوسيلة التى يمكن استخدامها فى تناول المفاهيم العقلية ، فضلاً عن التعامل معها ،أو الحكم عليها . راجع للدكتور رمزى محمد حسن صابر ـــ الوضعية ومشكلاتها الأخلاقية ص ٧٣ .

(٢)الدكتور / زكى نجيب محمود ـــ خرافة الميتافيزيقا ص ١١ .

(٣)الدكتور / صبرى محمد يوسف ـــ الفلسفة المادية ص ٥٣ ط الثانية ١٩٥٧م .

(٤)جورج أرنست ليليان ـــ الفلسفة العلمية ص ٥٣١ ترجمة هناء رشدى ١٩٧١م .

(٥) توماس هيرز ـــ الفلسفة التحليلية إنجاز علمى ص ٤٧ ترجمة الدكتور فوزى اسكندر ـــ طبعة دار الهلال ١٩٦٧م .

ثانيا: حقائق الأشياء تكذبهم :

المعلوم أن حقائق الأشياء ثابتة والعلم بها يتحقق ، وبناء عليه فعالم الشهادة حقيقة ثابتة وعالم الغيب هو الآخر حقيقة ثابتة ، وبعبارة أخرى العالم الطبيعي حقيقة واقفة والعالم الماوراء الطبيعة هو الآخر حقيقة واقعة عند العقلاء ثابتة فى المفاهيم فإنكارهم وجود العالم المشاهد يفض إلى البلاهة ، وإنكار وجود العالم الغائب يفض إلى الإلحاد ، بناء عليه فالميتافيزيقا لها مشكلات حقيقية ما يزال البحث فيها قائماً لم تحسم مسائله بعد [١] .

بل كل العقلاء على أن العالم المشاهد أقل بكثير من العالم المشاهد [٢]، وأن العلاقة بينهما قائمة ، والقاسم المشترك هو الحكم على كل منهما بأنه موجود ، وله موضوعاته الخاصة ، ومسائله التى يقوم عليها ، والعقلاء جميعاً يقرون بذلك ، وإنما الخلاف فى فهم العالم الماوراء الطبيعة ، وطريقة التعرف عليه ، وكيفية الوقوف على قضاياها من ناحية الإفهام لا من ناحية النصوص الدالة عليه ، فالإنكار للعالم الماوراء الطبيعة ، يمثل صورة إلحادية فى مسائل دينية .

يقول الأستاذ / يوسف كرم : كل معرفة حسية فهى ظاهرية ، لكن الحقيقة لا توجد إلا فى العقل ، لأن العقل حدس ، ومعانيه موضوعات حقه [٣]ولما

---

(١)وذلك مما يؤكد بطلان مزاعم الماديين عن أن الميتافيزيقا التأملية تم القضاء عليها أو أنها تلاشت ، أو أن مسائلها غير قابلة للتصديق ، بل العكس من ذلك تماماً إنها مشكلات حقيقية واتجاهات لها ثوابت قائمة ، وقضاياها جاءت بها النصوص الشرعية والاتجاهات العقلية والإيمان بها يعصم الإنسان عن الوقوع فى المهالك لامحالة .

(٢) وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما الكرسي فى العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهرا في فلاة من الأرض ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال لو أن السماوات السبع والأرضين السبع بسطن ثم وصلن بعضهن إلى بعض ما كن في سعة الكرسى إلا بمنزلة الحلقة في المفازة ـ الحافظ بن كثير ـ تفسير القرآن العظيم المجلد الأول ص ٣١٥ ـ ولما كان العالم الغائب غير محصور فإن مسائله متشعبة وقضاياه لاتنحصر ومع ذلك فوجودها أكثر وضوحاً من قضايا عالم الشهادة .

(٣)الاستاذ / يوسف كرم ـ تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٢٠٦ .

كانت معاني العقل والحدس موضوعات حقة ثابتة ، عندهم وعند غيرهم ، فمن المؤكد أن العقل حقيقة ثابتة ، ومعانيه كذلك ، ولابد من التعرف على كل واحد منهم استقلالا ، وهو ما يثبت وجود الميتافيزيقا وأنها حقائق ميتافيزيقية .

بيد أن الأمر لا يقف عند هذا الحد ، وإنما هناك الحقائق العقلية والمعاني الذهنية المنتزعة من أفرادها الخارجية ، سواء أكانت فى أسماء الجموع ، أم الأسماء الكلية ، كلفظ جيش ، وشعب ، وقبيلة وغيرها من أسماء الجموع ، وكذلك لفظ الإنسانية والحيوانية والنباتية ، والجمادية وغيرها من الألفاظ الكلية فما هي إلا مفاهيم عقلية ثابتة فى الذهن ، ولا يمكن الحكم عليها بالصدق والكذب من خلال التجربة الحسية أو الخبرات الذاتية ، ولا كذلك التحليل المنطقى الوضعى [1] .

وهى صورة لما هو موجود فى أفراده الخارجية ، والوضعيون لا ينكرونها كألفاظ ، ومن ثم وجب اعترافهم بها كمباحث ميتافيزيقية خالصة، ومشكلات حقيقية ما تزال الأبحاث حولها جارية ، والجهود العلمية فيها لم تنقطع ، والعالم العقلى كالعالم الحسى فى الوجود ، ولكنه أعلى منه فى المفاهيم ،ومشكلاته أكثر وضوحاً من مشكلات العالم الطبيعى ، والحقيقة أن الوضعية المنطقية تقر بهذه المشكلات الميتافيزيقية كواقع ، ولكنها تحاول رفضها كدعوى فهم محرمون من نعم الله تعالى فى الدنيا والآخرة [2]، ومن ثم فالوضعية المنطقية ليست معقولة.

ثالثاً : الضرورة العقلية لغير صالحهم

الوضعيون ينظرون إلى الضرورة العقلية نظرة تقدير واحترام فى تعاملاتهم حيث يحتكمون إليها فى ابسط أمورهم وأكثرها دقة على السواء رغم

---

(١) لأن ذلك ليس مما يقبل التجريب عليه باعتبار الماهية من ناحية، والحقيقة الذاتية من جهة ثانية .

(٢) فالله تعالى هو المنعم بجميع النعم دنيوية وأخروية ظاهرية وباطنية كالزيادة فى الإيمان والعلم والمعرفة بالتوفيق والعافية والسمع والبصر . الشيخ محمد نووى الشافعي نور الظلام ص ٣ .

أن إثبات الضرورة العقلية والتعامل معها لا يمكن التأكد من صدقها على طريقة من طرائقهم ، إنهم يحتكمون إليها ويتعاملون بها ، وهى فى ذات الوقت ليست داخلة فى نطاق العالم الطبيعى، فكيف يحتكمون إليها وينكرونها فى نفس الوقت.

يقول الدكتور زكى نجيب محمود ، يجب أن نتذكر دائماً أن حكمنا على هذه الظواهر كلها باتجاه واحد فى سيرها ، إنما هو نتيجة المشاهدة ،وليس هناك ضرورة عقلية تحتم أن يكون هذا وحده هو طريق السير [1]الذى تمضى فيه الظواهر كلها حتى النهاية ، وفى هذا إعلان صريح بقبول الوضعية المنطقية الضرورة العقلية كمبدأ ثابت ، وحقيقة واقعة لابد من الاحتكام إليها .

والسؤال الآن : ما هى الضرورة العقلية من حيث المفهوم أليست هى القاعدة التى تقوم على البدهيات أو تقف عندها ؟ ثم هل من الممكن إدخال هذه الضرورة العقلية مجال التحليل المنطقى ، أو إجراء التجربة الحسية عليها ،حتى تعتبر موجودة على قول الوضعية المنطقية ، أم لا وجود لها على نفس الجهة ، لكن مادامت الضرورة العقلية معلومة عندهم فقد ثبت وجودها ، مع أنها غير محسوسة فأي الموقفين يمكن احتسابه لصالحهم وأي الموقفين يجب محاسبتهم عليه مع أنها معلومة .

يقول القاضي البيضاوى إن المعلوم إما أن يكون متحققاً فى الخارج ، وهو الموجود ، أو لا يكون متحققاً فى الخارج وهو المعدوم ، أو يكون بينهما وهو الحال عند من يثبتها على أساس أن المتحقق إن تحقق باعتبار نفسه فهو الموجود وان تحقق باعتبار غيره فهو الحال ، كالأجناس والفصول وحدد الحال بأنه صفة غير موجودة ، ولا معدومة فى نفسها قائمة بموجود[2] ولما كانت الضرورة

---

(١)الدكتور / زكى نجيب محمود ـــ نحو فلسفة علمية ص ٢٥٦ .

(٢) القاضى عبد الله بن محمد البيضاوى ـــ طوالع الأنوار ص ٧٥ وعليه حاشية الجرجانى ومطالع الأنظار للأصفهانى .

العقلية معلومة ومتحققة فى الأذهان من خلال المفاهيم فهى موجودة ، ثم ان تمسكهم بها دليل على الإقرار بوجودها ، فثبت أن قضايا الميتافيزيقا حقيقية واقعة وليست زائفة كما يزعمون .

أضف إلى ما سبق أن قضايا الميتافيزيقا التأملية يمكن اعتبارها من قبيل المهايا العقلية التى لاسبيل لإنكارها ، والبحث فيها يعتبر من أكثر المشكلات إغراقاً فى الحقيقة ، لأن الماهية إما أن تكون بسيطة وهى مالا جزء له ، وإما أن تكون مركبة وهى ماله جزء .

ثم المركبة إما خارجية ملتئمة من أجزاء متميزة فى الخارج ، بأن يكون لكل واحد من الأجزاء وجود مستقل غير وجود الآخر كالإنسان المركب من البدن والروح ، إذا اردنا بالروح الصورة الحالة فى مادة البدن الحافظة له ، وكالمادة والصورة للجسم ، وكالمثلث المركب من السطح والخطوط الثلاثة المحيطة به .[1]

وإما أن تكون الماهية المركبة عقلية لا يتميز أجزاؤها فى الخارج ، فلا يكون لكل منها وجود مستقل ، بل كل منها جعل الآخر فى الخارج ، وجعل المركب بعينه فى الخارج جعل الأجزاء ، وإنما تكون الأجزاء متميزة فى العقل كالمفارقات ، ان جعلنا الجوهر جنساً ، فإنه يحتاج حتماً إلى فصل يقومه ، ولم يتميز جنسه وفصله فى الخارج ، لأن جعلهما وجعل النوع واحد ، وكالسوار المركب من اللونيه ، وفصله المختص به ، الذى عبر عنه بالسورايه[2] والماهية

---

(١) والأولان ــ الإنسان المركب من البدن والروح ، والمادة والصورة للجسم ــ مثالان للجوهر المركب الخارجى ، أما الآخر وهو المثلث المركب من السطح والخطوط الثلاثة المحيطة به فمثال للعرض المركب فى الخارج .

(٢)العلامة أبو الثناء شمس الدين بن محمود الأصفهانى ــ مطالع الأنظار ص ١٠٤/١٠٥ .

موجودة ، وهى من أكثر المشكلات التى خاضت الميتافيزيقا فيها ومازال تؤدى دورها داخل هذه الناحية وعلى أوسع نطاق .

فى نفس الوقت فإن العقل الإنسانى عند الفلاسفة ملكة إدراك ما هو كلى وضرورى ، سواء أكان ماهية أو قيمة [1] والميتافيزيقا تجعل من بحث العقل[2] وسيلة لمباحث ميتافيزيقية خالصة ، فهل العقل عند الوضعية المنطقية أحد المشكلات الزائفة أم هو مشكلة ميتافيزيقية لها عمق فلسفى وأثر فكرى .

لاشك أن الضرورة العقلية قاضية ببطلان أقوالهم وخروج نتائجهم عن حيز المعقول . ومن ثم لا تقوم شبهة القوم فى هذا الجانب من كونها أفكارا مبتسرة ومعلومات مشوهة . في نفس الوقت فإن الضرورة العقلية مبدأ ميتافيزيقى ، فإذا طبقنا هذا المبدأ فى جانب الوجود أنتج نتائج ضرورية .

فمن الممكن القول بأن العالم إما أن يكون موجوداً أو معدوماً ، فإن كان معدوماً فنحن نعيش الآن فى العدم وتلك مغامرة وإلا كنا في العدم مع أن أوصافه لا تنطبق علينا ، لأننا نأكل ونشرب ، ونسعى ونجلس كما نتحرك ونفكر ونتأمل ونتخيل ، وكلها أمور وأوصاف وجودية وليست عدمية .

وإن كان العالم موجود الآن فإما أن يوجد نفسه أو يوجده غيره ، فإن أوجد نفسه لزم — كضرورة عقلية — أن يتقدم على نفسه باعتباره الفاعل ، ويتأخر عنها باعتباره مفعولاً ، وهو تناقض ، لا تسمح به الضرورة العقلية ولا الإفهام

---

(١)الدكتور/ عبد الرحمن بدوى — موسوعة الفلسفة ج ٢ ص ٧٢ .

(٢) سمى عقلاً لأنه يعقل صاحبه عن الوقوع فى المهالك — العلامة أبن منظور — لسان العرب ج ٤ ص ٣٠٤٦ ط دار المعارف ، ويعرف بأنه جوهر مجرد من المادة فى ذاته مقارن لها فى فعله — العلامة الجرجانى — التعريفات باب العين ص ١٩٦ ط أولى تحقيق ابراهيم الأنصارى . كما يجئ على أوجه عديدة منها أ — ما يرجع إلى وقار الإنسان وهيئته . ب — ما يكسبه الإنسان بالتجارب من الأحكام الكلية . ج — صحة الفطرة الأولى فى الإنسان . د — حركة النفس فى المعقولات . هـ — ملكه بها تدرك العلوم الضرورية والعلوم النظرية راجع جميل صليب — المعجم الفلسفى ص ٨٤ وعبد الرحمن بدوى موسوعة الفلسفة ج ٢ ص ٧١ / ٧٥ .

الصحيحة الطبيعية ، إذن لم يبق إلا القول بأن العالم له موجد أوجده ، وعلى ما هو عليه أبدعه وصوره ، وهذا الموجد له كل صفات الجلال والجمال والكمال والإكرام[١] ولا يمكن أن يشبهه أحد من خلقه ، وهو الله رب العالمين .

بناء على ما سلف يمكن القول بأن الضرورة العقلية شاهدة على بطلان مزاعم الوضعية المنطقية بأن الميتافيزيقا ليست لها مشكلات أو أن مشكلاتها زائفة ، بل هي مؤكدة ، على أن وجود الله تعالى ضرورة عقلية [٢]، وهم لم يروها ، كما لايمكن الحكم عليها من خلال الحس بالصدق أو الكذب ، ولا الحكم عليها عن طريق التجربة أو الخبرة الذاتية بأنها موجودة أو معدومة ، ولا من طريق التحليل المنطقي بأنها حقيقية أو متخيلة .

وذلك كله يلزمهم الاعتراف بأن قضايا الميتافيزيقية حقيقية وأنها موجودة في ذاتها ، ولا يمكن الوقوف على حقيقتها [٣]إلا من خلال النصوص النقلية التي تدفع إلى الإيمان بالغيب جملة وتفصيلاً ، على ما جاء به النقل المعصوم في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة الصحيحة ، فإذا لم تلزم الوضعية المنطقية هذا الإتجاه في البحث والاعتقاد ، فإنها تكون عبثاً وغير معقولة أبداً .

ويبدو أن أصحاب الوضعية المنطقية قد فقدوا قدرتهم في المحافظة على النعم التي أولى الله عباده إياها .

قال الإمام البيضاوي : نعم الله تعالى وإن كانت لا تحصى إلا أنها تنحصر في جنسين دنيوي وأخروي ، فالدنيوي قسمان : وهبي وكسبي .

---

(١) الدكتور / محمد حسيني موسى محمد الغزالي – الإيمان بالغيب وأثره على الفكر الإسلامي ص ٦٠١ الطبعة الرابعة .

(٢) وجود الله تعالى ضرورة فطرية كما انه ضرورة عقلية وشرعية ، بجانب كونه ضرورة نقلية .

(٣) وذلك لورود النصوص الشرعية به من ذلك قوله تعالى عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً ، وقوله تعالى عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال، إلى غير ذلك من النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الدالة على أن معرفة هذا العالم الغائب مردها إلى الله وحده . .

ثم الوهبى نوعان :

أ ـ روحانى: كنفخ الروح فى البدن ، وإشراقه بالعقل ، وما يتبعه من القوى كالفهم والفكر والنطق .

ب ـ جسمانى: كخلق البدن ، والقوى الحالة فيه ، والهيآت العارضة له ، من الصحة وكحال الأعضاء .

والكسبى : تزكية النفس عن الرذائل ، وتحليتها بالأخلاق المرضية ، وتزيين البدن بالهيآت المطبوعة والحلى المستحسنة ، وحصول الجاه والمال .

أما الآخروى فهو أن يغفر ما فرط من العبد ، ويرضى عنه ، ويبوئه فى أعلى عليين مع الملائكة المقربين أبد الآبدين [1] من غير انقطاع ولا احترام إنما هو بالتتابع مع الإعطاء ومزيد الأنعام ، وأهل الإلحاد مطرودون من رحمة الله ، كافرون بنعمه جل علاه .

الشبهة الرابعة : خلو قضاياها من المعنى الحقيقى :

أ ــ عرضها : يذهب الوضعيون إلى أن الميتافيزيقا يجب رفضها [2]، لكن هذه المرة ليس لأن مشكلاتها زائفة ، وإنما لأن قضاياها خالية مما يمكن اعتباره معنى حقيقياً ، بناء على أن كل قضية حقيقية تدل بالأحرى على المعنى الحقيقى الذى يعتصم بها،أو تعتبر هى المعبر عنه ، فإذا لم تكن لهذه القضايا دلالات ثابتة من ناحية المعنى الحقيقى فإن الاعتقاد فيها يمثل طفولة عقلية .

والمعيار فى كون المعنى حقيقياً من عدمه ، هو قابلية أجزاء القضية المعروضة لاجراء التجربة الحسية عليها ، أو وقوعها فى دائرة الخبرة الذاتية ،

---

(١) الشيخ محمد نووى الشافعى ــ نور الظلام ص ٣ ولاشك أن أصحاب الوضعية المنطقية قد حرموا بتراب تلك النعم كلها .

(٢) لاحظ أن لفظ الوجوب الذى يقصدونه أحد الأحكام العقلية مع أنه حكم شرعى يأتى فى مفهوم الواجب على الناحية الشرعية .

أو يمكن التأكد من ذلك عن طريق التحليل والتركيب المنطقى ، فإذا لم يمكـــن إجراء شئ من ذلك عليها فإنها تكون قضايا مهملة لكونها خالية مـــن المعنـــى الحقيقي ، بل ولا يصح إطلاق لفظ القضية عليها .

يقول كارناب :هناك الكثير مـــن الألفـــاظ ذات الدلالـــة الميتافيزيقيـــة أو الاستعمال المتعلق بها ، بينما هى فى حقيقتها خالية من المعنى تماماً ، مثل لفـظ الوجود ، وكذلك ألفاظ المطلق ، والفكرة ، واللامحدود ، والماهيـــة والمفـــاهيم الكلية فإنها جميعاً إذا نظر إليها المرء العادى حسبها قضايا ميتافيزيقية ، ولكـــن الفيلسوف التحليلى إذا بحث فيها رآها خالية من أى معنى [1] من وجهـــة نظـــر الوضعية المنطقية ولا عبرة بأية وجهات نظر أخرى .

ويفرق بين ما يستعمل كمعبر عن قضايا لها وجود حقيقى ، وما يعبر بـــه عن أحد مبادئ المعرفة [2] كما يقرر أن هذه القضايا ـــ رغم كونـــها ذات دلالات ميتافيزيقية ـــ إلا أنها لا تخرج عن كونها ألفاظاً خالية من المعنى الحقيقى تماماً ومثل ألفاظ الماهية ألفاظ كل من الما هو ، والآخر بجانب الأنا ، واللاوجود إلى غير ذلك مما يجرى مثله فى الميتافيزيقا عند استعمال الألفاظ ، أو بناء القضايـــا أو التعبير عن مفهوم معرفى .

ويؤكد الوضعيون أن مرحلة التفكير الميتافيزيقى التقليدى قد انتهى أمرها ، وتم تجاوزها إلى المرحلة الأخرى الأكثر دقة ، وهى الفلسفة التحليليـــة التـــى جعلت التفكير العقلى النظرى فى مقابلة مع العلم المعملى التجريبى الذى أحـــدث ثورة فى مجال التقدم العلمى والحضارة المتقدمة ، وهذه المرحلة المتقدمة تمثلها

---

(١) الدكتور / زكريا إبراهيم دراسات فى الفلسفة المعاصرة ص ٢٩٠ مكتبة مصر .

(٢) مبادئ المعرفة مصطلح تستخدمه الوضعية للتعبير عن المفاهيم الرياضية تارة ، وأخرى كدليل على شـــيوع المبادئ الرياضية التى تعتبر قضايا تكرارية يؤكد عجزها صدرها ، ويتلاقى كل منهما مع الآخر ، لأنها قضايـــا تكرارية فهى مبادئ معرفية يمكن أن يبنى عليها غيرها .

الوضعية التى تتمسك بالقضايا الحقيقية ذات المعنى الدلالي[١] ومن ثم يمكنـها أن تقدم حلولاً عملية ، لكل المشكلات الحقيقية التى تعترضها ، أو تجئ فى ميـدان عملها العلمي الحقيقي .

ثم يقرر كارل هوفر أن أحداث الثورة العلمية كان وليد الفلسفة التحليليـة ، وهو ما يجعلها تتمايز عن الميتافيزيقا التقليدية التى عجزت عن القيام بهذا الدور رغم أنها عاشت فى أذهان أصحابها قروناً طويلة ، ويعلل سبب ذلك بأنها لـم تهتم إلا بسرد الألفاظ والعبارات من غير نظر إلى فحواها ، وهي تمثل جمـلاً ذات معنى حقيقي أم لا تمثل ذلك [٢] .

فكأن الثورة العلمية لم تقم إلا على أيدى الوضعية المنطقية ، وهذا ممـا لا يشهد له الواقع ، لأن الثورة العلمية تمثلتها حضارات متقدمة فى الشرق والغرب قبل الميلاد ، حيث ظهرت الحضارة المصرية فى الجانب المادي ، ودليلها بنـاء الأهرامات التي مازالت شاهدة على تقدمهم فى الجانب العلمي ، وكذلك ظـهرت فى بلاد الرافدين .

بل ان القرآن الكريم تحدث عن حضارات سلفت قـال تعـالى : **"أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ،إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ "** [٣]

حيث كانت قبيلة عاد ذات حضارة زاهية ، تمكنوا من إشادتها على قواعد

---

(١) الدكتور / رمزى محمد تعيلب — موقف الوضعية من الميتافيزيقا ص ١٢٧ ويلاحظ أن الوضعية اعتـبروا الميتافيزيقا التقليدية فى مقابلة مع الفلسفة التحليلية رغم اختلاف المقدمات والنتائج ومن ثم فان المقابلة لم تكـن قائمة على أصول صحيحة فإين هى القضية الحقيقية ذات المعنى الحقيقى التى يتمسك بها أصحاب الوضعيـة أم تنازلوا عن هذه المسألة .

(٢) الدكتور / حسن محمد صابر — الوضعية فلسفة المادية ص ١٣٧ ١٩٥٧م .

(٣) سورة الفجر الآيات ٦ / ٩ .

صحيحة ، رغم أنهم كانوا فى الأصل من أهل البادية [١]، وكانت قبيلة أرم هى الأخرى تتمثل فيها حضارة علمية رائدة ، فاقت إمكانيات العصر الذى ظهروا فيه[٢] ، أما قبيلة ثمود الذين بعث فيهم نبى الله صالح ، فكانوا أصحاب حضارة علمية مكنتهم من قطع صخور الجبال[٣]، فأتخذوا لأنفسهم منها بيوتاً نحتوها من الصخر ،حيث كانوا أول من نحت الجبال والصخور والرخام ، بل تمكنوا من بناء سبعمائة مدينة كلها من الحجارة [٤]، وقد بنيت على طرائق هندسية فائقة تدل على تقدمهم العلمي ، لكن لما كذبوا الرسل ، وحادوا الله جل علاه أخذهم سبحانه وتعالى الله أخذ عزيز مقتدر [٥] .

---

(١) قبيلة عاد هم الذين بعث فيهم نبى الله هود قال تعالى : " وإلى عاد أخاهم هودا ، وقال تعالى : " وأذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلقت النذر من بين يديه ومن خلفه وكانت هذه القبيلة تنسب إلى الأصل وهم عاد الأولى الذين كانوا ينسبون إلى جدهم عاد الذى أقام هذه القبيلة وقد أهلكم الله تعالى قال جل شأنه وأنه أهلك عاداً الأولى .

(٢) وكانت منازل ارم تمتد من عمان إلى حضر موت وهي بلاد الرمال والأحقاف وكانوا طوال الأجسام كالأعمدة ،ومع أهم من البدو إلا أهم كانوا يطلبون الكلأ حيث كان ،لا يخافون شيئاً لأن الرجال\الواحد منهم كان يامكانه حمل الصخرة العظيمة ،ثم يلقيها على الجماعة فيهلكهم ،ولذا كانوا يتفاخرون بهذه القوة أيضاً .

(٣) هم قبيلة ثمود نسبت إلى جدهم ثمود أخي جوليس وكانوا من العرب البادية يسكنون الحجر بين الحجاز وتبوك وهم قوم صالح قال تعالى : ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً .

(٤)الشيخ اسماعيل حقى البروسوى ـــ تنوير الأذهان من تفسير روح البيان ج ٤ ص ٥٤٤ .

(٥) قال تعالى : " فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَاد وَثَمُودَ إِذْ جَاءتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاء رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ " سورة فصلت الآيات ١٣ / ١٨ .

ثم ان الحضارة الإسلامية قد شادها أهل الإسلام ، فظهرت أنوارها فى كل المجالات النظرية والعملية والتجريبية والإنسانية والسلوكية ، بل إنهم الذين وضعوا الأسس القوية والقواعد الثابتة للعلوم المعيارية ،مستخدمين أعلى المناهج فكراً وأوثقها نتائج ،وقد شهد بذلك المنصفون من الغرب والشرق على السواء[١]

وما تزال آثارهم باقية فى المؤلفات العلمية التى صحت نسبتها إليهم ، كما هى عالية فى البلدان التى وصلوا إليها، من قرطبة وأشبيلية إلى بروسيا، ومناطق الهند والباكستان ، فزعم الوضعيون أنهم الذين أقاموا الفلسفة العلمية لا تؤيده أدلة ، ولا تقوم بجواره شبهات يمكن النظر فيها ، بل أن مزاعمهم ما هى إلا مفردات وجمل لغوية خالية من المعنى أيضاً.

ومن المؤسف له أن فكرة خلو قضايا الميتافيزيقا التقليدية من المعنى الحقيقي لم تدر بخلد واحد من الوضعيين فقط ، وإنما اعتبروها قاعدة أساسية دارت بأحلامهم جميعاً ، فراحوا يرددونها فى غير حرج ، مما يؤكد أنهم أبواق متى نفخ فيها نافخ كان الآخرون رجع الصدى له ، وأنهم ارتضعوا فكرة الرفض التام للتصديق بكل ما هو غيبي مهما كانت النتائج ، أو اختلفت العبارات المؤدية إلى ذلك . يقول كرافت : كانت الفلسفة التقليدية تعنى بتشييد المذاهب الضخمة فى أشكالها ، ولكنها خاوية تماما فى معانيها ، ان قضاياها أشبه بأكوام القش أو القمامة التى من المستحيل أن تجد فيها جوهرة ثمينة ، وإذا وجدتها فستري ركام الميتافيزيقا التقليدية قد أذهب جمالها ، وأضاع حقيقتها ، ومن ثم لايمكن التعامل معها على أنها جوهرة ثمينة ، بقدر ما يمكن النظر إليها على أنها إحدى المخلفات التى يجب التخلص منها خشية الأضرار التي لحقت بها .[٢]

---

(١) راجع قصة العلم ج ٣ ص ١٩٧ وراجع تراث الإسلام ج ١ ، ج ٢ لشاخت بوروث ، وأنظر كتابنا : قضايا حيــة فى الفلسفة الحديثة ص ٩٨ ط آل بسيونى ١٩٩٨م .

(٢)الدكتور / رمزى محمد تعيلب ـــ موقف الوضعية من الميتافيزيقا ص ١٥١ .

ويؤكد مالارميه نفس الفكرة ، فيقول أن قضايا الميتافيزيقا التأملية خالية من المعنى الحقيقي ، ومن الصعب أن ترغم عقلك على قبول ما يردده الميتافيزيقيون النظريون ، أنهم أقرب الأشباه بالحواه الذين يحملون فوق أعناقهم صناديق وهمية يغرون بها السفهاء ، ويخدعون بها الأطفال ،ولا يمكن أن يساق إلى تصديقها سوى البسطاء ،إنهم يزعمون وجود الكنوز والمجوهرات بها ، فإذا أمكنك إنزالها من فوق كتف الواحد منهم وفتشت جنباتها ستراها خاوية من أي عمل جيد ،بل وستحزن لأنك أنقصت شيئاً من عمرك فيالسعي خلف سراب[١].

وما درى هؤلاء الوضعيون أنهم الذين يتعلقون بأطياف السراب ، يقول كارناب : إن التحليل المنطقي في الفلسفة العلمية ينتهي بنا إلى الحكم بأن جميع العبارات التي تتناول موضوعات تدخل في نطاق الميتافيزيقا التقليدية ماهي إلا عبارات خالية من المعنى الحقيقي[٢]، والعله في ذلك أن هذه العبارات لا يمكن التأكد من وجودها أو التأكد من صدقها عن طريق القواعد الثلاثة :

أ — التجربة الحسية . ب — الخبرة الذاتية . ج — التحليل المنطقي .

أما ماخ فيندفع إلى القول بأن الميتافيزيقا ما هي إلا انعكاسات غير دقيقة ، لجملة من المعتقدات الموروثة التي لا تصلح للاعتماد عليها ، كما لا تمثل سوى مجموعة من التوافقات الغريبة عن العقول،ولكنها لا تبعد عن الخرافات والأوهام بل تجري شوط كل منهما حتى منتهاه [٣] .

وهي في كل الحالات لا تعبر عن قضايا ذات معنى حقيقي ، بقدر ما تعبر عن خيالات أصحابها الذين صدقوا بوجودها ، وسمحوا لأنفسهم بترديدها حسب اعتقادات الوضعية المنطقية .

---

(١) أ . ب — بلانسكى — الوضعية فلسفة علمية ص ١٤٥ ترجمة هناء صبحى ١٩٧١ .

(٢) الدكتور / عزمي إسلام — لدفيج فتجنشتين ص ٣٥٥ بتصرف يسير .

(٣)ريتشارد هولمان — أوربا والفلسفة العملية ص ٥١ ترجمة يسرى محمد خليل ١٩٥٧م .

ومعنى هذا أن الوضعية المنطقية ينظر أصحابها إلى الميتافيزيقا نظرة استنكار لوجودها ، كما يعتبرون قضاياها خالية من المعنى الحقيقي ، بل ويعتبرونها المسئولة عن تعبئة العقول بالخرافات والأوهام ، ومن ثم فكل عمل فكرى يستند إليها يقيدونه أمراً غير ذى بال ، كما أن القضايا التي تعبر عنها لا تصلح للاستعمال .

غير أنه لما كانت الميتافيزيقا التأملية تعنى بالمسائل العقدية التى تبدأ من التعرف على طرائق إثبات وجود الله تعالى ووحدانيته ، ثم إثبات صفاته العظمى وأسمائه الحسنى ، وما يتعلق بالعلم الالهى ، ثم ما يتعلق بالوحى واليوم الآخر، فإن إنكار هذه المسائل ، أو اتهامها بأن قضاياها خالية من المعنى الحقيقي يعتبر كفراً صريحاً ، يجتمع عليه الماديون واللادينيون أينما كانوا [1].

كما أنهم استخفوا بعقول الناس حين زعموا أن هذه القضايا لا قيمة لها ، أو أنها خالية من المعنى ، وفى نفس الوقت فقد استخفوا بعقول أنفسهم قبل استخفافهم بعقول الناس ،كما استخفوا بعقول من يصدقونهم ،ولا شك أن إعلانهم الحرب على الغيب إنما هو حرب على العقيدة الإيمانية [2] بكل وسيلة أمكنهم الوقوف عليها ، وذلك مما يستوجب مناقشتهم وبيان ما فى مزاعمهم من تهافت طبقاً لما أوجبته الشريعة الإسلامية الغراء .

---

(١) الدكتور / محمد السيد عبد الحكيم – العلمانية الأصول والمبادئ ص ١٣٧ ط دار الفؤاد ١٩٦١م .

(٢) غالباً يخفى المحترفون – من دعاة الفكر المادى او العلمانى او اللادينى – نزعتهم العدوانية على الدين الإلهى حتى إذا وجدوا فى الأغرار انصياعاً لهم أو ميلاً لما يدعون . فإنهم يعملون على ترسيخ هذه المفاهيم المشوهة التى يعرضونها على أنها حقائق ، ومتى غلب عليهم ظن فى الناس بعض الاستجابة لآرائهم الشاذة وأفكارهم الهزيلة وعداوتهم لله ورسوله فإنهم يسارعون إلى الاعلان عن ذلك بغض النظر عن النتائج المترتبة ، من تمزيق أواصر المودة بين الناس أو إشاعة الكفر والإلحاد بينهم . المهم أن يبلغ هؤلاء المحترفون مآربهم ، ولهذا فكلما حرص الناس فى التعامل معهم أمكن تفادى إخطارهم والتغلب على المشكلات التى يثيرونها أو يحاولون دفع الناس إليها أو سوقهم نحوها .

ب ــ مناقشتها :

من المؤكد أن كل شبهة أقدم على إعلانها الماديون ، لابد أن تجد لها صدى فى نفوس بعض الحيارى ، الذين يخالفون الفطرة ويقدمــون علــى الإلحــاد ، وبالجملة فهم " مجمعون على رفض الألوهية ، واليوم الآخر والنبوات [١]. فإن يكفر بها هؤلاء ،" **أُوْلَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاء فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ** " [٢]ومن ثم ســأناقش تلك الشبهة فيما يلى :

أولا : التعميم فى إصدار الأحكام القاسية :

القول بأن قضايا الميتافيزيقا التأملية خالية من المعنى الحقيقى فيه نوع مــن التعميم ، لأن قضايا الميتافيزيقا منها ما يمكن التأكد منه عــن طريــق الخــبرة الذاتية كالروح والعقل والأنا ، فكل عاقل يدرك أن جسمه غير عقله ، كمــا أن عينه غير أذنه ، وهذه الغيرية فى الأدوات ليست هى الغيرية فى الملكات ، بــل كل منهما غير الأخرى تماماً .

وفى نفس الوقت فما من عاقل إلا وعنده يقين فى أن روحه ليست هى أذنه مثلاً وإنما هما متغايران ، والغيرية من حيث هــى منطــوق لغــوى لايمكــن التجريب عليه ، ولا إجراء التحليل المنطقى بالمعنى الذى يتمسك به الوضعيــون ومع هذا فالخبرة الذاتية تحكم بأنها موجودة لا محالة وذات معنى حقيقى ، ولمــا كانت أحكامهم عامة ،فقد بان أن التعميم فيها موقع بها وأصحابها فى خطأ كبير.

كما أن الماديين يقولون أن الفكر ــ وهو أخص وظائف النفس الإنسانية ــ ليس إلا وظيفة عضوية للمخ ، لإنتاج الأفكار ، كما أن وظيفة المعدة هضــم

---

(١) الدكتور/ محمد سيد أحمد المسير ــ الروح بين الإسلام والفلسفة ص ٤٨ الطبعــة الأولى دار الطباعــة المحمدية بالقاهرة ١٣٩٨هــ ١٩٧٨م .

(٢) سورة الأنعام الآية ٨٩ .

الطعام [١]، وهذه الأحكام فيها التعميم واضح وخلط يظهر لمن له أدنى إلمام بالبحث العلمي ، لوجود الفرق بين المخ العضوي والمخ الوظيفي ، لما هو معروف من أن هناك فرقاً كبيراً بين الآلة [٢] والملكة [٣].

فالملكة ليس من السهل تصنيفها أوحدها بالجنس أو الفصل أياً كان نوعها إلا على سبيل التقريب ، أما الآلة فيمكن تعريفها على ناحية حدية ، بل مع تقديم تعريف جامع مانع لها لأن لها جنساً وفصلاً قريبان ، ومن ثم فهم يعرفون الآلة ولا يعرفون الملكة .

والذى أوقعهم فى ذلك هو لجوؤهم إلى التعميم فى الأحكام ، وإصدارها فى قسوة بالغة .

والوضعية المنطقية إنما يعممون فى الأحكام بقصد التعمية والتمويه ، ويقسون فى إصدارها حتى يصرفوا الناس عن النظر في أخطائهم ، ويبعدوهم عن جدالهم أيضاً ، إنهم يعتبرون الهجوم أعظم وسيلة للحياة ، وكلما صنعوا ذلك ظنوا أنفسهم يعيشون فى أمان ، بينما هم يعيثون فى الأرض فساداً ولا أمان للمفسدين .

---

(١) الدكتور / محمد سيد محمد المسير — الروح بين الإسلام والفلسفة ص ١٤٨ .

(٢) تعرف الآلة بأنها الواسطة بين الفاعل والمنفعل فى وصول أثره إليه ، كالمنشار للنجار ، والقيد الأخير لاخراج العلة المتوسطة كالأب بين الجد والإبن ، فإنها واسطة بين فاعلها ومنفعلها إلا أنها ليست بواسطة بينهم فى وصول أثر العلة البعيدة إلى المعلول، لأن أثر العلة البعيدة لايصل إلى المعلول فضلاً عن أن يتوسط فى ذلك شئ آخر ، وإنما الواصل إليه أثر العلة المتوسطة ، لأنه الصادر منها وهى من البعيده — الجرجانى — التعريفات باب الألف ص ٢٨ .

(٣) الملكة صفة راسخة فى النفس ، وتحقيقه أنه تحصل للنفس هيئة بسبب فعل من الأفعال ، ويقال لتلك الهيئة كيفية نفسانية ، وتسمى حالة ما دامت سريعة الزوال ، فإذا تكررت ومارستها النفس حتى رسخت تلك الكيفية فيها وصارت بطيئة الزوال فتصير ملكة — الجرجانى التعريفات باب الميم ص ٢٠٥ .

ثانياً : لي أعناق الحقائق :

يلجأ الوضعيون إلى استعمال لغة غير مألوفة فى الأبحاث العلمية ، وهى لغة تقوم على لى أعناق الحقائق أياً كان نوعها ، ذلك أن الميتافيزيقا هى الأصل وهذه مسألة لا جدال فيها من حيث الحقيقة ، فعالم الغيب سابق على عالم الشهادة فى العلم الإلهي ، بل أن عالم الشهادة قبل أن يوجد كان فى العدم ، وهو غيب مقدر فى علم الله الأزلى ، من باب أن الأعدام مقدرة لقوله تعالى : **"الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ"** [1] .

ولما كان الموت مخلوقاً وهو عدم ، فإن الأعدام تكون كلها مقدرة فى علم الله الأزلي ، ويكون التقابل بين الموت والحياة هو نفسه تقابل العدم والملكة وذهب الشيخ الشرقاوى إلى أن المراد بالخلق فى الآية التقدير [2] ، من ثم فإن الأعدام كلها مقدرة وداخلة فى مفهوم الزمان المقدر فى علم الله الأزلي ، وعالم الشهادة وهو الفرع المخلوق الذى انبنى على الأصل المقدر سلفاً ، فما لم يكن عالم غيب لم يكن عالم شهادة .

وبناء عليه تكون قضايا الميتافيزيقا هى الأصل وهى ذات المعنى الحقيقى ، على حين تكون القضايا الأخرى إخبارية أو احتمالية إلى غير ذلك من الوجوه ، فما فعله الوضعية المنطقية ودعاتها ، إنما هو نوع من لى الحقائق الثابتة ، بغية إشباع هواجسهم النفسية .

كما أن الوضعية المنطقية حين يتحدثون عن مفردات أو قضايا الميتافيزيقا التأملية يستخدمون التعريف بالأثر الصادر عنها ، وهنا يقع التساؤل هل مفهوم الأثر عندكم له مدلول حقيقى ، أم أن تعريفكم له ينصب على المتأثر وليس على

---

(١) سورة الملك الآية ٢ .

(٢) الشيخ عبدالله الشرقاوى — حاشية الشرقاوى على شرح العلامة الهدهدى ص ٩٥ ط الرابعة الحلبى ١٣٧٤هـ — ١٩٥٥م .

الأثر ، دليل ذلك أنهم يعرفون العقل بأنه حصيلة العمليات البيوكيميائيـــة التـــى تحدث فى المخ [١].

لكن ما هو المخ ،إنهم يعرفونه بأنه عبارة عن معمل كيميائي حيوى فـــى غاية التعقيد ، ومادته الدافئة اللينة التى تشبه العجينة إنما هى خلاصة تغـــيرات مستمرة لا تنقطع حتى أثناء النوم ، وهو ينسج مادة حيـــاة الإنســان وأفكــاره وانفعالاته ، وذكرياته وأفعاله ، آماله ومخاوفه التى تكون أساس وجوده[٢].

فهل يمكن التأكد من أن المفردات التي اســتعملوها مثــل كلمــة أفكــاره وانفعالاته ، ذكرياته وأفعاله ، آماله ومخاوفه صحيحة المعنى، أو حقيقية المعنى من خلال التجربة العملية ، أو الخبرة الذاتية أو التحليل المنطقى وهـــى نفـس الألفاظ التى تستخدمها الميتافيزيقا ويزعمون أنها قضايا خالية من المعنى ؟ !!

لقد أفلس التيار المادى وأخفق أصحابه فى تقديم حجج أو أدلة معقولة حتـي يعتمد عليها ، فلجأ المنتسبون إليه إلى الحقائق الثانية حتى يقوموا بلى أعناقـــها لتوافق اتجاهاتهم أو إعلان التبرم بها والتبرؤ منها مادامت على غير هواهـــم ، وهم بذلك يعلنون مرة أخرى عدم حيدتهم فى تناول الموضوعات التى يدرســـها غيرهم ،ومن ثم يكون سلوكهم ونتائج ما يزعمون من قبيل الأفكار الغير معقولة

ثالثا : مخالفة الواقع :

يعلن الوضعيون دائماً أنهم يحتكمون إلى الواقع لكنهم لم يحـــددوا المعنـــى المراد من كلمة الواقع فى صدورهم ، أهو الواقع المعاش الذى تمثلـــه مظــاهر الحياة اليومية [٣]، أم هو الواقع المثالى الذى سعى إليه أفلاطون فى عالم المثــل

---

(١) الدكتور / فوزى حسن هوارى — العلم ومشكلاته البحثية ص ٧٣ ط ثانية ١٩٧١م .

(٢)الدكتور / محمد محمود عبد القادر — بيولوجية الإيمان ص ٩٣ دار الشروق ١٩٧٧م .

(٣)ويطلق عليه اسم الواقع الحياتى ، كما يسمى الواقع اليومى ، وينضبط بما يجرى في مظاهر الحياة المتغيرة وهو ليس حقيقياً ، لأنه لا ثبات له أبداً في أية مرحلة من مراحل الحياة .

من خلال رسمه ملامح جمهوريته [١]، أم عالم خيالى كالذى تصوره ميتوكريس فى روايته[٢] أم عالم تجريبي لا مكان فيه إلا للتجربة العمليـة ، ولا حكـم إلا للخبرات الذاتية ، ومع هذا فإنهم خالفوا الواقع ، حيـن حكمـوا علـى قضايـا الميتافيزيقا بأنها خالية المعنى ، أما لماذا ؟

فلأن قضايا الميتافيزيقا هى الواقع ذاته المعبر عنه بألفاظ ومفردات تتكـون منها القضايا ذاتها ، فكل قضية ميتافيزيقية يقابلها فى الواقع — أيا كان نوعـه مفرداتها أو الألفاظ الدالة عليها ، وبالتالي فإنكار قضايا الميتافيزيقا ، أو حسبانها خالية من المعنى الحقيقي يعتبر مخالفة للواقع ذاته ، وهو ما يدفع إلى القول بأن الوضعية المنطقية تتناقض مع نفسها ، كما ينكر أتباعها البدهيات ، ومثلـهم لا التفات لهم .

رابعاً : الجرأة فى غير موضعها :

من المناسب القول بأن جرأة الوضعية المنطقية على القواعد الإيمانية كـان من أهم البواعث لهم على إنكار الميتافيزيقا ورفض قضاياها ،كما أنهم لما نسبوا إليها الزيف فى قضاياها ، وخلو عباراتها عن المعنى الحقيقى ، فقد حملهم ذلـك كله على إصدار الأحكام القاسية ، تارة بأنها لغو لا فائدة منه [٣]، وأخرى بأنـها زائفة [٤]وأقاموا كل الأحكام العجلى ، مـن بـاب أن القضايـا التـى تتبناهـا الميتافيزيقا التأملية لايمكن التأكد من الحكم عليها بالصدق .

---

(١)وهذا صنع القديس أوغسطين ، وفعل ذات الصنيع الفارابي في مدينته الفاضلة وأصحاب اليوتوبيا كلـهم على هذا النحو يقيمون مدناً مثالية في عقولهم لا علاقة لها بالواقع المعاش ولا الحقائق الثابتة ,

(٢) لأن العمل الروائي إذا لم يحتوى على أكبر قدر من الخيال لم يكن مقبولاً ، وقديماً قيل أعذب الشعر أكذبه

(٣)الدكتور / رمزى محمد السيد — الوضعية والميتافيزيقا ص ٥٧ .

(٤)أ . م بوشفسكى — الفلسفة المعاصرة في أوربا ص ٧٣ .

ثم أسرفوا في هذه التصورات حين ذهبوا إلى أن قضاياها خاوية الوفـاض، خالية من المعنى الحقيقى ، كالقضايا الميتافيزيقية القائلة بأن المطلـــق خــارج الزمان ، وأن الحركة لابد لها من محرك ، والوجود لابد له من موجد، زاعمين أن هذه القضايا لا هى مما يثبتها الواقع بحيث يمكن تصديقها ، ولا هـــى ممـــا يتناقض مع الواقع على سبيل التجربة فيمكن تكذيبها [١]، وأنها ليست من القضايا التى تقبل الأحكام الصادقة ولا هى من الأحكام غير الصادقة ، إنها تخلو مـــن المعنى الحقيقى ، إنها لغو ولا تزيد عن كونها مجرد وهم [٢]وكان كارناب ينادى باستبعاد قضايا الميتافيزيقا من الكلام ذى المعنى ، كما طـــالب بحذفــها مــن الميتافيزيقا تماماً ، لأنها لا تستحق أن تحمل هذا اللقب ، إنها ليست جديرة به[٣]

إذن لم يكن لدى الوضعيين فى الغرب أولاً ثم في الشرق ثانياً مـــانع مــن ترديد ذات الأفكار على أوسع نطاق وفى جرأة بالغة ، وإعلانـــهم المتواصــل رفض الميتافيزيقا التأملية لكونها وقضاياها مما لايمكن التصديق به ، أو أنـــها لاتحمل صورة طبيعية لمعنى حقيقي ، إنهم طالبوا بإســـقاطها مــن الحســبان المعرفي ، وتناسوا أن إسقاطها فيه إسقاط لعدة جوانب معرفيـــة هامـــة وهـــى المعرفة الإلهية ، والمعرفة القلبية الإلهامية ، بل والمعرفة العقلية أيضـــاً ، فـــى مقابل تمسك الوضعية بجانب معرفي واحد هو المعرفة الحسية .

فإذا أمكن التعامل مع الوضعيين بمنطقهم كان الواقع يشهد بضرورة تبنـــى قضايا الميتافيزيقا التأملية ، والتمسك بإعلان أن قضاياها وحدها هى التى يمكـن الحكم عليها بأنها ذات معنى حقيقى ، لاحتواء تلك القضايا الميتافيزيقيـــة علـــى

---

(١) وهكذا أوقعوا أنفسهم في الحيرة وسلكوا مسالك القلق والاضطراب علي كل جهة .

(٢) الدكتور / محسن السيد نصر ــ الفلسفة الحديثة والمعاصرة ص ١٣٧ ، وراجع للدكتور / عزمى اسلام اتجاهات فى الفلسفة المعاصرة ص ١٢٣ /١٢٤ وللدكتورة / وفاء حسن خضر ــ الفلسفة العلمية ٤٥ .

(٣) الدكتور / رمزى أحمد السيد ــ الوضعية والميتافيزيقا ص ٦٣ .

مضامين تمثل العالم الطبيعي ، والعالم غير الطبيعي ، بجانب العقلى والمثـلى ، وهو ما لم ينتبه إليه الوضعيون رغم زعمهم القدرة العقلية والتمـيز الفكـرى ، لكن هناك فرق بين الدعوى والدليل .

وأحسب أنه قد خانهم النظر الصحيح إلى أن القضايا التى تتمسـك بـها الميتافيزيقا التأملية ، إنما هى ملامح الأصول التى تقوم عليها الجوانب الإيمانية

إن الميتافيزيقا تعمل على الوصول إلى الحقيقة الأساسية ، حقيقة الحقـائق ، وهى معرفة العلة الأولى ، والمبدأ الذى نشأت عنه كل الكائنات ، ومنه تسـتمد وجودها ، وإليه ترجع فى كافة شئونها ، كما أن هذا المبدأ الأول لابد لـه مـن صفات هى المعول عليه فى الخلق [١]، ومن ثم فلابد أن يكون هذا المبـدأ الأول قادراً مختاراً مريداً عالماً ، له من صفات الجلال والجمال والكمال والإكرام مـا تقع فيه المشابهة بحال من الأحوال .

يقول الدكتور / أحمد الجمل : تعتبر الفلسفة الوضعية خطوة واسعة نحـو استبعاد الدين عن مجال التوجيه وإحلال العلم محله ، وفقـاً لقـانون الأحـوال الثلاثة ، والذى ينتهى إلى أن البشرية تمر بمراحل ثلاث ، المرحلة اللاهوتية ثم الميتافيزيقية ، ثم الواقعية ، وهذه الأخيرة هى المرحلة العلمية التى ستصل إليها البشرية ، وهى المرحلة التى يقضى فيها على كل مظاهر الدين ، وكل أثر لـه فى الحياة ليتفرد العلم الوضعى بالقيادة [٢] ، وهم قد خانهم التوفيق مما يؤكد أنهم خرجوا عن الدين وخرجوا عن المعقول أيضاً .

---

(١) الدكتور / يسرى محمد فطين — دراسات فى الفلسفة الإسلامية — ص ١٢٣ وراجع للدكتـور حسـين السيد دعبس — نظرات فى الفلسفة الإسلامية ص ١٥١ والدكتورة / ليلى حسن على — الميتافيزيقا ص ٢٥ ط الثانية عام ١٩٨٧م .ة

(٢)الدكتور / أحمد عبده حموده الجمل — نظرات فى الفلسفة الحديثة ص ٢٧٦ .ط دار الطباعـة المحمديـة بالقاهرة .

الشبهة الخامسة : مناقضتها للمعارف التجريبية :

أ ــ عرض الشبهة :

الوضعية المنطقية تقيم بناءها المعرفى حين تلجأ لتفسير الظواهر الطبيعية على معطيات التجربة وحدها ، التى تنطلق من ميدانها الأصلي وهو العلوم الطبيعية حيث ثبت أنها أنجح طريقة لمعالجة مادة التجربة ، كما أنها تحاول البحث عن نظرة موحدة لعالم الظواهر ، من خلال تطبيق المناهج والنتائج التى تصل إليها العلوم الطبيعية [١] .

وهى لذلك ترفض كل معرفة لا يكون مصدرها التجربة الحسية ، أو يمكن الاحتكام فى صدقها إلى ذات التجربة ، لأن المعرفة عندهم دورها الأصلى تقديم تفسير للظواهر الطبيعية ، وذلك لايكون صحيحاً إلا إذا كانت تلك الظواهر فيها القابلية للإختبار ، والتحقق وإعادة التجربة عليها من جديد بحيث يمكن استخراج قانون عام يجمع هذه الظواهر مع بعضها .

ومن ثم فلابد أن تكون العناصر التى يقوم عليها ذلك التغير مستمدة كلها من التجربة أيضاً ، باعتبار أن هذا التفسير يمثل وصفاً عاماً ينحصر دوره فى إبراز خصائص الموضوع وكيفياته النوعية [٢] .

بيد أنه لما كانت هذه الأفكار قائمة فى رؤس أصحاب الوضعية المنطقية على جهة الاعتقاد المعرفي ، فقد ذهبوا إلى أن الميتافيزيقا التقليدية لايمكن حسبانها من المعرفة أبدا ، وان احتسبت معرفة فلا يمكن اعتبارها ذات قيمة علمية ، أما لماذا ؟ فلأن نتائجها وقضاياها تناقض المعارف العلمية التجريبية التى ثبتت صحتها على كل ناحية ، وما دامت القاعدة العلمية قاضية بأن ما يناقض العلم الصحيح والتجربة السليمة لا عبرة به ، إذن الميتافيزيقا التقليدية لا

---

(١) الدكتور / محمد عاطف غيث ــ علم الاجتماع ص ٦٣ ط دار المعرفة الجامعية ١٩٨٤م .

(٢) الدكتور / السيد قناوى ــ السببية فى العالم ص ١٧٤ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٨م .

قيمة لها ، لأنها فى أصولها تناقض نتائج العلم التجريبي على طول الخــط [١]، ومادامت متناقضة مع المعارف التجريبية ، فيجب إهمال الميتافيزيقا ، لأن فلسفة التحليل تغنى عنها [٢].

مثال ذلك القضية الميتافيزيقية القائلة بوجود حقبة لا متناهية قائمــة علــى الخلود ، فإنها تناقض القضية التجريبية القائلة الشئ الواحد لايبقى زمانين علــى حالة واحدة ، ويمكن بالتجربة إثبات الثانية — التجريبية — ولا يمكن التأكد مــن صدق الأولى الميتافيزيقية التقليدية مهما أحسنا الظن [٣]ولابد أن أحدهما صحيحة والأخرى كاذبة بناء على قواعد التناقض[٤] .

والملاحظ أن الأولى تقترب من الثانية فى المفــهوم ، ولا يمكــن اعتبــار الثانية تجريبية لأن الزمان عندهم غير معتبر فى الناحية التجريبية ، ولو كـــان قابلاً للتجربة لتعاملوا معه على ذات الناحية ، ومن ثم فلا تصح الثانية لتكـــون قضية تجريبية ، إنهم أخطئوا ضرب المثال .

وكذلك فكرة الفناء المطلق التى تتبناهــا الميتافيزيقــا، تتــاقض القضيــة التجريبية القائلة بأن المادة ثابتة فى المقدار ، كما أنها لا تفنى ولا تستحدث مــن العدم ، وإنما يقع عليها التبدل ، كما تتم لها التحولات الصورية التى هــى مــن خواص المادة وحدها ، ومادام العلم التجريبى قد أكد صحة الثانية ، وهى فـــى ذات الوقت تتناقض مع الأولى فإن الثانية تكون هى المقبولــة أمــا الأولــى —

---

(١) برلنوسكى — تأملات فى الفلسفة ص ١٥٧ ترجمة الدكتور ناشد صبرى صفوت ١٩٦٥ .

(٢) الدكتورة / وفاء حسن خضر — الفلسفة العلمية ص ٥٧ .

(٣)الدكتور / محسن السيد نصر — الفلسفة الحديثة والمعاصرة ص ١٤٥ .

(٤) والجهة فى القضيتين منفكة وبالتالى فلا تناقض بينهما طبقاً لشروط التناقض ، لأن التناقض الصحيح لابــد له من شروط خاصة مثاله القضية . محمد مهذب ، فإنها قضية شخصية فى حكم الكلية ، ونقيضها هو : محمــد ليس مهذباً ، وهو التناقض بين القضايا ، أما التناقض بين الأفراد فمثاله محمد ليس محمداً ، فإن التناقض فيـــها قائم على ذات الصورة . راجع للشيخ احمد بن على الفيومى شرح المنطق الصورى ص ٤٣ .

الميتافيزيقية — فإنها تكون مطروحة ، لما هو مستقر فى الأعراف العلمية من أن ما يناقض البدهيات يجب إهماله وعدم الالتفات إليه [١]فضلاً عن أن يكون موضوعاً للدراسة .

والوضعيون يسارعون دائماً إلي تأكيد أن كل ما تدلى به الميتافيزيقا التقليدية يتناقض تماماً مع نتائج العلم التجريبى ، لما هو ثابت فى أعماقهم من أن الكنيسة فى العصور الوسطى ظلت تردد مقولة الدين عدو العلم التجريبى ، كما يردد الآباء اللاهوتيين أن الدين والعلم عدوان [٢]، ومن ثم فيمكن القول بأن عبارات الوضعيين فى هذا الشأن إنما تمثل رد فعل منعكس ، لما كانت أصداؤه تتردد داخل جنبات الكنيسة .

ولكن ذلك لا يعفى الوضعيين من تحمل تبعات التجاوز على الدين ونصوصه بوجه عام ، إذ ليس كل ما تذيعه الكنيسة يمثل الدين الإلهي ، إنه لا يخرج عن كونه جملة من التعليمات اللاهوتية صدرت عن رؤس فارغة ، لا علاقة لها بالميتافيزيقا ، من ناحية المفهوم الذى يجرى فى أفهامنا نحن المسلمين وكأن بالوضعيين وقد عناهم الحكيم بقوله :

أبنى ان من الرجال بهيمة ... فى صورة الرجل السميع المبصر

فطن بكل مصيبة فى ماله ... فإذا أصيب بدينه لم يشعر [٢]

والمؤسف له استمرار تأكيد الوضعية المنطقية على أن قضايا الميتافيزيقا مع مخالفتها لقضايا الواقع ، فإنها أيضاً تناقض النتائج التجريبية، يقول فولباخ

---

(١) الدكتور / محسن السيد نصر — الفلسفة الحديثة والمعاصرة ص ١٤٢ والملاحظ أن الميتافيزيقا تتحدث عن العدم والوجود ، أما الفناء فهو أحد المباحث الكلامية أو الصوفية كل على ناحيته ،أما عند الفلاسفة فللفظ مفهوم آخر يغاير المفاهيم السابقة ، من ثم فان الاحتجاج به على بطلان القضايا الميتافيزيقية احتجاج فى غير موضعه .

(٢)الدكتور / سعيد عبد العظيم القطش — أوربا — الكنيسة والدين والعلم ص ٢٢٣ .

(٣)الشيخ محمد بن عبد العظيم الدوسرى — الإيمان قضاياه ومسائله ص ١٥٧ ط دار الميمنية ١٣١٥هـ .

أن القضية الأساسية فى الفلسفة التحليلية هى الاعتماد على التجربة ،وهى بمثابة القاعدة الأولى الحاكمة على صدق أية قضية ، فإذا تناقضت معها اية قضية فإن الثانية تكون هزيلة وغير مقبولة [1]بل مرفوضة أيضاً ، لا لنوعها، وإنما لأنـــها تناقض القضية التجريبية ، فالمعيار فى القبول أو الرفض هو الموافقة للقضيـــة التجريبية من عدمها :

يقول توماس هيرز كان فيرباخ يردد دائماً أن الميتافيزيقا التقليدية تعتــــبر نقطة الضعف الأساسية فيها هو تناقضها مع القضايـــا التجريبيـــة ، أو بعبـــارة أخرى عجز القضية الميتافيزيقية عن إثبات صدقها بإزاء الفلسفة التحليلية التـــى تعتمد أساساً على المقدمات الرياضية ،والتجارب العلمية[2]، وربما كان اعتمادها عليهما معاً ، بعد إدخال نمطية الخبرات الذاتية فى المسألة ، وهم بذلك يجمعون فى سلة واحدة كل ما يتعلق بالميتافيزيقا التأملية، ثم يضربون صفحا عنه جميعاً.

ويقول كوندرسيه : تمثل فلسفة التحليل القاعدة الأصيلـــة للعمـــل العلمـــى الصحيح ، وتمثل الميتافيزيقا الجانب الآخر ، إنها تمثل الخرافة والأســـــاطير ، كما تمثل الالتجاء نحو القوى الغائبة فى شكل فوضوي ، ليحقق فى النهاية نتائج كلها كاذبة أو على الأقل لا تقدم نفعاً للإنسان العادى فضلاً عن الباحث الجيد ، وهى لذلك تناقض العلم مما يعنى ضرورة إبعادها من طريقه ، وإفساح المجـــال له وحده دون منازع [3].

فهو لا يعتبر الميتافيزيقا إلا خصماً للعلم أو عدواً لـــه ، مـــع أن أرســـطو فيلسوف اليونان كان يجعل مباحث الميتافيزيقا مدرجة فى مباحث ما بعد الطبيعة

---

(١) الدكتور / محسن السيد نصر ـــ الفلسفة الحديثة والمعاصرة ص ١٧٣ .

(٢) توماس هيرز ـــ الفلسفة الوضعية ص ١٥٣ ترجمة صابر زهدى ١٩٧٧ .

(٣) ا.ب توا سبان ـــ كوندرسيه والفلسفة العملية ص ١٢ ترجمة الدكتور زاهى أحمد التهامى ط ١٩٧٦م.

أو الإلهيات أو الفلسفة الأولى ، حين كان يتناول المبادئ العامة العليا لكل مـــا هو موجود ، وهى فى حد ذاتها مبادئ ليست واقعة فى نطاق الإدراك الحســى ، وإنما هى قابلة للإدراك العقلى التأملى[1].

ربما يقال أن أرسطو وأفكاره ممن يندرجون فى منطقة المرفــوض مــن التفكير والميتافيزيقا معاً ، على أساس أن الجوانــب المعرفيــة قــد اســتبعدت الوضعية المنطقية منها كل معرفة نظرية أو لا يمكن التجريب عليها ، فلمـــاذا استشهدت به أو اعتمدت على أفكاره ؟ والجواب أن زعم الوضعيـــة بتنـــاقض الميتافيزيقا للتجربة العملية هو الذى دفع إلى ذكر أرسطو ،على أساس أنه الـذى سبق لوضع المصطلح الذى ظهرت الميتافيزيقا على أكتافه فى أوربا ، حيث أن اليونان لم يعرفوا من مفهوم الألوهية سوى التعدد الإلهى المتجسد فـــى أشـــكال مختلفة ، ثم تطورت الأفكار الميتافيزيقية التى لم تكن تحمل أسما بعينه، حتـــى ظهرت الأبحاث الميتافيزيقية فى مراحلها الأولى ، ومن ثم فــلا تنـــاقض بيـــن المعارف التى تدلى بها الميتافيزيقا ، والنتائج التى تجئ بها التجربـــة العمليـــة الصحيحة .

من ثم يمكن القول بأن الوضعية المنطقية كان حرصهم الشديد على إفســاد العلاقة بين الميتافيزيقا التأملية والمفكرين حتى يظلوا أسارى التجربة الحســية ، وقد استطاعوا إبرازها فى صور غير مقبولة حتى ينفر منها الجميـــع مقلديـــن بعضهم البعض .

بدليل أن عمانويل كانت ذهب فى تعريفها بأنها جملة الموضوعات الخارجة عن نطاق التجربة ، ونطاق الزمان والمكان ، ومن هذا الوجـــه يحكـــم العقـــل النظرى على بطلان هذا العلم [2]ثم خلص إلى أن هذا التعريـــف بـــاطل ومـــن

---

(١) الدكتور / عاطف أحمد ـــ نقد العقل الوضعى ج ١ ص ٤٩ دار الطليعة بيروت ١٩٨٠م .

(٢)الدكتور / مراد وهبه ـــ المعجم الفلسفى ص ٤٣٩ .

الممكن استبداله بآخر بحيث ينتهى إلى القول بأن المعرفة الأولية ممكنة فى ذاتها ومن خلال العلم الرياضى والطبيعى على أساس أن مبادئهما الأولية تستند إلـــى التجربة الحسية ، والخبرات الذاتية بجانب القدرات العقلية[١] .

وهذا التصور سمح له فى إصدار حكم سريع على الميتافيزيقا التأملية بـــأن مبادئها الأولية لا تستند إلى شئ من تجربة صحيحة [٢] وبالتالى قضاياها فارغة عن المعنى الحقيقى ، ومتناقضة مع القواعد التجريبية مما يجعلها غير جديـــرة بإطلاق اسم المعرفة عليها [٣]إنها ليست ممكنة على الإطلاق ، كما أن العقـــول مهما بلغت من قوة لا يمكنها إدراك وجودها أو ماهيتها [٤].

بيد أن ما يدعو للعجب هو اتفاق المذاهب المادية على اعتبـــار الوضعيـــة المنطقية المتحدث الرسمي الذى ينقل للناس آراءهم ، ويعبر عن أفكارهم فيقـــور كولبه تزكية المذهب الوضعي ، ويعلن أن رفض الميتافيزيقا التأملية ميزة كبرى قام بها الوضعيون وحدهم فيقول ، أهم ما يمتاز به المذهب الوضعـــي رفضـــه الميتافيزيقا ــ ما بعد الطبيعة ــ بحذافيرها ، واعتباره الفلسفة النقدية علماً كليا والتجربة وحدها أصل وأساس كل معرفة وموضوع كل علم [٥].

---

(١)الدكتور / وفيق محمد أبو خضرة ــ الفلسفة المادية ص ١٣٧ ط أولى ١٩٥٧م .

(٢) لست أدرى لما يصر الوضعيون والماديون جميعاً على إبراز المعرفة الحسية والإمساك بها وحدهـــا وطـــرح الأنواع الأخرى والوسائل المعرفية الأولى ألا يعد ذلك من الشواهد على أنهم يمارسون سلوكيا غير علمى .

(٣) الدكتور / يحيى هويدى ــ دراسات فى الفلسفة الحديثة والمعـــاصرة ص ١٠٨ ط دار النهضـــة العربيـــة بالقاهرة ١٩٦٨م .

(٤) مع أن عمانويل كانت نفسه كتب مقدمة لكل ميتافيزيقا نقدية مقبلة يمكن أن تكون علماً ، وكانت آراؤه تجنح به أحياناً نحو الميتافيزيقا التأملية على سبيل التسليم بها حيناً ، أو الإنكار لها فى بعض الأحيان مما يؤكـــد أن التنويريين في أوربا والوضعية المنطقية كانوا من عدائهم للكنيسة فتجاوزوا كل الحدود ووقعوا في المحذور .

(٥) ازفولد كوليه ــ المدخل إلى الفلسفة ص ٣١ ترجمة الدكتور أبو العلا عفيفى ط الثانية مطبعـــة التـــأليف والترجمة والنشر ١٩٤٣م .

وهو ما يؤكد حرص الوضعية المنطقية على إهدار الدين ونصوصه ، وتجاهل المخاطر المترتبة عليه ، وفى نفس الحرص يعلن رغبتهم في إبراز دور العلم وقدرته على تقديم تفسيرات متلاحقة لكل شئ تجريبى ، ومعرفة العلل التى يقوم عليها ، والعلاقات التى تربط بينها [١].

وفى تقديري أنهم ظنوا الميتافيزيقا التأملية بضاعة بواراً ، أو بقرة سقطت قبل أن تمثل بين يدى الجاذر ، فأعملوا فيها مداهم ، وراحوا يقطعونها من كل ناحية فلما أراد أصحابها الدفاع عنها ، انبرى هؤلاء المعتدون القساة فكالوا لهم سوء الكيل ، وتحولوا من الطعن فى الميتافيزيقا إلى الطعن فيمن يدافع عنها أو يتعلق بها ، فيقولون أن الميتافيزيقا تناقض قضاياها التجربة الصحيحة ، كما أن كلماتها لاتؤدى إلى معنى ، وان أدت إليه فإن جمعها قد جاء على نحو لا معنى له [٢]، كما يقولون من الممكن أن تنظر إلى الميتافيزيقا التأملية من قبيل أنها تعبر فقط عن الإحساس بالحياة لمن أقاموها ، أما هى فعاجزة عن ذلك ، بل يمكن وصف هؤلاء الميتافيزيقيين بأنهم موسيقيون بلا موهبة موسيقية [٣].

ولا يقف أمرهم عند وصف محبى الميتافيزيقا بأنهم موسيقيون بلا موهبة موسيقية ، وإنما يقولون أيضاً إن الفلاسفة الميتافيزيقيين قد ضلوا سيرهم

---

(١) الدكتور / محمود رجب ـ الميتافيزيقا عند الفلاسفة المعاصرين ص ٣٢ الطبعة الثانية دار المعارف بالقاهرة ١٩٨٦م .

(٢)الدكتور / رمضان محمد بدوى ـ الفلسفة التحليلية ص ٤١ ط أولى والملاحظ أن هذه الجمل المتلاحقة تحمل للقارئ جملة الاعتراضات أو الشبهات التى أقامها دعاة الوضعية المنطقية كمبررات وضعية لرفض الميتافيزيقا ، أو هم استندوا إليها فى رفض الميتافيزيقا التأملية .

(٣)الدكتور / محمود رجب ـ الميتافيزيقا عند الفلاسفة المعاصرين ٢٤١ ، ولاشك أن ذلك التشبيه يجرى على ألسنة الوضعيين وغيرهم حينما يريدون القدح فى الميتافيزيقا التأملية وما أكثر تشبيهاتهم التى من هذا القبيل .

ومضوا إلى طريق عقلى مسدود [1]لأنهم آمنوا بالغيب ، وصدقوا بوجود ماوراء المحسوسات ، وأيقنوا أن الجدل الفوضوي أو العبثي لا يجلب علـــى أصحابـــه سوى الخسران .

ب ـــ مناقشتها :

أولاً : تهافت الشبهة :

لاشك أن هذه الشبهة قامت على طعن الوضعيين فى نتائج الميتافيزيقا التـى تلحق قضاياها ، بناء على مناقضة هذه القضايـــا ونتائجـــها النظريـــة للنتـــائج التجريبية ، وهو طعن هزيل متهافت أما لماذا ؟ فلأن نتائج التجـــارب العمليـــة احتمالية عندهم لأنها إخبارية [2]، ويقع عليها التطور المستمر ، وبالتالى فليسـت كل نتائجها يقينية يقيناً مطلقاً ، وإنما هى فى الأصل نتائج احتمالية واليقين فيـــها نسبى .

ومن ثم فلا يمكن القول بـــأن النتـــائج الاحتماليـــة مطلقـــة اليقيـــن وأن الميتافيزيقية لا يقين فيها ، بل الصواب أن نقول قضايـــا الميتافيزيقـــا التأمليـــة المتعلقة بالإيمان بها على سبيل الاعتقاد فيها ، أو الكفر بها على سبيل الإنكـــار لها لايمكن أن تكون نتائج التجربة العملية حاكمة عليها ، وإلا كـــان الكـــلام لا معنى له ، إنما الصواب القول بأن القضايا الميتافيزيقية التأملية هـــى الحاكمـــة على كون التجارب المعملية مقبولة على الناحية الإيمانية أم لا وهـــو المعيـــار الصحيح .

بمعنى أن قضايا التجربة الحسية متعلقة بجانب معرفى بعينه ، أما الإيمـــان القلبى فهو الأصل لأنه متعلق بالاعتقاد ، كما أن الفطرة السليمة قد تغنى عـــن الكثير من المعارف المكتسبة دليل ذلك قوله تعالى : " **فَوَجَدَا عَبْـدًا مِّنْ عِبَادِنَـا**

(١) الموسوعة الفلسفية المختصرة ص ٤٣٣ .

(٢) توماس هيرز ـــ الفلسفة الوضعية ص ١٥٨ .

آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا "[1] وقولـــه تعـــالى : "**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** "[2]

والمعنى أخلص دينك لله ، واقبل على الإسلام بهمة ونشاط بعيداً عن كـــل دين باطل وفاسد ، لأن الإسلام هو الدين الحق الذى أمر الله الناس جميعـــاً بـــه وكلفهم بالإستقامة عليه ، لا تغيير لتلك الفطرة الصحيحة التى فطر الله النــــاس عليها ، وهو ذات الدين القيم المستقيم ، أما أهل الجهالـــة وأصحـــاب العمايـــة والضلالة ، فهم لا يعملون ذلك على سبيل الاعتقـــاد الصحيـــح ، وان كـــانت معارفهم تأخذهم إليه ، لكنهم يجادلون فى ذلك كله ، وعقابهم فى الآخرة عـــذاب أليم [3].

كما أن الدين الإلهى تحمله نصوص إلهية منزلة من عند الله تعالى ، وبنـــاء عليه فالنقل المنزل ــ النص الدينى ــ من عند الله هو ذاته كلمة الله الصادقـــة وحدها ، قال تعـــالى : "**اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا** "[4] وكلمة الله تعالى أعلى مـــن كـــل الأقـــوال والكلمات ، وفوق كافة التجارب ونتائج جميع الأفكار ، بل على العقول جميعـــها أن تتصاع لها وتخر أمامها ، وإلا فالتناقش محسوب على ذات العقول ، وليـــس على شئ من كلمة الله تعالى قال جل شأنه : "**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**

---

(١) سورة الكهف الآية ٦٥ .

(٢) سورة الروم الآية ٣٠ .

(٣)الشيخ / محسن محمد توفيق ــ الرحيق المختوم بتفسير سورة الروم ص ١٢٧ الطبعة الثانية ١٣٢٧هـــ .

(٤) سورة النساء الآية ٨٧ ــ قال الشيخ الصابونى هذا قسم من الله تعالى بجمع الخلائق يوم المعاد ، وحشرهم من قبورهم إلى حساب يوم القيامة الذى لاشك فيه ، وسيجمع الأولين والأخرين فى صعيد واحـــد للجـــزاء والحساب ، ولا أحد أصدق من الله تعالى حديثاً ، فالله وحده الصادق جل علاه ــ صفوة التفاســـير ج٢ ص ٢٩٣ .

سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ قِيلاً " [١].

قال الشيخ البروسوى : والعمل الصالح هو ما أريد به وجـــه الله تعـــالى ، وينتظم جميع أنواعه من الصلاة والزكاة وغيرها ، ومن ثم فالذين آمنـــوا بـــالله تعالى رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورســـولاً ، ثم قاموا على الأعمال الصالحة سيدخلهم الله جل علاه جنات تجرى من تحتـــها أنهار الماء واللبن والخمر والعسل [٢]، خالدين فيها إلى الأبد ، وهذا وعد من الله لهم وهو حق ، إذ ليس أحد أصدق من الله تعالى قولاً ووعداً ، فوعـــده أولـــى بالقبول [٣]من ثم فكلام الوضعية لا قيمة له ، واعتصامهم بالتجربة الحسية شاهد عليهم وليس دليلا لهم ، أما الزعم بأن قضايا الميتافيزيقا تناقض التجربة الحسية فلا اعتداد به من باب أن الاحتمالي — وهو التجربة الحسية — لا يكون حاكمـــاً على اليقيني وهو الأحكام الإلهية .

ثانيا : قيامها على المغالطة :

المعروف أن المغالطة قول مؤلف من قضايا شبيهة بالقطعية أو الظنيـــة أو المشهورة [٤]، فبدل اعتراف الوضعيين بأن قضاياهم أو النتائج التـــى تقدمـــها التجربة يجب أن لا تتعرض بالحكم على قضايا الميتافيزيقا ولا تلجأ لإســـتعداء الآخرين حتى يقوموا بإصدار أحكام عليها ، وإلا تناقضت مع القواعد الصحيحة

---

(١) سورة النساء الآية ١٢٢ .

(٢) قال تعالى : " مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاء غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاء حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءهُمْ " سورة محمد الآية ١٥ .

(٣)الشيخ / اسماعيل حقى البروسوى — تنوير الأذهان المجلد الرابع ص ٨٠ / ٨١ بتصرف يسير .

(٤) السيد الشريف الجرجانى : التعريفات باب الغين ص ١٩٩ وقد تعرف بغير ذلك لدى علماء أدب البحث والمناظرة وكلها تعريفات متقاربة فى المعنى .

الأسس العامة ، إلا أنهم يعكسون ويطلبون حذف الميتافيزيقا من قاموس التعاملات المعرفية بزعم أن قضاياها تناقض التجربة ، أليست الميتافيزيقا هي الأصل ، والتجربة هي الفرع ، ألم يكن الأجدر بهم إعلانهم العزم على إخضاع تجاربهم في قبولها ورفضها إلى النصوص الشرعية .

إنهم يعترفون بأن تاريخ الفلسفة العلمية ما هو إلا قصة تطور لمشكلات يمكن حلها عن طريق ممارسة العمل المتخصص [١]، ومن ثم فإن عجزهم عن الوصول إلى المشكلات التي تقوم بعرضها الميتافيزيقا وتعمل على تقديم الحلول لها لا يعتبر دليلاً على فشل الميتافيزيقا ، أو على أن قضاياها متناقضة مع التجربة الصحيحة ، وإنما يعتبر من ابرز الأدلة على فشل الوضعية في تقديم صيغة تفاوضية صحيحة بشأن المسألة المعروضة .

لقد عمدوا إلى ممارسة المغالطات اللغوية تارة والعلمية أو الجدلية أخرى ، مع زعمهم أنهم أصحاب فلسفة عملية ، أو فكر تحليلي ، وكان الأمثل لهم الالتفات مع المبادئ التي وضعوها بحيث إذا ساروا عليها ، يكونون متفقين معها على الأقل ، أما أن يعلنوا وضع قواعد أو مبادئ عامة يسيرون عليها ثم يقومون بمخالفتها ، فذلك هو التناقض الذى تمثله تخالفات الفكرة والمبدأ مع السلوك والممارسة [١].

بيد أنهم لم يقدموا دليلاً واحداً صحيحاً على تناقض الميتافيزيقا التأملية مع التجربة الحسية ، كل ما أعلنوه لا يخرج عن كونه مجرد ظنون أو شكوك موهومة ، قائمة في مفردات لغوية خالية من المعنى ، مما يدل على إفلاسهم ،

---

(١) هانز ريشنباخ — نشأة الفلسفة العلمية ص ١١٠ ترجمة الدكتور فؤاد زكريا ط دار الكتاب العربي ١٩٦٧م.

(٢)الدكتور / رمضان محمد بدوى — الفلسفة التحليلية ص ٥٧ وهذا التخالف بين المبدأ والسلوك يمثل نقطة هامة في فشل الوضعية المنطقية وعجزها عن الوصول إلى لب المسائل التي يتناولونها .

وعجز أرصدتهم العقلية والفكرية عن التعاملات الصحيحة ، ان كـل شـبهاتهم أقرب شبها بعملة مالية فقدت قيمتها الفعلية فى أسواق النقد فتم إلغاؤها من سوق التعاملات المالية ، لكنها فى نظر أصحابها ما تزال محتفظة بقيمتها ، مما يـدل على عجزهم عن فهم آليات الزمن وعدم قدرتـهم علـى الشـعور بحركاتـه والتغيرات التي تصاحب تلك الحركات .

ثالثاً : شهادة متقدميهم ليست لصالحهم :

لقد اعترف برجسون بأن الذهن الإنساني والعيان العقلى هما معاً مصـدر المعرفة للعلم التحليلى والميتافيزيقا ، أو بعبارة أخرى أكد على أن الميتافيزيقـا التأملية أسمى من العلم التجريبى ، أما لماذا فلأن الميتافيزيقا تقوم على منـهج العيان الذى يستطيع اختراق شتات الموضوع المعروض ، كما يمكنه التخلـص من كل رمز ، وفوق ذلك فإنه يتجاوز وجهات النظر الخاصة . من ثم يـدرك الحقائق على ما هى والمطلق من حيث ذاته [١] .

أما العلم الذى ينتج عن الذهن فأقل من هذه المعرفة بدرجات على اساس أن الذهن عبارة عن التحليل ، ومن ثم فمعرفته نسبية ، وتتوقف على وجهات نظـو الباحثين ، مما يمكن اعتبارها وجهات نظر خاصة وليست عامة ، وبناء عليـه فإن الانتقال من العيان إلى الذهن أمر سهل ميسور ، أما الانتقال من الذهن إلـى العيان فأمر عسير ، ومن ثم فالمعرفة الميتافيزيقية اسمى من المعرفـة العلميـة وأعمق [٢].

---

(١) هذه الإشكالية تفرض نفسها على الموضوعات التى يطرحها الوضعيون ، ولكنهم فى بعض الأحيان تنفلـت منهم العبارات فتنطق ألسنتهم بها رغماً عنهم ، وقد يتمكنون من ضبط هذه الألفاظ فلا تعبر عن حقيقتها وهى مسألة يحاول الوضعيون إتقانها والقيام بها إلى حد الإجادة .

(٢)الدكتور / محمود رجب ـــ الميتافيزيقا عند الفلاسفة المعاصرين ص ٢٥١ .

كما أن فيرباخ قد أقر بأمن المعرفة التجريبية احتمالية فى نتائجـها لكونـها قائمة على القضايا الإخبارية ، لكن الميتافيزيقا لها أمر آخر ، إنها لم تقم علـى قضايا مقبولة من ناحية التفكير الوضعى ، ولكنها قامت على قضايا سابقة فـى الوجدان والضمير إنها قامت على التجربة الذهنية ، كما أن الخبرة الذهنية إنمـا تمثلها جملة من التراكمات والخبرات الحسية أو الذاتية ، وهى لذلك ليـس مـن السهل اعتبارها قاعدة كلية [1] ، وإنما لابد من الميتافيزيقا لأنها التى تقوم بـذات الدور.

أما الميتافيزيقا التأملية فلكونها قائمة على الوجدان والإلهام القلبى والنصوص التى يمكن تطبيقها على الجميع فإنها تعتبر حقيقية ، ولا يمكن اسـتبعادها مـن مجال البحث المنهجى ، كل ما يمكن قوله أنها لا تكون وحدهـا فـى الميـدان بغرض الإثبات أو الإنكار ، وهذا اعتراف صريح منه بضرورة الاحتياج إلـى الميتافيزيقا التأملية والتمسك بأن نتائجها ضرورية ، وهى شهادة ناطقة بتناقضها مع المبادئ التى تقوم عليها الوضعية المنطقية بخصوص عداوتها للميتافيزيقا .

أما بوبير فقد انتهى إلى ضرورة المحافظة على الميتافيزيقا التقليدية مـن أجل العلم والمحافظة على ذاته ، لأنها تمده بالتحقيقات والفروض التى تكتسـب صفة العلمية بعد خضوعها للتفنيد والاختبار ، ومن ثم فكـل مـن الميتافيزيقـا والعلم تكامل مع الآخر والفصل بينهما لا يخدم أيا منهما ، بل أنه عند الفصـل بينهما تكون النتيجة لغير صالح فلسفة التحليل أبداً [2]. ، فهو بذلك لا يوافق مـا عليه الوضعيون ولكنه يؤكد وجود شقاق كبير بين أنصار الوضعية المنطقيـة ، وأن ظاهرهم إذا كان يفيد اتفاقهم على شئ ما ، فإن هذا الاتفاق وهن جداً بـل

---

(١) برلنوسكى — تأملات فى الفلسفة ص ١٣٨ .

(٢) الدكتور / محمود رجب — الميتافيزيقا عند الفلاسفة المعاصرين ص ٢٥٧ .

صار من الصواب القول بأنهم أشبه ببجزر متباعدة فـــى كـــل شـــئ ، ولكـــن المجادلين يزعمون اقترابها ولو فى الشكل الظاهرى وهو وهم وخداع .

والطعن على الميتافيزيقا المتعلقة بالعالم الغيبى أو الله تعـــالى وصفاتـــه أمـــر مرفوض ، وفعل منقوص ، لايقوم به إلا من استولى الشـــيطان علـــى عقلـــه فأصيب بالعمى العقلى ، ولعب بأوتار قلبه فصار يقاتل مع الشيطان علـــى أنـــه واحد من جنده . قال تعالى : " **الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا** "[١] قال العلامة الزمخشرى : كيد الشيطان للمؤمنين إلى جهنم وكيد الله للكافرين أضعف شئ وأوهنه [٢]. قال الشيخ الصابونى المؤمنـــون يقاتلون لهدف سام وغاية نبيلة ، وهى نصرة دين الله ، وإعلاء كلمتـــه إبتغـــاء مرضاته ، فهو تعالى وليهم وناصرهم ، وأما الكافرون فيقـــاتلون فـــى ســـبيل الشيطان الداعى إلى الكفر والطغيان ، فقاتلوا أولياء الله أنصار الشيطان وأعوانه فانكم تغلبونهم ، فشتان بين من يقاتل لإعلاء كلمة الله ، ومن يقاتل فـــى ســـبيل الشيطان ، فمن قاتل فى سبيل الله فهو الذى يغلب ، لأن الله تعالى وليه وناصره ومن قاتل فى سبيل الطاغوت فهو المخذول المغلوب لأن سعى الشيطان فى حـــد ذاته ضعيف فكيف بالقياس إلى قدرة الله [٣] .

كما أن الوضعيين ماداموا على ذات النمط من العداوة للغيب يسيرون فإنهم قد أعلنوا استحواذ الشيطان عليهم ، ومن استحوذ عليه الشيطان فإنه لا ينال منه سوى ألاعيبه وحيله ، ومثله لايقبل النصح ولا يستجيب للحق ، قال تعالى :

---

(١) سورة النساء الآية ١٧٦ ٠

(٢) الزمخشرى ــ الكشاف ج ١ ص ٤١٤ .

(٣) الشيخ الصابونى ــ صفوة التفاسير ج ٢ ص ٢٩٠ ٠

" **اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ** "(1) .

قال الشيخ البروسوى : استولى عليهم الشيطان ولكنهم لطاعتهم له فى كل ما يريد منهم حتى جعلهم رعيته وحزبه ، فأنساهم ذلك أن يذكروا الله تعالى بقلوبهم فتقع لهم مراقبته جل شأنه ، كما لم يذكروه بألسنتهم فصاروا فى القبائح يخوضون أولئك هم حزب الشيطان ، وجنوده الساعون فيما أمرهم به ، ومن ثم فهم الخاسرون حيث فوتوا على أنفسهم فرصة الفوز بالنعيم المقيم ، وأخذوا بدله العذاب الأليم (2) .

ومن علامات استحواذ الشيطان على العبد أن يشغله بعمارة ظاهره من المأكل والمشرب ، ويشغل قلبه عن التفكير فى الاء الله ونعمه عليه ، والقيام بشكرها ، ويشغل لسانه عن ذكر ربه بالكذب واللغو والبهتان والغيبة ، واشتغاله من الحق بسماع اللهو والهذيان ، والجدل فيما نهى الله تعالى عنه ، فمن استولى عليه الشيطان جعله عبداً له ، يقوم على خدمته فقط ، ثم يوم القيامة يتخلى عنه ويعلن البراءة منه .

وقد ضرب الله ذلك مثلاً لأولى الألباب حتى يعقلوه ويحذروا منه قال تعالى: " **كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ** " (3).

---

(1)سورة المجادلة الآية ١٩ .

(2)الشيخ إسماعيل حقي البروسوى ـــ تنوير الأذهان ـــ المجلد الرابع ص ٢٦٣ .

(3) سورة الحشر الآيات ١٥ / ١٧ .

أما المسلم الموقن بالله ، المصفى داخله لمولاه ، فإنه يلتزم بأن يكون عبداً خالصاً له ، قائماً على طاعته ، ملتزماً أوامره ، مجتنباً نواهيه ، حيث لا يراقب ولا يشغل قلبه إلا بالله ، فكل ما سواه باطل ، وأية محبة بعد محبته فهى بهتان ولله در القائل :

من لى سواك أحبه أو أعشق	**ولك الملاحة والجمال المطلق**
ولكل حسن أنت روح وجوده	**وعليه من معنى بهائك رونق**
ما القد ما الطرف الكحيل وما اللمي	**لولاك تشهد فى حلاه وترمق**
وجميع ما فى الكون من مستحسن	**فإليك نسبته وباسمك ينطق**
رقت حواشى الحسن فيك فأهله	**قتلى هواك وكلهم لك يعشق**
من مات فى دير الهوى بك صبوة	**نال الشهادة وهو حى يرزق[1]**

وما دمنا قد وضعنا فى الحسبان النظر إلى ما تجرى به عبارات الوضعيين والحكم عليها من خلال المعقول أو اللامعقول ، فإن موقف هؤلاء من الميتافيزيقا التأملية غير معقول ، وبخاصة أنهم ينظرون إلى كل بحث ميتافيزيقى على أنه قرين الآخر ، ثم يجعلون هذه المباحث كلها فى سلة واحدة ، يحكمون من خلالها على الميتافيزيقا التأملية بالبطلان ، لكونها غير متوافقة مع النتائج التجريبية ، أو لا تخضع للخبرات الذاتية ، والتحليل المنطقى ، فصارت الأمور معهم تجرى على العكس ، وهو ما يؤكد على أن الأفكار الوضعية غير معقولة .

ولو أن دعاة الوضعية المنطقية كانوا موضوعيين لفصلوا بين قضايا الميتافيزيقا التى تثبتها الفلسفة الحديثة والمعاصرة ، وما تدلى به الميتافيزيقا التقليدية من موضوعات ونتائج ، ومناهج بحث وطرائق استدلال ، ثم قدموا

---

(١) الشيخ عبد الرحمن محمد الأنصارى ابن الدباغ — كتاب مشارق أنوار القلوب ومفاتح أسرار الغيوب ص ٥٧ تحقيق ه. ريتر ط دار صادر بيروت .

صورة نقدية للجزئية التى يعتبرونها بحاجة إلى المزيد من التوضيح ان وجدوا ذلك ، ربما كان أمرهم معقولاً أو نالت تفصيلاتهم شيئاً من القبول ، أو أمكن التحاور معهم على موضوع بعينه [١]، وحينئذ يكون اتجاههم علمياً موضوعياً داخلاً فى نطاق المعقول أيضا ، لكنهم فشلوا في ذلك كله فصارت أبحاثهم ونتائج دراساتهم كلها غير معقولة .

كما أنهم لو أعلنوا رفضهم للميتافيزيقا الجدلية التى يلتزم أصحابها الشك المطلق ، لكانوا على قدم المساواة مع أصحاب القضايا ، والأحكام الصحيحة المقبولة ، لما هو معروف من أن أصحاب الشك المطلق استخدموا لفظ الميتافيزيقا بمعنى مغاير لما هو قائم فى أفهام الميتافيزيقيين الأوائل [٢]وكانت غاية أصحاب هذا الشك إفساد العلاقة بين الميتافيزيقا والمعتقدين لها .

يقول سانشيه ليس من الصواب إعلان التخلص من الميتافيزيقا التى تسود أفكار الغالبية ، وإنما الصواب إعلان التمسك بها ، ثم تعبئة مفاهيمها بما نريد نحن فذلك أقرب طريق للإتيان عليها من الأسس والأصول [٣]، والمعروف أن سانشيه كان من أشد أنصار الشك للشك حيث يقول : إنى أشك فى إنى أشك ، وسأظل أشك ، إذ ليس بإمكانى أن أضع قدمى على الأرض الرخوة تاركاً الصلصال [٤].

لقد إلتزم أصحاب الشك المطلق طريقة يباعدون بها الناس عن النظر فى الميتافيزيقا وهى التحاور بالألفاظ ، والتجادل بها بعيداً عن المعانى ، ومن ثم فقد

---

(١) ليس بإمكان الوضعية المنطقية القيام بذات الدور لأنهم لم يدربوا أنفسهم عليه حتى يقوموا به ، كما أنهم فقدوا الاستعداد للقيام بمثله .

(٢)الدكتور / فهمى محمد طبانه — فلاسفة الشك فى أوربا ص ٣٧ ط أولى ١٩٦٧م .

(٣)أ . ب ميركوين — فلسفة الشك الطبيعى ص ١٥٣ ترجمة وفاء صبرى ١٩٦١ بغداد .

(٤)الدكتور / فهمى محمد طبانة — فلاسفة الشك فى أوربا ص ٤١ .

كان موقفهم فيه الكثير من العجب ، حتى أن الناظر العجول إليهم ربمـــا توهـــم اعتقادهم فى الميتافيزيقا وإيمانهم بها ودفاعهم عنها ، ولكنه ما يلبث أن يكتشــف خداعهم ، وتظهر له عوراتهم الفكرية .

والوضعيون هم الآخرون قد سلكوا نفـــس المســـالك ، فصـــاروا جميعـــاً مسلاخات غير محددة الملامح ، فلا هم شكاك على طول الخط بحيث ينصـــوف الناس عنهم ، ولا هم من المدققين أو المحققين الذيـــن تنضبـــط أفكـــارهم مـــع عبارات صحيحة تعبر عنها ، وإنما وقعوا فريسة سلسلة من التراكمات الذهنية ، والتعبئة اللاشعورية ضد الميتافيزيقا التأملية بوجه عام [١] ، فلما هموا بـــالبحث العلمى ، راحوا يطلبون أدلة من خلالها يدينون الميتافيزيقا التأملية ، زاعمين أن ذلك هو الطريق الصحيح وهم فى ذلك واهمون .

من ثم يمكن القول بأنهم اعتقدوا بطلان الميتافيزيقا التأملية فى كل صورها وموضوعاتها أولاً — دون دراسة لها — فلما بلغوا سناً تسمح لهم بإبداء الرأى ، فيما يدرسون ، سارعوا إلى إعلان فسادها بناء على ما اعتقدوه من قبل ، فلمـــا تحاوروا مع أنفسهم عملوا على دراسة جانب واحد منها ، وهو الخاص بالألفـاظ المفردة وعلاقتها بالمعاني الكلية ، بغية أن يقدموا دليلاً على صحـــة رفضـــهم للميتافيزيقا [٢] .

---

(١) وخطر التعبئة اللاشعورية كبير على كل المجتمعات التى تظهر فيها ، إنها تحذف من مفاهيم الناس الأســـس الموضوعية ، وتحولهم إلى صورة من صور التلقى للخداع وقبول ما يلقيه الآخرون من غير تفكـــير مـــع أن الله تعالى حذر من ذلك كله قال تعالى :" وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّـنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ " سورة الأنعام الآية ١١٦ . وقال صلى الله عليه وسلم : لاتكن امعة تقول إن أحســـن الناس أحسنت وإن أساؤا أسأت ولكن وطنوا أنفسكم أن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساؤوا فلا تظلموا .

(٢) وذلك يفقدهم الحيدة العلمية فى الموضوعات المدروسة ، والرغبة فى الوصول إلى الحقيقة ، ومثلهم لاقيمـة له ، بل وليس من الصواب الاحتماء بالأفكار التى يعلنونها .

وبعبارة أخرى وجهوا عنايتهم إلى جانب اللغة دون أن يقيموا للمفاهيم وزناً وقد تناسوا — وهم فى غمرة هذا الاندفاع — أن الميتافيزيقا لا تعبر عنها جمل منطوقة بقدر ما تعبر عنها مفاهيم كلية ، كما أن الدراسات الفنية انتهت فى جانب اللغة إلى أن الميتافيزيقا تستعمل المعقولات ، وأن هذه المعقولات تمثلها جملة منها :

أ — المعقولات الأولى : وهى ما يكون بإزائه موجود فى الخارج كطبيعة الحيوان والإنسان ، فإنهما يحملان على الموجود الخارجى كقولنا زيد إنسان والفرس حيوان ، والفول نبات ، والجدار جماد .

ب — المعقولات الثانية: وهى ما لايكون بإزائه موجود فى شئ منه كالنوع والجنس والفصل ، فإنها لا تحمل على شئ من الموجودات الخارجى، وإنما تحمل على المعقولات الأولى ، باعتبار أن الأولى لها صور فى مفرداتها الخارجية .

ج — المعقولات الكلية : وهى التى تطابق صورها فى الخارج ، كالإنسان والحيوان والضاحك [1]، فإنها مفهومات كلية أفرادها الخارجية قائمة فى المفاهيم وليست فى اللغة .

فذهاب الوضعية المنطقية إلى إصدار الأحكام التعميمية — رغم إعلانهم التمسك بالواقع الحقيقى ، والتجربة العملية — يكشف عن خروجهم على المنهج الذى أعلنوا سيرهم طبقاً له ، ويؤكد أنه لا منهج لهم من باب أولى ، وهو ما يدفع إلى القول بأن أصحاب الوضعية المنطقية لم يلتزموا الصواب فى المنهج كخطة بحث علمى ، ولا الموضوعية فى تناول القضايا .

ومن ثم فإن النتائج التى يذيعونها فى المجال التجريبى أن أمكن قبولها لكونها قابلة للتأكد من صحتها عن طريق تكرار التجربة ، إلا أنهم فى المجال

---

(١) الشريف الجرجانى — التعريفات باب الميم ص ١٩٧ .

الذى تعرضوا فيه لإنكار الميتافيزيقا لم يكونوا على صواب أبداً ، وإنما جاءت أفكارهم مرفوضة ولا يمكن الحكم عليها إلا بأنها غير معقولة لسببين :

الأول : أن نتائجهم مستولدة من أحكام قامت على شبهات وظنون ، بجانب أن أصحابها قد انطلقوا فيها من مواقف غير صحيحة ، وهي احتمالية على أحسن تقدير.

الثانى : أنهم رتبوا على هذه النتائج المظنونة نتائج أخرى ، زاعمين صحة الثانية لكونها قائمة على نتائج سابقة متناسين أن الأولى فاسدة ، والثانية مثلها حتما ، طبقاً للقاعدة القاضية بأن ما بنى على الفاسد فهو أيضاً فاسد ، فالوضعية المنطقية فاسدة وغير معقولة لما سبق بيانه .

الشبهة السادسة : قيامها على السببية :

أ ــ عرض الشبهة :

الله عز وجل هو الخالق العليم القدير ، وتنتصب شبهة الوضعية فى رفض الميتافيزيقا قيامها على مبدأ السببية ،حيث يقولون أن الكون قوامه عناصر مختلفة بدأت حين كان كل عنصر متجانس على حدة ، ثم دبت فيها الحركة فأخذت تمتزج بعضها ببعض حتى أصبح الشئ الواحد مكوناً من خليط من عناصر قد يصعب فصلها بعضها عن بعض ، لكن مصير هذه الحركة فى النهاية هو أن تعود العناصر المتجانسة إلى تجمعها ، ثم دورة كونية أخرى وهكذا ، وشئ كهذا هو ما يقوله العلم الطبيعي الحديث [1]، ومن ثم فالعالم قائم على علاقة الاحتمال ، ولا توجد علاقة أخرى تجعل السبب والمسبب متلازمين، فى العقل أو في العادة.

من ثم فإن العلاقة بين السبب والمسبب لاتخرج عن كونها علاقة ارتباط فى التجربة بين شقين ارتباطاً ذهنياً عقلياً ،لأننا متى شاهدنا بالتجربة حدوث أ ، ب

(١) الدكتور / زكي نجيب محمود ــ نحو فلسفة علمية ٣٣٩ .

متصلين دائماً ، حدث بينهما إرتباط فى أذهاننا ، بحيث إذا حدث بعد ذلك وجود أ توقعنا أن تحدث معها ب ، كما حدثت معها فى الخبرات السابقة [١] القائمة فى أذهاننا ، وتمثل جزءاً من تجاربنا الذاتية التى تقوم على الاحتمال العلمى والاحتماء بالتجربة الحسية ، والخبرات الذاتية .

ومن المؤكد أن الله تعالى جعل هناك رابطة بين الأسباب والمسببات ، وهى لاتقوم في أسسها إلا على ما جرت به العادة المضطردة فى سن الله الكونية ، والعادة المضطردة التى نقصدها هى الأمور التى تحدث وفق نظام السبب والمسبب ، فقانون السببية ربط به الله سبحانه وتعالى العالم بعضه ببعض ، وطلب من الإنسان أن يأخذ بهذا النظام فى معايشة الكون [٢] لأن هذا الكون قد خلقه الله تعالى فى حكمة عليا ، وليس كما يقول الوضعيون بأنه قائم على الاحتمال الذي يؤدي إلي العشوائية والمصادفة ثم الفوضى.

بيد أن الوضعية المنطقية تذهب إلى ما هو أبعد من تقرير نفى ارتباط السبب بالمسبب طبقاً لسنن الإلهية ، وإنما يعلن فتجنشتين أنه " ليست هناك ضرورة فى هذا المبدأ سواء أكانت ضرورة عقلية أو تجريبية ، تبرر ارتباط ما نسميه علاقة السبب بالمسبب ، لمجرد أن أحدهما يسبق الآخر أو يتلوه [٣] فالعلاقة بينهما احتمالية قابلة للأخذ والرد على جهة العقل والخبرة الذاتية ، والانتهاء إلى الحتمية ينفى تماماً الاعتراف بوجود إله خالق حكيم قادر مريد خلق العالم بقدرته ، وأحكمه بعلمه وإرادته .

---

(١) الدكتور / أحمد السيد على رمضان ـ المدخل إلى دراسة الفلسفة المعاصرة ص ١٤٥ ط الدار الإسلامية للطباعة والنشر ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م .

(٢) الشيخ آفور الدين بن عبد المطلب ـ كرامات الأولياء عند ابن عربي ص ١١٠ رسالة ماجستير كلية أصول الدين القاهرة ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م .

(٣)الدكتور / عزمى إسلام ـ لفينج فتجنشتين ص ٣٠٦/٣٠٧ .

ومن المعلوم أن للسببية مفاهيم ثلاثة على سبيل الشيوع :

الأول : ارتباط الأسباب بالمسببات على جهة الضرورة العقلية ، وينتهى ذلك إلى اعتبار السببية هى الفاعلة فى الأشياء دون حاجة إلى فاعل مختار[١] .

الثانى : ارتباط الأسباب بالمسببات على جهة الضرورة العادية ، وينتهى ذلك إلى إحالة الأسباب إلى العادة التى خلقها الله فى الأشياء [٢].

الثالث : ارتباط الأسباب بالمسببات على جهة التجربة العملية الاحتمالية وهو اتجاه ليس له ما يبرره .

والوضعية المنطقية أنكرت المفاهيم الثلاثة ، وأخذوا فى وضع مفهوم آخر لتفسير نشأة الكون وهو يقوم على ان ما يربط بين السبب والمسبب يكون على جهة الخبرة الذاتية ، ومن ثم فان هذه العلاقة يمكن الإطاحة بها فى أى وقت وذلك ما يمثل إهداراً لسنة من سنن الله الكونية ، ويحول الموجودات إلى غابة تجرى فيها الأشياء بدون قدرة ولا إرادة ، إنها مسألة ذاتية محضة وخدعة خيال[٣] ، مع أن الله تعالى قال : " **إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ** "[٤] . قال الشيخ البروسوى إنا كل شئ من الأشياء خلقناه بقدر متعين ما اقتضته الحكمة التى عليها يدور أمر التكوين ، والقدر بمعنى التقدير وهو تسوية صورته وشكله وصفاته الظاهرة والباطنة على مقدار مخصوص اقتضته الحكمة وترتبت عليه المنفعة المنوطة بخلقه ، وجاء ذلك مقدراً فى اللوح قبل وقوعه لا يغير ولا يبدل ، وما أمرنا لشئ نريد تكوينه إلا

---

(١) وهذا كفر بالله تعالى ، وقد جرى عليه الملحدون منذ زمن طويل .

(٢) وهذا الاتجاه يناقض الأول تماماً ، ويقول به أهل الإيمان بالله رب العالمين .

(٣)الدكتور / زكى نجيب محمود ، الأستاذ / أحمد أمين — الفلسفة الحديثة ص ٢٣٧ .

(٤) سورة القمر الآيتان ٤٩ / ٥٠ .

كلمة واحدة سريعة التكوين ، حيث يقع الإيجاد بلا معالجة ومعاناة وفـــي يســـر وسرعة ، وذلك يسير على الله لأن قضاءه فى خلقه أسرع من لمح البصر[١].

كما يذكر الوضعيون أن الاحتمالية التى يتحدثون عنها تخالف السببية التـــى تعتمد عليها الميتافيزيقا التأملية ، ومن ثم فهم يرفضون الاعتراف بمبدأ الســـببية التى تتحدث عنها الميتافيزيقا القائمة على تفسير نشأة الكون باعتبار أن العلاقـــة بين السبب والمسبب هى العادة الإلهية التـــى أجراهـــا ســـبحانه وتعـــالى فـــى المخلوقات .

وبناء عليه فهم يقولون أن السببية عبارة عن مبدأ احتمالي يتم التعامل معه على أنه عادة ثابتة فى الأذهان وهو معنى الاحتمال ، ويؤكد هيوم علـــى نفـــى حقيقة مبدأ السببية من حيث أنه عادة عقلية تكونت فى أذهاننا بنـــاء علـــى مـــا ندركه نحن من اضطراد فى تتابع الظواهر ، وهذه العادة العقلية هى التى نعتمد عليها فى التعميم الخاص بالعلوم الطبيعية [٢] وهم فى ذلك واهمون ، بل خرجوا عن دائرة المعقول .

ب ــ مناقشتها :

أولا : عدم وجود المبررات الصحيحة :

مادام الوضعيون رفضوا مبدأ العلاقة بين السبب والمسبب علـــى المعنـــى الذى يمكن قبوله ، وهو أنها علاقة عادية جرت بها سنن الله الكونيـــة ، فكـــان عليهم أن يقدموا مبررات معقولة تبرهن على بطلان ذلك المفهوم الـــذى نتبنـــاه نحن المسلمين من اعتبار العلاقة عادية ، لكنهم عجزوا عن ذلك مـــن ناحيـــة ، ومن ناحية ثانية أن كل ما حاولوا الإمساك به لم يسلم من النقد الصحيح ، بدليل وجود الأنصار والخصوم ، فمنهم من رفض المبدأ باعتبار فكـــرة الضـــرورة

---

(١) الشيخ البروسوى ــ تنوير الأذهان ج ٤ ص ١٩٨ .

(٢) الدكتور / فهمى محمد طبانة ــ فلاسفة الشك في أوربا ص ٥٧ .

العقلية ، ومنهم من لجأ للتفرقة بين رفض المبدأ من أصلـــه ، وبيـــن ســـريان الضرورة العقلية فيه .

يقول الشيخ ابن عرفه الدسوقى : أعلم أن العقلاء فى المسألة على أربعة أقسام:

الأول : من اعتقد أن الأسباب العادية تؤثر فـــى مســـبباتها بطبعـــها وذاتـــها ، والتلازم بينهما عقلى ،وهذا كافر إجماعا[١]انهم غرابيب سود قال إمرئ القيس :

العين طامحة واليد سابحة ... والرجل لافحة والوجه غربيب [٢]

الثانى : من اعتقد أن الأسباب العادية تؤثر فى مسبباتها بقوة أودعها الله فيـــها ، والتلازم بينهما عادى،وهذا فى كفره قولان ، والصحيح عدم كفره ، ومن هـــذا يعلم أن الصحيح عدم كفر المعتزلة لأنهم يقولون أن العبد يخلق أفعـــال نفســـه الاختيارية بقوة أودعها الله فيه ، وهى القدرة الحادثة التى خلقها الله [٣] .

مع ملاحظة أن الجميع محتاجون إلى احسان الله تعالى وإنعامه فى جميـــع أحوالهم ، لا يستغني أحد عنه طرفة عين ، وهو الغنى عن العالم على الإطـــلاق ، المحمود على ما يسديه من النعم ، المستحق للحمد والثناء [٤] .

الثالث : من اعتقد أن المؤثر فى المسببات العادية كالإحراق والرى والشبع هـــو الله وحده ، إلا أنه يعتقد أن الملازمة بين الأسباب والمسببات عقليـــة لا يمكـــن تخلفها ، فمتى وجدت النار وجد الإحراق ، ومتى وجد الأكل وجد الشبع ، وهذا غير كافر إجماعا إلا أن هذا الاعتقاد جهل ، وربما جره ذلك إلى الكفر ، لأنـــه يلزمه إنكار ما خالف العادة ، فربما أنكر البعث ، وإحياء الموتى ، وذلـــك لأن

---

(١) وهؤلاء هم الذين يقولون بالطبع المحى والدهر المفنى فى قوله تعالى : وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُـوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ " سورة الجاثية الآية ٢٤ .

(٢) الإمام القرطبى : الجامع لإحكام القرآن ج ٤ ص ٣٤٣ .

(٣) راجع للقاضى عبد الجبار ـــ المغنى فى أبواب التوحيد والعدل وشرح الأصول الخمسة ففى ذلك تفـاصيل كثيرة حول موقف المعتزلة من المسألة .

(٤)الإمام / أبو حيان ـــ البحر المحيط ج ٧ ص ٣٠٧ .

العادة جرت بأن الميت إذا مات يوضع فى القبر، ولا يحيا بعد ذلـــك ، فربمـــا اعتقد أنه لايمكن تخلف ذلك فينكر البعث ، وإحياءه الموتى فيكفر [(١)] .

الرابع : من يعتقد أن المؤثر فى المسببات العادية هو الله وحده ، وأن الملازمـــة والمقارنة بين الأسباب والمسببات أمرعادى يمكن تخلفه ، بأن يوجـــد المســـبب دون السبب ، وهذا الاعتقاد هو المنجى عند الله وهو اعتقاد أهل السنة .[(٢)]

ومن ثم فإن عجز أصحاب الوضعية المنطقية عن تقديم أدلة على إنكـــارهم مبدأ السببية بالمفهوم الشرعي يمثل خروجاً على المعقول والمنقول معـــاً ، بـــل يمثل خروجاً على البدهيات أيضاً ، لأنه ما من مسبب إلا وله سبب نشأ عنـــــه، ولا ينكر هذه المبادئ إلا أصحاب الوضعية ، ومعهم أصحاب التطور البيولوجي وعجزهم عن تقديم مبررات ينتهى إلى القول بأنه لاقيمة لما يرددونه ، أما أهـــل الإيمان فلسانهم يردد :

وبالغيب آمنا وقد كان قومنا ... يصلون للأوثان قبل محمد .

ثانياً : الطعن على الاحتمالية :

الوضعيون يعلنون إنكارهم لمبدأ السببية فى المخلوقات،ويقـــررون أنـــه لا يخرج عن فكرة الاحتمال،والخبرات الذاتية فى الأذهان ، وذلك يفضى إلى القول بأن المخلوقات جميعاً جاءت من غير هدف معلوم ، أو خطة محددة ، ومن ثـــم فهى لا تمثل سوى الفوضى ، والعبث تعالى الله عن قولهم علواً كبيرا .

---

(١) هذا التخوف يجرى مجرى الواقع ، لأن الكثير ممن يعتقدون هذه الاعتقادات ربما يسارع الواحد منهم إلى استعمال وسائل يظنها تدعم موقفه ، فإذا هي له مهلكه ، متى أنكر واحدا منها على نحو من الأنحاء إجمـــالا أو تفصيلاً ، وفى الأثر سيأتى زمان على الناس يصبح المرء مؤمناً ويمسى كافراً ، أو يمسى مؤمناً ويصبح كافراً .

(٢) العلامة الإمام محمد بن احمد بن عرفه الدسوقى ــ حاشية على شرح أم البراهين ص ٤٠ / ٤١ ط الحلـبى الأخيرة ١٣٥٨هـــ ١٩٣٩م .

والسؤال الآن هل الاحتمال يؤدى إلى إنشاء هذه الموجـــودات المنظمـــة المحكمة ؟ وما الاحتمال إلا صورة من الصور الإحصائية ، والله تعالى قال : "**لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم**"[١] قال العلامة الطبرى لقد خلقنا جنـس الإنسان فى أحسن شكل متصفاً بأجمل وأكمل الصفات ، من حسن الصـــورة ، وانتصاب القامة ، وتناسب الأعضاء ، مزيناً بالعلم والفهم ، والعقل والتمـــيز ، والنطق والأدب ، وقال مجاهد أحسن تقويم فى أحسن صورة وأبدع خلق[٢] .

فهل الأحسن تقويماً يمكن مجيئه من الاحتمال ؟ والناظر إلى المخلوقـــات وما يرجى فيها يقف على حكم عليا ، تدل على أن الخالق لها هـــو الله تعـــالى القادر الحكيم ، مما ينفى فكرة الاحتمال واعتبارها بديلاً عن مبدأ السببية ، بـــل ان الناظر فى المخلوقات من حيث هى يقف على أنها لم تخلق إلا فى حكمة عليا ومن خلال قدرة قادرعليم فالممكنات أربعة أقسام :

الأول: ممكن موجود بعد عدم ، كالسماوات والأرض .

الثانى: ممكن معدوم بعد وجود كالذى انقض من عوالم لا يعلمها إلا الله تعالى

الثالث: ممكن سيوجد،كالقيامة ومايجئ معها ويقع فيها مما جاء في النقل المنزل

الرابع: ممكن علم الله تعالى أنه لا يوجد ، ككفر الأنبياء مثلاً[٣] فقـــد جـــرت سنته أن لا يقع ذلك أبداً .

وهذه الممكنات بأقسامها لا يمكن أن تقوم على الاحتمالات ، وإنمـــا تقـــوم على السنة التى أجراها الله تعالى فى خلقه ، لقوله تعالى : " **سنة الله ولن تجد**

---

(١) سورة التين الآية ٤ ــ قال العلامة الطبرى لقد خلقنا جنس الإنسان فى أحسن شكل متصفاً بأجمل وأكمل الصفات ، من حسن الصورة ، وانتصاب القامة ، وتناسب الأعضاء ، مزيناً بالعلم والفهم ، والعقل والتميز ، والنطق والأدب ، وقال مجاهد أحسن تقويم فى أحسن صورة وأبدع خلق . تفسير الطبرى ج ٣٠ ص١٥٦.

(٢) تفسير الطبرى ج ٣٠ ص ١٥٦ .

(٣)الشيخ محمد نووى الشافعى ــ نور الظلام ص ١٠ .

لسنة الله تبديلاً "وقال تعالى : " **سنة الله ولن تجد لسنة الله تحويلاً** ".

ثالثاً : تهافت الاحتمالية الوضعية :

سلف القول بأن أقسام الممكنات تشهد بوجود مبدأ السببية ، وأنه قائم على الناحية الشرعية التي تؤكد قيام الحوادث في العالم طبقاً لما جرت به سنة الله تعالى وليس على الفوضى أو مبدأ المصادفة كما أن الارتباط بينها ارتباط عادى ومن ثم فان ما ذهب إليه الوضعيون من قولهم بقيام الحوادث في العالم على فكرة الاحتمال مسألة ساقطة ، ومن الممكن التعرض لأنواع العدم حيث تؤكد دراسة هذه الأنواع إبطال الاحتمالية ، والتأكيد على مبدأ السببية العام على الناحية الشرعية ، إذ العدم أربعة أقسام :

الأول : عدم المخلوقات الأزلي ، ولا تتعلق به القدرة والإرادة اتفاقاً ، لأنه ليس ممكنا بل واجب[1] بقاؤه فى العدم ، وفكرة الاحتمال ساقة لأنهم لا يعترفون بالعدم أصلاً وإنما يعتقدون في وجود المحسوس فقط .

الثاني : عدم المخلوقات فيما لايزال ، فقبل وجودها تتعلق القدرة والإرادة بها ، بمعنى أن عدمها الأزلى فى قبضتهما ، إن شاءتا أبقتاه ، وإن شاءتا أزالتاه ، وجعلتا الوجود مكانه [2] وهذا مما لايعتقده الوضعيون الذين يذهبون إلى أن المادة لا تفنى،كما لا تستحدث من العدم وهم واهمون والعلم التجريبى لغير صالحهم .

الثالث : عدم المخلوقات بعد وجودها والقدرة والإرادة تتعلقان به .

الرابع : عدم الممكنات التى علم الله تعالى أنها لا توجد ، كإيمان أبى جهل ، فالقدرة والإرادة تتعلقان به ، بالنظر إلى ذاته ، واستحالة وقوعه المفضية لكون

---

(١) فتعلق القدرة والإرادة بالعدم الأزلى ، وإنما يقوم على نفى التعلق التنجيزى ، وليس على مطلق التعلق ، وإلا فإن الأعدام كلها مقدرة فى علم الله تعالى الأزلى ، وبناء عليه فهذا التعلق يجب الإمساك به حق لا يضل أحد أو يشقى .

(٢) وهذا التبدل الممكن ينفى فكرة الاحتمالية ويؤكد مبدأ السببية على الناحية الشرعية .

عدمه واجباً ، إنما هى عارضة ، والعارض لا ينافى الإمكان الذاتي ، وقيل لا تتعلقان — القدرة والإرادة — به نظراً إلى استحالة وقوعه [١] .

وأقسام العدم تؤكد بطلان الاحتمالية أو المصادفة في نشأة الكون وأحداثه وحوادثه ، وإنما تؤكد على أن للعالم خالق قادر مريد له كافة صفات الجلال والجمال والإكرام تبارك اسم ربك ذو الجلال والإكرام .

رابعاً : نفي الضرورة [٢] العقلية :

نحن أهل الإسلام لا نقول أن مبدأ السببية أو ارتباط الأسباب بالمسببات فى الكون قائم على الضرورة العقلية سواء أكان ذلك فى الوجود أم في العدم ، وإنما نقول أن هذا المبدأ يقع فى مفهوم العادة الإلهية من كون السبب والمسبب يتلاحقان على الناحية التي خلقها الله تعالى .

يقول الإمام الغزالى : الاقتران بين ما يعتقد فى العادة سببا ، وبين ما يعتقد مسبباً ليس ضروريا عندنا ، بل كل شيئين ليس هذا ذاك ، ولا ذاك هذا ، ولا إثبات أحدهما متضمناً لإثبات الآخر ، ولا نفيه متضمنا لنفى الآخر ، فليس من ضرورة وجود أحدهما وجود الآخر ، ولا من ضرورة عدم أحدهما عدم

---

(١) الشيخ محمد نووى الشافعي — نور الظلام ص ١٠ وقد حكى الأقسام عن الشيخ الشرقاوى ،ثم قال والخلاف فى تعلق القدرة والإرادة بالقسم الرابع ليس حقيقياً ، بل هو خلاف لفظي، فحمل قول من قال انهما تتعلقان به ، على أنهما تتعلقان تعلقاً صلوحيا ، وحمل قول من قال أنهما لا تتعلقان به ، على أنهما لا تتعلقان تعلقاً تنجيزياً .

(٢) الضرورة مشتقة من الضرر ، وهو النازل مما لا مدفع له ، وهى بالمعنى الخاص غير الضرورة بالمفهوم الشلي مطلقة كانت وهى التى يحكم فيها بضرورة ثبوت المحمول للموضوع أو بضرورة سلبه عنه مادامت ذات الموضوع موجودة ، أم كانت الضرورية موجبة وهى التى حكم فيها بضرورة الثبوت كقولنا كل إنسان حيوان بالضرورة ، فإن الحكم فيها بضرورة ثبوت الحيوان للإنسان فى جميع أوقات وجوده ، أم كانت الضرورية سالبة وهى التى حكم فيها بضرورة السلب كقولنا لاشئ من الإنسان بحجر بالضرورة ، فالحكم فيها بضرورة سلب ، الحجر عن الإنسان فى جميع وجوده . العلامة الجرجانى — التعريفات ص ١٢٠ .

الآخر ، مثل الرى والشرب ، والشبع والأكل [١]، ومن ثم فكل ما فى الكون إنما هو من أفعال الله تعالى طبقاً لما جرت به سنته عز وجل ، ولا مكان فى شــئ منها للاحتمالية أو المصادفة أبداً .

والإمام الغزالى أحد أعلام الفكر الأشعري لا ينكر وجود السببية فى الكون كمبدأ عام ، وإنما ينكر فقط أن تكون العلاقة بين السبب والمسبب هى الضرورة العقلية ، لأنه لو كانت العلاقة قائمة فى مفهوم الضرورة العقليـــة لمـــا أمكـــن الإنفكاك بينها ، ولما أمكن قيام خوارق العادات وما كانت من أفعال الله علــــى وجه الوجود أو العدم .

إذن القول بمبدأ السببية على ناحية الأحكام العادية هـــو الذى يتمشى مـــع روح الفهم الدينى لأفعال الله تعالى[٢]، حيث يسمح بتخلف السبب عن المســـبب من خلال الإرادة والفعل الإلهي أيضاً ، فمع أن كل شئ فى الكون محكم من قبل الله تعالى ، إلا أن ذلك الأحكام فى الصنعة ، والإتقان فى الفعل ليس معنـــاه أن هذه الأفعال تتم على سبيل الجبر والإكراه أبداً ، كما لا تقع على ناحية المصادفة والاحتمال .

يقول الإمام الغزالى : فإن اقترانهما لما سبق من تقدير الله سبحانه وتعـــالى بخلقها على التساوى ، لا لكونه ضروريا فى نفسه غير قال للفوت ، بـــل فـــى المقدور الإلهي خلق الشبع دون الأكل ، وخلق الموت دون حز الرقبة ، وإدامـــة الحياة مع حز الرقبة أيضاً [٣].

---

(١) الإمام أبو حامد الغزالى ــ تهافت الفلاسفة المسألة السابعة عشر ص ٢٣٩ تحقيق الدكتور سليمان دنيا ط دار المعارف .

(٢) راجع فى هذا الشأن المطالب العالية للإمام الفخر الرازى المجلد السابع ص ١٥٣ وما بعدهـــا وللإمـــام الغزالى الاقتصاد فى الاعتقاد القطب الثالث ــ الأفعال الإلهية ، وأبكار الأفكار للآمدى الجزء الأول تحقيـــق د/ احمد المهدى .

(٢) الإمام الغزالى ــ تهافت الفلاسفة ص ٢٣٩ .

وما نلقى الله تعالى عليه ، هو أنه وحده الخالق لجميع الأمـــور المتعاقبـــة وغير المتعاقبة ، التى تحدث فى العالم ، ولا ينقطع عمل الله تعالى مطلقاً ، فـــى أية لحظة من اللحظات ، وهو تعالى يقرن متى شاء بين جميع هـــذه الحـــوادث التى نكون واهمين حين نعدها أسباباً مستقلة،ومسببات تلك الأسباب ، وفى قدرته تعالى أن يقطع تكرار ذلك الاقتران ، وأن يحدث ما نعرفه بالمعجزة[١] .

بل يسمح بحدوث غيرها من خوارق العادات التى تجئ مع أهل الصـــلاح أعلاما بهم وإعلاناً لشأنهم[٢]، تفضلاً من الله تعالى ورحمـــة بعبـــاده ، وليـــس استحقاقاً من العبد أو واقعة له على سبيل الكسب كالإرهاص الذي يؤسس للنبـوة والكرامة التي يعلم الله بها الخلائق منزلة من تجري على يديه ، والفراسة التـــي يعلم الله بها قدرة من يجريها الله عليه في معرفة ما فـــي أســـرار الآخريـــن ، والمعونة التي يؤيد الله بها العبد الصالح حتى يخرج مما هو فيه ، والمغوثة التي ينقذ الله بها العبد الصالح من ضيق أو شدة فإن هذه الخوارق كلها يجريـــها الله على أهل الصلاح من عباده .

وتأتى مع أهل الفساد تنكيلاً بهم ، وبيانا لمواقفهم غير المقبولة من الله رب العالمين، كالإهانة التي تقع على يد مدعي النبوة الكذاب ، إظهاراً لكذبه وبيانـــاً لفسقه مثل ما حدث مع مسيلمة الكذاب حين تفل في عين الأعور لتبرأ فعميـــت السليمة أيضاً،ولذا تعرف الإهانة بأنها أمرخارق للعادة يجريه الله على يد مدعي النبوة على غير مراده من دعواه فتقع له الإهانة[٣]ومن ثم ينفض الناس عنه .

---

(١) الدكتور / عبد العزيز سيف النصر ــ نظرية السببية فى الفكر الكلامي الإسلامي ص ٢٨ مطبعة الجبلاوى الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـــ ١٩٨٤م .

(٢) راجع حاشية الأمير على شرح عبد السلام على جوهرة التوحيد ص ١٢٤ وما بعدهـــا طبعـــة الحلـــبى ١٣٦٨هـــ/ ١٩٤٨م .وشرح الهدهدي على أم البراهين المعروفة بالصغرى ص ١٣٠ وما بعدهـــا هـــامش حاشية الشرقاوي ط الرابعة ط الحلبى ١٣٧٤/١٩٥٥م .

(٣) الشيخ محمد عليان النبوة والأنبياء ص ١٥١ ط الدار اليمنية ١٣١٩هـــ .

الاستدراج فإنه أمر خارق للعادة يجريه الله مع مدعي الألوهية استدراجاً له وفضحاً لأمره ، كالحال مع فرعون حين قال لهامان رئيس وزرائه ابني صرحاً لعلي ابلغ الأسباب ، ثم أمسك رمحاً وقوساً وقذف بهما زاعماً قتل إلــه موســى فنزل المقذوف ملوثاً بالدم فقال فرعون لقد قتلت إله موسى وهذا دمه ، فقال لــه الملأ من قومه إذا كان هذا دم إله موسى فأين جسمه فلــم يتمكــن مــن تقديــم جواباً[1]، وبان أنه كذاب فأخذه الله نكال الآخرة والأولى .

ومن المؤكد عندنا نحن أهل الإسلام أن مبدأ السببية مقرر فى الأفهام ثـابت فى العقول بعيد عن الأوهام ، وأنه مما جرت به سنة الله تعالى فى خلقه ، لكــن الخلاف بين أهل الإسلام هل هذا المبدأ قائم على العادة التى يمكن تخلفها فتقـــع خوارق العادات ،أم قائم على العقل فلا يسمح بذلك ،والمحققون من أهل الإسلام على أنه قائم طبقاً للعادة الإلهية فالعلاقة بين السبب والمسبب علاقة عادية .

أما الوضعية المنطقية فقد نظروا إليها على أنها مسألة ذاتية محضة تعتمــد على المصادفة والاحتمال ، ومن ثم قالوا أن الاعتقاد في السببية ماهو إلا خدعة خيال[2]مما يؤكد أن رفضهم لها كان رغبة منهم فى الهرب من التسليم بوجـــود نظام محكم يسير به أمر الكون ، مرد هذا الأمر للخالق العظيم جل عـــلاه أمـــا لماذا ؟ فلأن القول باحتمالية المبادئ والمصادفات فى المخلوقات يفضي إلى مـــا هو أكثر خطورة ، حين يعتقد صاحب ذات الأفكار أن الكون قام على المصادفة العمياء التى يجرى فيها الاحتمال بصوره المختلفة ، ومثلهم لايكون قولهم قـــد جاء على أية ناحية من نواحى المعقول أبداً .

---

(١) الشيخ منصور بن محمد عبد الرازق — آيات الله الكونية ص ١٩٧ ط الأستانة عام ١٣١٧هـ .

(٢)الدكتور /زكي نجيب محمود ، الأستاذ / أحمد أمين — الفلسفة الحديثة ص ٢٣٧ .

خامساً : وقوعهم بين رحى الشك والتردد :

يقرر الوضعيون أن مبدأ الاحتمال والمصادفة ، أو التجربة فى الكون هـــو الأمر الغالب بل هو الصحيح ، ومن ثم فهو بعيد عن أى منطق آخر ، ثم يجـــئ هيوم فيقرر أن مبدأ السببية يجب فهمه على أنه علاقة عقلية ، أو عادة عقليـــة تكونت فى أفهامنا ، ورسخت فى أذهاننا ، واضطردت مع الظواهر التى ندركها وتتابعها ، وهذه الضرورة العقلية هى التى نعتمد عليها فـــى التعميـــم الخـــاص بالعلوم الطبيعية[1] .

وبناء عليه يقع التناقض فى المفهومين ، وذلك مما يؤكد أنهم لم يحســـموا مشكلتهم كما لم يفلحوا فى الخروج من دائرة الشك التى أدخلوا أنفسهم فيها ثـــم أغلقوها عليهم وحدهم ، إنهم أشبه ما يكون بالطفل الغبي الذي هرب من أسـوته حتى لا يذهب للمدرسة ، فكان هروبه إلى فناء المدرسة الذي وجد بابه مفتوحاً ، فلما ابتدأت الدراسة إنزوى في ركن منه ظاناً أن أحداً لن يدركه ، فلما انتـــهى موعد الدراسة أغلقت المدرسة أبوابها ، فبات ليلة باردة ، يعاني الجوع والبرد ، ويخشى الصراخ حتى لا تكتشفه إدارة المدرسة فتلحقه بفصول الدراسة[2]، ومن ثم راح الشك والتردد يقلبان عليه أمور حياته كلها حتى صار ذلـــك عـــادة لـــه وطبيعة ثابتة فيه .

بيد أن هذا المعنى قد يبدو بعيداً عنهم ، ولكن هذا الفهم يزول متى رأينـــاهم يؤكدون على وحدة فكرة التكهن والحدس العقلى والقلبى [3]، وهم الذين أنكـــروا

---

(١) الدكتور / رمزى محمد عبد الخالق — الفلسفة الحديثة ص ١٣٧ وما بعدها ط أولى ١٩٨٧م .

(٢) هذا التصوير من وجهة نظري يمكنه أن يحكى ما يعاني منه الوضعيون في كل وقت ، والماديون أينما كـــانوا والشكاك الذين يعيشون للدم على الدوام .

(٣) هذا اعتراف صريح منهم بوجود الفكرة والتكهن وكذلك وجود الحدس العقلى والقلبى وكلـــها غـــير محسوسة ، وهم ينكرونها وذلك ما يؤكد أنهم ليسوا في المسألة سواء .

من قبل وجود غير المحسوس ، فما بالهم تراجعوا عنه إلى غيره ، أم أن التكهن والحدس العقلي والقلبي أمور محسوسة ، لقد قرر فتجنشتين أن التكهن بالمستقبل يتم بناؤه على الخبرات السابقة ،فأي تكهن ذلك الذي ينكرون وجوده على أساس أنه غير محسوس،ثم يعترفون بوجوده على أساس أنه معبر عن الخبرة السابقة.

كما أنهم ينظرون إلى وجود المخلوقات ، من غير أن يضعوا في حسبانهم قيمة للخالق العظيم جل علاه ، ولذا فإنهم يقررون أن عناصر الكون ما هي إلا مجموعة عناصر مختلفة ، بدأت حين كان كل عنصر على حدة ، ثم دبت فيها الحركة فأخذت تمتزج بعضها ببعض[1] ، ولكن السؤال الآن : من أين جاءت هذه العناصر الأولية ؟ وما هي الملامح التي جاءت عليها ؟ وهل يمكن النظر إليها بمنظار التجربة والمنهج التحليلي ؟ ثم من أين جاءت الأصول التي تمثلت فيها العناصر الأولية ؟

وإذا كانت العناصر الأولية مختلفة إلى هذا الحد أفلا يكون وجود الاختلاف نفسه مدعاة للاعتراف بوجود الخالق العظيم أكثر من وجود الائتلاف[2]، وفوق ذلك فمن الذي أوجد هذه المجموعة المختلفة من العناصر أولاً، ثم من أين دخلت إليها الحركة ومن الذي بعثها فيها ، وأحدث هذا الانقلاب الهائل في الكائنات التي كانت جامدة في العدم ، ثم دبت فيها الحياة ، وكانت ساكنة فانطلقت ومعها الحركة .

ربما يقال : أن الأشاعرة هم الآخرون يرفضون مبدأ السببية فصاروا كالوضعية المنطقية ، لأن المبدأ العام واحد ، ولكن هذا الفهم غير صحيح ، لأن

---

(١) الدكتور / رمزي محمد عبد الخالق — الفلسفة الحديثة ص ١٥٧ .

(٢) والإمام الفخر الرازي اعتبر خلق الله الأرض على الماء من أبرز الأدلة على وجوده تعالى وقدرته ، لأن البناء على الأرض الصلبة يكون أسهل ، أما البناء على الماء فهو أصعب — راجع تفسير الفخر في قوله تعالى أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما .

الأشاعرة إذا كانوا ينفون سببية الأشياء وبعضها فى بعض ، فإنـــهم لا ينفـــون السببية العامة القائمة فى الكون ، فالشيئان المتتابعان لا سببية لأولهما من ثانيهما ولكنهما معاً يرجعان إلى سبب واحد هو الله سبحانه وتعالى ، وتتابعهما أيضـــاً حدث كونى لابد له من سبب ، وسببه هو نفس السبب الـــذى أوجدهمـــا[١]معـــاً يستوى فى ذلك السبب والمسبب .

أما الوضعية فيزعمون أن الأشياء وجدت بـــلا ســـبب ، وأن الأســـباب والمسببات لا يوجد بينها إلا التتابع الذي تحكمه الملاحظة ، والخـــبرة الذاتيـــة والفيصل فى المسألة هو الرجوع إلى الحس ، وما هو ثابت فى الأذهان [٢]وهـــو تناقض يصاحب الفكرة التي يتمسكون بها ، ويقضى على كل محاولة لإصـــلاح ما فيها من مفاسد وقع فيها الوضعيون .

سادسا: وقوعهم في التناقض :

اتباع الوضعية المنطقية ، من يجرى مجراهم ، ممن يقولون برفض مبـــدأ السببية على الناحية الشرعية ، الذين يؤكدون أن الكون مجموعة من العنـــاصر المختلفة التى دبت فيها الحركة الأولى [٣]، فلولا وجود الحركة ما تـــألفت هـــذه العناصر، إذن الحركة هى السبب الأول الذى قامت عليه الحركات التالية للأولى وهم في نفس الوقت ينكرون وجود مبدأ السببية ، ألا يدل ذلك على وقوعهم فـــى التناقض ، من حيث أنهم ينفون وجود السببية ثم يقرون بوجود الحركة .

---

(١)الدكتور / سليمان دنيا ـــ التفكير الفلسفى الإسلامى ص ١٩٤ .

(٢)راجع للدكتور / رمزى محمد عبد الخالق ـــ الفلسفة الحديثة ص ١٣١ .

(٣) من الصعب إنكار عدم الحركة عند الوضعية المنطقية وليس من الصعب عندهم إنكار الغيب ، فهل يمكـــن اعتبارهم من جنس العقلاء الذين يحسب لهم حساب فى دنيا الناس، أم يمكن النظر إليهم على أنهـــم فـــاقدوا القدرة على الإختيار بين الصواب والخطأ .

بل ان كل ما قالوه لا يخرج عن كونه مجموعة من الافتراضات التي لم يقع لشئ منها القبول العلمى أو الفنى ، أما لماذا ؟ فلأنهم يخوضون فى مبدأ ميتافيزيقى غير قابل لاجراء للتجربة عليه مهما بذلوا من مجهود ، ويكفى أنه متعلق بالكون ونشأته وهو نفس المبدأ الميتافيزيقى الذى رفضوه ، مما يؤكد وقوعهم فى التناقض من حيث أنهم رفضوا الميتافيزيقا ، ثم رجعوا إليها يحيلون عليها[١] ويعترفون بها .

ثم إنهم لما أقروا بالاحتمال كمبدأ ثابت ، إنما حاولوا إبرازه ليكون فى مواجهة السببية من باب مقابلة المبادئ بأمثالها ، ولكن هذه المقابلة غير صحيحة ولا مقبولة ، أما لماذا ؟ فلأن الاحتمال مبدأ فيزيقى متى تعلق بالظواهر الطبيعية فإذا حل مكانه التكهن كمبدأ علمى فإنه يصلح كبديل طبيعى،أما إذا حاولنا وضع السببية فى مقابلة الاحتمال ، أو فى مقابلة التكهن فإن ذلك يفضي إلى إعلان أحكام خاطئة ، أو يدلى بنتائج كاذبة ، وكل منهما موقع فى التناقض أيضاً.

وفى تقديرى أن أفكارهم لا تخرج عن كونها جملة من الخليط الذى لم يقع له ترتيب فكرى ، كما يفتقد التناسق العقلى ، وفوق ذلك فإنه يكشف سوءاتهم الفكرية واضطرابهم العقلى ، ويفضح العبارات التى يختبئون خلفها وهم وأمثالهم توعدهم الله بالعذاب الأليم فقال تعالى: " **وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ** "[٣].

---

(١) راجع كتابنا الإيمان بالغيب وأثره على الفكر الإسلامى ص ٦٠٤ الطبعة الرابعة ١٩٩٧م .وللدكتور/ محمد البهى ـــ الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ص ٢٤٨ مكتبة وهبة .

(٢) سورة الزمر الآية ٨ .

قال العلامة الزمخشرى : قل تمتع بكفرك يقال لهم ذلك من باب الخـــذلان والتخلية ، كأنه قيل له ، إذ قد أبيت قبول ما أمرت به من الإيمان والطاعة، فمن حقك الا تؤمر به بعد ذلك،وتؤمر بتركه مبالغة فى خذلانه وتخليته وشأنه لأنه لا مبالغة فى الخذلان،أشد من أن يبعث المرء على عكس ما أمر به [1]أما لماذا ؟

فلأنهم يقولون بامتزاج بعض العناصر واختلاطها ، وهو ما تبدو فيه رائحـة الفكر اليونانى الذى يتلمس طريقه فى الانجذاب الشوقى عند أرسطو ، مـــع أن فكرة الانجذاب الشوقى الأرسطية ما هى إلا خيال لعبت خيوطه بأوتار صاحبه ، ولم يقم على صحتها دليل واحد بحيث يؤكدها ، وأما العكس فهو الصحيـــح لأن كل الشواهد قائمة على أن ما ذهب إليه أرسطو مجرد فرض خيالي[2] ومثلـــه لا يمكن أن تبنى عليه قواعد صحيحة ، أو يقوم عليها تفسير لعلاقـــات الأجـــزاء الموجودة في الكون أو نشأته .

ثم ان كل حركة لها مصير تنتهى إليه ، فما هو المصـــير الـــذى ينتظـــر الحركة الأولى ، بحيث يقود ذات العناصر إلى تجمعها الأول ، أو صورتها التى كانت عليها قبل حدوث الحركة معها ، وكان يصاحبـــها قبـــل ذلـــك التجـــانس المستجد ، فالكائنات المخلوقة غير مسبوقة بحركة لأنها كانت فى العدم وعنـــد النهاية لا تكون معها أية حركة لأن كل شئ مخلوق يعود إلى العدم كما كـــان ، وهى بين البداية والنهاية في حركة خارجية ، ألا يدل ذلك على أن وراء ذلـــك كله قدرة قدير قادر وعلم عليم عالم ، وإرادة مريد لـــه كـــل صفـــات الجـــلال والجمال والكمال والإكرام .

أضف إلى ما سبق أن إنكار مبدأ السببية فـــى المخلوقـــات ، واســـتعمال الاحتمال كبديل عنه أو اعتبار المصادفة جهة الإحالة في تفسير نشأة الكون إنما

---

(١) الإمام الزمخشرى ـــ الكشاف المجلد الرابع ص ١١٦ .

(٢) الدكتور / فوزي محمد نصر ـــ الفلسفة اليونانية ص ١٢٧ ط أولى ١٩٥٧م .

يمثل صورة للفكر الأسطوري الذى يضعه خيال أصحابه ، لأن معنــاه أن دورة هذه المخلوقات ابدية لا نهاية لها ، إنها تحركت ولن تتوقــف ، أو أن حركتــها انطلقت وظلت فى ذات الانطلاق تسعى إلى أبعد مدى ، وهذا ينافى النصــوص الشرعية التي أحالت كل شئ إلى قدرة الله تعالى .

من ذلك قوله تعالى : " **إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا** "[1]. وقولــه تعالى : " **وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ** "[2]، وقوله تعــالى : " **يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ** "[3]وقال تعالى : " **إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ** "[4].

ثم ان الوضعيين فى العالم الإسلامي ، وبخاصة بلاد الشرق ينقلون عيــب الغربيين المغرضين للإسلام ، ويغمضون ويبهمون فيما ينقلــون باســم الفكــر التجريبي أو الأسمى ، حتى يكون منهم فى تجديدهم الفكر انتقــاص الإســلام ، وبذلك يتساوون فى الوقوف على قدم واحدة ،وهى توجيه الملام والعيب للدين[5] وهم بذلك يخرجون عن نطاق القبول فى الآراء والأفكار ، كما لا يمكن حسبانهم من أصحاب العقول الصحيحة لأن إنكار الحقائق الثابتة يمثــل خروجــاً علــى القواعد الصحيحة ، وبنفس القدر فإن الخروج على المعقول يعتبر جناية علــى العقل ، أما الخروج على شرع الله وإشاعة الفوضى في الكون فإنما يمثل الكفر

---

(١) سورة الزلزلة الآيات ١ / ٥ .

(٢) سورة الانشقاق الآيتان ٣ ، ٤

(٣) سورة الأنبياء الآية ١٠٤ .

(٤) سورة فاطر الآية ١٦ ، ١٧

(٥)الدكتور / محمد البهى — الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ص ٢٤٨ مكتبة وهبة .

بالله وآياته أعاذنا الله منهم .

الشبهة السابعة : قيامها على غير المحسوس :

أ ـ عرض الشبهة : يقرر الوضعيون رفضهم الميتافيزيقا التقليدية لأنها ترتكز على التصديق والاعتقاد فى وجود ما ليس بمحسوس ، بينما الوضعيون لا يعتقدون وجود أشياء غير محسوسة مهما أنبأت بها المصادر ، وكرروا نفس مواقفهم من أن الذى لايمكن أن يحكم الحس بوجوده فإنه يعتبر غير موجود ، ولا يدخل فى نطاق العلم به ، كما لا يمكن إصدار حكم عليه بغير ذلك ، يقول فيورباخ: ان العلم حقائق ثابتة والمعرفة تسعى إليها،فإذا لم يكن بالإمكان إدراكها بالخبرة والتجربة ،فإنها تكون أوهاماً حتى لو قال بها أكثر الناس حكمة[١]، ومن ثم فان ما ليس محسوساً ـ مهما علت درجته فى أذهان الناس ومعارفهم ـ فإن الوضعية ترفض وجوده ،كما تؤكد على عدم الاعتراف به .

يقول داعيهم بمصر ـ ان الذى نتصدى لإنكاره فى هذا الكتاب [٢]إنكاراً قاطعاً هو إمكان التحدث عن أشياء غير محسة ، إثباتاً أو نفياً ، وهو ـ الغير محسوس ـ موضوع الميتافيزيقا بالمعنى الذى نرفضه [٣]، وكثيراً ما يتكرر منه ذات الكلام حيث يعلن أنه يرفض الميتافيزيقا التى تعلن الإيمان بالغيب على كل ناحية ، كما يعلن عن مناهضته للمؤمنين بالغيب .

دليل ذلك أنه يقول : الميتافيزيقا بالمعنى المرفوض هى تلك المحاولات التى يحاول بها أصحابها ان ينبئوا بأحكام إيجابية عن أشياء غير محسوسة[٤].

---

(١) الدكتور / فوزى محمد ثابر ـ الوضعية وموقفها من الدين ص ٥٧ طبعة أولى ١٩٥٧م .

(٢) الكتاب الذى يقصده هو خرافة الميتافيزيقا ، الذى عدل عنوانه فيما بعد إلى موقف من الميتافيزيقا ، ثم أدخل عليه تعديلاً آخر فى العنوان فاطلق عليه نحو فلسفة علمية والمحتوى فى الثلاثة واحد مما يؤكد افلاس المؤلف ووقوعه فريسة النقل والترجمة .ثم نسب ما نقل وترجم لنفسه ، وتحمله تبعات ذلك .

(٣)الدكتور / زكى نجيب محمود ـ موقف من الميتافيزيقا ص ٣٦ .

(٤)الدكتور / زكى نجيب محمود ـ خرافة الميتافيزيقا ص ٤٥ .

من ثم فهو يرفض الميتافيزيقا التأملية لأنها غير محسوسة ، وهو لا يرفضـــها معرفة على سبيل الجهل بالغيب ، وإنما يرفضها اعتقاداً وإيماناً ، كما يرفضـــها معرفة وتشريعاً وأخلاقاً ، انه لا يتسع صدره لمجرد أن يتحدث أحد عنها .

ونفس الفكرة يمكن الوقوف على المفردات التى تحملها لدى أرنست فوتـواه حيث يقول : كثيراً ما يتحدث القصاص فى مواعظهم عن وجود أشياء يمكن أن ينخدع بها البسطاء ، وأصحاب القدرات العقلية المتواضعة كـــالمطلق والـــروح والخلود ، لكن البحث العلمى يثبت فشلهم فى إثبات وجودها ، إنها أقرب الأشباه بأسطورة الحجر الذهبى ، وأسطورة بحر الظلمات ، ومن ثم فـــالعقل العلمـــى يرفضها مهما كان شأن ، قائلها لأنها لا يمكن الحكم على وجودهـــا أو إثباتـــه بالحس الذاتى أو التجربة العملية [1] .

إذن كل ما ليس بمحسوس — وهو الغيب — ينظر إليه الوضعيون على أنه مجرد أفكار لا وجود لها ، وربما تصور أتباع الوضعية فى مصر أن صاحبـــهم لم يعتبر وجود الله تعالى فكرة — لا عقيدة — ثم يسارع إلى رفضها ، أو يظنون أنه يبحث فى بناء ميتافيزيقا عملية تاركاً التأملية لأصحابها ، أو أنه لم يتمكـــن من الاستدلال عليها مع اعتقاده فيها ، ولكن هذه التوقعات غير صحيحة ، بدليل تأكيده على إعلان أن موضوع البحث الميتافيزيقى بصفة خاصة على الناحيـــة المرفوضة هو : ١ — اللـــــه   ٢ — الروح   ٣ — الخلود .

ثم يتساءل هل يجوز القول فيها أو لا يجوز ؟ .....

ثم يعتمد على رأى عمانويل كانت KANT فى الميتافيزيقا التأمليـــة الـــذى يقول : ان الحديث فى الموضوعات الميتافيزيقية بهذا المعنى الخاص وهى الله ، والروح ، والخلود ممكن ، لكن إمكانه لا يكون عن طريق العقل النظـري ، لأن هذا العقل النظرى له حدود لا يستطيع تجاوزها بغير أن يطـــوح بنفســـه فـــى

(١)الدكتور / رمضان السيد أبو غده — الفلسفة العلمية ص ٣٣ ط أولى ١٩٦١م .

الظلمات والمتناقضات [١]ورغم أن كلام كانت فيه الكثير من التحفظ ، ويمكن حمله على أن هذه الموضوعات مما يعجز العقل وحده عن إثباتها لكنه لم يمنع الحديث في ذات الموضوعات من خلال الدين أو طريق آخر يقوم على ناحيته .

أما الوضعية فإنهم قد استغلوا ظاهر عبارات كانت KANT ثم سارعوا إلى إعلان إنكار هذه الموضوعات الميتافيزيقية لأنها لا تخضع للمحسوسات،كما أن الحديث عنها غير مشروع من ناحية العقل الوضعي المنطقي إذ مادمنا نريد حديثاً منطقياً قائماً على أصول صحيحة فلابد من بنائه على قواعد صحيحة .

وبناء عليه فالوضعية المنطقية ترفض الغيب وتعتبر موضوعاته من قبيل الأفكار التى يجب رفضها وعدم التسليم بها ،وأبرز هذه الموضوعات المرفوضة عندهم هي : التسليم بوجود الله ، والتسليم بوجود الروح ، ثم التسليم بالخلود فى دار البقاء [٢]، زاعمين أن هذه الموضوعات الغيبية ليست من الكلام المفهوم لدى العقل المنطقي ومعاييره... كما أنها لايمكن أن تخضع لأي منهج تجريبي تحليلي ، أو يمكن التأكد منها عن طريق المعرفة الذاتية ، والخبرة العملية [٣].

وإنكار وجود غير المحسوس قد ظهرت ملامحه فى بعض أنماط الفكر الإنساني لدى اليونانيين القدماء ، وجماعة الشكاك ، وفى إفرازات جماعة الحسيين فى الماضي [٤]إلا أن الوضعية المنطقية قد تبنى أفرادها هذا الاتجاه

---

(١)الدكتور / زكى نجيب محمود ـ نحو فلسفة علمية ص ٥٧ .

(٢) الدكتور / رمضان السيد أبو غدة ـ الفلسفة العلمية ص ٥٧ والملاحظ أن القضايا التي ينكرونها إنما هي أصول العقيدة الإلهية ومن ثم فإنكارهم لها إنما هو إعلان الحرب على العقيدة الإلهية بعد إعلان الكفر بها .

(٣)الدكتور / رمزي محمد عبد الخالق ـ الفلسفة الحديثة ص ١٤٧ .

(٤) وقد سارع الشيخ الرئيس ابن سينا لتجميع شبه الحسيين ومناقشتها على الوجوه الممكنة ، مما أبان عن جدة فى بحثه وعمق فى أفكاره ، حتى انتهى إلى إعلان فسادها جميعاً أقوالاً وشبهات وجاء ذلك فى كتابه الإشارات والتنبيهات النمط الرابع فى الوجود وعلله .

القديم وكأنهم قد أنتهي إليهم أمره ، بعد ما بان فساده ، وذلك مما يدل على إفلاس القوم ويكشف عن نواياهم ، لأن قضيتهم الأساسية هى إنكار كافة الأمور الغيبية والتخلص منها بزعم أنها لا تقع تحت الحس ، كما لا يمكن الحكم عليها بالصدق أو الكذب من خلال مقاييس العالم المشاهد الذى يخضع للعلم التجريبي كضرورة منطقية .

ويؤكد زكى نجيب محمود على أنه يرفض الميتافيزيقا التأملية تماماً ، لأنها تبحث فى أشياء لا تقع تحت الحس ، لا فعلاً ولا إمكاناً ، كما أنها أشياء بحكم تعريفها لا يمكن أن تدرك بحاسة من الحواس [1] فإذا كان ذلك رأيه فى الميتافيزيقا التأملية ، وأنه يرفضها لأنها لا تدرك بالحس ، فلماذا تراجع عن ذات الرأى بعد ذلك ؟

أكان تراجعه تحت ضغط مارسه عليه من يملكه ، أم هى استراتيجية يرتكز عليها الماديون فى جدلهم ، تقوم على التسليم ببعض نقاط الخلاف تسليماً جدلياً حتى يطمئن الخصم إليه ، ثم يكر بعد ذلك عليه ؟ أم أنه يتراجع عن الرأي الخطأ إلى الصواب ، ثم يبدل المواقع متى كانت الظروف مناسبة متخذاً حيلة أغلب الجدليين وهى الاختباء من أمام التيار الشديد حتى تهدأ العاصفة .

ب ـــ مناقشتها :

لكن يبدو لى أن هذه الشبهة خيال حالم ، أو نزغة من نزغات الشيطان ، أما لماذا ؟ فلأنها تقوم على اعتقاد إنكار ما ليس محسوساً ، أو خاضعاً للتجربة الحسية ، ومع أن الوضعية يزعم دعاتها كونها فلسفة التحليل العلمى، وبلغة العلم التجريبي تحاور ، إلا أنها أخفقت فى إثبات ذلك الذى ادعته ، بدليل أننا نستفيد من الجاذبية والمغناطيسية كما نشاهد فى مناماتنا الرؤى والأحلام ، ونعايش

---

(١) الدكتور زكى نجيب محمود ـــ خرافة الميتافيزيقا ص ١١ .

الحب أو البغض كما نمارس الإيثار أو الأنانية [١] وكلها أمور موجودة ومعلومة ومع ذلك لا يدعى عاقل أنها محسوسة ، ولا يمكن لأي عـاقل الزعـم بأنـها محسوسة فى ذاتها وان كانت محسوسة فى بعض مظاهرها وآثارها .

هل يمكن وضعها فى مختبر علمى أيا كانت دقته ، حتى تنتج قضية منطقية قابلة للتحليل أو التجربة ، حسب ما أدلى به الوضعيون ، أو هل يمكن التأكد من صدق هذه الموجودات غير المحسوسة ، أو التأكد مـن كذبـها علـى طريقـة الوضعيين ، أم أن الأمر فيها بعيد عن رقابة الوضعييـن ، وهـم قـد أعلنـوا استثناءها مما فى أفهامهم ؟ أم أن تجارتهم بوار ، وبضاعتهم مزجاة ، وإفلاسهم الفكري والعقدي قد أعلن عن نفسه .

ثم ان الحياة والموت وهما من الأمور الغير محسوسة ، والعقل يجهل حقيقة كل منهما ، وكذلك العقل والروح التى ينكر الوضعيـون اعتبارهـا قضـايا ميتافيزيقية والكائن المثالى الذى تجتمع فيـه أفـراده كالإنسـانية والحيوانيـة والنباتية[٢]بل والصحة والمرض والفهم والبلادة ما هـى فـى مجملـها سـوى مجموعة من المفاهيم والمعانى التى تحمل شيئاً من أسرار الحياة ، وموجـودة بآثارها فيها على نمط من الأنماط ، أو ناحية من النواحى ، ولا يمكن إنكارهـا أبداً ، لأن إنكار البدهيات مؤد إلى الحكم على ذلك المنكر للبدهيات بعدم الإلتفات إليه لضعف عقله كما أن الله تعالى جلت قدرته ، وتعالت حكمته جعل كل مـا فى الكون دالاً على وجوده ووحدانيته ، وتفرده بـالجلال والجمـال والكمـال والإكرام .

---

(١) هذه المسائل مما لا تحتاج إلى أدلة لأن كل واحد من العقلاء يشعر بها على ناحية من النواحى ، أو صـورة من الصور ، فالجدل فيها مفضى إلى الحكم ، بأن المجادل فاقد لأبسط الجوانب العقلية .

(٢) وهذا المثال الذى تتجمع فيه أفراده لا يمكن إنكار وجوده ، فإذا أنكره الوضعيون فقد أنكـروا وجـود أنفسهم ، ومثلهم يعفى الإنسان من التفكير فيهم أو الاهتمام بهم .

فالمنكر لذلك كله أو بعضه كافر بالله وآياته محكوم عليه فى الدنيا بالهلاك النفسي ، والحرمان من الاطمئنان القلبي ، وفى الآخرة بالعذاب المهين ، قال تعالى : " **قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا وَحَدَائِقَ غُلْبًا وَفَاكِهَةً وَأَبًّا مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ** " [1].

قال صاحب الكشاف فى الآية دعاء على الكافر، وهى من أشنع دعواتهم لأن القتل قصارى شدائد الدنيا وفظائعها ، وتعجب من إفراطه فى الكفران بنعمة الله تبارك وتعالى ، ولا ترى أسلوباً أغلظ منه ، ولا أخشن مساً ، ولا أدل على سخط ، ولا أبعد شوطاً فى المذمة مع تقارب طرفيه [2].

لأن الله تعالى هو الخالق الرازق ، وهو صاحب النعم كلها التى يعيش فيها الجميع ومنهم الكافر ، ومن ثم فقد كرر الله جل شأنه على ذلك الكافر التذكير له ببعض النعم التى أولاه إياها تباعاً ، وهى تستوجب الشكر بدل الكفر [3]منها تذكيره بخلق الله تعالى له من نطفة حقيرة فجعله مقدراً فى أحسن تقويم [4]كما هو مقدر فى وسائل حسه[5] والمنافع المرتبطة بأعضائه،ثم سهل له سبيل

---

(١) سورة عبس الآيات ١٧ / ٣٢ .

(٢) الإمام محمود بن عمر الزمخشرى ــ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجه التأويل المجلد الرابع ص ٧٠٣ طبعة دار الهلال .

(٣)قال تعالى : "وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ " سورة إبراهيم الآية ٧

(٤) قال تعالى : " لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ " سورة التين الآية ٤ .

(٥) قال تعالى :" وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" سورة النحل الآية ٧٨ .

الخروج من رحم أمه ، كما سهل له سبيل الخير والشر[١]،ثم ذكره بأن من نعمه عليه أيضاً ، أنه إذا خرجت روحه من جسمه لم يترك ذلك الجسم نهباً للطيور الجارحة ، والحيوانات المفترسة ، وإنما أكرمه فجعل له قبراً يواريه [٢]، ثم أماته فأقبره ، ثم هو سبحانه وتعالى متى أراد إخراجه للنشأة الأخرى أخرجه، ثم إذا شاء أنشره ، ومن ثم فالعاقل هو الذى يسعى لارضاء مولاه ، ويؤمن به بدل أن يكفر به بعد أن يعصاه .

وإذا كان الوضعيون يرفضون الاعتراف بوجود ما ليس بمحسوس فإنهم يخلطون بين الأمور خلطاً مقصوداً ، ويذهبون مذاهب الشطط بكل ما وسعهم إذ العقل يقرر أن فى الإنسان نفساً وعقلاً وجسداً ، وروحاً وأحلاماً وآمالاً وأحزاناً وأفراحاً وأتراحاً ، وهى كلها متباعدة عن بعضها فى أعمالها ، فليس ما تفعله اليد أو القدم هو نفس ما يفعله العقل والضمير والنية ، وإلا ما كان لكل واحد منهم اسمه الذى يخصه ووظيفته التى يقوم بها[٣] وما أظن عاقلاً يغفل عن وجود الفوارق الكثيرة بين هذه وتلك .

ونقل الإمام الأشعرى أن الأصم كان يخلط بين النفس والجسم ، ويعلن أنهما شئ واحد ، حين يقول : النفس هى هذا البدن بعينه لاغير ، وإنما هذا الذكر على جهة البيان والتأكيد لحقيقة الشيء لا على أنها مغايرة للبدن[٤] فكان الأصم بقوله هذه صورة سابقة للوضعيين من هذه الناحية ، وهى إنفلاتات غير

---

(١) قال تعالى:" إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا " سورة الإنسان الآية ٣ .

(٢) ومن ثم فالذين ينكرون نعيم القبر أو عذابه ، إنما ينكرون ما هو معلوم من الدين بالضرورة ، لأن ظواهر الآيات القرآنية قد دلت عليه ، كما أن صريح السنة النبوية قد تحدثت عنه ، ففي الحديث الشريف : القبر إما روضة من رياض الجنة ، وإما حفرة من حفر النار .

(٣) وهذا التفصيل في الوظائف بجانب التفصيل في النعوت يؤكد وجود كل منها استقلالاً ، فالإنكار لواحد منها لا يعد مقبولاً وإنما هو عمل مرذول .

(٤)الإمام أبو الحسن الأشعرى ـــ مقالات الإسلاميين ج ٢ ص ٢٧ .

مقبولة ، كما تمثل نوعاً من الهروب المتوالي خشية معرفة الحقيقة أو الوقـــوف عندها وقفة سليمة .

بل إن الظواهر العادية حاكمة ببطلان قول الوضعيين فى إنكار وجود غير المحسوس ، أما لماذا ؟ فلأن الإنسان له جسم وروح ، والجسم مادي ولذا فـــإن عمله يتوقف عند اعتراض جسم مادي آخر، متى كان أكثر صلابـــة منـــه ، أو أعلى ارتفاعا ، أو أقوى بناء أو فاعلية ، كالسكين واللحم ، فإن اللحم جسم مادي والسكين أيضاً جسم مادي ، لكن السكين أقوى صلابة من اللحم ، وبالتالي فـــهى تقطعه ولا تنقطع به ، ومن ثم فإن عمل الجسم المادي يمكن أن يعوقه مـــادي آخر إعاقة كاملة أو منقوصة ، ولا يجادل فى ذلك إلا مكابر[١]وكذلـــك العيـــن المبصرة فإنها تعمل بكفاءتها طالما لم يعترضها حاجز مادي أثناء النـــهار ، أو حاجز شبه مادي أثناء الليل كالظلمة والغيوم الداكنة والدخان المتصـــاعد مـــن المحارق أو غير ذلك من العوائق المادية ، أما إذا حصل اعتراض مادي لها أياً كان نوعه فإن عملها يتلاشى .

أما الروح فإن عملها أعلى من عمل البدن ، بدليل أن الإنسان ربما كـــان نائماً فى فراشه بجسده ، ولكن روحه وعقله يحلقان فى أماكن بعيدة من خـــلال عمليات التصور العقلى ، والتحرك الذهنى ، كما أن الواحد منا متى حج بيت الله مرة ، فإنه يظل متذكراً كل ما قام به ، بل وتطوف قدراته العقلية والروحية بكل الأماكن المقدسة مع أن جسمه حبيس فراشه [٢]، وكلنا يشعر بذلك داخل نفســه ، فدل الأمر على أن الجسم غير الروح من هذه الناحية وأنهما متمايزان موجودان

---

(١)الدكتور / موسى عمران الهادي ــ الفلسفة الحديثة ومشكلاتها ص ٣٥ ط ثانية ١٩٥٧م .

(٢) الأستاذ / عبد البديع محمد السيد رمضان ــ انطلاقات الأرواح ص ٣٧ طبعة الدار العصريـــة ١٩٣٣م حيث ذكر حالات الروح وضرب أمثلة عديدة بعضها مأخوذ من كتاب ابن القيم حـــادي الأرواح إلى بـــلاد الأفراد ، ثم أضاف إليها أمثلة اعتبرها ممثلة للاتجاهات العصرية الحديثة .

نعمة من الله تعالى ، وأن الجسم محسوس ، أما الروح والعقل فليس أحدهما محسوساً بذاته وإنما يدرك بآثاره .

يقول الأستاذ / محمد فريد وجدي : الذى شأنه أن ينصرف من شئ إلى شئ فيقف على أمر دون آخر، لا يعقل أن يكون مادياً محضاً ، لأنا قد عهدنا الآلات المادية لا تنصرف إلى شئ دون شئ إذا حال بينهما حائل مادي ، فالمرآة لا يعقل أن تنصرف إلى رسم شخص دون شخص ، مادام ليس بين أحدهما وبينها حجاب كثيف [١] .

بيد أن هذه التفرقة بين المحسوس وغير المحسوس صارت بدهية ، كما أن وجود كل منهما أضحى من اليقينيات التي قام البرهان عليها لا من الظنيات التي يجئ الاحتمال حولها من كل ناحية ، ومن المعلوم أن اليقينيات صادقة بالضرورة يقول ابن باجة [٢]الأمور الموجودة لشئ ما فى الأعتقاد إما صادقة وإما كاذبة ، وإما بالذات وإما بالعرض ، وإما يقينية وإما مظنونة [٣] وظاهر

---

(١)الأستاذ / محمد فريد وجدى ـ دائرة معارف القرن العشرين ج ٤ ص ٢٣٢ .

(٢) هو الفيلسوف المسلم أبو بكر محمد بن يحيى التجيبى الأندلسى السرقسطى المعروف بابن الصانع والمشهور بابن باجة المتوفى ٥٣٣هـ ـ راجع ترجمته عند ابن أبي اصبعه فى عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ج ٢ ص ٦٢ الطبعة الأولى المطبعة الوهبية ١٢٩٩هـ ١٨٨٢م ولابن خانقان / فلائد العقبان ص ٣١٢ وللعلامة محمد بن جعفر الكتانى سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس فيمن أقبر من العلماء بفاس ج ٣ ص ٢٦٤ ط بفاس ١٣١٦هـ وللخوانسارى روضات الجنات فى أحوال العلماء السادات ج ١١ ص ٧١٥ .

(٣) فهذه الأوجه المتعددة تبلغ إثنى عشر وجهاً ،وقد تزيد متى لوحظ امتزاج الذاتيات بالعرضيات، واختلاط اليقينيات بالعرضيات أو إنفصالها لأنه بمراعاة الصدق فيها تكون ١ـ بالذات ٢ـ بالعرض ٣ـ على وجه اليقين ٤ـ على وجه الظن ، فهذه أربعة وبمراعاة الكذب تكون هناك وجوه أربعة أيضاً وأما على جهة اليقين: ١ـ صادقة ٢ ـ بالذات ٣ ـ بالعرض ٤ ـ كاذبة ، ونفس الحال بالنسبة للظن فتكون الجملة ستة عشر وجهاً حاصلة من ضرب الصادقات والكاذبات واليقينيات والظنيات فى كل من الأوجه الأخرى فتأملها . بارك الله فيك .

عند من كان له نظر بصناعة المنطق أن اليقينية إنما تكون صادقة ضرورة وأما المظنونة فقد تكون صادقة وقد تكون كاذبة (١).

والوضعيون خلطوا بين اليقينيات والمظنونات ، كما اشتبه عليهم ما يمكن البحث فيه لقدرة العقل عليه ، وبين ما لايمكن البحث فيه لعجز العقل عن بلوغ الغاية فيه ، وهذا مما جعلهم يندفعون لإنكار الثانى ما لا قدرة للعقل فيه ، مع أن الحديث الشريف قد نبه إلى خطورة محاولة البحث فى هذا الجانب ، فعن أبى ثعلبة الخشنى رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ان الله فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحد حدوداً فلا تعتدوها ، ونهى عن أشياء فلا تنتهكوها وسكت عن أشياء رخصة لكم ، ليس بنسيان فلا تبحثوا عنها (٢).

وعن أبى ثعلبة الخشنى أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الله تعالى قد فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحد حدوداً فلا تعتدوها ، وحرم أشياء فلا تقربوها ، وترك أشياء من غير نسيان رحمة لكم فلا تبحثوها (٣).

فإذا كانت هذه المسائل المسكوت عنها ، قد رحمنا الله تعالى بعدم تكليفنا البحث عنها ، فما ذلك إلا من الأدلة على أن صانع العالم المشاهد ، هو ذاته صاحب عالم الغيب وهو جل شأنه الذى يعلم السر وأخفى ، وبالتالي فكل خبر جاء عنه يكون صادقاً صحيحاً ، وعلى الإنسان العاقل أن يلتزم به ،ويتمسك بكل ما نبه إليه ، قياماً به ، وينتهى عن كل ما نهى عنه اجتناباً له .

وإذا كانت الأبحاث العلمية تتسم بانطلاقة الفكر ، وحرية البحث ، والتخلص من هيمنة العواطف ، وتنحية ما يتعلق بالاعتقاد جانبا ، فإنى أخالف

---

(١) العلامة ابن باجة ــ تدبير المتوحد ص ٥٨ تحقيق الدكتور معن زيادة ط دار الفكر بيروت .

(٢) الإمام البيهقى ــ السنن الكبرى ج ١٠ ص١٢ ط أولى مجلس دائرة المعارف العثمانية حيدر اباد الدكن بالهند ١٣٥٥هـ وبهامشه الجوهر النقى .

(٣)الإمام أبو نعيم ــ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ج ٩ ص ١٧ ط دار الكتب العلمية بيروت .

ذلك الاتجاه ولا أنحي الاعتقاد الصحيح من طريقي ، لأني مسلم مؤمن ملـــتزم كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأتمسك بضرورة جعـــل النقـل الصحيح فوق كل نقل من ناحية الاستدلال به ، بل أطالب العقـل الصحيـح أن يخفض جناحيه للنقل المنزل ففي ذلك كله النجاة له .

من ثم فان زعم الوضعيين بضرورة استبعاد الميتافيزيقا التأملية من ثـلاث وجهات للنظر هي التجريبية ، والتاريخية ، والتحليلية[١] زعم خـاطئ ، ووهـم كاذب لأن وجودهم الحسي " الذي لا يؤمنون إلا به ، ليس أبين من وجود هـذه المشكلات في اعتبار كثير من الفلاسفة [٢].

بناء على ما سلف أعلن الدكتور/ زكي نجيب محمود إيمانه بالعلم التجريبي وحده وكفره بما عداه [٣]فإنه لا يكون متوافقاً مع طبيعته الذاتية التي تؤكـد لـه وجود جملة من القوى العقلية والنفسية والوجدانية ،بجانب الهيكل الجسماني ومع هذا لايمكنه التجريب إلا على جزء من الشكل الهيكلي فقط ، كما لايكون متوافقاً مع الأبحاث العلمية في المجال التجريبي ، وهي التي تعتمد على الخيال العلمـي والملاحظة العقلية والتوقع للنتائج ، وكلها أمور ليست مادية ولا يمكن التجريـب عليها .

ويذكر الدكتور / إبراهيم مدكور أن الاعتراف بأفكار الواجـب ، والخـير الأسمى ، والسعادة ، تقودنا حتماً إلى التسليم بالحرية ، وخلود الروح ، ووجـود الله [٤]وهي من قضايا الميتافيزيقا التأملية التي تسعى إليها تأكيداً عليها ، بينمـا

---

(١)الدكتور / محمود رجب ـــ الميتافيزيقا عند الفلاسفة المعاصرين ص ٣٢١ ط دار المعارف ١٩٨٧م .

(٢)الدكتور / سليمان دنيا ـــ التفكير الفلسفي الإسلامي ص ٤٩ ط مكتبة الرياض توزيع الخانجي .

(٣)الدكتور / زكي نجيب محمود ـــ المنطق الوضعي ج ١ ص ٧ من المقدمة مطبعة الأنجلو المصرية .

(٤)الدكتور / إبراهيم مدكور ـــ دروس في الفلسفة التوجيهية ص ٢١٥ / ٢١٦ .

يسعى الوضعيون لإنكارها ، وإعلان تبرمهم بها ، وتركيزهم علـــى ضـــرورة التخلص منها ، وحذفها من العلم بوجه عام .

وهنا أتساءل:عن أسباب اندفاع الوضعيين فى مصر خصوصاً ، والشـــرق الإسلامي عموماً ، نحو حدود الميتافيزيقا التأملية،ومحاولاتهم المستمرة تجاوزها بغض النظر عن النتائج المترتبة على هذا التجاوز، من كفر بالله رب العــالمين، وخروج على شرعه المستقيم ، ثم يزول جزء من التساؤل متى عرفت أن مـــا يفعله هؤلاء ليس سوى تقليد أعمى ، لما ذهب إليه الوضعيون في الغرب ، فكل من قلدهم فى الشرق ، فقد عقله أو ألقاه فى سلة المهملات ، ثم انطلق بلا عقــل يهيم على وجهه ، ولا يدري من أمر نفسه شيئاً .

ومن ثم حق فيه وأمثاله قول الله تعالى : " **وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** "[1] ولله در الحكيم القائل:

إذا المرء لم يخلق سعيداً من الأزل ٠٠٠ فقد خاب من ربى وخاب المؤمل

فموسى الذي رباه جبريل كافـــر ٠٠٠ وموسى الذى رباه فرعون مرسل[2]

ما أشبه الليلة بالبارحة ، فالوضعيين كانوا يريدون من وراء هجماتهم على الدين علو الشأن وارتفاع المنزلة ، ولكنهم أخفقوا تماماً عن بلوغ تلك الغايـــة حتـــى صاروا أمثولة الأماثل بين العالمين ، إذ ليس هناك بعد الكفر ذنب،كما أنه ليـــس للذين يحادون الله ورسوله سوى أن يكونوا فى الأذلين، وحسبانهم من الأرذلين.

---

(١)سورة النحل الآية ٧٦ " والكل هو الثقيل الذى يعال على الغير ، وسمى اليتيم كلاً لأنه يمثل ثقلاً على مـن يكفله ، ومتى فعل الكافل ذلك ابتغاء مرضاة الله فإن الله يعطيه الأجر الجزيل ، قال الشاعر يذم آكـــل مـــال اليتيم : أكول لمال الكل قبل شبابه ٠٠٠ اذا كان عظم الكل غير شديد

العلامة أبو حيان التوحيدى ـــ البحر المحيط ج ٥ ص ٥١٨

(٢)الشيخ محمد نصر الله الديباوى ـــ الأخلاق الإسلامية ص ٦٥ ط الدار الميمنية ١٣١٣هـــ .

ثم ان الوضعيين كثيراً ما يستخدمون ألفاظاً لها دلالاتـــها اللغويـــة كلفـــظ الوجود ، ومبادئ الوجود والمقدمات ، وطرائق الاستنباط إلى غير ذلـــك مـــن المفردات التى لها معان مقصودة فى كل من اللغة ، وعنـــد الاســـتعمال العـــام والخاص وهي تستخدم من استعمال وآخر باختلاف الجهة التي يجئ عليها اللفظ ذاته ، ومن المؤكد أن هذه المعانى المقصودة لا تدخل فى نطاق التجربة الحسية كما لا تخضع للتحليل ، أو التركيب ، ومع هذا فالوضعيون يستعملونها كمعـــان ويرفضونها كميتافيزيقا أليس ذلك الصنيع دليلاً على تخبط القوم فيما إليه يذهبون

يقول الدكتور / زكى نجيب محمود تبحث الميتافيزيقا المرفوضة فى أشياء لا تدخل فى حدود التجربة الحسية ، كالمطلق والعدم وما اليهما وهو ما يطلـــق عليه عادة اسم الميتافيزيقا ... ثم يقول ان فلســـفتنا التحليليـــة تقضـــى علـــى الميتافيزيقا بالحذف .[1]

ويعلق على هذا القول الدكتور / سليمان دنيا قائلاً: ان المشـــاكل التـــى لا تخضع لمنهج البحـــث التجريبي لابد لمن ينكرها أن يدرسها أولاً حتى ينكرهـــا عن بينة ، كما أنه لابد لمن يعترف بها أن يدرسها حتى يعترف بها عن بينة[2] ، أما اهدار حقها فى الدراسة والبحث بحجة أنها لا تخضع لمنهج البحث التجريبى فهو تهرب من مواجهة الحقائق [3] لما هو معروف من أن لكل مشكلة منـــــهجاً بحثياً يتناسب معها .

وماذا قدمت الوضعية المنطقية للعلم كبديل يغنى عن الميتافيزيقا ، إنها لـــم تقدم حلولاً يمكن اعتبارها صحيحة ،و لم تقدم سوى التنكر للقيم الراقية ،والقفـــز

---

(١) الدكتور / زكى نجيب محمود ــ موقف من الميتافيزيقا ص ٢٢ .

(٢) وهذا المنهج هو الذى تقوم عليه الموضوعية ، وهو الذى نبهت إليه آيات القرآن الكريم في قوله تعـــالى :" قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ".

(٣)الدكتور / سليمان دنيا ــ التفكير الفلسفى الإسلامي ص ٣٢ .

فوق المعاني النبيلة ، والكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وفوق ذلك فان صاحبهم فى كتابة خرافة الميتافيزيقا قد أعلن إنكاره لكل ما هو معلوم من الدين بالضرورة ، وكان المفروض أن يفرق بين الحقائق الدينية، والموضوعات أو الحقائق الميتافيزيقية . [١]

ونفس النتيجة يقررها الدكتور سليمان دنيا حيث يقول : المشكلات الميتافيزيقية تدخل فى صميم الوجود الإنساني ، وأنه لا غنى للإنسان عن أن يدرسها ويمحصها ، وأن الدعوى إلي إهمالها بحجة أننا عاجزون عن إدراكها دعوة خبيثة ماكرة يقصد بها التمرد على القيم الروحية والمعنوية لطريق مستور[٢].

بناء عليه يمكن القول بأن موقف الوضعيين المنطقية من الميتافيزيقا فى جملته موقف هزيل ينبئ عن تعبئة لا شعورية بالعداء الشديد لكل الأصول الثابتة والقيم النبيلة ، بجانب الكفر بالله تعالى وآياته ورسله ، وليس هناك من عذر لوضعي الشرق فى تقليدهم وضعي الغرب ، بل لا عذر لأحد فى الكفر مهما كانت تَعِلاته لأن دين الله تعالى واحد وهو الإسلام ، والاعتقاد وحده به واجب قال تعالى: "**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**"[٣].

وعن أنس بن مالك رضي الله تعالىعنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة ، أرأيت لو كان لك ما على الأرض

---

(١) الدكتور/محمد البهى — الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ص ٢٤٣ ط مكتبة وهبة ١٩٨٥م .

(٢)الدكتور / سليمان دنيا — التفكير الفلسفي الإسلامي ص ٣٢ .

(١) سورة آل عمران الآية ٨٥ قال الشيخ الصابونى من يطلب شريعة غير شريعة الإسلام بعد بعثة النبى محمد صلى الله عليه وسلم ليدين بها فلن يتقبل الله منه ، ثم ان مصيره فى الآخرة إلي النار مخلداً فيها حيث يقع له الخسران — الشيخ محمد على الصابونى — صفوة التفاسير ج ٢ ص ٢١٥ .

من شئ أكنت مفتدياً به ، قال فيقول نعم ، فيقول الله قد أردت منك أهون من ذلك ، قد أخذت عليك فى ظهر أبيك آدم ان لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك ، ومادام الوضعيون قد اعتبروا العلم التجريبي هو دينهم وعقيدتهم ، فهم من الخاسرين .

يقول الدكتور / سليمان دنيا : هكذا ترفض الوضعية المنطقية الميتافيزيقا ، وتحدد الميتافيزيقا المرفوضة بأنها كل ما لا يمكن أن يحس ، لأنه فارغ من المعنى تماما ... كما أن الوضعية المنطقية ترى أن مشاكل ما وراء الطبيعة لا وجود لها ، والعبارات التى تدل عليها عبارات فارغة من المعنى والواقع ، أن هذا واضح البطلان ، لأن الإنسان لابد وأن يكون له موقف من هذه الأمور، وموقفه واحد من ثلاثة مواقف فإما مؤمن بها ، أو منكر لها ، أو شاك فيها [1].

وحيث أن المؤمن بشئ يشغل نفسه بالتفكير فيه قبل اعتقاده صحته ، فإن المنكر هو الآخر يشغل نفسه بالتفكير فى طرائق الإنكار ، وبالتالى فكل من الإيمان والإلحاد يجئ عقيب التفكير الجاد ، وبناء عليه فكل منهما قائم على التفكير النظري ، والاهتمام العقلي ، وليس الإيمان أو الإلحاد بدهياً[2]، والدليل على ذلك اختلاف الناس حول كل منهما من حيث التعريف والدلالة الاصطلاحية

أما الشاك فإنه منشغل بأمور الإيمان والكفر معاً ، فيكون حاله أصعب من حال المؤمن والملحد ، ومن ثم فإن انشغاله بهذه المشكلات يكون أكثر وضوحاً وذلك يدل على أن مشكلات ما وراء الطبيعة لها وجود نفسي وفكري ،بل وقلبي

---

(١) الدكتور / سليمان دنيا — التفكير الفلسفي الإسلامي ص ٤٣ ط الأولى مكتبة الخانجي بمصر .

(٢) إنما الإيمان فطري قلبي والفرق بين الفطري والبدهي كبير ، دليل كون الإيمان فطرياً في النفوس قوله تعالى: "فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون" . سورة الروم الآية ٣٠ .

لدى كل من المؤمن والملحد والشاك[1] فثبت أن الإنسان الطبيعي لا يمكنه الانفصال بفكره عن مسائل الميتافيزيقا على أية ناحية كانت.

أضف إلى ما سبق أن المفكرين قد عاشوا يتأملون الوجود المعقول أكثر مما يتعلقون بدراسة الوجود المحسوس ، فأفلاطون حينما شاد مذهبه فى نظرية المثل إنما كان يهدف إلى إعلانه التمسك بالوجود المعقول وهو الوجود المثالي الذي يخلو من كل أوجه النقص التى تجئ في الوجود المشاهد ، وكل أصحاب المدن الفاضلة — اليوثوبيا — كانوا يتحركون في العالم الخيالي أكثر مما يفكرون في العالم المادي ، وهو من الأدلة والبراهين على أن حذف الميتافيزيقا من قانون التعاملات الفكرية اتجاه غير صحيح.

ثم إن الوضعية المنطقية قد تورطت فى الأبحاث الميتافيزيقية ، ولم تستطع الفرار منها ، وعجزت عن تبرير المعارف العلمية التى يضطر فيها العلماء إلي استنباط مجهول من معلوم ، وفضلاً عن ذلك فان مبدأها الأساسي الذي يحصر العبارات والكلمات ذوات المعاني في قضايا المنطق والرياضة ، والقضايا الخبرية التي يمكن اختبارها بالحس مبدأ متهافت [2] .

وتنال الغرابة من الأستاذ / عباس العقاد حيث ينظر إلي الوضعية وزعمائها الذين يتصورون أن المادة حقائق ملموسة محسوسة فقط وليست فروضاً عما وراء الحس ، ذلك العالم الذي لايقوم عليه أي دليل في نظر الماديين [3]على أنها أمر قائم يمارسونه في أعمالهم الفكرية وينكرونه في

---

(١) ولا شك أن نفسية كل واحد من الثلاثة مختلفة عن الأخريات ، وهذا الاختلاف غير محسوس ، كما لا توجد له ظواهر محسوسة ، وإنما هو من المعقولات التي لا يمكن إنكارها أبداً بدليل وجود هذه الألفاظ في المفاهيم اللغوية على أبسط تقدير .

(٢) الدكتور / محمود عبد الحكيم عثمان — الفكر المادي الحديث وموقف الإسلام منه ص ٥٨ مكتبة الأنجلو المصرية .

(٣)الأستاذ / عباس محمود العقاد — عقائد المفكرين في القرن العشرين ص ٢٤٦ مكتبة غريب .

مفرداتهم اللفظية : **"مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا"** (١)

إن القوانين الطبيعية التي تتمسك بها الوضعية المنطقية تمثل نتائج بحث تجريبية وليست هي ذات الأبحاث التجريبية ، ولاشك أن النتائج مادامت في مفاهيمها مجردة فقد صارت غير مادية ، ومشكلة الوضعيين أنهم ينكرون ماوراء الحس ومع ذلك يعتقدون صدق النتائج التجريبية ، كما يعتقدون وجودها، أفلا يدل ذلك على أنهم فقدوا أبرز خصائص الباحث العلمي الموضوعي ، وتنكروا لكل المبادئ والأصول التي نادوا بها .

لقد كان عداؤهم للدين هو الحقيقة ، أما استعمالهم الألفاظ البعيدة فما هو إلا إحدى الحيل حتى لا يصطدموا بمشاعر الناس واعتقاداتهم الدينية مباشرة ، إنهم يريدون إنكار الغيب علىَ كل ناحية ، من غير أن يعلنوا ذلك على الملا ، وهي طبيعة أهل الإنكار للعقيدة الإيمانية على كل ناحية .

وقد قص القرآن الكريم أن بنى إسرائيل لما كفروا بالله رب العالمين،طلبوا من نبيَ الله موسى الكليم أن يريهم الله جهرة ، وغايتهم من ذلك أن يقع العجز من موسى عليه السلام فتبطل دعوته وتضيع حجته ، وحتى يوهموا الناس من حواليهم أنهم ليسوا كفرة بالله علقوا إيمانهم بدعوة نبي الله بموسى الكليم على رؤيتهم لربه ، قال تعالى :**"وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ"** (٢) قال الشيخ البروسوى : أذكروا يابنى إسرائيل وقت أن قال أسلافكم لموسى عليه السلام لن نصدقك فى قولك بأن هذا كتاب الله ، أو أنك سمعت كلامه ، أو أن الله أمرنا بقبوله والعمل به ، حتى نرى الله عياناً لا ساتر

---

(١) سورة الكهف الآية ٥ .

(٢) سورة البقرة الآيتان ٥٥ / ٥٦ .

بيننا وبينه ، فأخذتكم نار محرقة فيها صوت ، نازلة من السماء لسؤالهم ما هـو مستحيل على الله فى دار الدنيا ، فنزلت الصاعقة فمات بعضـهم أولاً ، ورأى الباقون هلاكهم [(١)] .

وقد جعل الله حكاية تلك الواقعة من بنى اسرائيل بمثابة التسلية للنبى محمـد صلى الله عليه وسلم حين طلب منه أحبار اليهود إتيانهم بكتاب من السماء جملة كما أتى به موسى الكليم جملة ، فكان طلبهم ذلك نوعاً من التعنت،فبين الله تعالى له أن اليهود والأحبار طلبوا من موسى أن يريهم الله جهرة عياناً ، فأجابـهم الله بنار أهلكتهم جزاء لما ارتكبوه من ظلم وآثام .

قال تعالى : "**يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ** [(٢)] **فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا**" [(٣)] قال الإمام ابو السعود : رغم أن طلب رؤيـة الله عياناً فى دار الدنيا جهرة من غير حواجز كانت طلباً للأجـداد مـن بنـى إسرائيل،إلا أنه لما كان الأحفاد مقتدين بالأجداد فى كل ما يأتون أو يذرون فقـد اسندت الفعلة الذميمة إليهم جميعاً فصاروا كلهم فى طلبها سواء [(٤)] .

---

(١) الشيخ إسماعيل البروسوى : تنوير الأذهان المجلد الأول ص ٦٥ .

(٢) ذهب الكثيرون من المفسرين إلي أن الآيات البينات هى التسع التى ورد ذكرها فى قوله تعالى ولقد آتينـا موسى تسع آيات بينات فسأل بنى اسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون أنى لأظنك ياموسى مسحورا وقال لقـد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر وإنى لأظنك يا فرعون مثبورا سورة الأنبياء الآيتـان ١٠١ / ١٠٢ والآيات التسع هى المعجزات المشهورة لنبى الله موسى عليه السلام وهي العصا ، واليد البيضاء والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، والطوفان ، والسنون ، ونقص الثمرات . راجع للإمـام أبى حيـان التوحيدى ـــ البحر المحيط ، والنهر الماء ج٢ ص ١٧٨ وتنوير الأذهان المجلد الثانى ص ٣٦٧.

(٣) سورة البقرة الآيتان ٥٥ ، ٥٦ .

(٤)الإمام أبي السعود ـــ تفسير أبو السعود ج ١ ص ٣٩٤ .

على أن تعنت الوضعيين بهذا الشكل الذى ألقى بهم فى بحار الوهم والخيال وقد عبرت عنه مفرداتهم اللفظية ، فلاشك أنه أدرجهم فى الهالكين المغضوب عليهم من رب العالمين وقديماً قيل :

يصاب الفتى من عثرة بلسانه ... وليس يصاب المرء من عثرة الرجل
فعثرته فى القول تذهب رأسه ... وعثرته فى الرجل تبرأ على مهل[1]

ان الوضعيين قد اغتروا بنتائج العلم التجريبى فحسبوها يقينية وما هي إلا احتمالية ، واغتروا بالقوانين الرياضية فزعموها بديلاً لرب البرية ، فاستحقوا الحكم عليهم بأنهم من أهل النار ، لأنهم كفروا بالله الواحد القهار ، وفى الحكم المغرورون عشرة ، من أيقن أن الله خالقه ولا يعبده ، ومن أيقن أن الله زارقه ولا يطمئن به ، ومن ايقن أن الدنيا زائلة ويعتمد عليها ، ومن أيقن أن الورثة أعداؤه ويجمع لهم ، ومن أيقن أن الموت آت فلا يستعد له ، ومن أيقن أن القبر منزله ولا يعمره ، ومن أيقن أن الديان يحاسبه فلا يصحح حجته ، ومن أيقن أن الصراط ممره فلا يخفف ثقله ، ومن أيقن أن النار دار الفجار فلا يهرب منها ، ومن أيقن أن الجنة دار الأبرار فلا يعمل لها [٢]. نسأل الله السلامة من كل أثم والنجاة من كل خطيئة .

ومن المؤكد أن الوضعية المنطقية قد توارث عنهم شمس الحقيقة ، وحبسوا أنفسهم داخل مجموعات ذات قوالب جامدة ، فصاروا كأحجار الطوب التى فقدت خواصها الطبيعية ، ولم تعد لها قيمة لا في العرض والطلب ، ولا يحسب الاحتياجات الإنسانية ، كما أضحت أفكارهم تعيش على الفضلات التى يفرزها الآخرون وهم في شقاء كبير ، كما أنهم وقعوا في حيرة ، دخلوا فيها بإرادتهم ثم عجزوا عن الخروج منها ، ومن ثم فكل ما يقولونه بهذا الشأن غير معقول .

---

(١) الشيخ محمد نصر الدين البنايوسى ــ حكم العرب وأمثالهم ص ١٥٧ ط أولى ١٣١٩هـ .

(٢) الشيخ عبد العظيم محمد أبو الخير ــ أهل الجنة وأهل النار ص ٢٧ ط الدار الميمنية ١٣١١هـ .

الشبهة الثامنة : قيامها على العواطف المتقلبة :

أ ــ عرض الشبهة :

ذهب الوضعيون إلي أن الميتافيزيقا التقليدية ما هى إلا حالة وجدانية يعبر عنها صاحبها فى صياغة خاصة ، سواء استطاعت الألفاظ المعبر بها نقل المعنى القائم فى وجدان المعتنق لها ، أم عجزت عن ذلك (١)، إنها أقرب الأشباه بالخيال الشخصي،والعاطفة الذاتية التي قد يعبر عنها بالأقصوصة حيناً أو الشعر آخر ، ويمكن إدخالها فى عناصر السير الذاتية (٢) .

ومن ثم فهي لا تعطي المرء الحق فى التخلص من همومه الشخصية ، أو عواطفه الذاتية بحيث يرى الواقع الحقيقي ، وإنما تملي عليه من رصيدها الزائف ، كما توقع به في حبائلها الزائفة أيضاً بجانب إغراقه في قصصها الأسطورية (٣).

أما كارناب فيقرر أن الميتافيزيقا النظرية لا تنطوي على نظريات صحيحة، كما لا تشتمل قضاياها على إلماحات علمية ، إنها فى أقصى مراحلها تعبر عن شئ يجول فى وجدان صاحبه تمثل احساسه بالحياة أو شعوره نحوها ، إنها أقرب الأشياء إلي الشعر ، فالميتافيزيقي التقليدى شاعر غير أنه لايعترف بأن قضاياه وليدة الأنفعال الشخصي والعاطفة الوقتية .

وبناء عليه فان الميتافيزيقى التقليدى شاعر مقيد بعباراته التي يصوغها فى قوالب شبه منطقية ، محاولاً إيجاد صيغ قوية تجعلها برهانية ، مع أنه لن يبلغ

---

(١)برلفوسكى ــ تأملات فى الفلسفة ص ١٤٣ .

(٢) أ . ب هايدى ثولك ــ الفلسفة التحليلية ص ١٥١ ترجمة خالد سعد ١٩٦١م وراجع للدكتورة ــ وفاء خضر ــ الفلسفة العلمية ص ٥٧ .

(٣) برلندسكى تأملات في الفلسفة ١٢٧ / ١٢٨ والدكتورة / وفاء خضر الفلسفة العلمية ص ٥٧ /٥٨ والدكتور عزمى إسلام اتجاهات فى الفلسفة المعاصرة ص ٦١ / ٦٥ .

شأوه ، لأن عمله قائم على الخيال والعاطفة المشبوبة ، لا على قواعد التفكـــير العقلى السليم القائم على الفلسفة التحليلية ، وبناء عليه يمكن القول بأن تـــأملات الميتافيزيقى لا تخرج عن كونها أحلام شاعر ضل سبيله [١] .

ونفس الفكرة يرددها فيورباخ فيقول : قـــرأت مـــا ظنـــه الميتـــافيزيقيون التقليديون ابداعاً ، فما رأيته يخرج عن كونه همزات من الوجدان ، أو نزغـــات أحدهم جاءته من شيطانه الشخصي ، أو هواجس غلب على صاحبها الـــهوى ، فتأثر بالجوى ثم استسلم لأحلامه التى طواها النســـيان [٢] ولا تخـــرج أبحـــاث الميتيافيزيقا لديهم عن كونها عاطفة متقلبة ، ومثلها لا يمثل قاعدة صحيحـــة ، أو مبادئ تقوم عليها فلسفة علمية .

يقول هانز شيدر من المستحيل الاعتقاد في وجود ميتافيزيقا تعبر عن أحلام أصحابها الذين تغلب عليهم التقلبات الشخصية ، والعواطف المتغيرة ، إنها يمكن اعتبارها أحلاماً وردية ، أو أحلاماً متشائمة ، فضلاً عن كونـــها حاملـــة بيـــن جنباتها العديد من أوجه القصور التى تكمن فى صدور مـــن يعلنـــون تمســـكهم بها[٣].

ويؤكد جان فان ، وجان ديفل أن جملة من الأفكار اعتنقها البعض الذيـــن زعموا أنفسهم ميتافيزيقيين متى فتشت فيها أمكن الوقوف على حقيقتها وهي لـــن تخرج عن كونها تعبيرات حول اتجاهات شخصية غلبـــت عليـــها الصراعـــات الداخلية لكل حين منهم عبر عن ما يجرى داخله من آمال وأحلام ، فى مقابلة ما

---

(١) الدكتور / زكريا إبراهيم ــ دراسات فى الفلسفة المعاصرة ص ٢٥ /٢٩ بتصرف يسير .

(٢) الأستاذ / فؤاد كامل : الفلسفة العلمية والميتافيزيقـــا الكلاســـيكية ص ٢٧٣ ط أولى ١٩٦٤ وراجـــع للأستاذ عبد الرحمن صدقى بو دلير الشاعر الرجيم ص ٥٣ .

(٣) أ . ب ــ هايدى ثولك ــ الفلسفة التحليلية ص ١٦٣ وعلى هذا النحو من التأكيد تتوارد أقوال الماديين وتتظاهر شبهاتهم وكأنهم ضمنوا السلامة أو شعروا بصدق مقولاتهم ، مع أنها لاتخرج عن كونها تخرصـــات أو شكوك يحاولون اقامتها فى مواجهة الميتافيزيقا التقليدية .

يعانى من آلام وهموم [1]. وبناء عليه فالميتافيزيقا التأملية من وجهة نظرهـم — ما هى إلا معبرعن كيفية الخروج من الأزمات النفســية التــي يعــاني منــها أصحابها، ولا يمكن اعتبارها قاعدة عامة بحيث تطبق على الجميع ، أو علـــى الأقل تستفيد منها جماعات كبيرة .

ثم ان العواطف بطبيعتها متقلبة ، من الحزن للفرح ، ومن الأحلام الوردية الايجابية إلى الهموم والأحزان السلبية ، وربما دفع الفرد الواحد في اليوم الواحد بين رحى عواطفه المتناقضة فرح وحزن ، أحلام وردية وأحزان كبيرة ، ومــن كان ذلك شأنه فلا يكون له نتائج صحيحة ، وان وجدت فإنها تكون هزيلة [1].

بيد أن هذه الشبهة تهدم كل ما أقام عليه الوضعية أفكارهم ، لأنهم مــاداموا قد أكدوا على وجود العواطف المتقلبة ، وهى غير المادة التي يتكون منها البـدن بدليل أن ذلك التقلب يرجع إلى الإمكانيات النفسية والعقلية أو الروحية ، فإن هذه الغيرية التي اعترفوا بها قد جاءت لغير صالحهم . ان لم تكن أهم الأسباب التي تقضي على قواعد المادية كما تهدم الأسس التي تقوم عليها .

ب — مناقشتها :

يبدو أن اتجاه الوضعيين فى نقد الميتافيزيقا التقليدية لم يحقق شــيئاً مــن أهداف ، بدليل أن الميتافيزيقيين استطاعوا رد هذه الملاحظات كلها وأكــدوا أن شأن الميتافزيقى الحقيقى إذا عرضت له لمشكله ما فإنه يقوم بعمليتين متكـاملتين فى وقت واحد هما :

أ — عملية تشخيص المشكلة ، وتوصيفها على ناحية فنية دقيقة ، وهى العمليـة الأولى التى تمثل القاعدة ، إذ معرفة أساس المشكلة أمر ضروري جداً .

---

(١)برلنوسكى — تأملات فى الفلسفة ص ١٣٤ وفى هذا اعتراف من أصحاب الوضعية بوجود الآمال والآلام والعواطف المتقلبة وأنها غير المادة ثم فقد لزمهم إعلان وجود ماليس بمحسوس وهنا ما يناقض اتجاههم العام .

(٢)الدكتور هانز شيدر — الميتافيزيقا والعلم ص ١٤٧ ترجمة صبحى السيد صقر .

ب — عملية تقديم الحلول الكافية والمعالجة الكاملة [١] بمعنى أن العملية الثانيــــة تكون مكملة للأولى ، لأنه إذا كانت الأولى بمثابة القـــاعدة الأساســية لبحـــث المشكلة المعروضة فان الثانــية تقوم بالتكميل وما شادة على ما أقامته الأولـــى، إذ ما قيمة أن يعرف المرء المشكلة التى يراها ماثلة أمامه ، ولكنه فـــى نفــس الوقت لا يعرف طريقاً يخرجه منها ، أو حلاً يبعده عنها ؟! وسوف المح إلـــى مناقشة هذه الشبهة فيما يلى :

أولاً : شهادة الواقع لصالح الميتافيزيقا :

إذا كانت الميتافيزيقا التقليدية — من وجهة نظر الوضعيين — مجرد خيـــال شاعر ، أو منية حالم ، أفلا يمكن اعتبار هذه الوجهة هي القاعدة الأولى التـــى تنطلق منها الفلسفة العملية التجريبية ، لما هو معروف من أن الخيال العلمي أحد العوامل التي تمهد لظهور الملاحظة والتجربة ، ثم فرض الفروض ، وأخـــيراً الوقوف على النتائج العملية الصحيحة [٢].

فلولا هذا الخيال ما تمكن عباس بن فرناس العربى المسلم مـــن اصطنـــاع أجنحة له قوامها الريش ، مهدت فيما بعد هذه التجربة الأولى لإيجـــاد أحـــدث الوسائل في مجال النقل الجوى ، ابتداء من الطائرات التجارية إلى الناقلـــة ثـــم سفن الفضاء والأقمار الصناعية إلي غير ذلك مما هو قائم فى عقـــول العلمـــاء بخصوص وسائل النقل الجوى .

ثانياً : اعتراف الوضعية بما وراء المادة :

تقرر الوضعية المنطقية أن الميتافيزيقا تقوم على الخيال والعواطف المتقلبة وهنا يرد سؤال أليست الملاحظة الفجة أو العابرة تمثل تعبيراً وجدانياً ، وحديث

---

(١) وهذا التكامل بين العمليتين يعكس صورة الاستجابة الكاملة من الميتافيزيقا التأملية للعمليات العقلية ،بـــل ويدل على ان الميتافيزيقا التقليدية تقدم حلولاً صحيحة للمشكلات القائمة .

(٢)الدكتور / فوزى محمد دعبس — المنطق الحديث ص ١٩٧ ط ثانية ١٩٦٧م

نفسي حول مشكلات يعانى منها أفراد ، ثم تجئ لحظة فيض علوي تقدم لـــهذا المفكر صورة بدائية ، أو مثالية تحمل بين يديها أحد الحلول التى تكون بمثابـــة المنقذ والمخلص لصاحب المشكلة مما يعانى [١].

ثم يطور داخل عقله أو مختبره هذه الصورة البدائية ، وربما تبلغ محاولته القمة حين تبرز النتيجة فى أدق صورها العملية الواقعية القائمة علــــى أســس صحيحة .

فابن الصوري العالم المسلم [٢] كانت النباتات التى يراها أمامه متناقضة فى أشكالها ومظاهرها،تجذب ملاحظاته العابرة الواحدة تلو الأخرى ، وكم تمنى أن يوفقه الله تعالى حتى يمكنه الاستفادة من النباتات المتعددة فى علاج جملة مـــن الأمراض المختلفة ، ودار خياله مع هذا الحلم اللذيذ ، وظلت ملاحظاته تـــترى على وجدانه تارة ، وعقله أخرى ، وفى النهاية أعانه الله تعالى حتى طور فيها،

---

(١) الدكتورة هناء محمد عبد العظيم ـــ التصوف ومشكلاته ص ٦٥/٦٦ مطبعة الدار الجديد ١٩٧٥م .

(٢) هو رشيد الدين بن أبي الفضل بن على الصوري ، ولد فى صور عام ٥٧٣هـــ ١١٧٧م وتوفى بدمشـــق عام ٦٣٩ هـــ عن عمر يناهز السادسة والستين عاماً ، درس علوم الأوائل دراسة متأنيـــة ، وكـــان واســـع الاطلاع دقيق الملاحظة ، غزير التجارب والبحوث ، سريع الانتاج ، ولد فى صور ونشأ بها ، ثم تنقل فيما بـــين العواصم العربية ، ثم عاد إلي دمشق فدرس الطب على كبار علمائها ، ومنهم العلامة موقـــف الديـــن عبـــد اللطيف البغدادى ، تعلق اهتمامه بدراسة النباتات المختلفة ، فى كل المراحل ابتداء من البذرة حتى الجفـــاف ، وضع كتابه الأدوية المفردة الذى يعتبر من أهم الكتب والذخائر العظيمة ، وكان فى دراسته للنبات يتبع المنهج العلمى فى ارقى صوره مما يجعلنا نعده من أبرز رجال المنهج العلمى فرغم أنه عاش فى القـــرن الثـــالث عشـــر الميلادى ، إلا أنه كان يسبق أصحاب المنهج العلمى فى القرن العشرين بسبعة قرون ، وكما نبغ فى النباتـــات فقد نبغ كذلك فى الطب حيث عمل طبيبا للملك العادل أبي بكر بن ايوب ٦١٢هـــ ١٢١٥م ، وقد صحبـــه إلى معظم البلدان ، ومنها مصر والقدس ، فلما مات الملك العادل استوزره ابنه المعظم ، وظل يرقى حتى وصل رئاسة الطب ، ثم عاد إلى دمشق حتى وافته المنية ، ويطلق العلماء عليه لقب عميد أطباء دمشق ، راجع لابـــن أبي اصيبعة ـــ عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، وللقفطى أخبار العلماء بأخبار الحكمـــاء ص ٢٧٥ مطبعـــة السعادة .

وأقام فى مختبره يقلب وجهات الأمر، ويجرى التجارب حتى كانت النهاية متمثلة فى إنجاز كتابه المتميز باسم الأدوية المفردة [١] .

ولاشك أن كتاب الأدوية المفردة هذا ، يمثل ذخيرة علمية لم يسبقه عالم آخر فى إنجازها من ناحية التنظيم والتبويب ، حيث اشتمل على ٥٨٥ خمسة وثمانين وخمسمائة عقار دوائي منها ٤٦٦ ستة وستون وأربعمائة عقار من أصل نباتى و ٤٤ أربعة وأربعين عقار من أصل حيواني بجانب ٧٥ وسبعين عقاراً من أصل معدني ، وأرفق بهذا الكتاب العقاقير ، والصور الملونة والتعليقات والفوائد الطبية النادرة[٢]وكان ذلك وليد الخيال الشخصي ، والعاطفة الوجدانية ، وقد تحول ذلك فيما بعد إلى واقع عملي معاش .

من ثم يمكن القول بأن الميتافيزيقا وان كان في دراستها شئ من خيال شاعر كما يقولون ، أو رؤى حالم ، أو عاطفة أديب طبقاً لما يزعمه الوضعيون المنطقيون ، فإن ذلك لا ينفى إمكانيتها في تقديم حقائق ثابتة ، تقوم على قضايا صحيحة ، وعاطفة نقية نبيلة ، تدعمها الموضوعية المتدفقة ، والنظرة الصائبة للأشياء من غير انفلات أو تمرد[٣]، وإنما يتم ذلك كله من خلال خطوات عملية منظمة .

---

(١) ويعتبره البعض من أوائل المؤلفات المنظمة والمفيدة فى هذا الجانب ، حيث لم يسبق إلى تأليفه أحد ، وإنما الذى ظهر كان إما مؤلفات قصيرة ، أو يجئ فيها الحديث عن الأدوية بشكل عام ، راجع لتوماس هولمز الطب البدائى عند العرب ص ١٣٥ ترجمة الدكتورة هدى خير الله ، وهو غير كتاب الأدوية المفردة الذى قام بتأليفه العلامة الفسافقى الذى كان أسبق وجوداً من ابن الصورى ، ولعل ابن الصورى جاراه فى هذه التسمية .

(٢) وعلم الأدوية المفردة قد تحدث عنه كل من الفارابي ، وابن سينا وغيرهما من مفكرى المسلمين فى المشرق الإسلامي وكان ذلك قبل ظهور الفسافقى وابن الصورى أيضاً ، ولمزيد من التفاصيل يمكن مراجعة الكليات فى الطب لابن رشد طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(٣) كالحال مع أصحاب الأشواق والأذواق والمواجيد والأحوال ، الذين لاهم لهم سوى إرضاء مولاهم جل علاه ، فهم يعبدونه ويوصون به على ناحية القلب والعاطفة كما يوصون به جل علاه ويثبتون له كل صفات الجلال والجمال والكمال والإكرام على ناحية القلب والعقل والوجدان معاً .

ثالثاً : اعترافهم بما وراء الحس ضرورة عقلية بناء على العاطفة :

مادام الوضعيون قد أظهروا ثنائية تقوم في الإنسان القابل للتجريب عليه من خلال بدنه ، وتقوم عليه الفلسفة الطبيعية ،والإنسان الغير قابل للتجريب عليه من خلال عواطفه ومشاعره ، وتقوم عليه بعض أجزاء الميتافيزيقا التأملية ، فلابد لهم من الاعتراف بضرورة أن توجد قوة قادرة على الربط بين ما هو قابل للتجريب العملى ، وما هو غير قابل لذلك النوع ، وهذه القوة القادرة لابد أن يكون معها العلم والإرادة ، ولا يكون ذلك إلا الله جل علاه [1]ومن هنا فقد اعترفوا بوجود الميتافيزيقا التأملية ، رغم إلحاحهم إنكارها .

يقول الشيخ مصطفى صبرى : والحق المحض الواجب على العاقل فى هذا المقام أن يعترف به ، قاطع النظر عن مذهب من الفلاسفة أن وجود العالم فى خارج الأذهان بديهى حسى [2]، كما أن الرياضيات بديهية برهانية ، والإدراك يخرج من حصار الذهن ، ان لم يخرج الذهن نفسه ، ويبلغ العالم الخارجى ، فيعرف منه ما يعرف بواسطة الحواس ، ولا ندر كيفية هذا الاتصال بين العالمين المتخالفين عالم الذهن ، وعالم الخارج ، وان شئت فقل بين عالم أنا ولا أنا ، فهو من صنع الله المتعالي .

كما لا ندرى الإدراك نفسه ، كيف يحصل فى الإنسان ، سواء أكان عالقاً بالخارج أو المدرك نفسه ، وهو أيضاً من صنع الله الذى هو أدق من مسألة تعلقه بالخارج ، وكلتا الحالتين فى الإنسان — مع عجزه عن معرفة كيفيتهما —

---

(١) وهذه المسألة لا يمكن لعاقل إنكارها فضلاً عن أن يحاول التهرب منها ، بل الصواب أن الضرورة العقلية تلزم المرء قبولها .

(١) وقد بذل مفكروا أهل الإسلام فى بيان هذه الوجودات مجهودات كبيرة ، كما فصلوا بين الوجود فى الأذهان ، والوجود فى الأعيان ، أو الوجود الرابط بين ما فى الأذهان وما فى الأعيان ، راجع على سبيل المثال شرح المواقف للإمام الإيجى الموقف الثانى الأمور العامة ، وكذلك راجع مطالع الأنظار ، ولشيخ الإسلام ابن تيمية درء تعارض العقل النقل .

من أدلة وجود الله الباهرة ، أما حصول الإدراك فى الإنسان فمعترف به فى كل مذهب فلسفى ، إن لم يعترف بأى شئ سواه .[١]

رابعاً : افتقادهم الإمساك بالمبادئ السليمة :

يعتبر الوضعيون أنفسهم ممن يمسك بزمام المنهج العلمى ، ويزكون هذه الفكرة على سبيل الترويج لها ، كما يزعمون أنهم فوق ذلك أصحاب الفلسفة التحليلية ، ولكن هذه المزاعم والدعاوى لا تقوم على أسس أو مبادئ سليمة ، لأنهم لما أوقفوا أنفسهم على إنكار قيمة العاطفة السليمة ، الوجدان النقى ، والعقل الصحيح ، فقد أغرقوا أنفسهم فيما تغرق فيه الجمادات التى تفتقد أبسط القواعد ، والمقومات للشعور بالحياة ، ومثلهم ليس من اليسير التعامل معهم فضلاً عن قبول ما يدعون إليه .

يقول الدكتور / عبد الرحمن طايل : ان أصحاب الوضعية المنطقية قد غلبوا اتجاههم العقلى على كل ناحية ، حتى لو كانت العاطفة التى لا حياة للكائن الحى العاقل بدونها ، وجعلوا الوجدان وليد الحس ، كما جعلوا العواطف أحجاراً صماء ثم تراجعوا بعد فشلهم في اثبات ذلك ، فزعموا أن الميتافيزيقا خيال شاعر ، أو حلم حالم ، فاعترافهم بالخيال والحلم وهما من الأمور الغير محسوسة ، يقضى تماماً على مبادئهم التى أعلنوها وظلوا يدافعون عنها [٢] .

والمعروف أن آفة الرأى الهوى ، ومن ثم فإن الوضعيين لما كانت أهواؤهم هى التى تدير أمورهم ، فقد ألقت بهم هذه الأهواء عند حد إنكار الوجدانيات تارة ، ثم الإمساك بها أخرى ، وهم متأرجحون بين القبول والرفض فى مسألة يتناولونها ، كما هم متأرجحون فى قبول النتائج التى تدلى بها كل من

---

(١) الشيخ مصطفى صبرى ـــ موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين المجلد الثانى ص ٢٧٠ / ٢٧١ مطبعة الإيمان للطباعة والنشر والتوزيع .

(٢)الدكتور / عبد الرحمن بن محمد طايل ـــ الوضعية والمنهج التحليلى ص ٩٣ ط أولى دار صادر بيروت .

الميتافيزيقا التأملية ، والفلسفة العقلية أو المثالية ، ومثلهم يفتقد الأصول السليمة للصحة النفسية ، حيث يقول النفسيون أن التردد المتواصل دليل على انعدام الصحة النفسية لدى ذلك المتردد [١] .

بل ان من ينكر دور العواطف والمشاعر فى تقدم الحياة ، وتحقيق الرفاهية فإنما يهدم قضية أساسية من قضايا الوجود الإنساني نفسه ألا وهي الشعور بأن للعبد رباً خالقاً يراقبه ، وانه إن لم نكن نراه بحواسنا ، فإنا نراه جل علاه فى خلقه لنا وعطفه بنا ، ورحمته التى تشملنا ، وقدرته الكاملة علينا ، وفى الحديث الشريف : أعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

ثم ان العواطف النبيلة تدفع الإنسان للقرب من الله تعالى ، وتسوق العقل إليه سوقاً ، ومتى تعاونت هذه العواطف النبيلة مع المشاعر الراقية ملكتا العبد تملكاً لا يجد لنفسه انفكاكاً بعده ، وبالتالي يقف على عتبات التقوى وقديماً قيل :

إذا المرء لم يلبس ثياباً من التقى ... تقلب عرياناً ولو كان كاسياً

فخير خصال العبد طاعة ربه ... ولا خير فيمن كان لله عاصيا[٢]

يقول الدكتور/ محمود طلبه : لقد أسرف الوضعيون على أنفسهم وغيرهم، لأن إنكارهم الميتافيزيقا أوقعهم فى إنكار الله تعالى وهو الكفر بعينه ، ولو فرقوا بين ما يمكن قبوله ، وما لا يمكن قبوله بناء على سلامة الأدلة ، لكان موقفهم مقبولاً[٣]. بيد أنهم لو فرقوا بين قضايا الغيب وآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه ، أو قبلوا بعضه وتصدوا لإنكار البعض ، ما كان لهم قبول أبداً ، لأن الغيب الذى

---

(١)الدكتورة / أنسى بلاسيوث ــ الطب النفسى ص ٥٧ ترجمة الدكتور محمد حسن فضل الله .

(٢)الشيخ شهاب الدين احمد بن حجازى الفشنى ــ تحفة الإخوان ص ١٢٠ طبعة الحلبى الثانية ١٣٧٢هـ ــ ١٩٥٣م .

(٣)الدكتور / محمود طلبه ــ دراسات فى الفلسفة الحديثة والمعاصرة ص ١٤٧ ط الثانية ١٩٦١ بغداد .

أخبر الله تعالى به ، متى آمن المرء ببعضه ، وكفر بالبعض الآخر، فإنه يكـون كافراً بالكل ، حيث إن الإيمان لا يتجزأ إلا فى الأداء فقط .

كما أن الإيمان يقوم على أجزاء ستة جاء بها الحديث الشـريف هـى أن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ونؤمن بالقدر خيره وشره ، وهـذه الأجـزاء تتكامل فيما بينها ، ولا يمكن التفرقة بينها إلا فى الأداء حين النطق ، أما عنـد الاعتقاد فإنها جميعاً محل الاعتقاد الصحيح ، والكفر ببعضها كفر بها كلها .

وفى تقديرى أن الوضعية المنطقية فى الغرب والشرق على السـواء قـد فشل إتباعها فى إثبات صحة لية دعوى من دعاواهم ،بل على العكس أثبتوا أنهم قد خضعوا لأهواء أنفسهم ، واصطحبوا أفكاراً ضالة حسبوها تهديـهم خـيراً لنفسهم ، أو علو كعب على غيرهم ، فإذا هى ضلال يردى أصحابـه . وفـى الحكم والأمثال : **لا تعجبن الجهول حلته ... فإنه الميت ثوبه كفن .**

فى نفس الوقت فقد أعلنت الوضعية المنطقية خروجها على المنهج العلمـى الذى زعم الوضعيون اعتصامهم به ، كما خرجوا على المنهاج الذى جاءهم بـه الأنبياء والمرسلون ، وأثبتوا أنهم ضالعون فى الإلحاد والكفر بالله رب العـالمين ونبوة خاتم الأنبياء والمرسلين ، وكتاب الله الذى نزل به الروح الأمين ،ولـن ينفعهم سوء العمل الذى زينته لهم شياطينهم خيراً .

قال تعالى : " **وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ** "[1]

من الأمم والأفراد الذين استجابوا للشيطان وهواجسه ، وكانوا على تقليـد الغير يقومون ، من غير أن يكون لهؤلاء الأغيار علم بدين الله ، وإنمـا كـانوا ضالين ، وكما سار الأولون في الضلال ، فقد سارع إليه المقلدون حتى كـانوا

---

(١) سورة الصافات الآية ٧١ ومثل هؤلاء قيل فيهم :

ويريك من طرف اللسان حلاوة ... ويروغ فيك كما يروغ الثعلب

تفسير القرطبى ج ١٥ ص ٩١ .

جميعاً فيه يركضون ، وما كان ذلك إلا من فعل إبليس اللعين حيث يزين الشر خيراً ، ويدفع إلى ممارسته على أنه فعل حسن ، وما هو إلا الضلال المبين .

وقال تعالى : " **أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ** "[1].

قال العلامة البروسوي : أفمن زين له قبيح عمله وتفكيره فظنه جميلاً حسناً، ذلك الذي زين له الكفر من جهة الشيطان فإنهمك فيه ، هل يكون كمن استقبحه واجتنبه واختار الإيمان والعمل الصالح ؟ أم أن صاحب الإيمان والعمل الصالح هو الفائز ، وصاحب الشيطان عليه الخسران .

فان الله يضل من استحسن الضلال وسار فيه ، وصرف اختياره إليه ، ومن ثم فهو يردده إلى أسفل السافلين ، كما أنه سبحانه وتعالى يوفق للهدى من اختار طريقه ، حتى يرفعه الله إلى أعلى عليين [2]، والوضعية بهذا السلوك البعيد عن الصواب لم يبلغوا المنزلة التى كانوا يتطلعون إليها في النفوس ، يستوى في ذلك الغربيون والشرقيون على السواء ، لأن الله بعث سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم للإنس كافة والجن عامة إرسال تكليف إلى جميع المكلفين من الثقلين ، وذلك معلوم من الدين بالضرورة لقوله تعالى : " **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** "[3]. فمن خرج على ذلك ورفض قبول هذا الإرسال فليس من أهل الإيمان .

وهذا الإرسال بالحق الذي لا يمارى فيه ، قد جاء نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن ثم فإن من يكذبه أو يكذب ما جاء به فهو من الخاسرين قال

---

(١) سورة فاطر الآية ٨ .

(٢)العلامة الشيخ اسماعيل حقي البروسوي ــ تنوير الأذهان المجلد الثالث ص ٢٨٥ .

(٣) سورة سبأ الآية ٢٨ .

تعالى : **"إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ"**(١).

لكن الإيمان بالله تعالى رباً يستلزم الإيمان بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم نبياً وخاتماً لكل النبوات والرسالات ، كما يستلزم الإيمان والتصديق بالإسلام ، وأنه الدين الوحيد المقبول عند الله رب العالمين ، فمن أتى بما يخالف ذلك فليس من الله في شئ ، ومن أحال الأشياء إلى بعضها ولم يحلها إلى الله تعالى لم يكن مؤمناً ، ومن نسب العشوائية أو الفوضى إلي الأفعال الإلهية فقد خرج عن شرع الله رب العالمين ، ومن أرجع الكائنات في خلقها إلى الطبيعة ، أو في سيرها إلى بعضها ، أو في العناية بها إلى غير الله ، فليس مؤمناً بالله ، ولا مصدقاً بكتابه ، ولا رسوله ، والوضعيون أقترفوا هذه الآثام ووقعوا في ذات المخالفات، **"اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ "**(٢)



---

(١) سورة فاطر الآيات ٢٤ / ٢٦ .

(٢) سورة المجادلة الآية ١٩ .

الخاتمــة

الخاتمة

من المعلوم أن كل موضوع يحتاج الدراسة ، لابد أن تكون لـــه مقدمـــة تحتوى ابرز الخطط ألتى تتم من خلالها دراسة ذات الموضوع ، ولـــه أوســـاط تتمثل فى الجزئيات المطروحة ، ثم تأتى الخاتمة وهي المعبرة عن أبرز النتـــائج التى أمكن استخلاصها ، من ثم فقد شاع بين الدارسين أن المقدمة العلمية ما هى إلا تلخيص لأبواب وفصول ومباحث الدراسة ذاتها .

بيد أن هذه النتائج التى أمكن الوقوف عليها بخصوص موضوع ــ الوضعية بين المعقول واللامعقول ــ تجئ فى أنماط متعددة ، كما تـــرد فيـــها توجـــهات بخصوصها من هذه النتائج ما يلى :

الأولى : أن الوضعية حاولت إيجاد مكان لها بين الأفكار التي لها وجود تحـــت الشمس ، فلما لم تجده ولم يكن أصحابها على قدم المساواة مع من لـــهم أمكنـــة طبيعية في العلوم والمعارف لجاؤا إلى اغتصاب مكان لهم على ناحية اللغة،التى تؤكد أن الوضع ما هو إلا هيئة الشيء التي يكون عليها [١] .

ومن ثم فالمكان المغتصب هنا هـــو تســـمية هـــؤلاء المتوهميـــن فكريـــاً بالوضعيين ، ووصف العبثيات التى يمارسونها بالوضعية التى تمثل اتجاهاً يقيم المعرفة الإنسانية على الوقائع والتجربة وحدها ، وينظر إلى الميتافيزيقا نظـــرة استنكار لوجودها ، وكما ينكر الميتافيزيقا فإنه ينكر كل الغيبيات [٢]تحت زعـــم أنها لا تدخل فى نطاق الحس ولا التجربة العملية ولا الخبرات الذاتية .

---

(١) المعجم الوجيز باب الواو ص ٦٧٣ بالتسمية بالوضعية على المنطوق اللغوى وحده ، ومثلها كثير فى اللغة وحدها .

(٢) الدكتور / سليمان محمد الأشقر ــ الوضعية ومشكلاتها ص ١٧١ ط ثانية ١٩٥٧ م .

الثانية : ان ظهور الوضعية وتنوعها من وضعية اجتماعية على يد اميـــل دور كايم إلى وضعية طبيعية على يد أوجست كونت ، ثم وضعية منطقية على يـــد ريشنباخ وغيره ، وكل نوع فيها يضرب الآخر ويكيد له ، كما يعمل أتباعه على إفقاد الناس الثقة فيه ، يفضي إلى القول بأن هذه الوضعية بأنواعها المختلفة قـــد حكم أتباعها عليها بأنها صورة من صور الخرافات ، وعلامة مـــن علامـــات التردي في الأوهام ، لأنها حاولت هدم الأسس القائمة دون أن تقدم تبريراً مقبولاً لهذا الهدم بجانب العجز عن وجود بديل مقبول على ناحية صحيحة .

الثالثة : أن عوامل ظهور الوضعية فى أوربا كانت تتمثل فى ظهور قوى جديدة مهمتها الوقوف فى وجه التيار المتطرف داخل الكنيسة ، الذى كـــانت محـــاكم التفتيش من أبرز مظاهره حتى دفعت إلي المغالاة ، وارتكاب حماقـــات باســـم الدين [1]، فظهرت الوضعية لتقابل تطرفاً بآخر وتهدم الكنيسة بـــالمعول الـــذى رفعه الآباء اللاهوتيون من قبل في وجه العلم ، بل وتذبح الاتجاهات الكنســـية باسم العلم .

الرابعة : أن الذين دعوا إليها فى الشرق لم يكونوا على صواب ، إنهم لم يفطنوا إلى أن إقامة مذهب معرفي إنساني على أساس رفض قضايا الغيب يمثل جريمة ترتكب فى حق العلم والدين معاً ، كما يمثل إنتهاكاً صارخـــاً لكـــل البدهيـــات والضروريات ، ومن ثم يفقد وجوده معرفيا ، كما فقده على الناحيـــة الدينيـــة ، ومثله لا يلتفت أحد إليه إلا أن يكون في عقله لوثة ، وفي إيمان كل دخل .

الخامسة : أن موقف الوضعية المنطقية من قضايا الماضي كان موقفاً عدوانيـــاً حيث أعلنت الوضعية المنطقية الحرب عليها جميعاً ، ومع هذا فقد تخاذلت حين رجعت إلى نفس القضايا تلتمس منها إقامة بناء معرفي على ناتج ريـــاضي ، أو

---

(١) راجع في هذا الشأن — أوربا الكنيسة والعصور الوسطى لهاملت جوشيان ص ٣٧ وما بعدها — ترجمـــة هناء يسرى ط بيروت ١٩٦٧ م .

نتاج تمثله جملة من الخبرات الذاتية ، والتجارب الحسية ، وهـي كلـها سـبق الوقوف عليها والحكم فيها ، فإذا كانت الوضعية المنطقية ترفـض الاعـتراف بالماضي كموجود فعلى ، فلماذا اندفعت إليه تأخذ منه وتتمسك به .

السادسة :أن ظهورها فى الشرق يمثل صورة من الانفتاح غير المسؤول ،علـى قضايا فاسدة ، دعت إليها عقول غلبها الانحراف ، وغلفها من كل ناحية ، حتـى غلب أصحابها ، وقلب موازينهم ، فصاروا لا يفرقون بين ما يجب التمسك بـه على ناحية الدين ، وما يجب رفضه على ناحية العلم .

ولو استطاعوا التفرقة الدقيقة بين قضايا العلم الاحتمالية مقدمات ونتـائج، وبين مسائل الدين الإلهي ، وهى يقينية مصادر ومقدمات ونتائج لما غرقوا فـي الأوهام ، وما خاضوا في الأوحال ، بل ربما كانت لهم توجـهات أخـرى ، أو جاءت معهم نتائج فيها شئ من الإيجابية على ناحية من النواحي المعقولة .

السابعة : أن جملة المبادئ التي قامت عليها الوضعية المنطقية لا تمثل قـاعدة عامة يحتكم إليها بقدر ما هي وجهات نظر لبعض الأفراد الذين نسبوا أنفسـهم إليها ، وحاولوا القيام ببعض الأعمال العدوانية من خلال السراب الذى يختبئـون خلفه ، بدليل أنه ما من مبدأ أو أصل من هذه الأصول إلا ويقع الخلاف حـول قبوله من عدمه عدة مرات ، وعلى كافة النواحي والاتجاهات ، كمـا تبـاينت الآراء في الصيغة التي ظهر بها ، وكذلك الصياغة التي أمكن استخدامها فـي التعبير عنه .

الثامنة : أن الوضعيين اعتبروا أنفسهم مكلفين من قبل العقـل بتحريـره مـن الخرافات والأوهام ، ودفعه بعيداً عن الأساطير والمعتقدات الفاسـدة – حسـب تصوراتهم – لكنهم لم يعرفوا بالعقل الذي يريدون تحريره ، هـل هـو عقـل محسوس أيضاً بحيث يخضع للملاحظة والتجربة الحسية ، أم غير محسوس فلا

يمكن الحكم عليه بأنه موجود ، طبقاً لقضيتهم الأساسية القائمة على إنكار وجود ما وراء الحس ، وهذا يؤكد تناقضهم مع المبادئ الأولى التي قعدوها لأنفسهم .

ثم إنهم يزعمون سعيهم نحو الحقيقة المعرفية ، ومع ذلك فهم يهدمون أهـم أركان المعرفة الإنسانية ، وبخاصة التى تقوم على الإلهام اللدنى ، والحدسـي بجانب النقل المنزل ، ولا يعترفون إلا بما كان مصدره الحس أو العقـل الـذي تخضع نتائجه لإجراء التجارب عليها ، أو الاحتكام للخبرة الذاتية بشأنها، ومـن ثم فأنهم هدموا الأسس القائمة ، بغرض بناء أوهام ، لا مكان لها فـى العقـول الصحيحة ، أو الأفهام السليمة أبداً .

التاسعة : أن الوضعية المنطقية على وجه الخصوص قد خانها التوفيق فى كـل ما تعرضوا إليه ، بل ان النتائج التى سعوا إليها ترتكز على تخريب القيم الثابتة تم تفريغها من كل محتوى صحيح ، ثم تدمير المعارف الإنسانية ، بجانب الشك فى كل ما هو قائم ، ومن ثم تتحول الحقائق معهم إلى سلسلة مـن الأوهـام ، والثوابت إلى مهترءات ، مما يؤكد أنهم فى هذه الأعمال ليسوا سوى مجموعـة من المخربين للعقول والأفهام .

إنهم أشبه بمن يحاول نزع شجرة مثمرة مـن أرض طيبـة ، والشـجرة المثمرة مفضلة الأكل ، وارفة الظلال ليغرس بدلاً منها شجرة الزقوم، طعـام الأثيم ، فلا تظل أحداً ، ولا تدفع عن مار بها حراً أو برداً ، كما لا يحصل مـن يقترب منها إلا على الآلام المبرحة قـال تعـالى :" **وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ** "[1] وقـال تعـالى: " **مَّثَلُ الَّذِينَ**

(١) سورة النور الآية ٣٩ .

كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ " (١)

العاشرة :أن موقفهم من الميتافيزيقا كان موقفاً متخاذلاً ، يدل على عقلية عجزت عن استيعاب الوقائع الصحيحة ، وخرجت من نطاق التأمل الفكري والحوار العلمي ، إلى لغة القدح واستعمال الألفاظ التي لا تقدم أي لون معرفي بقدر ما تهدف إلى القفز فوق الثوابت القائمة على النقل المنزل .

إذ المعروف أن المثبت مقدم على من ينفي ، فإنكار الميتافيزيقا معناه أنهم درسوها دراسة واعية ، ثم حكموا بعد دراستها بأنها غير موجودة ، وهذا في حد ذاته التناقض بعينه ، إذ لو كانت غير موجودة ما درست ،لكن ما داموا قد أمكنهم استدراكها والتعرف عليها ، ودراسة موضوعاتها ، فإنها تكون موجودة على الأقل فى الجانب الدراسي ، وهذا من شأنه أن يؤدي إلي معرفتها وأن يعلن الإقرار بوجودها ، فدعوى أنها غير موجودة لا معنى لها ، بل هذه الدعوى وأمثالها مما لا قيمة له .

الحادية عشر :أن تفرقتهم بين الميتافيزيقا التأملية والأخرى النقدية ثم التمسك بالثانية ، وإنكار الأولى ، يؤكد أنهم لم يكونوا مخلصين للبحث العلمي الذي أعلنوا تمسكهم به ، كما لم يكونوا على قدر من الموضوعية أثناء الدراسة التي قاموا بها ، فضلاً عن الأحكام التي ظنوها مقبولة ، وهذا ينتهي إلي القول بأن الوضعية لم تكن معقولة ، كما أن قضاياها لم تكن هي الأخرى على قدر يسمح بقبولها ، أو القول بأنها معقولة .

في نفس الوقت فإن المنهج الذي تقوم عليه الوضعية المنطقية لا يخرج عن كونه صورة من صور البحث العقلي ، الذي دعت إليه الأبحاث العلمية ، التي استفادت منها الوضعية على ناحية من النواحي ، ثم إنها في الموضوعات التي

(١) سورة إبراهيم الآية ١٨ .

تعالجها إنما تعني بالظواهر الطبيعية فقط ، وبالتالي لا تكـــون المعرفـــة التـــي تدعيها متكاملة ، وإنما تكون معرفة ناقصة ، كما أن نتائجها فى الأبحاث العلمية تقوم على التجربة الطبيعية ، ومن ثم فهي احتمالية ولا مكـــان فيـــها لليقيـــن ، ومثلها لا يقدم نفعاً .

ومن الغريب أنهم وقفوا من السببية موقفاً غريباً إنتهى بـــهم إلـــي رفـــض وجود سنن الله الكونية ، فتحولت الأمور معهم إلى نوع من الفوضـــى التـــي لا يقبل القول بها إنسان طبيعي ، فما بالهم نسبوها للفعل الإلهي تعـــالى الله عـــن قولهم علواً كبيرا ، وبناء عليه فإن الوضعية المنطقية غير معقولة .

وبعـــــد :

فها أنذا عزيزي القارئ الكريم ، قد حاولت السباحة معك فى بحـــر هـــادر الأمواج ، ورغم ما أنا فيه من ظروف صحية امتدت قرابة خمس سنوات فقـــد كنت حريصاً على الغوص معك إلى الأعماق حتى استكشفها ، ثم أحوال الطفـــو إلى السطح ، بغية أن يرى الآخرون ، ما أعانني الله بفضله حتى وقفت عليه .

بيد أنني لم أتناول موقف الوضعية من الدين والأخلاق ، والجوانب الأخـرى التي تتعلق بالقيم ، ومن ثم فإني على وعد معك في استكمال هذه الجوانـب ، إن أمد الله فى العمر ويسر في الأسباب . والله ذو الفضل العظيم .

الدكتور

محمد حسيني موسى محمد الغزالي

المصــــادر

((المصـــــادر))

أولاً : القرآن الكريم وعلومه :

١ ــ القرآن الكريـــــم .
٢ ــ تفسير القرآن العظيم ــ الإمام أبن كثير .
٣ ــ الجامع لأحكام القرآن ــ للإمام القرطبى .
٤ ــ جامع البيـــان ــ للشيخ الطبرى .
٥ ــ روح البيـــان ــ العلامة البروسوى .
٦ ــ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل للعلامة الزمخشرى
٧ــ إرشاد العقل السليم إلي مزايا القرآن الكريم ــ للإمام أبي السعود .
٨ ــ البحر المحيط وبهامشه النهر الماد ــ الشيخ أبو حيان التوحيدي .
٩ ــ صفوة التفاسير ــ الشيخ محمد على الصابوني .
١٠ ــ تفسير الإمام البيضاوى .
١١ ــ تفسير الإمام الخازن .
١٢ ــ تفسير الجلالين .
١٣ ــ تفسير سورة الكهف ــ مطبعة نور الهدى ١٩٦٧م .
١٤ ــ القرآن الكريم وقراءاته ــ للشيخ محسن محمد عبد اللطيف ــ المطبعة الأميرية بالقاهرة .
١٥ ــ البيان في عدد آي القرآن ــ الإمام أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني مخطوط بدار الكتب .
١٦ ــ القرآن الكريم آياته وكلماته وقراءاته ــ الشيخ منصور محمد منصور
١٧ ــ مباحث فى علوم القرآن ــ للشيخ مناع القطان ط دارالمعارف بالرياض

١٨ ــ قراءات القرآن ــ للشيخ محمد عبد العظيم الدكروري .

١٩ ــ لطائف الإشارات بفنون القراءات ــ للشيخ شهاب الدين القسطلاني.

٢٠ ــ البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة ــ للشيخ عبد الفتاح القاضي .

٢١ ــ جمال القراء وكمال الإقراء أ للشيخ السخاوى ــ مخطوطة .

٢٢ ــ الوحي القرآنى ــ الشيخ محمد حسن الطنطاوى ــ دارالميمنة ١٣٣١هــ

٢٣ ــ الإتقان في علوم القرآن ــ الإمام جلال الدين السيوطى .

٢٤ ــ البيان في إعجاز القرآن ــ الإمام جلال الدين السيوطي .

٢٥ ــ أحكام القرآن ــ للإمام الجصاص .

٢٦ ــ الدر المصون في علوم القرآن المكنون ــ للإمام محمد على يوسف ــ المعروف بالسمين .

٢٧ ــ إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر ــ تحقيق الدكتور / محمود شعبان محمد إسماعيل .

٢٨ ــ النشر في القراءات العشرــ للإمام ابن الجذري ــ المكتبة العلمية بيروت

٢٩ ــ طيبة النشر في القراءات العشر ــ للإمام ابن الجذرى .

٣٠ ــ حرز الأماني ووجه التهاني في القراءات السبع ــ للإمام الشاطبي وهي المعروفة بالشاطبية .

٣١ ــ نظرات في سورة الكهف ــ للشيخ نجدى الشافعى ط أولى ١٩٣٥م .

٣٢ ــ منتخب قرة العيون النواظر في الوجوه والنظائر في القرآن الكريم ــ للشيخ ابن الجوزي تحقيق أحمد السيد الصفطاوى وآخر .

٣٣ ــ تفسير سورة البروج ــ للشيخ محمود عبد العظيم البسيوني .

٣٤ ــ تفسير سورة الإسراء ــ للشيخ محمد عبد العظيم البنهاوى ط أول ١٩٤٥

٣٥ ــ دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب ــ الشيخ محمد الأمين الشنقيطى

ثانيا: السنة النبوية المطهرة وعلومها :

٣٦ ــ صحيح الإمام البخاري ــ النسخة المشكولة .

٣٧ ــ صحيح الإمام مســلم بشرح النووي .

٣٨ ــ فتح الباري شرح صحيح البخاري للإمام ابن حجر العسقلاني .

٣٩ ــ مسند الإمام أحمد .

٤٠ ــ سنن الإمام البيهقى .

٤١ ــ شرح الفشنى على الأربعين ــ للعلامة الفشني .

٤٢ ــ نظرات في السنة للشيخ محمد علي كفافي .

٤٣ ــ التاج الجامع للأصول من أحاديث الرسول ــ للشيخ حفنى ناصف .

٤٤ ــ قبس من أنوار السنة ــ للشيخ محمد على أبو سلامة .

٤٥ ــ سنن الترمذى ــ الإمام الترمذى .

٤٦ ــ من هدى السنة ــ الشيخ محمد سالم عبد القوي ط أولى ١٩٤٥م .

٤٧ ــ رجال صحيح مسلم ــ العلامة أحمد بن على بن منجويه ط دار المعرفة بيروت .

٤٨ ــ تقريب التهذيب ــ للإمام أحمد بن حجر العسقلانى ط دار الرشيد بسوريا

٤٩ ــ تهذيب التهذيب ــ للإمام أحمد بن حجر العسقلانى ط دار الفكر ببيروت ١٤٠٤هـ ١٩٨٥م .

٥٠ ــ جامع البيان لما اتفق عليه الشيخان ــ الشيخ محمد زكى الدين أبو القاسم طبعة دار الصفوة بالغردقة .

ثالثاً : المعاجم العربية والرسائل الجامعية :

٥١ ــ أساس البلاغة ــ للعلامة الزمخشري .

٥٢ ــ قطر المحيط ــ المعلم بطرس البستاني .

٥٣ ــ معجم مقاييس اللغة ــ للعلامة ابن فارس .

٥٤ — القاموس المحيط — للعلامة مجد الدين النيروزابادى .

٥٥ — المعجم الفلسفى — الدكتور / مراد وهبة .

٥٦ — المعجم الفلسفى — الدكتور / عبد المنعم الحفنى .

٥٧ — لسان العرب — الإمام ابن منظور .

٥٨ — الموسوعة الفلسفية المختصرة — فؤاد كامل وزميلاه .

٥٩ — المعجم الوجيز — طبعة وزارة التربية والتعليم .

٦٠ — مشكلة المعرفة بين الصوفية والوضعية في الدراسات المصرية المعاصرة دكتورة / نادرة حسن عبد الجواد دكتوراه بكلية البنات الإسلامية بالقاهرة ٢٠٠٣م .

٦١ — التوقيف على مهمات التعاريف — الشيخ عبد الرؤوف المناوى تحقيق الدكتور / محمد رضوان الداية ط دار الفكر بيروت .

٦٢ — موسوعة الفلسفة — الدكتور / عبد الرحمن بدوي .

رابعا : المصادر والمراجع العامة :

المصادر العامة مرتبة حسب حروف الهجاء بعد تقديم اسم الشهرة للمؤلف وتجريده من حرف أل إن وجد ، ثم اللقب العلمي أوالأدبي ، ثم الاسم والكتاب والطبعة ، وتاريخ الطبع إن وجد .

(حرف الألف)

• **أبو طويلة - الشيخ محمد نصر الدين**

٦٣ — المنطق الصورى — المطبعة الأميرية ١٩٣٨م .

• **أبو شناف - الشيخ محمد السيد ,**

٦٤ — الألفاظ والمعانى ط الدار الميمنية ١٣٣١هـ .

• **الأشقر - الدكتور / مصباح محمد على .**

٦٥ — النظرات في حديث التيارات طبعة الدار الجديدة ١٩٨٧م .

• **الأشموني - الشيخ عبد الحميد محمد حسن .**

٦٦ ــ دلائل التوحيد ــ مطبعة الصفاء ١٩٥٧م .

• **اندرسون - أ . ج**

٦٧ ــ الوضعية المذهب الفلسفي ــ ترجمة نادر رضوان ١٩٧١م

• **انجرمان - أ . ب . توماس**

٦٨ ــ ثوليك وآراؤه ــ ترجمة الأستاذ / صبحى أسكندر ١٩٥١م .

• **أبو شامة - الشيخ حسن محمد**

٦٩ ــ مذكرات في المنطق الصوري ط ١٣٣٧هـ .

• **أبو عودة - الشيخ نصر الدين عبد العليم**

٧٠ ــ الإمهال والإهمال في لغة العرب - المطبعة الميمنية ١٣١٩هـ .

• **ارونشتاين - روبرت وزميلة**

٧١ ــ عقل جديد لعالم جديد ــ ترجمة دكتور أحمد مستجير ــ الهيئة المصرية

• **إسلام - الدكتور عزمى**

٧٢ ــ اتجاهات في الفلسفة المعاصرة ــ ط الكويت وكالة المطبوعات ١٩٩٨م .

• **إبراهيم - الدكتور زكريا**

٧٣ ــ دراسات في الفلسفة المعاصرة ــ مكتبة مصر .

• **أبو تفاحة - الدكتور عبد العظيم محمد**

٧٤ ــ المسيحية قضايا ومشكلات ــ طبعة أولي ١٩٧٥م .

• **إبراهيم - الدكتور صلاح عبد العليم .**

٧٥ ــ دراسات في الفلسفة ــ طبعة أولى ١٩٨١م .

• **أسعد - الدكتور سامي محمد**

٧٦ ــ مناهج البحث العلمي ــ الطبعة الثانية ١٩٧٣م .

- **ابن باجة - الفيلسوف الأندلسي .**

٧٧ ــ تدبير المتوحد.تحقيق الدكتور معن زيادة ط دار الفكر الإسلامي بيروت

- **ابن الدباغ - الشيخ عبد الرحمن بن محمد الأنصاري .**

٧٨ ــ مشارق أنوار القلوب ومفاتيح أسرار الغيوب .تحقيق ريتر ط دار صادر

- **أبو طاحون - الدكتور محمد السيد .**

٧٩ ــ مشكلات الوضعية المنطقية ــ الطبعة الثانية ١٩٧١م .

- **ابن الهمام - العلامة كمال الدين بن أبي شريف**

٨٠ ــ المسامرة بشرح المسايرة . مطبعة السعادة .

- **أحمد - الدكتور عاطف .**

٨١ ــ نقد العقل الوضعي تقديم إبراهيم فتحي دار الطليعة ــ بيروت الطبعة الأولى ١٩٨٠م .

- **أبو ريان - الدكتور محمد على .**

٨٢ ــ الفلسفة ومباحثها .

- **الأشعرى - الإمام أبو الحسن**

٨٣ ــ مقالات الإسلاميين . تحقيق الشيخ محمد محى الدين عبد الحميد .

<u>(حرف البـــــاء)</u>

- **بارتمي - أ . ب**

٨٤ ــ الوضعية في مراحلها الأولى . ترجمة رمزي صبحي ط ١٩٦٧م

- **البهي - الدكتور محمد**

٨٥ ــ الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي مكتبة وهبه القاهرة

٨٦ ــ الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر ــ مشكلات الحكم والتوجيه ــ الدار القومية ١٩٦٥م .

• **بدوي - الدكتور محسن السيد**

٨٧ ــ الإنسان والآلة ورحلة التطور ــ مطبعة مراد ١٩٦١م .

• **البنغالى - الشيخ محمد بن علي**

٨٨ ــ الإسلام وبناء المجتمع ــ الدار الميمنية ١٣٣٧هـ .

• **باتيسوتا - أ . ب**

٨٩ ــ الأنا والهو ــ ترجمة حنان راشد .

• **باتوهان - أ . ج**

٩٠ ــ العقائد اللاهوتية والنصوص الكتابية ــ ترجمة وفاء زهدى طبعة الدار الحديثة ١٩٧٤م .

• **البنهاوي - الشيخ عبد العظيم عباس**

٩١ ــ أوربا والكتاب المقدس ــ طبعة دار مراد ١٩٤٦م .

• **بدوى - الدكتور البدري محمد .**

٩٢ ــ الفلسفة الحديثة ــ طبعة أولى ١٩٥٧م .

• **بدري - الدكتور الحسين محمد**

٩٣ ــ المنهج العلمي ــ الطبعة الأولى ١٩٦٧م .

• **البهنساوى . المستشار محمد حليم**

٩٤ ــ الحرية بين النص القانوني والشرع الإلهي ــ ط دار منشاه الأسكندرية ١٩٧١م .

• **بنسيون - أ . ج روبرت**

٩٥ ــ الاتجاه الوضعي ــ ترجمة دكتور/ صلاح فضل ط الحرية ١٩٧٧م

• **بانتيبوم - أ . ب**

٩٦ ــ القدرات العقلية والفروق الفردية ــ ترجمة الدكتور / عبد العزيز عطية ــ بيروت ١٩٨٠م .

• **بوشنسكى -**

٩٧ ــ الفلسفة المعاصرة في أوربا ــ ترجمة الدكتور / عزت قرني ــ سلسلة المعرفة ــ العدد ١٦٥ ١٩٩٢م .

• **بيومي - الدكتور عبد المعطي محمد**

٩٨ ــ جذور الفكر المادى .

(حرف التـــاء)

• **توفيق - الدكتورة تهاني محمد**

٩٩ ــ فلسفة عصر النهضة ــ الطبعة الثانية ١٩٨٧م .

• **توفيق - الدكتور حسن محمد**

١٠٠ ــ أعلام الفلسفة الحديثة ــ ط المكتبة العلمية ١٩٧٩م .

• **توكاريف - أ . سيرغي**

١٠١ ــ الأديان في تاريخ شعوب العالم ــ ترجمة دكتور / أحمد فاضل مكتبة الغزالي بسوريا ١٩٩٨م .

• **توفيق - الدكتور رفعت محمد**

١٠٢ ــ الإنسان في المفهوم الوضعي ــ طبعة بيروت ١٩٨٣م .

(حرف الثـــاء)

• **ثورك - جورج هايد**

١٠٣ ــ الوضعية الأصول والغايات ــ ترجمة رمزى صبحى ١٩٦٩م .

• **الثروى - الأستاذ محمد عبد العظيم .**

١٠٤ ــ مسيحية الأناجيل ــ طبعة أولى ١٩٥٧م .

(حرف الجيـــم)

• **الجندي - الأستاذ / أنور**

١٠٥ ــ موسوعة مقدمات العلوم والمناهج ــ طبعة دار الأنصار .

• **جمعة - الشيخ محمد نصر الدين**

١٠٦ ــ المنطق وقوانين الفكر ــ طبعة دار المعرفة ١٩٥٧ م

• **جبر - الدكتورة وفاء صبري**

١٠٧ ــ معالم العصور الوسطى ــ طبعة دار الأمير ــ مراكش ١٩٥٧م

• **الجمل - الدكتور أحمد عبده حموده**

١٠٨ ــ نظرات في الفلسفة الحديثة ــ دار الطباعة المحمدية ط أولى ١٤١١هـ

(حرف الحـــاء)

• **الحنبلي - الشيخ على بن محمد**

١٠٩ ــ نظرات في فقه اللغة ــ طبعة أولى ١٣٣١هـ

• **حسانين - الدكتور فؤاد**

١١٠ ــ الفروق الفردية والأنماط الفكرية ط دار الفؤاد ١٩٨٢م .

• **حسين - الدكتورة نازلى اسماعيل**

١١١ ــ فلسفة الحضارة ط مكتبة سعيد رأفت ١٩٨٢م .

• **حبشي - الدكتور عبد الباسط محمود**

١١٢ ــ دراسات في اليهودية والمسيحية ط دار الريحان ١٩٦٤م .

(حرف الخـــاء)

• **الخولى - الدكتورة يمنى طريف**

١١٣ ــ ما هي الوضعية ــ مقال الكتاب التذكاري زكى نجيب محمود فيلسوفاً وأديباً ، ومعلماً .

١١٤ ــ فلسفة العلم في القرن العشرين .

• **خير الله - الدكتور أبو المجد عز الدين**

١١٥ ــ العقائد المسيحية الطبعة الثالثة ١٩٧٦م .

• **الخالدي - الدكتور عبد العظيم محمد**

١١٦ ــ الماركسية اتجاهات وتشابكات ــ ط أولى ــ مراكش ١٩٥٧م .

(حرف الــــدال)

• **الدياسطى - الشيخ محمد على**

١١٧ ــ الغرور العقلي طبعة الدار الميمنية ١٣٤٥هــ

• **درويش - الدكتور ناصر عبد الله**

١١٨ ــ نظرات في الفلسفة الحديثة ــ ط الدار الحديثة ١٩٧١م .

• **درويش - الشيخ درويش عبد العاطي**

١١٩ ــ مصر والشرق ــ المطبعة الأميرية ١٣٢٥هــ .

• **دويدار - الشيخ محمد عبد العظيم**

١٢٠ ــ الدين والفلسفة ــ الطبعة الثانية ١٩٥٩م .

• **ديوي - جون**

١٢١ ــ المنطق ونظرية البحث ــ ترجمة الدكتور/ زكى نجيب محمود طبعة دار المعارف ــ القاهرة .

• **داود - الدكتور حسن محمد**

١٢٢ ــ أعلام الفلسفة الحديثة ط الدار الجديدة ١٩٥١م .

• **دنيا - الدكتور سليمان**

١٢٣ ــ التفكير الفلسفي الإسلامي ــ مطبعة الخانجى بالقاهرة ١٩٦٧م .

(حرف الـــــراء)

• **رسلان - الشيخ محمد علي**

١٢٤ ــ النبوة والأنبياء ــ الدار الميمنية ١٣١٥هــ

• **رزق - الدكتور فوزي محمد**

١٢٥ ــ الإلحاد المعاصر أسبابه وغاياته ــ الطبعة الثانية ١٩٨٧م .

• رضوان - الشيخ محمد عبد الرحيم

١٢٦ ــ قصص الأنبياء ــ آدم عليه السلام ــ طبعة ١٣١٥هــ

• راوتر - جوزيف

١٢٧ ــ أصول الحضارة الغربية ــ ترجمة ناصر العقده ١٩٤٥م .

• رمضان - الدكتور احمد السيد على

١٢٨ ــ المدخل إلى دراسة الفلسفة المعاصرة ــ ط الدار الإسلامية ١٩٤٢م

• رسلان - الشيخ محمود عبد العظيم

١٢٩ ــ نعيم القبر وعذابه ــ الطبعة الأولى ١٣١٥هــ .

(حرف الــــزاى)

• زكريا - الدكتور عبد الله السيد حسن

١٣٠ ــ أوربا والعصور الوسطى ط الدار الجديدة ١٩٦١م .

• زاهر - الدكتور محمد السيد

١٣١ ــ الأدب والعقائد والمسرح في أوربا ــ مكتبة الأسد

• زكى - الدكتور أحمد عبد العظيم

١٣٢ ــ أثر الديانات المصرية في المسيحية ــ ط ثانية ١٩٦١م .

• زقزوق - الدكتور محمود حمدى

١٣٣ ــ دراسات في الفلسفة الحديثة.ط دار الطباعة المحمدية بالقاهرة ١٩٨٥م

• زكى - الدكتور على عبد العظيم

١٣٤ ــ نظرات في الفكر الوضعى ــ منشاة الإسكندرية ١٩٦٧م .

(حرف الســين)

• سانت هلير - بارتلمى

١٣٥ ــ محمد والقرآن ــ ترجمة هدى عبد العظيم

• **السلاب - الدكتور محمد السيد**

١٣٦ ـ الوضعية والفكر الفلسفي ط أولى ١٩٦١م

• **سارتر - جان بول .**

١٣٧ ـ نظرية في الانفعالات ـ ترجمة دكتور سامي محمود على ، دكتور عبد السلام النحاس المطبعة المصرية ٢٠٠١م .

• **سعيد - الشيخ على عبد العظيم**

١٣٨ ـ الخلفاء الراشدون ط أولى ١٩٤٧م .

• **السنطاوي - الشيخ محمد عبد المعز**

١٣٩ ـ النبوة والأنبيـــاء الطبعة الثانية ١٣١٥هـ .

• **السوهاجى - الشيخ محمد السيد نصر الدين**

١٤٠ ـ المنطق القديم ط دار الهداية ١٩٥٧م تحقيق الشيخ علي السيد

• **السيوطى - العلامة جلال الدين**

١٤١ ـ حسن المحاضرة بأخبار مصر والقاهرة .

(حرف الشين)

• **شوكت - الدكتور محمد علي الدين**

١٤٢ ـ الفلسفة الحديثة وأعلامها ـ ط أولى ١٩٥٧م

• **الشهاوى - الدكتور فوزى عبد الحليم**

١٤٣ ـ أثر محاكم التفتيش في التاريخ الأوربى ـ ط أولى ١٩٤٦م .

• **الشورى - الدكتور فوزى محمد حسن**

١٤٤ ـ الوضعية الشرقية ـ طبعة دار الهدى ١٩٨٥م .

• **الشافعى - الشيخ محمد نووى**

١٤٥ ـ نور الظلام شرح منظومة عقيدة العوام ـ ط الحلبى ١٩٥٥م

• **شنيدر - هربرت**

١٤٦ ــ تاريخ الفلسفة الأمريكية ترجمة دكتور محمد فتحى الشنيطى مكتبة النهضة المصرية ــ بالقاهرة .

• **شعبان - الدكتور السيد محمد**

١٤٧ ــ الفلسفة الحديثة والمعاصرة ــ طبعة القاهرة ١٩٧١ م .

(حرف الصــاد)

• **صبرى - الشيخ محمد على**

١٤٨ ــ الاتجاهات الحديثة في فهم العقيدة الصحيحة ــ دار الهدى ١٩٤٧م

• **صبحى - الدكتور السيد حسن**

١٤٩ ــ الاستغراب وجذوره ــ طبعة دار مراد ١٩٥١م .

• **صبرى - الدكتور فوزى محمد**

١٥٠ ــ الفلسفة الأبيقورية ــ ط أولى ١٩٧١م .

• **صبرى - الدكتور فايز عبد البديع**

١٥١ ــ الوضعية وقضية العلم ــ ط ثانية ١٩٥٧م .

• **صبرى - الدكتورة ناهد محمد**

١٥٢ ــ الوضعية قديماً وحديثاً ــ ط الكرنك بالمغرب ١٩٨٥م .

• **صبحى - الدكتورة ناهد محمد**

١٥٣ ــ الشخصانية العيوب والميزات ــ ط أولى ١٩٩١م .

• **الصغير - الدكتور فوزى محمد**

١٥٤ ــ أوربا والنهضة العلمية ــ ط أولى ١٩٧١م .

• **صابر - الدكتور سامح محمد**

١٥٥ ــ الوضعية في الإطار الفلسفي ــ دار منشاة الحرية ١٩٨٥ م

• صبرى - الدكتور محمد السيد

١٥٦ ــ الوضعية في مراحلها الأولى ــ ط أولى ١٩٥٧م .

(حرف الضـــاد)

• الضبع - الدكتور محمد حسن

١٥٧ ــ أثر التقدم العلمى على دراسة الكتاب المقدس ــ ط أولى ١٩٤٥م .

(حرف الطاء)

• الطويل - الدكتور توفيق

١٥٨ ــ قصة الصراع بين الدين والفلسفة .

١٥٩ ــ قضايا من رحاب الفلسفة والعلم ــ ط دار النهضة ١٩٨٦م .

١٦٠ ــ أسس الفلسفة ــ مكتبة النهضة .

• الطويل - الدكتورة ناهد محمد

١٦١ ــ الأنا والآخر دراسة سيكولوجية ــ ط أولى بالقاهرة ١٩٩١م

• طلبه - الدكتور فوزى حسن

١٦٢ ــ مسيحية العصور الوسطى ــ ط أولى ١٩٥٧م .

• طه - الدكتور صبحى محمد

١٦٣ ــ أثر المؤتمرات والمجامع في المسيحية ــ ط ثانية ١٩٥٧م

• الطنطاوى - الدكتور زهدى عتمان

١٦٤ ــ دراسات في الكتب المقدسة ــ مطبعة زهران ١٩٧١م .

• طلبة - الأستاذ محمد حسن السيد

١٦٥ ــ الاستغراب مقدمات ونتائج ــ ط دار التقوى ١٩٨٧م .

• طه - الدكتور عبد العاطى محمد

١٦٦ ــ معالم الحضارة الإسلامية ــ ط دار توفيق بالفيوم ١٩٥٧م .

• طلبه - الدكتور فوزى محمد

١٦٧ ــ الاتجاهات العامة في الفلسفة المعاصرة ــ الدار القومية ١٩٧١م

• طلبه - الدكتور محمد على

١٦٨ ــ الفلسفة الإسلامية ــ ط أولى ١٩٦١م .

(حرف الظاء)

• الظريف - الدكتور محمد حسن

١٦٩ ــ الفروق الفردية والنتائج العلمية ــ دار منشأة المعارف .

• ظريف - الدكتور السيد عبد الكريم

١٧٠ ــ فرنسيس بيكون وفلسفته ــ ط أولى ١٩٥٧م .

(حرف العين)

• على - الدكتور ماهر عبد القادر

١٧١ ــ خرافة الوضعية المنطقية ــ ط دار المعرفة الجامعية ١٩٩٣م

• عنان - الشيخ محمد عبد العظيم

١٧٢ ــ الإمام الغزالي وتوجهاته الفكرية ــ ط أولى ١٣٥٧هـ .

• عطا الله - الدكتور عبد الوهاب محمد

١٧٣ ــ أثر المؤتمرات والمجامع في المسيحية ــ ط دار الهدى ١٩٨٣م .

• عطا الله - الدكتور فوزى السيد

١٧٤ ــ من ضحايا العصور الوسطى ــ ط دار المنار ١٩٧١م .

• عبد الصمد - الدكتور محسن محمد

١٧٥ ــ دراسات في المسيحية ــ ط ثانية ١٩٦١م .

• العقاد - الأستاذ عباس محمود

١٧٦ ــ عقائد المفكرين في القرن العشرين ــ ط مكتبة غريب بمصر

١٧٧ ــ حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ــ ط الهيئة المصرية ١٩٩٩م .

• **العطار - الشيخ محمود عبد الله**

١٧٨ ــ الوضعية والإسلام ــ ط دار الهدى ١٩٤٤م .

• **القعيد - الدكتور يوسف السيد**

١٧٩ ــ الكتاب المقدس بين المؤلفين والشراح ــ ط الأسد ١٩٧٢م .

• **عبد العظيم - الدكتور فوزى محمد**

١٨٠ ــ الاستعمار أساليبه وأشكاله ــ ط أولى ١٩٥١م .

• **عبد اللطيف - الشيخ محمد حسن**

١٨١ ــ الشرق والوحى ــ ط أولى الدار الجديدة ١٩٤٧م .

• **عبد العظيم - الشيخ محمد على**

١٨٢ ــ النبوة والأنبياء ــ مطبعة المهدى ١٩٤٧ م

• **عاشور - الدكتور سعيد عبد الفتاح**

١٨٣ ــ أوربا والعصور الوسطى ــ مطبعة الأنجلو المصرية ١٩٨٦م .

• **عثمان - الدكتور محمود عبد الحكيم**

١٨٤ ــ الفكر المادى الحديث وموقف الإسلام منه ط الأنجلو

• **العجمى - الدكتور أحمد محمد**

١٨٥ ــ النفس الإنسانية وأمراضها ــ ط دار فؤاد ١٩٨٧م .

(حرف الغين)

• **الغزالى - حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد**

١٨٦ ــ ميزان العمل ضمن مجموعة رسائل الإمام الغزالى ــ ط دار الفكر وطبعة الجندى ضمن القصور العوالى .

١٨٧ ــ الاقتصاد في الاعتقاد ــ مطبعة محمد على صبيح .

• **غلاب - الدكتور محمد**

١٨٨ ــ نظرية المعرفة عند مفكرى المسلمين .

(حرف الفـــاء)

- **فليفل - الدكتور حسن محمد**

١٨٩ ـــ العلم ومشكلات التنمية ـــ ط دار الهدى ١٩٨٥م .

- **فخرى - الدكتور يسرى محمد**

١٩٠ ـــ الوضعية للأديان ـــ ط أولى ١٩٧٥م .

- **الفارابى - أبو نصر**

١٩١ ـــ إحصاء العلوم .

- **فضل الله - الشيخ محمد لطفى**

١٩٢ ـــ أساسيات العقيدة ـــ ط أولى ١٣٣٧هـــ .

(حرف القاف)

- **قنصوه - الدكتور صلاح**

١٩٣ ـــ الموضوعية في العلوم الإنسانية ـــ ط القاهرة دار الثقافة ١٩٨٠م

- **قطب - الدكتور رمزى حسن**

١٩٤ ـــ التيارات الهدامة ـــ ط المهتدى الأولى ١٩٦١م .

- **قطب - الدكتور صالح عبد العظيم**

١٩٥ ـــ الدين والعلم دراسة مقارنة ـــ ط أولى ١٩٦١م .

- قناوى - الدكتور السيد

١٩٦ ـــ السببية في العالم ـــ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٨م .

(حرف الكاف)

- **كالستر - ف . ج . ماك**

١٩٧ ـــ نشأة الحرية في التربية ـــ ترجمة أمين مرسي قنديل .

- **كراوثر - أ . ب**

١٩٨ ـــ الرياضة الدالات والمفاهيم ـــ ترجمة السيد صبحى ١٩٥٧م .

• **كوربان - هنرى**

١٩٩ ــ تاريخ الفلسفة الإسلامية ــ ط بيروت .

(حرف اللام)

• **لفجوى - ارثر**

٢٠٠ ــ سلسلة الوجود الكبرى ط دار الكتاب العربى ترجمة ماجد فخرى .

• **لويون - جوستاف**

٢٠١ ــ حضارة العرب ــ ترجمة عادل زعيتر .

• **ليليان - جوليس هيج**

٢٠٢ ــ الوضعية ثمرة الكفاح العلمى ترجمة رضا اسكندر ط ١٩٥٧م .

• **ليوتاكسيل**

٢٠٣ ــ التورات كتاب مقدس أم جمع من الأساطير. ترجمة د/ حسان ميخائيل

• **لويس - جون**

٢٠٤ ــ مدخل إلى الفلسفة ترجمة أنور عبد الملك ــ ط الثالثة بيروت .

(حرف الميم)

• **محمود - الدكتور زكى نجيب**

٢٠٥ ــ حياة الفكر في العالم الجديد ــ ط الثالثة الشروق ١٤٠٨هــ ١٩٨٧م .

٢٠٦ ــ المنطق الوضعى ــ ط دار النهضة .

٢٠٧ ــ مقدمة لكتاب الإحساس بالجمال لجورج سانتيانا

٢٠٨ ــ نحو فلسفة علمية ــ مطبعة الأنجلو الطبعة الأولى ١٩٥٨م

٢٠٩ ــ نافذة على فلسفة العصر ــ كتاب العربى ــ إبريل ١٩٩٠ م .

• **المتولى - الدكتور المرسى محمد**

٢١٠ ــ معالم الحضارة الإسلامية ــ الطبعة الأولى ١٩٥٧م .

• **المراكشى - الشيخ صالح عبد الحليم**

٢١١ ــ في أداب البحث ــ ط دار الأشرم بالمغرب ١٩٦٧م .

• **محمود - الدكتور عبد الحليم**

٢١٢ ــ التفكير الفلسفي في الإسلام .

• **المسير - الدكتور محمد سيد احمد**

٢١٣ ــ الروح بين الإسلام والفلسفة .

(حرف النون)

• **الندوى - الأستاذ أبو الحسن**

٢١٤ ــ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين

(حرف الهــاء)

• **هلال - الدكتورة وفاء محمد**

٢١٥ ــ أوربا بين الدين والعلم ــ ط أولى ١٩٨٧م

• **الهيثمى - الإمام ابن حجر المكى**

٢١٦ ــ الأعلام بقواطع الإسلام ــ الطبعة المصرية ١٩٥٦م .

• **هيرز ــ توماس**

٢١٧ ــ الديانات الوثنية في العالم الإسلامي ــ ترجمة السيد محمد على ١٩٦٨م .

• **هدسون - أ . ج روبرت**

أعراض الشخصية غير السوية ــ ترجمة حنان مرسى ــ ط أولى ١٩٥٧م .

(حرف اليـــاء)

• **يانيف - الطونى**

٢١٨ ــ آلهة اليونان ــ ترجمة أحمد عبد النبى .

• **يونس - الدكتور صابر حسن**

٢١٩ ــ التفكير الإنساني وأثره في الحضارة ــ ط دار الهدى ١٩٥٧م .

• **يسرى - الشيخ بدر الدين عبد العظيم**

٢٢٠ ــ الشريعة الإسلامية ومصادرها الأصيلة ــ ١٩٤٣م .

٢٢١ ــ أصول العقيدة الإسلامية ــ ط أولى ١٩٣١ م .

• **يسرى ــ الدكتور صبرى محمد**

٢٢٢ ــ الوضعية والدين ــ ط أولى ١٩٧٧م .

هذا بخلاف العديد من المصادر التي سقطت سهواً أو تركت تخفيفاً على جريدة المصادر ، ويمكن الرجوع إليها أسفل الصفحات .

والله الموفــــــــــــق ،،،

محمد كمال حسنين للكمبيوتر والطباعة والتصوير

تليفون رقم : ٢٢٧٣٨٠٩ بالزقازيق - شرقيــــة

فهرس

الموضوعات

((فهرست الموضوعات))

رقم الإيداع : ١٦٣٠٦ / ٢٠٣
الترقيم الدولى : X / ٢٩٤ / ٢٢٤ / ٩٧٧
مطبعة شروق بالزقازيق شرقية
محمد كمال للكمبيوتر والطباعة والتصوير